ليف تولستوي

الحرب والسلم

ترجمة : صياح الجهيم

الجزء الرابع

26.5.2017



ليف تولستوي

الحرب والسلم

الكتاب الرابع

ترجمة : صيّاح الجهيم

الحرب والسلم



Author: **Лев Никола́евич Толсто́й** | اسم المؤلف: ليف تولستوي

Title: **Война и мир - IV** | عنوان الكتاب: الحرب والسلم – الكتاب الرابع

Translator: **Sayah Al jhayem** | ترجمة: صياح الجهيم

Cover Designed by: **Majed Al-Majedy** | تصميم الغلاف: ماجد الماجدي

P.C.: **Al-Mada** | الناشر: دار المدى

First Edition: 1983 | الطبعة الأولى: 1983

Second Edition: 2017 | الطبعة الثانية: 2017



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي ابو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول
dar@almada-group.com
+ 961 706 15017
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

الجزء الأول

الفصل الأول

استمرّ الصراعُ المعقّد في بطرسبرج، في دوائرها العليا، بين أنصار روميانتسيف[1] وأنصار الفرنسيين وأنصار ماريا فيدوروفنا[2] وأنصار شقيق القيصر[3] وغير هؤلاء، بضراوة أشدّ من ذي قبل، وقد طغى عليه كسابق عهده دوي زنابير البلاط. لكنّ عيشة بطرسبرج الهادئة، المترفة، العاكفة على السراب وحده، على بريق الحياة وحده، ظلّتْ تسير في مجراها الطبيعي؛ وكان ذلك يَضْطرّ أصحابها إلى أن يكدّوا أنفسهم كدّاً لكي يدركوا الخطر الذي يُحيطُ بالشعب الروسي ويَعوا الوضع العسير الذي يمرّ به. لقد كانت استقبالاتُ البلاط هي نفسها، والحفلات الراقصة هي نفسها، وعروض المسرح الفرنسي هي نفسها، ومصالح البلاط هي نفسها، ومصالح الخدمة هي نفسها، والدسائسُ هي نفسها. في أعلى الدوائر وحدها، كان الناس يبذلون الجهد اللازم لتبيين صعوبة الوضع الراهن. وكانوا يتحدّثون همساً عن الموقفين

١- رومیانتسیف: المستشار نيقولا رومیانتسیف (انظر إلى الحاشية. ص(٧٠)، المجلد الرابع من أعمال تولستوي الكاملة - طبعة وزارة الثقافة ١٩٧٧).

٢- ماريا فيدوروفنا: الإمبراطورة الأم، أميرة ورتمبرج بالولادة.

٣- هو ولي العهد والدوق الأكبر قسطنطين، وريث العرش (انظر إلى الحاشية ص(٦٧٧) من المجلد الرابع، طبعة وزارة الثقافة ١٩٧٧).

المتعارضين كلّ التعارض اللذين وقفتهما الإمبراطورتان، في هذه الظروف العصيبة. فالإمبراطورة ماريا فيدوروفنا الحريصةُ على رفاه المؤسسات التربوية والاستشفائية الموضوعة تحت رعايتها، أصدرتْ تعليماتها لإجلاء هذه المؤسسات إلى قازان، وقد تمّ حزمُ كل ما تملكه من متاع. أما الإمبراطورة اليكسيفنا[1] فعندما سُئلتْ عن أوامرها تكرّمتْ وأجابت، بما عُهد فيها من وطنية روسيّة، بأنها لا تمْلك أنْ تُصدر الأوامر فيما يتعلّق بمصالح الدولة لأن ذلك يخصّ الإمبراطور وحده؛ لكنها أعلنتْ فيما يتعلق بها شخصيّاً، أنها ستكون آخر من يغادر بطرسبرج.

في السادس والعشرين من آب، في اليوم نفسه الذي دارت فيه معركةُ بورودينو، كانتْ آنابافلوفنا[2] تقيم سهرةً لُبابُها وبيتُ القصيدة فيها تلاوةُ رسالة الإهداء التي وجّهها نيافتُه[3] إلى الإمبراطور مع أيقونة القديس سيرج[4] المهداة إليه. وقد عُدَّتْ هذه الرسالة مثلاً يُحتذى من البلاغة الوطنية والدينية. وكان الأميرُ فاسيلي الذي اشتُهر بموهبته في الإلقاء هو الذي سيتلوها بذاته. (كان يقع للأمير فاسيلي أن يُدعى إلى القراءة لدى الإمبراطورة نفسها). وكانت موهبته تقوم على إلقاء الكلمات كلمةً كلمةً بصوت جَهْوري، غَرِد، رخيم، مارّ من الصياح إلى الهديل الرقيق، دون اكتراث للمعنى، حتى إن الصياح كان يُصيب

١– الإمبراطورة اليزابيت اليكسيفنا: زوجة الكسندر الأول، أميرة باد بالولادة.

٢– آناشيرر: وصيفة الإمبراطورة.

٣– نيافته: الراجح أنه رئيس أساقفة موسكو.

٤– القديس سيرج: سيرج دي رادونتيج مؤسس دير الترينيته، حرض الدوق الأكبر في سنة ١٣٨٠ على مقاتلة التتار.

هذه الكلمة والهديل يصيب تلك بلا قصد ولا تبصر. وكان لتلاوة الرسالة، كما كان لكل سهرات آنا بافلوفنا، مسحةٌ سياسية. ذلك أن عدداً كبيراً من الشخصيات المرموقة كانت ستحضرها، وكان لابدّ من تأنيبها بسبب تردّدها على المسرح الفرنسي، ومن بعث المشاعر الوطنية فيها. كان قد حضر كثيرٌ من المدعوين، لكن آنا بافلوفنا لم تَر بينهم جميع الذين كانت تنتظرهم، لذلك أخّرت القراءةَ وشرعتْ في أحاديث عامة.

كان مرضُ الكونتيسة بيزوخوف نبأَ الساعة في بطرسبرج. لقد مرضتْ فجأة قبل بضعة أيام وتغيبتْ عن عدة اجتماعات كانت هي زينتها. وقيل إنها لم تكنْ تستقبلُ أحداً وإنها أولتْ ثقَتها طبيباً إيطالياً يُعالجها بطريقة جديدة، غير عادية، بدلاً من أطباء بطرسبرج الذين كانوا يُعنون بها عادةً.

كان جميع الناس يعلمون حقّ العلم أن مرض الكونتيسة الفاتنة ناجمٌ عن الصعوبة التي واجهتّها في أن تتزوج رجلين معاً، وأن علاجَ الإيطالي يكمنُ في إبعاد هذه الصعوبة. ومع ذلك فلم يجرؤ أحدٌ على التطرّق إلى هذا الأمر، في حضرة آنا بافلوفنا، بل إن الجميع تظاهروا بأنهم يجهلونه.

– يُقال إن حالة الكونتيسة المسكينة سيئة جداً. والطبيب يقول إنها مصابة بالذبحة الصدرية.

– الذبحة؟ أوه! الذبحة مرضٌ رهيب!

– يقالُ إن الخصمين تصالحا بفضل الذبحة... (كانوا يرددون كلمة ذبحة بكثير من السرور).

– الكونتُ الشيخ مثيرٌ للشفقة، على ما يُقال. وقد بكى كما يبكي الطفلُ عندما أخبره الطبّيبُ بأن حالتها مُخطرة.

– أوه! ستكون الخسارةُ رهيبة. فهي امرأة فاتنة.

قالت آنا بافلوفنا وهي تقترب:

– تتحدثون عن الكونتيسة المسكينة؟ أرسلتُ مَنْ يَستخبر عنها. قيلَ لي أنها تحسّنتْ قليلاً.

وأردفتْ وهي تبتسم من حماستها:

– أوه! لا ريبَ أنها أعظمُ النساء فتنةً. إننا ننتمي إلى معسكرين مختلفين، لكن ذلك لا يَمْنع من تقديرها حقّ قدرها. إنها لتعيسةٌ جداً.

وكان هناك شابٌ طائشٌ حسبَ أن آنا بافلوفنا كانت، بتلك الكلمات، ترفع الغطاء عن السر الذي يُحيط بمرض الكونتيسة، فأباح لنفسه أن يعبّر عن دهشته من أن الكونتيسة عهدت بمعالجتها إلى مشعوذ إيطالي يمكن أن يجرّعها أشد العقاقير خطراً، بدلاً من أن تَسْتدعي أطباء مشهورين.

قالت آنا بافلوفنا بلهجة سامة وهي تتصدّى فجأة لهذا الشاب الغرّ:

– ربما كانت معلوماتك أفضلَ من معلوماتي. لكنني أعلم من مصدر موثوق أن هذا الطبيب رجلٌ عالمٌ وماهر جداً. وهو الطبيب الخاص لملكة أسبانيا.

بعد أن دمّرتْ هذا الشاب استدارتْ إلى بيليبين الذي كان يتحدث عن النمساويين في جماعة أخرى. وقد غضن جبينه واستعدّ بوضوح لبَسْطه بغية التعليق «بكلمة ظريفة».

كان يقول بصدد مذكّرة دبلوماسية موجّهة إلى النمسا مع أعلام نمساوية استولى عليها ويتجنستين[1]، بطل بتروبول[2] (كما كان يُدعى في بطرسبرج):

-إني أراها رائعة!

قالت آنا بافلوفنا، وكانت تتوق إلى إحلال الصمت لكي يَسْمع الحاضرون تلك الكلمة التي كانت تعرفها من قبل:

- كيف، كيف تقول؟

وكرّر بيليبين ألفاظ المذكرة الدبلوماسية نفسها التي حرّرها: وهو يبسط جبينه:

- إن الإمبراطور يبعث بالأعلام النمساوية، وهي أعلامٌ صديقة، تائهةٌ، وجدها شاردةً عن الطريق.

قال الأمير فاسيلي:

رائعة، رائعة!

قال الأمير هيبوليت فجأة بصوت قوي:

١- الكونت لويس دي ساين - ويتجنستين (١٧٦٨-١٨٤٢) ولد في روسيا وتميز في جميع المعارك منذ ١٧٨٩. وكان يقود في سنة ١٨١٢ الفيلق المدافع عن طريق بطرسبرج في وجه الفرنسيين، وقد أحرز النصر في بولوتزك وفيتيسك على قوات الجنرالين ماكدونالد وسان سير المؤلفة جزئياً من النمساويين.

٢- بطل بتروبول: كان شعراء الكلاسيكية الروسية يضعون محل الاسم الألماني للعاصمة الروسية اسم بتروبول (وهو تركيب يوناني) أو بتروغراد (مدينة بطرس، وهو تركيب روسي). وقد غدا اسم بتروغراد اسماً رسمياً من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢٣ حين استبدل به اسم لينينغراد.

- لعلها طريق فارسوفيا.

التفتَ الجميعُ إليه دون أن يفهموا ما الذي كان يقصده بذلك. وكان الأمير هيبوليت، من جهته، ينظر حوله بدهشة مصطبغة بالفرح، ولم يكن أكثر فهماً لما تعنيه كلماتُه من الآخرين. لقد لاحظ، غيرَ مرة، أثناء حياته الدبلوماسية، أنْ رُبَّ كلمة قيلت هكذا بغتةً، بدتْ في أعين الناس مُلْحةً، فألقى الكلمات الأولى التي خطرت بباله وطافت بشفتيه، على علاّتها وفكر في نفسه: «لعلها ستكون موفقة، وفي حالة العكس، يستطيعون أن يتدبروا أمرها». والواقع أنه في اللحظة التي خيّم فيها ذلك الصمتُ الحرجُ، دخلتْ الشخصيةُ التي تحتاج إلى شيء من الوطنية والتي كانت تنتظرها آنا بافلوفنا. عند ذاك دعتْ آنا بافلوفنا الأمير فاسيلي، وهي تبتسم وتتوعّد بإصبعها هيبوليت، إلى الجلوس قرب الطاولة، وحملت شمعتين ورسالة الإهداء ورجته أن يبدأ قراءته. ورانَ الصمتُ.

طفق الأمير فاسيلي يقرأ الرسالة:

«أيها المليك والإمبراطور المفضال»؛

وقد تلا هذه الجملةَ بقسوة وهو يرمقُ مستمعيه بنظره وكأنه يسأل إن كان لأحدهم اعتراضٌ على ما يقول. ولكنْ لم يعترضْ أحدٌ، فتابعَ:

«إن موسكو، عاصمتنا الأولى، أورشليم الجديدة تستقبلُ مسيحها -وشدّد الأمير فاسيلي على الضميرِ «ها» في «مسيحها»- كما تتلقّى الأمُ أبناءَها الغُيُرَ بين ذراعيها، وترتّلُ بنشوة، وهي تَسْتشفُّ مجدَ ملكك الباهر خلال الظلمات المتكاثفة «المجدُ لله، مبارَك الآتي»- ولفظَ الأميرُ فاسيلي هذه الكلمات الأخيرة بصوت مُفْعم بالدمع-.

كان بيليبين يفحص أظافره بامعان، وبدا التهيّبُ على كثير من الحاضرين، وكأنما كانوا يتساءلون: فيمَ أذنبوا؟ وراحت آنا بافلوفنا

تَسْتبق الأميرَ فاسيلي وتردّد ما سيقوله همساً، كما تردد العجوز صلاتَها قبل التناول:

«لينشر جوليات المتهوّرُ، الغافل..».

وتابع الأميرُ فاسيلي:

«لينشرْ جولياتُ المتهوّرُ، الغافل، الآتي من تخوم فرنسا أهواله المجرمة على الأرض الروسية؛ فإن الإيمـانَ المتواضع، مقلاعَ داود الروسي، سيقضي على رأس هذه الغطرسة الدموية. إن أيقونة القديس سيرج، هذا الغيور القديم على سعادة وطننا، ستُقدَّم إلى جلالتك. وإنه ليحزنني أن قواي الضعيفة تحرمني من تملي طلعتكم الجليلة. وأنا أتوجّه إلى السماء بصلواتي الحارة لكي يَرْفع الربُ القدير على كل شيء نسلَ العادلين ويستجيب لأماني جلالتكم في سبيل الخير».

حيّا المدعوّون القارئ والكاتب بقولهم:

– يا لهذه القوة! يا لهذا الأسلوب!

لقد أثار هذا النصُ حماسةَ مدعوّي آنا بافلوفنا فتحدّثوا طويلاً عن وضع الوطن وأرسلوا التكهنّات عن نتيجة المعركة التي ستنشب عما قريب.

قالت آنا بافلوفنا:

– سوف تروْن، ستأتينا الأخبار غداً، في يوم عيد ميلاد الإمبراطور[1]. لقد هجس هاجسٌ في ضميري.

***

١ – أي في يوم ٣٠ آب (١١ أيلول) عيد القديس ألكسندر ينفسكي.

الفصل الثاني

صدقَ، في الواقع، حدسُ آنا بافلوفنا. ففي اليوم التالي، أثناءَ تسبيحة الشكر التي رُتلت في القصر بمناسبة عيد ميلاد الإمبراطور، استُدعي الأمير فولكونسكي إلى خارج الكنيسة وتسلّم رسالةً من قبل كوتوزوف. كانت الرسالة هي التقرير الذي وضع في يوم المعركة، في قرية تاتارتينوفو. وقد كتَب كوتوزوف فيه أن الروس لم يتراجعوا خطوةً واحدة، وأن الخسائر الفرنسية كانت أكبر بكثير من خسائرنا، وأنه يُحرِّر تقريرَه على عجل، في ساحة القتال، دون أن يتمكّن بعدُ من جمع المعلومات الأخيرة. كان التقرير، من ثمّ، عبارة عن بشرى بالنصر، وعلى الفور، وقبل مغادرة الكنيسة، رُفعت إلى الخالق صلوات الشكر على عونه وعلى النصر.

صدقَ حدسُ آنا بافلوفنا، وعمّتْ الفرحةُ المدينة طوال الصباح. كان الناس جميعاً يظنون النصر كاملاً، وأخذ بعضهم يتحدّث عن أسر نابليون، وعن خلعه، وعن اختيار رئيس جديد لفرنسا.

لا يمكن للأحداث، ما دامت بعيدة عن ميدان العمل ومادامت في جو البلاط، أن تبدو بكل اتساعها وقوتها إلا بصعوبة فائقة. وسواء شئنا أم أبينا، فإن الأحداثَ ذات الطابع العام تتجمع من ذاتها حول واقعة خاصة. وهكذا، فقد كان السببَ الرئيسي لفرح أفراد الحاشية،

في هذه اللحظة، النصرَ الذي أحرزناه وكونَ نبأ هذا النصر وصلَ في يوم عيد ميلاد الإمبراطور بالذات. كان الأمر شبيهاً بمفاجأة ناجحة. وكان تقرير كوتوزوف يَذْكر الخسائر الروسية ويعدّد منها: توتشكوف وباغراتيون وكاتايْسوف. فيَتجمّع الجانبُ المحزنُ من الحدث، في عالم بطرسبرج، حول واقعة واحدة: موت كوتايْسوف[1]. كان كلٌ واحد يعرفه، وكان الإمبراطور يحبّه، وكان شاباً فاتناً. كان الناس جميعاً في هذا اليوم، إذا التقوا قال بعضهم لبعض:

– ما أعجبَ هذه المصادفة! في أثناء تسبيحة الشكر بالذات. لكن ما أعظم الخسارة، كوتايسوف! آه! يا للخسارة!

صار الأمير فاسيلي يقول الآن باعتزاز المتنبئ بالغيب:

– ما الذي كنتُ أقوله لكم عن كوتوزوف؟ لقد قلتُ دائماً أنه الوحيد القادرُ على قهر نابليون.

لكنْ لم يردْ في اليوم التالي أيّ نبأ عن الجيش. فاتجه الرأيُ العام إلى القلق وكان رجال الحاشية يتألمون وهم يرون الإمبراطور يتألم من جراء شكّه وعدم وقوفه على جلية الأمر.

كانوا يقولون:

– ما أصعبَ وضعَ الإمبراطور!

وكفّوا عما كانوا فيه أول أمس من ثناء مُفرط على كوتوزوف،

١– الكونت ألكسندر كوتايسوف (١٧٨٤–١٨١٢) وهو ابن حلاق أثير لدى بول الأول، من أصل قوقازي، كان ضابطاً مقداماً، تميز في أيلول سنة ١٨٠٧؛ قتل في معركة بورودنيو وكان قائداً لمدفعية الجيش الأول.

وراحـوا يلومونه باعتبار أنه سبب قلق الإمبراطور، ولم يُطرِ الأميرُ فاسيلي، في ذلك اليوم، مُحْميّه كوتوزوف، لكنه لزمَ الصمتَ حين ورد ذكر القائد العام. وفضلاً عن ذلك، وفي المساء نفسه، وكأن كلُ شيء كان يتآمر لإغراق أهلِ بطرسبرج في الاضطراب والقلق، ورد نبأ مرعبٌ آخر زاد الطين بلّة؛ ذلك أن الكونتيسة هيلين فاسيمليفنا بيزوخوف قد ماتت فجأة بذلك المرض الرهيب الذي كان يطيبُ للناس أن يلفظوا اسمه. كان كل واحد يقول في الأوساط الراقية، على المستوى الرسمي، إن الكونتيسة بيزوخوف ماتت على أثر نوبة عنيفة من نوبات الذبحة الصدرية، أما في اجتماعات الأصدقاء فكان الناسُ يروون بالتفصيل أن الطبيب الخاص لملكة اسبانيا وصف لها جرعات صغيرة من دواء يرمي إلى إحداث أثرِ ما؛ لكن هيلين التي عذّبها أن ترى نفسها موضعاً لشك الكونت العجوز وألاّ تتلقى جواباً من زوجها الذي كتبت إليه (بطرس ذاك الشقي الفاجر)، تناولت فجأةً كمية كبيرة من الدواء الذي وصفَه الطبيبُ وماتت وهي تعاني آلاماً شديدة قبل أن يُمكنَ إسعافُها. ورُوي أن الأمير فاسِلي والكونت الشيخ أرادا أن يُلقيا التبعةَ على الإيطالي، لكن الإيطالي أَبْرز أوراقاً تخص الفقيدة البائسة اضطرتهما على الفور إلى أن يَدَعاه وشأنه.

تركّز الحديث على الأحـداث الثلاثة المؤلمة: شكوك الإمبراطور وموت كوتايسوف وموت هيلين

وفي اليوم الثالث من تقرير كوتوزوف، وصل أحدُ ملاكي الأراضي من موسكو إلى بطرسبرج، وذاع في المدينة نبأ التخلي عن موسكو للفرنسيين. كان ذلك فظيعاً! ما أصعب هذا الوضعَ على الإمبراطور. أصبح كوتوزوف خائناً، وصار الأمير فاسيلي أثناء زيارات التعزية التي كان يتقبّلها بمناسبة وفاة ابنته، يقول عن كوتوزوف هذا الذي كان

يُوسعه مدحاً قبل حين (كان الأميرُ معذوراً أن ينسى، في غمرة آلامه، ما قاله من قبل) أنه لا يمكن أن تنتظر خيراً من شيخ أعمى، فاسق:

– لكن الذي يُدهشني هو أن يكون قد عُهد بمصير روسيا إلى مثل هذا الرجل.

كان الشكُ بهذا النبأ ممكناً مادامَ غيرَ رسمي، ولكنْ، ورد في اليوم التالي، التقريرُ الآتي من روستوبتشين:

«حَملَ إليّ مساعدُ كوتوزوف العسكري رسالةً يطلب إليّ فيها ضباطاً من الشرطة ليقودوا الجيش على طريق ريازان. وقال إنه يترك موسكو بأسف. مولاي! إن عمل كوتوزوف يقرر مصيرَ العاصمة ومصيرَ امبراطوريتك. سترتجف روسيا من الهول عندما تعلم بالتخلي عن المدينة التي تجسّد عظمة روسيا، والتي ترقدُ فيها بقايا أجدادنا. سأتبع الجيش. لقد أَجْليتُ كلّ شيء، و لم يبق عليّ إلا أن أبكي على مصير وطني».

بعد أن تلقّى الإمبراطور هذا التقرير، حمّل الأميرَ فولكونسكي الكتاب الملكي التالي إلى كوتوزوف:

«الأمير ميشيل ايلاريانوفيتش. لم أتلقّ منك أي تقرير منذ التاسع والعشرين من آب. على أني تلقيتُ، بتاريخ الواحد من أيلول، وبطريق إياروسلافل، تقريراً من حاكم موسكو العام يُعلمني فيه بالنبأ المحزن وهو أنكم قررتم التخلي عن موسكو مع الجيش. تستطيع أن تتصوّروا الأثر الذي تركه في نفسي هذا النبأ، وقد زادَ صمتُك من ذهولي. وأنا أبعث إليك بهذا الكتاب مع الجنرال المساعد العسكري الأمير فولكونسكي لكي تخبرني بوضع الجيش وبالدواعي التي دفعتك إلى مثل هذا القرار المؤلم».

***

الفصل الثالث

بعد تسعة أيام من التخلّي عن موسكو، حمل رسول كوتوزوف نبأ هذا التخلي رسمياً إلى بطرسبرج. وكان هذا الرسول الفرنسيَّ ميشو[1] الذي كان «روسياً قلباً وروحاً مع أنه أجنبي»، كما كان يقول.

استقبله الإمبراطور من فوره في مكتبه في قصر كاميني أوستروف[2]؛ وقد أحسّ ميشو الذي لم ير موسكو قط قبل المعركة والذي لم يكن يعرف الروسية، بالتأثر وهو يمثل بين يدي مليكنا المفضال (كما كتب فيما بعد) حاملاً نبأَ حريق موسكو الذي كان لهبُه يضيءُ له طريقه.

ومع أن مصدر حزن السيد ميشو كان لابدّ أن يختلف عن مصدر حزن الروس، إلا أن الأسى كان بادياً على وجهه عندما أُدخل إلى مكتب الإمبراطور حتى إن الإمبراطور سأله في الحال:

- أتحمل إلي أخباراً محزنة، أيها العقيد؟

فأجاب ميشو وهو يزفر ويغضّ بصره:

- جدّ محزنة، يا مولاي، التخلّي عن موسكو.

١- العقيد ميشودي بورتيور، وأصله من السافوا في فرنسا.

٢- قصر كاميني أوستروف قصر صغير في جزيرة دلتا إلينفا، وهو مكان للاصطياف.

قال الإمبراطور بحيوية وحرارة:

– وهل سلّموا عاصمتي القديمة دون قتال؟

نقلَ ميشو رسالة كوتوزوف باحترام ومفادُها أن القتال متعذّر عند أسوار موسكو وأنه لمّا لم يَبْق للمارشال سوى الخيار بين فقدان الجيش وموسكو وبين فقدان موسكو وحدها فقد اختار هذا الحل الأخير.

أصغى الإمبراطور بصمت دون أن ينظر إلى ميشو ثم سأل:

– هل دخلَ العدوُ المدينة؟

قال ميشو بعزم:

– نعم، يا مولاي، وهي في هذه الساعة رمادٌ في رماد. لقد تركتُها طعمةً للنيران.

لكنه بعد أن ألقى نظرة على الإمبراطور ارتعب ممّا قال. ذلك أن الإمبراطور ضاق نفسه وتسارعَ، وارتجفت شفتُه السفلى، واغرورقْت عيناه الزرقاوان البديعتان بالدموع:

بيد أن ذلك لم يدم إلا لحظةً. فقد قطب حاجبيه فجأة وكأنه كان يلوم نفسه على ضعفها. وقال لميشو بصوت حازم وهو يرفع رأسه:

– إني أرى، أيها العقيد، من كل ما جرى لنا أن العنايةَ الإلهية تتطلّب منا تضحيات عظاماً... أنا مستعدٌ لأن أرضخ لمشيئتها؛ لكنْ قلْ لي، يا ميشو، كيف تركتَ الجيشَ وهو يرى عاصمتي القديمة تُخلى هكذا، دون مقاومة، ألم تَلْحظْ عليه وهنَ العزيمة وخمودَ الشجاعة؟

عندما رأى ميشو مليكه المفضال يعود إلى هدوئه، هدأ هو بدوره،

لكنه لم يتسنّ له إعداد الرد المباشر والمناسب على سؤال الإمبراطور المباشر والدقيق، فسأله كسباً للوقت:

– أتأذن لي، يا مولاي، أن أتكلّم بصراحة، بصدق العسكري وأمانته؟

أجاب الإمبراطور:

– إني أطالبُ بذلك دائماً، أيها العقيد. لا تُخْف شيئاً عني. أريد أن أعرف بالتأكيد أين وصلتْ الأمور.

قال ميشو وعلى شفتيه ابتسامةٌ رقيقة لا تكاد تُلْحظ؛ وكان قد نجح في تهيئة جوابه على شكل تلاعب لفظي خفيف وحافل بالاحترام:

– مولاي! لقد تركت الجيش، من القادة إلى آخر جندي، بدون استثناء، في خشيةٍ فظيعة، هائلة...

فقاطعه الإمبراطور وهو يقطّب حاجبيه بقسوة:

– وكيف ذلك؟ وهل يستكين جنودي الروسُ تحت وطء المصاب... لن يكون ذلك!...

لم يكن ميشو ينتظر غيرَ ذلك ليلعب لعبته اللفظية، فقال، وعلى وجهه آيات الفرح الناطقة بالاحترام:

– مولاي، إنهم يَخْشون فقط أن تحملك طيبةُ القلب على عقد الصلح.

وأردف ممثلُ الشعب الروسي قائلاً:

– إنهم يتحرّقون شوقاً إلى أن يقاتلوا وأن يبرهنوا لجلالتكم ببَذْلهم نفوسَهم على مقدار تفانيهم في سبيل جلالتكم...

قال الإمبراطور وقد اطمأن، وشعتْ عيناه ببريق الأنس، وربت كتف ميشو:

– آه، لقد طمأنتني، أيها العقيد.

أخلد الإمبراطور لحظة إلى الصمت وهو مطرقُ الرأس. ثم انتصب بكل قامته وكلّم ميشو وهو يشير إشارة تنمّ على المؤانسة والجلال:

– حسناً! عُدْ إلى الجيش وقلْ لرجالنا البواسل، قلْ لجميع رعاياي الصالحين أينما مررتَ إني عندما أفقد آخر جنودي فسوف أتولى بنفسي قيادةَ نبلائي الأعزاء وفلاحيّ الطيبين، وهكذا سأستنفد موارد امبراطوريتي حتى آخرها. وفي امبراطوريتي من الموارد فوق ما يظنُّ الأعداء.

وازداد حيويةً ورفع إلى السماء عينيه الجميلتين الوديعتين اللتين التمعتا بالانفعال، وقال:

ولكنْ، إذا كانت العناية الإلهية قد قدّرتْ أن تكفّ سلالتي عن تسنّم عرش آبائي فحينذاك سأطلقُ لحيتي إلى هنا (وأشار بيده إلى منتصف صدره)، بعد أن استنفد جميع الوسائل التي في حوزتي، وسأفضّل أن أقتات بالبطاطا مع آخر فلاحيّ على أن أوقّع عار وطني وأمتي الغالية التي أعرف كيف أقدر تضحياتها!....

وبعد أن قال الإمبراطور هذه الكلمات بصوت منفعل استدار وابتعد إلى أقصى مكتبه، وبقي هناك لحظات ثم عاد بخطى واسعة إلى قرب ميشو وشد عضده بحركة قويّة، وقد احمرّ وجهُه الجميل الوادع والتمعتْ عيناه ببريق العزم والغضب. ثم قال وهو يحمل يده إلى صدره:

– لا تنسَ، أيها العقيد ميشو، ما أقوله لكَ هنا؛ فلربما تذكرناه ذاتَ يومٍ بسرور.... إمّا نابليون وإمّا أنا. لسنا نستطيع بعد الآن أن نحكم معاً... لقد تعلمتُ كيف أعرفه. ولن يخدعني بعد الآن...

صمت الإمبراطورُ وقد قطب حاجبيه. وعندما سمع ميشو هذه الكلمات وقرأ في عينيِ الإمبراطور عبارات الحزم الراسخ أحسّ، وهو الروسي قلباً وروحاً مع أنه أجنبي، بالحماسة لكل ما سمع، (كما قال ذلك فيما بعد) في هذه اللحظة المهيبة، فعبّر بهذه الكلمات عن مشاعره الخاصة كما عبر عن مشاعر الشعب الروسي الذي كان يعتبر نفسه ترجماناً له:

– مولاي! إن جلالتك توقّع، في هذه اللحظة، مجدَ أمتك وخلاص أوروبا.

وصرفَ الإمبراطور ميشو بايماءة من رأسه.

***

الفصل الرابع

إننا نتصوّر، نحن الذين لم نعشْ تلك الفترة التي كانت فيها نصف روسيا محتلة، وكان السكان فيها يهربون إلى المقاطعات النائية، وكانت الجيوش فيها تهبَ بعضها تلو بعض للدفاع عن الوطن، إننا نتصور، بالرغم منا، أن جميع الروس، من أصغرهم إلى أكبرهم، لم يكونوا يفكرون إلا ببذل أنفسهم وبإنقاذ وطنهم وبالبكاء على نكبته. فقصص هذا العهد وأوصافه بدون استثناء، لا تتحدث إلا عن التضحية بالذات وعن حب الوطن، وعن اليأس وعن الحزن وعن البطولة لدى الروس. بيد أن الواقع لم يكنْ كذلك. وإنما أحسسنا هذا الإحساسَ لأننا لا نرى في الماضي إلا المصلحة التاريخية العامة للعصر ولأننا ننسى جميع مصالح الأفراد الشخصية. على أن هذه المصالح الشخصية في تلك الفترة أعظمُ أهمية في الواقع إلى الحد الذي تحجب فيه دائماً المصلحة العامة (التي لا تُلحظ). ومعظم الناس في ذلك العصر لم يكونوا يُعيرون سيرَ الأحداث العام أي انتباه و لم يكونوا ينقادون إلا لمصالح الساعة الشخصية. هؤلاء الناس بالذات هم الذين كانوا أعظم الفاعلين نفعاً في هذا العصر.

أما الذين كانوا يسعون إلى فهم مجرى الأحداث وكانوا يريدون أن يشاركوا فيها بتفان وبطولة، فقد كانوا أقلّ أعضاء المجتمع نفعاً؛ لقد كانوا يرون كل شيء بالمقلوب، وكان كل ما يفعلونه للخير العام

يتجلى عبثاً تافهاً، كمثل فوجيْ بطرس ومامونوف[1] اللذين كانا ينهبان القرى، وكمثل النسالة التي كانت السيدات يعددنها دون أن تصل إلى الجرحى، الخ. وحتى الذين كانوا يناقشون وضع روسيا الحقيقي، حباً منهم للمحاكمة العقلية وتباهياً بعواطفهم، فقد كانوا يكشفون في أحاديثهم، بالرغم منهم، عن لون من التكلف والكذب، أو من النقد الفارغ والحقد على أناس يتهمونهم بما لم يُذْنبْ فيه أحد. إن الخطرَ الذي يحرّم تناولَ ثمر شجرة المعرفة يتجلّى بوضوح أشدّ في الأحداث التاريخية. والنشاطُ غير الواعي وحده هو الذي يُؤتِي ثماره، والرجلُ الذي يلعب دوراً في الحدث التاريخي لا يفهم مدلولَ هذا الحدث. فإذا حاول فهمَه أُصيبَ بالعقم.

لقد كان مدلولُ الحوادث التي كانت تجري في روسيا آنذاك أعصى على فهم الانسان بقدر ما كانت مشاركته فيها أعظم. ففي بطرسبرج وفي المقاطعات النائية عن موسكو، كان السادةُ والسيدات، بلباس المتطوعين، يبكون على روسيا وعلى العاصمة، ويتحدّثون عن التضحية بالنفس الخ؛ أما في الجيش الذي كان يتراجع إلى ماوراء موسكو فقلما كانوا يتحدثون عن موسكو أو يفكّرون فيها؛ لم يكن أحدٌ يُقسم بالانتقام وهو ينظر إلى الحريق، وإنما كان كل واحد يفكّر في معاش الأشهر الثلاثة الآتية، وفي المرحلة القادمة، وفي ماتريوشكا بائعة المؤن، وهلمّ جرا.

كان نيقولا روستوف يسهم بقسط محدود ودائم في الدفاع عن الوطن، دون أية فكرة عن التضحية، وإنما كان ذلك اتفاقاً لأن الحرب فاجأته وهو في الخدمة، ولذلك كان يتأمل الأحداث من غير يأس ومن غير نظر متشائم. ولو أنه سُئل عن رأيه في وضع روسيا الراهن لأجاب

١- فوجان من المتطوعين جندهما الكونت بطرس بيزوخوف والكونت ديمتري مامونوف على نفقتهما.

بأن ليس عليه أن يفكّر في ذلك. وأن ذلك يقع على عاتق كوتوزوف وغيره، ولكنه سمع بأن الأفواج تُسْتكمل وبأن القتال سيطول، وليس من المستغرب، في الظروف الحاضرة، أن يتولى فوجاً بعد سنتين.

بفضل هذه الطريقة في مواجهة الأشياء، لم يستقبلْ نبأ إرساله إلى فورونيج[1] بمهمة شراء الخيل التي تحتاج إليها الفرقة بدون أسف فحسب لأنه لن يشارك في المعركة الأخيرة، بل إنه استقبله أيضاً بسرور عظيم لم يُخفه و لم يَغبْ عن رفاقه الذين فهموه جيداً.

قبل أيام من معركة بورودينو، تسلّم نيقولا المال والأوراق اللازمة، فأرسل فرسانه قبله، وسافر هو إلى فورونيج في عربة البريد.

إن الذي خَبر ذاك، أي الذي قضى عدة شهور متواصلة في جو الحرب والمعسكرات، يمكنه وحده أن يفهم السرور الذي أحسّ به نيقولا وهو يغادرُ منطقة الجيش بمنتجعي الكلأ. وبقوافل المؤن، وبعربات الإسعاف. فعندما رأى القرى بفلاحيها وفلاحاتها، وببيوت السادة الإقطاعيين فيها، وبالمراعي التي ترعى فيها الماشية، وبمرابط البريد مع مراقبيها الغافين، عندما رأى ذلك كله بدون جنود ولا عربات نقل وبدون تلك الآثار الكريهة التي تدل على وجود المعسكرات. أحسّ بفرح عظيم حتى كأنه يرى ذلك للمرة الأولى. إن ما فتنه وأدهشه أكثر من أي شيء آخر كان النساء الفتيّات. الصحيحات الأجسام، اللواتي لا تجد حول الواحدة منهن عشرة من الضباط الملاطفين، واللواتي كن مسرورات راضيات عن فكاهات ضابط ماضٍ في طريقه.

وصل نيقولا في الليل إلى فندق في فورونيج، وهو أسعدُ ما يكون مزاجاً، فطلب كل ما كان محروماً منه في الجيش، وفي اليوم التالي، وبعد

[1]- فورونيج مدينة بعيدة من مدن الأقاليم تقع جنوبي موسكو، على الدون الأعلى.

أن حلق ذقنه بعناية. وارتدى بزته الرسمية التي لم يرتدها منذ زمن طويل، ذهبَ لزيارة أولي الأمر.

كان قائد المتطوعين جنرالاً مدنياً قديماً يبدو مفتوناً بحالته ورتبته العسكريتين. وقد استقبل نيقولا بجفاء (وهو جفاء كان يعتقد أنه لا ينفصل عن مهنة العسكري) وسأله بتعالٍ، وكأن له الحقَّ في ذلك، وكأنه كان يناقش سيرَ الأحداث، موافقاً على ما يقوله أو منكراً له. على أن نيقولا كان شديد المرح بحيث أن ذلك لم يَعْدُ أن ألهاه.

ترك قائدَ المتطوعين وقصد إلى دار الحاكم. كان الحاكم رجلاً قصيراً، حَرِكاً، قريباً من النفس وبسيطاً. فدله على مرابض الخيل التي يمكن أن يحصل منها على الجياد المطلوبة كما دلّه على أحد الوسطاء في المدينة وعلى مالكٍ يقطن على عشرين فرسخاً ويملك خير الجياد. ووعده بكل مساعدة.

قال له الحاكم عندما استأذنه نيقولا بالانصراف:

– أنت ابنُ الكونت ايليا اندريتش؟ كانت زوجتي على صلة وثيقة بأمك. إني أستقبل في نهار الخميس؛ ونحن اليوم في نهار الخميس، أرجوك أن تأتي بدون رسميّات.

عندما خرج نيقولا من دار الحاكم استقل عربةَ بريد وأخذ معه رقيبه وقصد إلى مربض المالك، على عشرين فرسخاً من هذا المكان. كان كل شيء يبدو له، في هذه الفترة الأولى من إقامته في فورونيج، مسلياً. سهلاً. فانتظم له كل شيء وسار بكل سهولة، كما يقع للمرء عادة عندما يكون في أحسن أحواله. كان المالك الذي وصل إلى منزله ضابطاً قديماً من ضباط الخيّالة، عزباً كهلاً، خبيراً بالخيل، صياداً، مالكاً لشراب مضى عليه مئة عام، ولخمر معتقة، ولجياد رائعة.

اشترى نيقولا دون مساومة بمبلغ ستة آلاف روبل سبعة عشر جواداً ممتازاً (على حد قوله) لتزويد فوجه بالخيل. وبعد أن تغدى وشرب الكثير من خمر التوكاي، عانق المالك الذي صار يخاطبه بلا كلفة وعاد جرياً. وهو أصفى ما يكون مزاجاً، على طريق رديئة جداً، حاثاً بلا انقطاع سائسه لكي يصل في الوقت المناسب إلى سهرة الحاكم. وما إن بدّل ثيابه، وتعطّر ورش رأسه بالماء البارد حتى قدّم نفسه في منزل الحاكم، وفي ذهنه هذه الجملة الجاهزة: فعلُ الشيء، وإن تأخر، خيرٌ من تركه.

لم تكن السهرة حفلةً راقصة، ولم يكن أحدٌ قد أعلن أن الحاضرين سيرقصون، لكنّ كل واحد كان يعلم أن كاترين بيتروفنا ستعزف على بيانها القيثاري مقطوعات راقصة من الفالس ومقطوعات راقصة ايكوسية، وعلى هذا الأساس، كان الجميع بثياب الرقص.

كانت حياة المقاطعة، في سنة ١٨١٢، نفس الحياة التي كانت من قبل، مع هذا الفارق الوحيد وهو أن المدينة غدتْ أشدّ حيوية وحركة بسبب وصول العديد من عائلات موسكو الغنية، وأنه قد لوحظ هنا أيضاً شيءٌ من عدم الاكتراث، كما كانت الحال في كل ما كان يجري آنذاك في روسيا، –من بعدي الطوفان، ولا أهمية لشيء–، وأن الناس أخذوا يتحدثون عن موسكو والجيش ونابليون بدلاً من أحاديثهم المبتذلة التي لابدّ منها عن المطر والصحو والمعارف المشتركين.

كانت هذه الجماعة التي التقت في منزل الحاكم خير ما في فورونيج.

كانت السيدات كثيرات، وبينهن سيدات كان نيقولا يعرفهن في موسكو؛ ولكنْ لم يكنْ بين الرجال مَنْ يستطيعُ أن ينافس أدنى منافسة فارسَ القديس جورج، الفارس الذي عهدت إليه مهمةُ تزويد الفرقة بالخيل، والذي هو في الوقت نفسه الكونت روستوف المتميّز،

المحبوب. كان بين الرجال أسيرٌ إيطالي، ضابطٌ في الجيش الفرنسي وكان نيقولا يُحس أن حضور هذا الأسير يرفع من شأنه بوصفه بطلا روسياً. كان الأسيرُ أشبه بالغنيمة التي تذكّر بالنصر. أحس نيقولا بذلك وخُيّل إليه أن الجميع ينظرون إلى الإيطالي هذه النظرة، فأبدى تجاه هذا الضابط أدباً ورقة ممتلئين بالوقار والتحفظ.

ما إن دخل نيقولا ببزة الفارس ناشراً حوله دفقاتٍ من العطر ومن رائحة الخمر الجيدة، وما إن قال وكرّر مرات قوله: فعلُ الشيء، وإن تأخر، خيرٌ من تركه، حتى التفّ الناس حوله، واتجهت الأبصار إليه، وشعر من فوره أنه أُنزل منزلةَ الأثير المفضَّل لدى الجميع، وهي منزلة كان ينالها بجدارة في الإقليم وكانت تبعث على سروره، لكنها الآن، بعد ذلك الحرمان الطويل، تملؤه نشوةً. ولقد وجد في المراحل التي وقف فيها، وفي النزل المالك خادمات ارتحْن إلى ملاّطفته لهن، لكنه وجدَ هنا (كذلك خيّل إليه) عدداً لا حصر له من الفتيات الجميلات والسيدات الجميلات اللواتي كنّ يتشوّقن إلى التفاتته إليهن. وكانت السيدات والآنسات يصطنعن الغنج والدلال معه، وأخذ الشيوخ يفكّرون، منذ اليوم الأول، في أن يزوجوا ويعقّلوا هذا الفارس، الشاب، الجميل، القوي والطائش. ومن بين هؤلاء زوجةُ الحاكم نفسها التي استقبلت روستوف كما يُستقبل القريب وخاطبته بلا كلفة وسّمته باسمه، نيقولا.

عزفتْ كاترين بيتروفنا بالفعل، الفالس والايكوسيات، وانتظمت الرقصات وسحّر نيقولا مجتمع المقاطعة بمهارته. وأدهشَ الناس جميعاً بطريقته في الرقص، وهي طريقةٌ طليقة، على وجه الخصوص. وكان هو نفسه مدهوشاً للطريقة التي كان يرقص بها، هذا المساء. لم يرقص قط، في موسكو، بمثل هذه الطريقة، وقد كان سيحكم هناك على

هذا الرقص المسرف في طلاقته وحريته بأنه غير لائق وبأنه من النوع الرديء، لكنه كان يشعر هنا بالحاجة إلى إدهاش الناس جميعاً بشيء فريد، شيء يُضطرون إلى اعتباره عادياً في العواصم وإنْ لم يُعرف في الأقاليم بعد. لازمَ نيقولا أثناء السهرة كلها، امرأةً جميلةً، شقراء، ممتلئة، زرقاء العينين، هي زوجة أحد الموظفين في المقاطعة. كان ممتلئاً بتلك القناعة الساذجة، قناعة الشباب الذين يلهون، وهي أن نساء الآخرين ملك لهم، فلم يتركها قيد شعرة وعامل زوجها معاملة ودية، وكأنه متواطئ معه إلى حد ما، وكأنهما كانا يعلمان ضمناً إلى أي حد سيتفاهم الاثنان، نيقولا وزوجة هذا الرجل. على أن الزوج لم يكن يبدو عليه أنه يُشارك نيقولا في تلك القناعة فكان يجهد في أن يتجهَم في وجه روستوف لكن طيبة نيقولا الساذجة كانت بلا حدود بحيث حملتْ هذا الزوج، بين الحين والآخر، على أن يتقبّل، بالرغم منه، هذا المزاج الفَرح.

ومع ذلك، فعندما شارفت السهرة الانتهاء، كان وجه الزوج يزداد حزناً ورصانةً كلما ازداد وجهُ الزوجة توردأ وانتعاشاً، وكأن مقدار الانتعاش كان مشتركاً بينهما، فكلما ازداد عند المرأة تناقص عند الزوج.

***

الفصل الخامس

جلس نيقولا على مقعده بشيء من الانحراف، والبسمةُ على شفتيه، وانحنى بشدة نحو المرأة الشابة الشقراء وأخذ يكيل لها الثناء كيلاً.

كان يشبك ساقيه الملفوفتين ببنطال الركوب ويحلّهما بمهارة، ناشراً حوله دفقات العطر، متأملاً بإعجاب سيدته ونفسه والشكل الجميل لساقيه المفتولتين، وهو يقول للشقراء: إنه ينوي أن يختطف هنا، في فورونيج، إحدى السيدات.

- ومَنْ عساها تكون؟

- امرأةٌ فاتنة، رائعة الجمال. عيناها (وهنا نظر نيقولا إلى عيني محدثته) زرقاوان، فمها من المرجان، بياضها... (وألقى نظرة على كتفيها)، قامتها كقامة ديانا....

اقترب الزوجُ وهو متجّهم الوجه وسأل زوجته عمَ كانت تتحدث.

قال نيقولا وهو ينهض بأدب:

- آه! نيكيتا إيفانيتش.

وكأنما كان يرغب فيْ أن يشاركه نيكيتا ايفانيتش دعاباته، فأطلعه أيضاً على نيته في اختطاف إحدى الشقراوات.

ابتسم الزوجُ ابتسامة كئيبة، وابتسمت المرأة بابتهاج. اقتربت زوجة الحاكم الطيبة وعلى وجهها أمارات الاستنكار وقالت:

– آنا إيغناتييفنا تود لو تراك، يا نيقولا، تعال، يا نيقولا، أتسمح لي أن أناديك هكذا، أليس كذلك؟

وقد لفظت اسم آنا إيغناتييفنا بصوتٍ فهمَ منه نيقولا على الفور أنها سيدة عظيمةُ الشأن. فأجاب:

– أوه! نعم، يا خالتي. ومن هي؟

– آنا إيغناتييفنا فالفنتزيف. سمعتْ عنكَ من ابنة أختها التي روتْ لها كيف أنقذْتَها... هل حزرْتَ؟

قال نيقولا:

– هناك أكثر من واحدة أنقذتُها؟

– ابنة أختها، الأميرة بولكونسكي. هي هنا، في فورونيج، مع خالتها. آه! لقد احمر وجهُك! هل يعني ذلك أنك....؟

– أبداً، يا خالتي، أبداً.

– طيب، طيب، أوه! ما أعجبك!

قادته زوجةُ الحاكم نحو سيدة عجوز، مديدة القامة، قوية الجسم تلبس قبّعة زرقاء، فاتحة، كانت قد انتهتْ قبل قليل من لعبتها بالورق مع أعلى الشخصيات شأناً في المدينة. كانت هذه هي السيدة مالفنتزيف، خالة الأميرة ماريا، وكانت أرملةً غنية، لا أولاد لها، تسكن فورونيج ولا تفارقها، كانت واقفة تدفع ديونَ اللعب عندما اقترب روستوف. فغضّنتْ عينيها بقسوة وبتعالٍ وألقتْ عليه نظرة ثم استمرت على توبيخها للجنرال الذي غلبها في اللعب.

قالت وهي تمدّ يدَها:

– تسرني معرفتك. أسعدْتني بزيارتك.

بعد أن تحدثتّ السيدة مالفنتزيف عن الأميرة ماريا وعن المرحوم والدها الذي بدا عليها أنها لم تكن تحبّه، وبعد أن سألت نيقولا عن الأمير آندريه الذي لم يكن حائزاً على رضاها هو الآخر، صرفته العجوز المرموقة مجدّدةً دعوتها له.

وَعَـد نيقولا بالمجيء واحمرّ مرة أخـرى وهو يستأذن السيدة مالفنتزيف بالانصراف. كان يشعر، عندما يتناولُ الحديثُ الأميرةَ ماريا، بشعور لم يكن يفهمه هو نفسه، شعور قوامُه الوجل بل والخوف.

عندما ترك روستوف السيدة مالفنتزيف أراد أن يعود إلى الرقص. لكن زوجة الحاكم القصيرة وضعتْ يدَها الربلة على كم نيقولا وقالت له: إن لديها ما تقوله له، وقادته إلى غرفة التدخين التي غادرها على الفور كلُ مَنْ كان فيها لكي لا يزعجوهما.

قالت له وعلى وجهها المطبوع بالطيب أمارات الجد:

– أنت تعلم، يا عزيزي، أن هذه هي الزوجة التي تلزمك بالضبط أتريد أن أهتم بذلك؟

سأل نيقولا:

– ومن عساها تكون، يا خالتي؟

– الأميرة. إن كاترين بيتروفنا تَقْترحُ ليلي. لكنني لا أوافقها. وعندي أن الأميرة أنسب. أتريد أن أهتم بالأمر؟ وأنا واثقة من أن أمك ستشكرني على ذلك. إنها فتاة ساحرة حقاً! وهي ليست بشعةً إلى هذا الحد.

قال روستوف وكأنه تكدّر:

– أبداً.

وأردف دون أن يتريّث ليفكر فيما يقول:

– إني، بصفتي جندياً، يا عمتي، لا أفرض نفسي ولا أرفض شيئاً.

– إذن تذكّرْ؛ فليس الأمر مزحة.

– وأين المزحة في الأمر!

قالت امرأة الحاكم وكأنها تحدّث نفسها:

– نعم، نعم. ثم إنك تلازم، على الخصوص، تلك الشقراء أكثر مما ينبغي. ومنظر الزوج يثير الشفقة، أؤكد لك...

قال نيقولا ببساطة نفسه:

– آه! كلا، فنحن أصدقاء.

ولم يخطرْ بباله أن طريقته في قضاء الوقت، وهي طريقة مسلّية عنده، يمكنها ألا تسلّي غيره.

فكّر نيقولا فجأة أثناء العشاء: «أية حماقة قلتها، مع ذلك، لزوجة الحاكم! إنها قادرة حقاً على الاهتمام بهذا الزواج، وصونيا؟..».

وعندما استأذن امرأة الحاكم بالانصراف وكرّرت له مرةً أخرى وهي تبتسم: «لا تنسَ». أخذها جانباً وقال:

– اسمعي، يا خالتي، إذا شئتِ أن أقول لك الحقيقة....

– ما الأمر – ما الأمر، يا صاحبي، لنجلسْ ها هنا.

شعر نيقولا، على حين غرة، برغبته في أن يبوح لهذه المرأة التي

هي غريبة عنه تقريباً، بكل أفكاره الحميمة، كما شعر بحاجته إلى ذلك (ما كان ليبوح بتلك الأفكار لا لأمه ولا لأخته ولا لصديقه). وعندما تذكّر فيما بعد فورةَ الصراحة تلك التي لا سبيل إلى تفسيرها والتي لم يَدْعُ إليها داعٍ، وإنْ كانت بالنسبة إليه خطيرة العواقب، خُيّل إليه (كما يُخيّل إليه دائماً) أنه خضع لاندفاعة طائشة، ومع ذلك فقد كان لهذه الفورة من الصراحة التي اقترنت بوقائع صغيرة أخرى، نتائج هائلة عليه وعلى عائلته.

– اسمعي، يا خالتي، إن أمي تطمع منذ زمن بعيد بتزويجي من فتاة ثرية، لكن مجرد فكرة الزواج من أجل المال تثير اشمئزازي.

قال امرأة الحاكم:

– أوه! نعم، إني أفهم ذلك.

– لكن الأميرة بولكونسكي شيء آخر. أولاً، سأقول لك الحقيقة، إنها تعجبني كثيراً. وهي تناسبني، ثم إني بعد أن التقيتُها في تلك الظروف، على نحو شديد الغرابة، فكرتُ غالباً في أن القدر هو الذي جمعنا. تصوري هذا الشيء خاصة: لقد كانت أمي تفكّر فيها منذ زمن طويل، ولكن، كان هناك ما يمنع التقاءنا في الماضي، ولم يكن من الممكن تيسير سبل اللقاء. ذلك أني ما كنت لأفكر بالزواج منها طالما ظلت أختي مخطوبة لأخيها. وقد قُدّر لي أن ألقاها في الوقت الذي فُسخ فيه عهدُ الخطبة بينهما، وكل ذلك... أعلمي أني لم أذكر ذلك لأحد ولن أذكره. إني أبوح لك وحدك بمكنون نفسي.

شدّت امرأةُ الحاكم على مرفقه ممتنّةً:

قال نيقولا بارتباك وهو يحمّر:

- أتعرفين صونيا، ابنة عمتي؟ إني أحبها، وقد وعدتها بالزواج وسأتزوجها... أنتِ ترين إذن أنه لا مجال للبحث في هذا الموضوع.

- يا عزيزي، يا عزيزي، كيف تُحاكم الأمور؟ إن صونيا لا تملك شيئاً وأنت نفسك قلتَ لي إن أحوال أبيك سيئة جداً. وأمك؟ هذا كفيلٌ بأن يقتلها. ثم إن صونيا إذا كانت ذا قلب فكيف ستكون الحياة التي تحياها؟ سيغمر الأسى أمك وستتعرض ثروتكم للضياع... لا، يا عزيزي، يجب أن تفهما ذلك، صونيا وأنت...

سكت نيقولا، وقد طاب له أن يسمع هذه الحجج، ثم قال وهو يتنهّد بعد لحظة صمت:

- الأمرُ، على كل حال، يا خالتي، غيرُ ممكن. ثم هل تقبلُ الأميرة بي؟ وهي الآن في حداد. كيف يجوز لنا أن نفكر في ذلك!

قالت امرأة الحاكم:

- أتظن أني سأزوجّك في الحال؟ فهناك ألف طريقة وطريقة، ولكل حالة لبوسُها.

قال نيقولا وهو يقبّل يدها الربلة: يا لك من خطّابة ماهرة، يا خالتي.

***

الفصل السادس

عند وصول الأميرة ماريا إلى موسكو بعد التقائها روستوف، وجدت فيها ابن أخيها مع مربّيه ورسالةً من الأمير آندريه يدلها فيها على الطريق الذي تصل به إلى فورونيج، إلى منزل خالتها مالفنتزيف. كانت هموم السفر. والقلق بصدد أخيها، والحلول في مكان جديد، والوجوه الجديدة، وتربية ابن أخيها، كان كل ذلك يخنق في نفس الأميرة ماريا ذلك اللون من الإغواء الذي أرّقها أثناء مرض أبيها وبعد موته، ولا سيّما بعد التقائها روستوف. كانت حزينة، وكان أَلَمُها من فقدانها لأبيها يختلط بمصيبة روسيا وتشتدّ وطأته عليها شيئاً فشيئاً بعد شهر من الحياة الوادعة. لقد انتابها القلقُ: إذ أخذتْ تُقضُّ مضجعها بلا هوادة فكرةُ الخطر الذي يتعرّض له أخوها، وهو الكائن القريب الوحيد الذي بقي لها. وشغلتْ بالها تربيةُ ابن أخيها؛ كانت تَشْعر أبداً أنها عاجزةٌ عن ذلك؛ لكنها كانت في أعماق نفسها على وفاقٍ مع ذاتها، لأنها شعرتْ أنها خنقتْ الأحلام والآمال الشخصية التي أيقظَها فيها ظهور روستوف.

وعندما جاءت زوجة الحاكم إلى منزل السيدة «مالفنتزيف» في اليوم التالي للسهرة وأطلعتها على مشاريعها، (مع هذا التحفّظ وهو أنه يمكن جمع الشابين وفسح المجال أمامهما ليتعارفا، وإنْ كانت مسألةُ الطلب الرسمي مستبعدةً في الوقت الحاضر). ثم تَقوَّتْ بموافقة الخالة

وتحدثت أمام الأميرة ماريا عن روستوف فأثنتْ عليه وذكرتْ أنه احمرّ عندما سمع اسمها، لكن الأميرة ماريا شعرت بالضيق العميق بدلاً من الفرح: ذلك أن وفاقها الداخلي قد تهدّم وهبّتْ، مرةً أخرى، الرغباتُ والشكوكُ والملاماتُ والآمال.

لم تكفّ الأميرةُ ماريا، خلال اليومين اللذين انقضيا بين هذا النبأ وزيارة روستوف، عن التفكير في الموقف الذي ينبغي أن تتّخذه إزاءه. كانت تقرّر حيناً أنها لن تظهر في الصالون عندما يأتي لزيارة خالتها، لأنه لا يليق بها أن تستقبل الزائرين وهي في الحداد؛ وكان تفكّر حيناً آخر أن مثل هذا الموقف تنقُصه اللباقةُ بعد أن فعَلَ ما فعل لها؛ وكان يخطرُ لها، في بعض الأحيان، أن خالتها وزوجة الحاكم يهيّئان مشروعاً لهما، هي وروستوف، (كانت نظرات الخالة وزوجة الحاكم وأقوالهما كأنها تؤكّد هذا الافتراض)؛ وكانت تحدث نفسها، في أحيان أخرى، بأنها وحدها قادرةٌ، في حَمْأة فسادها، أن تشك بهما هذه الشكوك: إذْ لم يكن ليغيبَ عنهما أن مثل مشاريع الزواج تلك، في مثل وضعها، وهي لم تَرْفع بعد شارةَ الحداد، ستكون إهانةً لها ولذكرى والدها. وراحت الأميرة ماريا، وهي تفترض بأنها ستظهر لمقابلته، تتخيّل الألفاظ التي سيقولها والألفاظ التي ستجيب بها؛ وكانت تلك الألفاظ تبدو باردة برودةً نابيةً تارةً، وتبدو تارةً أخرى مثقلةً بالمعاني. بيد أن أكثر ما كانت تخشاه في هذه المقابلة هو الاضطراب الذي خُيّل إليها أنه سيستولي عليها ويشي بها منذ أن تراه.

ولكنْ عندما جاء الخادم، في نهار الأحد بعد الصلاة، يُعلن وصول الكونت روستوف، لم يبدُ على الأميرة أيُّ اضطراب؛ وإنما لوّنتْ الحمرةُ الخفيفة خدّيها والتمعتْ عيناها ببريق جديد، مضيء.

قالت الأميرةُ ماريا بصوت هادئ، وقد دهشتْ هي نفسها من

أنها استطاعت أن تظل طبيعيةً، هادئةً، إلى هذا الحدّ، في مظهرها الخارجي:

- هل رأيتِه، يا خالتي؟

عندما دخل روستوف إلى الغرفة، أطرقتْ الأميرة رأسها لحظة كأنها تريد أن تترك للزائر الوقت لتحية خالتها، ثم رفعتْ رأسها في اللحظة نفسها التي استدار نيقولا فيها نحوها وواجهتْ نظرتَه بعينيها الملتمعتين. ونهضت بحركة مُفْعمة بالوقار والرشاقة، ومدّتْ، وهي تبتسم ابتسامةً جذلى، يدها الناعمة النحيفة، وتكلّمتْ بصوت ارتعشتْ فيه لأول مرة نبراتٌ أنثويةٌ عميقة حملتْ الآنسة بوريين التي كانت في الصالون على أن تنظر إلى الأميرة ماريا بدهشة عظيمة. لم يكن بوسع الآنسة بوريين، وهي المغناج البارعة، أن تتصرّف خيراً منها حين تلاقي رجلاً تريد أن تُعجبه. وقالت في نفسها: «إما أن يكون اللونُ الأسودُ مناسباً لها إلى حد كبير، وإما أن تكون قد ازدادتْ جمالاً دون أن ألحظ أنا ذلك. ولاسيّما هذه اللباقة وتلك الرشاقة!

ولو أن الأميرة ماريا كانت في تلك اللحظة قادرةً على التفكير لدهشت أكثر من الآنسة بوريين لهذا التبدل الذي طرأ عليها. فمنذ أن رأتْ هذا الوجه الذي كانت تحبّه، اجتاحتْها قوةٌ حيويةٌ جديدة، ودفعتها إلى التصرف والكلام بمعزل عن إرادتها. لقد تغيّر وجهها فجأة عند دخول روستوف. وكان أن النور الذي يضيء داخل مصباح ملوّن ومتقن الصنع يُبرز ما في هذا العمل الفني الحاذق من جمال آخّاذ، غير متوقّع، وكان يبدو من قبل خشناً، معتماً، عارياً من أيّ معنى. كذلك تبدّل وجهُ الأميرة ماريا. فلأول مرة غدت تلك المعاناة الداخلية الخالصة التي عاشت عليها حتىٰ الآن ظاهرةً، جلية. إن تلك المعاناة الداخلية التي كانت تجعلها غير راضية عن ذاتها، إن آلامها وطموحها إلى الخير

وروحَ الخضوع فيها وحبها ونكرانها لذاتها، كل ذلك كان يشعّ الآن في عينيها المضيئتين، في ابتسامتها اللطيفة، في كل من قسمات وجهها الرقيق.

رأى روستوف ذلك كله بوضوح شديد كما لو كان يعرف حياتها بحذافيرها، وأحسّ أن الكائن الماثل أمامه الآن مختلف عن كل اللواتي رآهن من قبل وأفضل منهن، وأفضل منه نفسه، على وجه الخصوص.

كان الحديث أشد ما يكون بساطة وابتذالاً. تحدّثا عن الحرب فبالغا من غير قصد، كما يبالغ جميعُ الناس، في حزنهما الذي سبّبه هذا الحدث، وتحدثا عن لقائهما الأخير، وحاول نيقولا أن يغيّر وجهةَ الحديث، وتحدّثا عن زوجة الحاكم الكريمة، وعن أهل نيقولا والأميرة ماريا.

لم تذكر الأميرةُ ماريا أخاها، وغيرت موضوع الحديث عندما لَمحتْ خالتها إليه. وكان واضحاً أنها تستطيع الكلام بصورة سطحية على مصائب روسيا، لكن أخاها كان موضوعاً يمسّ شغافَ قلبها مسّاً لا تستطيع معه أو لا تريد معه الكلام عليه. وقد لاحظ نيقولا ذلك، كما لاحظ بنفاذ لم يعرفْه من قبل كلَّ دقائق طباعِ الأميرة ماريا. وهي دقائق كانت جميعها ترسّخ قناعتَه بأنها كائنٌ فذّ. وكان نيقولا، شأنُه شأن الأميرة ماريا، يحمرُّ عندما يدورُ الكلام عليها أو حتى عندما يُفكر فيها، لكنه كان يحسّ بحضورها إنه مرتاح أشد ارتياح، وكان يقول ما يخطر بباله في اللحظة نفسها وفي المقام المناسب، لا ما أعدّه من قبل.

استعان نيقولا، في لحظة صمت، أثناء زيارته القصيرة، من صبي الأمير آندريه، كما هي العادة دائماً عندما يكون في المكان أطفال، وداعبه وهو يسأله إن كان يحبّ أن يصبح فارساً. ثم أخذ الصبي

بين يديه وجعل ينطّطه بمرح، وألقى نظرةً على الأميرة ماريا. كانت تُلاحقُ بنظرتها المتحّننة، السعيدة، الوجلة، الصبيَّ الذي تعبدُه، بين يدي الرجل الذي تحبّه. لاحظ نيقولا هذه النظرة، وكأنما أدرك معناها فاحمرَ من الفرح وقبّل الصبيّ بمرح وسذاجة.

لم تكنْ الأميرةْ ماريا تخرج بسبب حدادها، و لم يرَ نيقولا من اللائق تكرار زيارته؛ لكن زوجة الحاكم استمرت مع ذلك على محاولاتها الزواجيّة وردّدتْ على مسامع نيقولا الألفاظ الحلوة التي قالتها الأميرة ماريا عنه، وعلى مسامع الأميرة ماريا ما قاله نيقولا عنها، وألحت على روستوف أن يصارحها بدخيلة نفسه. ولهذه الغاية هيّأت للشابين لقاء في بيت الأسقف، بعد القُدّاس.

ومع أن روستوف قال لزوجة الحاكم: إنه لن يصارح الأميرة ماريا، فقد وعدَ بالمجيء.

وكما أن روستوف، في تيلسيت، أبى أن يشكّ في صحة ما يراه الناس حسناً، كذلك كان هنا. فبعد صراع قصير وصادق بين محاولته تنظيم حياته على هواه وبين خضوعه الذليل للظروف، اختار الموقفَ الأخير واستسلم للقدر (كان يحسّ بذلك) الذي كان يجترفه اجترافاً لا يُقاوم. كان يعلم أن مصارحته الأميرة ماريا بعواطفه، بعد العهد الذي قطعه لصونيا على نفسه، ضربٌ من اللوْم. لكنه كان يعلم أيضاً (أو بالأحرى كان يحس بذلك في أعماق نفسه) أنه حين يسلم أمره للظروف وللناس الذين يقودونه فإنه لا يقترفُ شراً، بل على العكس إنه يُقدم على عمل مهم، مهم جداً، عمل أعظم أهمية من كل ما فعله في حياته حتى الآن.

ومع أن نمط حياته لم يتغيّر، في ظاهر الأمر، بعد مقابلته للأميرة ماريا،

إلا أن جميع متعه القديمة فقدتْ سحرها له. وكان يفكّر فيها غالباً، ولكنْ لا كما كان يفكر في جميع الفتيات اللائي لقيهن في المجتمع بدون استثناء، ولا بتلك الفَوْعة التي كان يفكّر من خلالها في صونيا. كان يفكر في صونيا، كما يفكر الشباب الشرفاء عندما تخطر ببالهم الفتاةُ، على أنها زوجته المقبلة، موفّقاً، في خياله، بينها وبين ظروف الحياة الزوجية: المبذل الأبيض، زوجته أمام السماور، عربتها، الأولاد، أمه وأبيه، علاقتهما بها، الخ؛ وكانتِ لوحات المستقبل هذه تُدخل البهجةَ إلى نفسه. لكنه عندما كان يفكّر في الأميرة ماريا التي يراد منه أن يتزوجّها فإنه لم يكن بوسعه أن يتصوّر شيئاً من حياتهما الزوجيّة الآتية. وكان إذا حاول ذلك غدا كلّ شيء مشوشاً وزائفاً. وإنما كان يشعر بضرب من القلق.

***

الفصل السابع

وصل إلى فورونيج في منتصف أيلول نبأ معركة بورودينو الرهيب، وخسائرنا من القتلى والجرحى، كما وصل نبأ أرهبُ أيضاً هو ضياع موسكو. وقد استعدّتْ الأميرةُ ماريا التي علمتْ من الجرائد وحدها بجرح أخيها والتي لم تكن تعلم شيئاً آخر عنه، للسفر بحثاً عنه، كما قيل لنيقولا (لأنه لم يرها ثانية).

عندما علم روستوف بمعركة بورودينو وبالتخلي عن موسكو، لم يشعر باليأس ولا بالغضب ولا بالرغبة في الانتقام أو بعواطف أخرى من هذا القبيل، لكنه أحسّ بالسأم فجأة في فورونيج، كما أحس بالخجل وبعدم الارتياح. وبدت له الأحاديث التي يسمعها ملتبسةً؛ ولم يكن يعلم كيف يقف منها، وشعر أن الأمور لن تتضح له إلا في الفوج وحده. وكان يستعجل للانتهاء من شراء الخيل، وكان كثيراً ما يثور بغير حق على خادمه ورقيبه.

قبل سفره بأيام، أقيمت صلاةُ الشكر في الكنيسة بمناسبة انتصار الجيش الروسي، فقصد نيقولا إلى القدّاس. جلس خلف الحاكم وأصغى إلى القداس بوقار متكلّف وهو يفكّر بأشياء شتّى. فلما انتهتْ تسبحةُ الشكر استدعتْه زوجةُ الحاكم.

سألتْه وهي تومئ برأسها إلى سيدة في ثياب سوداء تقفُ خلف الجوقة:

– هل رأيتَ الأميرة؟

عرف نيقولا من فوره الأميرة، لا من جانب وجهها الذي كان يُرى تحت قبّعتها فحسب بل وقبل ذلك من هذا الإحساس بالحشمة والخشية والشفقة الذي استولى عليه في الحال. وكانت ماريا المستغرقةُ في أفكارها، على ما يبدو، ترسم آخر إشارات الصليب قبل مغادرتها الكنيسة.

نظر نيقولا إلى وجهها بدهشة. كان وجهها هو الوجه نفسه الذي يعرفه والذي يعكس تلك المعاناة الداخلية المرهفة نفسها؛ لكنه كان الآن مستنيراً بنور آخر. لقد شعّ بتعبير مؤثر من الحزن والصلاة والأمل. وكما وقع لنيقولا من قبل في حضرتها، ودون أن ينتظر نصيحة زوجة الحاكم بالاقتراب منها، ودون أن يتساءل إنْ كان من المستحسن أو من اللائق أن يكلّمها هنا، في الكنيسة، فإنه ذهب إليها وقال لها: إنه علم بأسباب حزنها وأنه يشاطرها هذا الحزنَ من كل قلبه. و لم تكد تَسمْع صوتَه حتى استضاء وجهُها بنور وهّاج أنار حزنها وفرحها معاً. قال روستوف:

– أحب أن أقول لك هذا الشيء، يا أميرة، وهو أنه لو لم يكنْ الأمير آندريه نيكولايفتيتش على قيد الحياة لذكرت الجرائد ذلك على الفور، لأنه آمرُ فوج.

نظرت الأميرة إليه دون أن تفهم كلماته، لكنها كانت سعيدةً بما قرأت على وجهه من آيات التعاطف والمشاركة في الألم.

وأردف نيقولا قائلاً:

– وأنا أعرف أمثلة كثيرة يكون فيها الجرحُ الذي تسبّبه شظية (الجرائد تقول قنبلة) طفيفاً جداً إذا لم يقْتل من فوره. ينبغي أن نأمل بأن كل شيء سيتحسن، وأنا واثق...

فقاطعته الأميرة ماريا قائلة:

- أوه! سيكون رهيـ....

ثم بلَغَ بها التأثرُ حداً منعها من إتمام كلامها فحنت رأسها بحركة مليئة بالأناقة (ككل ما تفعله بحضرته) وألقتْ عليه نظرة ممتّنة، وتبعت خالتها.

لم يذهب نيقولا، في هذا المساء، إلى زيارة أحد وبقي في البيت لإنهاء بعض الحسابات مع تجار الخيل، ولما أنهى أعماله، كان الوقت متأخراً لا يسمح بالخروج، ومبكراً لا يسمح بالنوم، فراح يذرع غرفته ويتأمل في حياته، وهو أمرٌ قلّما يقع له.

لقد تركتْ فيه الأميرة ماريا أثراً حسناً عندما تلاقيا قرب سمولنسك. فالظروف الفريدة التي لقيها فيها وكون الأميرة هي ذاتها التي أشارت عليه أمه، في لحظة معيّنة، بالزواج بها على اعتبار أنها زوجة ثريّة، دفعتْه إلى النظر إليها بعناية خاصة. وفي فورونيج، أثناء زيارته، لم يكن الأثرُ حسناً فحسب بل إنه كان قوياً. إذْ راعَ نيقولا منها هذا الجمالُ المعنوي الفائق الذي اكتشفه فيها. على أنه كان يتأهّب للسفر ولم يخطر له أن يأسف على أن رحيله من فورونيج سيحرمه فرصة رؤية الأميرة. لكن لقاءهما اليوم في الكنيسة، (كان نيقولا يحسّ بذلك) قد انطبع في قلبه انطباعاً أعمق ممّا توقع، أعمق مما كان يريدُه لهدوئه وراحته. كان وجهها النحيف، الشاحب، الحزين ونظرتُها المضيئة، وحركاتها المحتشمة الملأى بالأناقة، وحزنها العميق الرقيق، بخاصة، وهو حزن كان ينعكس في كل قسماتها، كان كل ذلك يدفع نيقولا إلى الاضطراب وإلى التعاطف الوجداني..

لم يكن نيقولا يطيق أن يرى أمارات الحياة الروحية الرفيعة على وجه

رجل، (ولهذا السبب لم يكن يحب الأمير آندريه)، وكان ينظر إلى ذلك بازدراء على أنه فلسفة أو أضغاث أحلام؛ لكنه كان يحسّ لدى الأميرة ماريا، وعلى وجه الدقة، في حزنها الذي كان يكشف عن عمق هذا العالم الروحي الغريب عنه، بجاذبية لا تُقاوم.

كان يحدّث نفسه قائلاً: «لا ريب أنها فتاةٌ رائعة، ملاكٌ حقيقي! ليتني كنتُ حراً، لَمَ تعجّلتُ إلى هذا الحد مع صونيا!» وعلى الرغم منه، كانت المقارنة بينهما تَفْرض نفسها على فكره: فقرُ الواحدة وغنى الأخرى بهذه المواهب الروحية التي كان محروماً منها والتي كان تقديرُه لها أشدّ بسبب هذا الحرمان. حاول أن يتصوّر ما كان سيقع لو كان حراً. كيف كان سيطلب يدها وكيف كانت ستصبح امرأتَه؟ لا، إنه لا يستطيع أن يتصوّر ذلك. كان القلق يتملّكه و لم تكن تمثُلُ أمام عينيه أيةُ صورة واضحة. لقد كوّن منذ زمن بعيد، مع صونيا، لأن كل ذلك كان اصطناعياً ولأنه كان يعلم كل ما في أعماق صونيا؛ أما مع الأميرة ماريا فكان من المتعذّر عليه أن يتخيّل المستقبل، لأنه لم يكن يفهمها وإنما كان يحبّها.

كانت في أحلامه بصدد صونيا شيءٌ من البهجة، كان الأمرُ أشبَه باللعب. أما التفكير في الأميرة ماريا فكان صعباً دائماً ومخيفاً إلى حد ما.

وقال في نفسه وهو يتذكر: «كيف كانت تصلي! كان واضحاً أن روحها كلها في الصلاة. نعم، كانت هذه هي الصلاة التي تنقلِ الجبال من مكان إلى مكان، وأنا واثق بأن صلاتها ستُسْتجاب. لِمَ لا أصلّي لأطلب ما أنا بحاجة إليه؟ إلامَ أحتاجُ؟ إلى الحرية، إلى أن أفسخ خطبتي بصونيا. ثم قال في نفسه وهو يتذكر كلمات امرأة الحاكم: لقد كانت تقول الحق، ولن ينجم عن زواجي من صونيا سوى البؤس. المضاعفات، اغتمام أمي.... شؤون والدي... المضاعفات، المضاعفات، المضاعفات الرهيبة! ثم إنني لا أحبها. لا، إنني لا أحبها

كما ينبغي. يا إلهي! أخرجْني من هذا الوضع الفظيعِ الذي لا مخرج له!.» – قال ذلك وراح يصلّي – نعم، إن الصلاة تنقلِ الجبالَ، ولكن لابد لها من الايمان، ويجب أن نصلّي لا كما كنا نصلي، أنا وناتاشا، ونحن صغيران، عندما كنا نطلبُ أن يتحوّل الثلجُ إلى سكر، وعندما كنا نركض إلى الخارج لنرى إنْ كان الثلج قد تحوّل إلى سكر. لا، لن أصلي الآن لأطلب مثل هذه الحماقات.

قال ذلك ووضع غليونه في ركن من الغرفة وضمّ يديه إلى صدره ومضى ليقف أمام الأيقونة. صلى، وقد رقّتْ نفسه لذكرى الأميرة ماريا، كما لم يُصلّ منذ زمن بعيد. لقد اغرورقت عيناه بالدموع وغصّ بها حلقُه عندما دخل لافروشكا يحمل أوراقاً.

قال نيقولا وهو يغيّر وضعه بعجلة:

– يا غبيّ! لَمَ تدخل دون أَنْ تُدعى؟

قال لافروشكا بصوت خامد:

– هذا من قبل الحاكم، وصلتكَ هاتان الرسالتان منذ ساعة.

– طيّب، شكراً، انصرفْ!

تناول نيقولا الرسالتين. كانت الأولى من أمه والثانية من صونيا. عرفهما من الخطّ، ففتح رسالة صونيا أولاً. لم يكد يقرأ بضعة أسطر حتى شحب وجهه واتسعتْ عيناه من الرعب والفرح. وقال بصوت مرتفع:

– لا، هذا غير ممكن!

و لم يستطعْ أن يبقى في مكانه، فأخذ يمشي في الغرفة طولاً وعرضاً، والرسالة في يده يتصفّحها ثم يقرؤها ويعيد قراءتها، ثم يقف في وسط

الغرفة رافعاً كتفيه، مُباعداً بين ذراعيه حائراً، فاغراً فاه، شاخص العينين.
إن ما طلبه إلى الله وهو على يقين بأن دعاءَه سيُسْتجاب قد استجيب؛ لكن نيقولا دهشَ لذلك كأن فيه شيئاً خارقاً وكأنه لم يكنْ يتوقّعه البتّة وكأن السرعة التي تمّ بها كانت تثبتُ أن كل ذلك لم يأت من الله كما طلب وإنما كان مجرّد مصادفة.

إن العقدة التي كانت تبدو مستعصية على الحل والتي كانت تقيّد حريتَه قد حلّتها رسالةُ صونيا، وهي رسالة لم يكن يتوقّعها (كما خُيّل إلى نيقولا) ولم يدعُ إليها داعٍ. كانت تقول في رسالتها: إن المصائب الجديدة، وضياعَ جميع ممتلكات آل روستوف في موسكو، والرغبة التي أبدتها الكونتيسة غير مرة في أن ترى نيقولا يتزوج الأميرة بولكونسكي، وصمتّه وفتوره في هذه الأيام الأخيرة، كل ذلك حمَلها على أن تحلّه من وعده وعلى أن تُعيدَ إليه كامل حريته.

كتبتْ في رسالتها: «إنه لمما يؤلمني أشد الألم أن أفكر في أنني قد أكون سبباً للاغتمام أو الخلاف في العائلة التي أدين لها بالكثير، وليس لحبي إلا هدفٌ واحد هو إسعاد مَنْ أحبّ؛ ولذلك أتوسّل إليك، يا نيقولا، أن تعدّ نفسك حراً وأن تعتقد أنه لن يحبك أحدٌ، بالرغم من كل شيء، كما تحبك صونيا».

كانت الرسالتان آتيتين من ترويتسا. وكانت الرسالة الأخرى من الكونتيسة. وفيها وَصفتْ الأيام الأخيرة التي قضوها في موسكو والرحيلَ والحريقَ وضياعَ ممتلكاتهم كلها. وذكرت الكونتيسة، في جملة ما ذكرتْ، أن الأمير آندريه سافر معهم ضمنَ جرحى آخرين، وأن حالته كانت مخطرةً، لكن الطبيب قال: إن الأمل بشفائه قد كبر، وأن صونيا وناتاشا تقومان مقام الممرضتين له.

في اليوم التالي، ذهب نيقولا إلى الأميرة ماريا ومعه هذه الرسالة. و لم يلمّح هو ولا هي عما قد تعنيه هذه الكلمات: إن ناتاشا تُعنى به»؛ لكن نيقولا ازداد قرباً من الأميرة ماريا كما لو كانا قريبين.

في اليوم التالي، استأذن روستوف الأميرة ماريا التي سافرت إلى إياروسلافل، وبعد أيام التحق بفوجه.

***

الفصل الثامن

إن رسالة صونيا التي كانت استجابةً لدعاء نيقولا أُرْسلت من ترويتسا[1]. وهذا هو الباعث الذي دعا إليها: كانت فكرة تزويج نيقولا بوارثة غنية تشغل بال الكونتيسة العجوز أكثر فأكثر. وكانت تعلم أن صونيا هي العقبة الرئيسية. وقد غدت حياةُ صونيا، في هذه الآونة الأخيرة، ولاسيّما بعد الرسالة التي وصف فيها نيقولا التقاءَه الأميرة ماريا في بوغوتشاروفو، تزدادُ مشقة وعناءً. ذلك أن الكونتيسة كانت تنتهز كل فرصة لتلمّح إليها تلميحات جارحة أو قاسية.

لكنْ قبل بضعة أيام من الرحيل عن موسكو، استدعتْ الكونتيسةُ، وقد كانت مضطربةً، منفعلةً بكل ما يجري، استدعت صونيا وبدلاً من أن تطالبها بالتضحية مطالبةً، وبدلاً من أن توسعها لوماً وتوبيخاً، فإنها توسلت إليها باكيةً أن تضحي بنفسها وأن تردّ ما بذلوه لها، وذلك بأن تقطع علاقتها بنيقولا.

– لن أهدأ ما لم تعديني بذلك.

استسلمت صونيا لنوبة من الدموع، وأجابت عبرَ نحيبها أنها ستفعل كل شيء وأنها مستعدة لفعل كل شيء، لكنها لم تعدْ وعداً صريحاً،

١– ترويسيستا: دير الترينيته الذي أسسه القديس سيرج على ٦٠ كم شمالي موسكو.

وكانت تشعر في أعماقها أنه لا يمكنها الانصياع إلى ما يُطلب إليها. كان ينبغي لها أن تضحّي بنفسها في سبيل سعادة الأسرة التي غذّتها وربّتْها. وكانت التضحية بالذات في سبيل الآخرين عادةً فيها. وكان وضعها في البيت يفرض عليها أن تكون سبيل التضحية هي السبيل الوحيدة التي تُتيح لها أن تُظهر صفاتها. وقد ألفتْ ذلك وكانت تحبّ أن تضحّي بذاتها. لكنها كلما كانت تضحّي بنفسها قديماً كانت تتبيّن بفرح أنها تكبر بعيني ذاتها وبعيون الآخرين، وأنها تغدو أجدر بنيقولا الذي أحبته أكثر من أي شيء آخر في هذا العا لم؛ أما الآن فينبغي أن تقوم تضحيتُها على التخلّي عمّا كان-بالنسبة إليها الثوابَ على تضحياتها، عمّا كان معنى حياتها كلها. ولأول مرّة أحستْ بالمرارة إزاء الذين غمروها بفضلهم لكي يبالغوا في تعذيبها؛ أحستْ بالغيرة من ناتاشا التي لم تحسّ قط بشيء من هذا القبيل والتي لم تشعر بالحاجة قط إلى أن تضحّي بنفسها والتي كانت تجبر الآخرين على أن يضحّوا بأنفسهم من أجلها، وكان الجميع مع ذلك يحبّونها. ولأول مرة، شعرت صونيا أن حبها الهادئ النقي يتحوّل فجأة إلى عاطفة مشبوبة تستهين بالمبادئ والفضيلة والدين؛ وبتأثير هذه العاطفة، فإن صونيا التي علّمتها حياتُها التابعةُ للآخرين الكتمان والرياءَ، أجابتْ الكونتيسة بعبارات مبهمة وتحاشت الاستفسار وعزمت على انتظار نيقولا، لا لكي تردّ إليه حريته، بل على العكس، لكي تتحدّ به إلى الأبد.

إن هموم الأيام الأخيرة التي قضاها آل روستوف في موسكو وأهوالها كبتتْ في صونيا خواطرها القاتمة. وقد فرحتْ عندما وجدت في النشاط العملي مهرباً لها. ولكنْ عندما علمت بوجود الأمير آندريه في البيت استولى عليها، بالرغم من شفقتها الصادقة عليه وعلى ناتاشا، شعورٌ فَرِحٌ، خرافي، وهو أن الله لا يريد لها أن تنفصل عن نيقولا. كانت تعلم أن ناتاشا لا تحب إلا الأمير آندريه وأنها لم تكفّ عن حبه،

وأنهما إن اجتمعا في مثل هذه الظروف الفاجعة فإن حبّهما سيتجّدد، وأن روابط القرابة التي ستجمعهما ستحرّم على نيقولا أن يتزوّج الأميرة ماريا. وبالرغم من هول ما كان يجري آنذاك، وأثناء الأيام الأولى من السفر، كان هذا الإحساس، هذا الشعور بتدخل العناية الإلهية في شؤونها الشخصية يملؤها غبطةً.

توقّف آل روستوف في المرحلة الأولى من يوم سفرهم في دير الترينيته.

وفي فندق الدير حجزوا ثلاثَ غرف شَغَلَ الأمير آندريه إحداها، وكانت صحته قد تحسنْت في هذا اليوم. وكانت ناتاشا تلازمه. أما في الغرفة المجاورة، فكان الكونت والكونتيسة يتحدثان باحترام إلى رئيس الدير الذي جاء لزيارة الأصدقاء والواهبين القدامى. وكانت صونيا أيضاً معهم، يتأكلها الفضول. وهي تتساءل عما يقوله الأمير آندريه وناتاشا فيما بينهما. كانت تصغي إلى صوتيهما عبرَ الباب. وما لبث أن انفتح باب غرفة الأمير آندريه وخرجتْ منه ناتاشا، والتأثّر على وجهها، واقتربت من صونيا وأمسكتْ بها من ذراعها، دون أن تلحظ الكاهنَ الذي وقفَ عند دخولها وردّ كمه الأيمن الواسع لكي يباركها.

قالت الكونتيسة:

– ناتاشا، ما لكِ؟ تعاليْ إلى هنا.

تلقّت ناتاشا المباركة ودعاها الرئيس إلى أن تلتمس العون من الله ومن قديسه.

وما إن انصرف الرئيسُ حتى أخذت ناتاشا صديقتها من يدها ومضتْ بها إلى الغرفة الخالية وقالت لها:

– سيعيشُ، يا صونيا، أليس كذلك؟ ما أسعدني، يا صونيا، وما أشقاني! لقد عاد كلّ شيء إلى سابق عهده، يا عزيزتي، صونيا! بشرط أن يعيش! إنه لا يستطيع.... لأن، لأن...

وانفجرت ناتاشا منتحبة.

قالت صونيا:

– آه! كنت أعلم ذلك! الحمد لله. سوف يعيش!

لم تكن صونيا أقل تأثراً من صديقتها بمخاوفها واغتمامها، وبخواطرها الخاصة التي لم تَبحْ بها لأحد، فعانقت ناتاشا وهي تنتحب وعزّتها وقالت في نفسها: «بشرط أن يعيش». وبعد أن بكتا وتحدّثتا وجففتا دموعهما، اقتربتا من باب الأمير آندريه. فتحته ناتاشا برفق وألقت نظرةً على الغرفة. وكانت صونيا تقفُ بجانب الباب المشقوق.

كان الأمير آندريه مستلقياً، مستنداً إلى ثلاث وسائد عالية. وكان وجهه شاحباً، هادئاً، وعيناه مغمضتين، وبدا نَفَسُه منتظماً.

هتفت صونيا وهي تمسك فجأة بذراع ابنة عمها وتبتعد عن الباب:

– آه! ناتاشا!

فسألتها ناتاشا:

– مالكِ؟ مالك؟

قالت صونيا وهي شاحبة، الوجه مرتجفة الشفتين:

– إنه هو، هو بعينه...

أغلقت ناتاشا الباب برفق وقادت صونيا نحو النافذة دون أن تفهم بعدُ ما الذي كانت تعنيه.

قالت صونيا وعلى وجهها إمارات الرعب والمهابة:

- أتذكرين عندما تطلعتُ إلى المرآة من أجلك... في اوترادنوي، في عيد الميلاد... أتذكرين ماذا رأيت؟...

قالت ناتاشا وهي تحدّق بعينيها وتتذكّر تذكّراً غامضاً أن صونيا كانت قد قالت شيئاً بصدد الأمير آندريه الذي رأته نائماً.

وأردفت صونيا:

- أتذكرين؟ رأيتُه آنذاك وأنبأتُ الجميع بذلك، وأنبأتك أنتِ ودونياشا. رأيته نائماً على سريره... -كانت تقول ذلك وترفق كلَّ تفصيل بإشارة من يدها، وسبابتُها مرفوعة- مغمضاً عينيه، وعليه غطاءٌ وردي، ويداه متصالبتان.

وكانت كلما مضت في وصف التفاصيل التي رأتْها قبل حين ازدادت قناعة بأن هذه التفاصيل هي بعينها تلك التفاصيل التي رأتها آنذاك.

لم تكنْ قد رأت شيئاً آنذاك وكانت قد روتْ ما خطر ببالها، لكن ما اخترعته حينذاك كان يبدو لها واقعياً، مثلُه كمثل أية ذكرى. قالت آنذاك إنه التفت إليها وابتسم، وأنه كان مغطّى بشيء أحمر، وهي الآن لا تتذكّر ذلك فحسب، لكنها كانت مقتنعة قناعة راسخة بأنها قالت ورأت أنه كان مغطى بشيء ورديّ، وعلى وجه الدقة، بغطاء وردي، وأن عينيه كانتا مغمضتين.

قالت ناتاشا التي كانت تعتقد أيضاً أنها تتذكر الآن حديث صونيا عن شيء وردي، وكانت ترى أن الغرابة الرئيسية والسر الرئيسي في النبوءة، يكمنان بالضبط في هذا الشيء الوردي:

- نعم، نعم، وردي، بالضبط.

ثم قالت وهي تتفكّر:

- ما الذي يمكن أن يَعْنيه ذلك؟

قالت صونيا وهي تمسك رأسها بيديها:

- آه! لستُ أدري، ما أعجب ذلك كله!

بعد لحظات، قرعَ الأمير آندريه الجرس ودخلتْ ناتاشا إلى الغرفة؛ في حين ظلت صونيا قرب النافذة تفكر في غرابةِ ما وقعَ، وهي نهبٌ للتأثر والتحنن اللذين قلما شعرت بمثلهما.

في هذا اليوم سنحتْ الفرصة لإرسال رسائل إلى الجيش، وكتبتْ الكونتيسة رسالة إلى ابنها، وقالت وهي ترفع رأسها عن رسالتها عندما مرت صونيا بجنبها:

- صونيا، ألن تكتبي إلى نيقولا؟

سألتها هذا السؤال بصوت خافت، مرتعش؛ وقرأتْ صونيا في نظرة عينيها المتعبتين اللتين كانتا تنظران إليها عبرَ نظّارتيها، كلّ ما عنَتْه الكونتيسة بهذه الكلمات. كانت نظرتُها تعبّر عن التوسّل، والخوف من الرفض، والخجل من وجوب الطلب، والحقد العاتي المتحفز في حالة الرفض.

اقتربت صونيا من الكونتيسة وجثت وقبلت يدها وقالت:

- سأكتب إليه، يا أمي.

هدأت صونيا وانفعلتْ ورقّتْ من جرّاء ما مرّ بها هذا اليوم ولاسيما

من جراء ذلك التحقق الخفي للنبوءة التي شاهدتها. لقد أحسّتْ والفرح يغمرها، الآن بعد علمها بأن الوفاق بين ناتاشا والأمير آندريه يمنع نيقولا من الزواج بالأميرة ماريا، أحسّتْ بعودة روح التضحية التي أحبت الحياة فيها وتعوّدتها. فكتبتْ، والرضى يحدوها بأنها تقوم بعمل شهم، كريم، تلك الرسالة المؤثرة التي أذهلتْ نيقولا كثيراً، وهي رسالة قطّعتها مراراً الدموعُ التي كانت تُغشّي عينيها السوداوين المخمليتيّن.

***

الفصل التاسع

إن الضباط والجنود الذين أوقفوا بطرس عاملوه، في مركز الشرطة الذي ساقوه إليه، معاملةً تتّسم بالعداء ولكنها تتّسم، في الوقت نفسه، بالاحترام. كان واضحاً أنهم يتساءلون: مَنْ يكون هذا الرجل (لعله شخصية عظيمة الشأن)، مع حقدهم عليه بسبب الصراع القريب العهد الذي خاضوه معه.

لكنْ عندما أُبدل الحرسُ في صباح اليوم التالي، أحسّ بطرس أنه لا يُمثّل بالنسبة إلى الحرس الجديد، ضباطاً وجنوداً، ما مثّله بالنسبة إلى الذين أوقفوه. والواقع أن هذا الفتى الطويل والضخم الذي يرتدي ثياب الفلاحين، لم يعدْ في نظرهم ذلك الرجل الحي الـذي قاتل الجنديّ النهاب وجنودَ الدورية بعنف شديد والذي قال جملةً فخمةً مهيبةً في طفل أنقذه، وإنما كان السابع عشر بين الروس الموقوفين الذين يحرسونهم، بناء على أمر القيادة العليا، لسبب لا يعلمه إلا الله. وإذا كان فيه شيء خاص فقد كان مظهرَه المتفكّرَ، المنكمش، العاري من الخوف، ومعرفتَه للغة الفرنسية التي كان يتكلمها بإتقان أدهش به الفرنسيين. وبالرغم من ذلك، ففي هذا اليوم نفسه، أُلحق بطرس بالمشبوهين الآخرين لأن الغرفة التي كان يشغلُها طَلَبَها أحدُ الضباط.

كان جميعُ الروس المحبوسين مع بطرس من أصل وضيع. فلما

عرفوا فيه السيّد النبيل تحاشوه جميعهم. ولاسيما حين رأوه يتكلم الفرنسية. وكان بطرس يسمع بحزن تهكمهم عليه.

في مساء اليوم التالي عَلم أن جميع هؤلاء المسجونين (ولا ريب أنه هو أيضاً في عدادهم) سيُحاكمون باعتبارهم مشعلي حرائق. وفي اليوم الذي تلاه، سيق مع الآخرين إلى منزل كان يقيم فيه جنرال فرنسي أبيض الشاربين، وعقيدان وفرنسيون آخرون على سواعدهم أشرطة. وطرحوا على بطرس وعلى الآخرين أسئلة من مثل: مَنْ هو؟ أين كان؟ وما نيّته؟ إلخ، بتلك الدقة وذلك الوضوح اللذين يزعمان أنهما يرتفعان فوق الضعف البشري واللذين يُسأل المتهمون بهما عادةً.

كان لهذه الأسئلة التي تَدَعُ جانباً صلبَ القضيّة وتَنْفي إمكان توضيحها، ككل الأسئلة التي تُطرح في القضاء، هدفٌ واحد هو مدُّ مزرابٍ يريدُ القضاةُ أن تصبّ فيه أجوبةُ المتّهم، وأن يسوقوا هذا المتّهم إلى ما يسعون إليه، أي إلى دعم الاتهام. وما إن يبدأ بالكلام على مالا صلة له بهدف الاتهام حتى يسحبوا المزراب فتصبّ المياه حيث تشاء. وفضلاً عن ذلك فقد كان بطرسٍ يحس بما يحسّ به المتّهم أمام المحاكم: كان يتساءل متحيّراً إلامَ ترمي كلّ هذه الأسئلة؟ لقد تملكه الشعورُ بأنهم إنما يلجؤون إلى أسلوب المزراب الممدود هذا تسامحاً منهم وتأدّباً. كان يعلم أنه في حوزة هؤلاء الرجال وتحت سيطرتهم، وأن القوة وحدها هي التي ساقته إلى هذا المكان، وأن القوة وحدها هي التي تعطيهم الحق في أن يطالبوه بأجوبة عن أسئلتهم، وأن الغاية الوحيدة من هذه الجلسة هي أن يدينوه. ولذلك، وبما أن القوة متوفرة وأن النية في الاتهام متوفرة غدا اللجوء إلى الاستجواب والمحاكمة شيئاً فارغاً، لا جدوى منه. كان واضحاً أن جميع الأسئلة ينبغي أن تهدف إلى إثبات جرمه. وعندما سُئل بطرس: ماذا كان يفعل في لحظة توقيفه؟ أجاب بلهجة مسرحية:

أنه كان يَحْمل الطفلَ الذي أنقذه من النار إلى أهله. وعندما سُئل: لماذا تَقاتَل هو والجندي النّهاب؟ أجاب أنه كان يَحْمي امرأةً، وأن حماية امرأة تُهان واجبُ كل رجل، وأن.... وهنا أوقفوه عن الكلام: فلا علاقة لذلك بالقضية. وعندما سئل لماذا كان في فناء بيت يحترق رآه فيه الشهود؟ أجاب بأنه ذهب ليرى ما الذي كان يجري في موسكو، فأوقفوه مرة أخرى: ذلك أنهم لم يسألوه إلى أين كان يذهب بل لماذا كان قرب الحريق. وعندما سُئل: مَنْ يكون؟ وهو السؤال الأول الذي أبى أن يجيب عليه، أجاب مرةً أخرى: أنه لا يستطيع أن يقول ذلك.

قال الجنرال ذو الشارب الأبيض والوجه النضر بقسوة:

- سجّلْ هذا، هذا خطير، هذا جدّ خطير.

في اليوم الرابع شبّتْ الحرائق في سور زوبوفو.

اقتيد بطرس وثلاثة عشر موقوفاً آخر إلى كريمسكي برود[1] في مستودع بيت أحد التجار. وعندما مروا بالشوارع. اختنق بطرس من الدخان الذي بدا عليه أنه يمتد فوق المدينة بأسرها. وكانت الحرائق تطالعهم من كل صوب. ولم يكن بطرس قد أدرك بعد معنى حريق موسكو، وكان ينظر إلى نيران الجَمْر برعب.

قضى بطرس أربعة أيام، في المستودع الواقع في شارع كريمسكي برود، علمَ أثناءَها من أحاديث الجنود الفرنسيين أن من المنتظر بين يوم وآخر صدورُ قرار المارشال بشأن جميع الموقوفين هنا. أمّا مَنْ هو ذلك المارشال، فلم يستطع بطرس أن يعلم شيئاً. ولا ريب أن هذا المارشال يُمثل بالنسبة إلى الجنود أعلى درجات السلطة التي يكتنفها شيءٌ من الغموض.

١- كريمسكي برود: (معبر القرم)، شارع في الضاحية الجنوبية من موسكو.

كانت هذه الأيام الأولى التي سبقت الثامن من أيلول، وهو اليوم الذي خَضَع فيه السجناءُ لاستجواب ثان، أشقّ الأيام على بطرس.

***

الفصل العاشر

في الثامن من أيلول زار السجناءَ ضابطٌ عظيم الأهمية، كما بدا من الاحـترام الذي أظْهره جنودُ الحرس نحوه. تفقد هذا الضابطُ الذي ينتمي إلى أركان الجيش من دون شك، السجناءَ الروس وقائمةُ الأسماء بيده، وسمّى بطرس: «ذاك الذي لا يَعْترف باسمه». وبعد أن ألقى على السجناء نظرة تنمّ على عدم الاكتراث والتهاون، أمرَ ضابطَ الحرس أن يُعنى بإلباسهم وإصلاح شأنهم بصورة لائقة قل أن يَمْثلوا بين يدي المارشال. وبعد ساعة، وصلتْ مفرزةٌ من الجنود وسيقَ بطرس مع الثلاثة عشر الآخرين إلى حقل العذارى[1]. كان النهار صحواً ومُشمساً بعد المطر، والهواء نقيّاً نقاء عجيباً. أما الدخان فلم يكنْ يَزْحف كما كان في اليوم الذي سيق فيه بطرس إلى مركز الشرطة عند سور زوبوفو؛ وإنما كان يتصاعد أعمدةً في الهواء النقيّ. و لم يكنِ اللهبُ يظهر في أية ناحية من نواحي موسكو، وإنما كان يرتفع الدخانُ من جميع جهاتها، و لم تكن موسكو بأسرها، أو ما رآه بطرس منها، سوى أنقاض وحيثما تطلع رأى أرضاً خواءً فيها مدافئُ ومداخن، ورأى خلالَ ذلك جدرانَ البيوت الحجرية المتكلّسة. كان بطرس ينظر إلى الخرائب ولا يستطيع أن يتعرّف أحياء المدينة المعهودة. وقد نجت من النيران، هنا وهناك بعض الكنائس. وبرز الكريملين من بعيد سليماً، أبيضَ بأبراجه وقبّة أجراس

١ – حقل العذارى: سهل في الجنوب الغربي من موسكو يحيط بدير العذارى الجديد.

إيفان الكبير. ومن دونها قبّة دير نوفو -ديفتشي تتلألأ جَذْلى، وصوت أجراسها يُوافي مرناناً برنين خاص ذكّر بطرس بأن اليوم يوم أحد، وأنه عيد مولد العذراء. لكنْ بدا أنْ ليس في المدينة مَنْ يحتفل بهذا العيد؛ فلم يبق منها سوى الأنقاض والحرائق، أما الروس فلم يبق منهم سوى أناس مذعورين يصادفهم المرء بين الحين والحين في أسمال رثة، ويختبئون عند رؤية الفرنسيين.

ممّا لاشك فيه أن العشّ الروسي قد دُمِّر وخُرِّب؛ لكن بطرس كان يحس إحساساً غامضاً، عبرَ هذا الدمار الذي أصاب النظام الروسي، أن نظاماً آخر، مختلفاً كل الاختلاف وراسخاً، هو نظام الفرنسيين، قد أُقيم على ذلك العش المدمّر. أحسّ بذلك حين رأى الحرسَ يسيرون بنظام مبتهجين، خفافاً؛ أحسّ بذلك حين رأى موظفاً فرنسياً رفيع الشأن يُقبل عليهم في عربة يجرّها جوادان ويقودها جندي. أحسّ بذلك من النغمات الجذلى المنبعثة من موسيقى عسكرية في الجانب الأيسر من الحقل، وأحسّ بذلك وأدركه، على وجه الخصوص، منذ أن جاء الضابطُ الفرنسي، في هذا الصباح، وقرأ القائمة متفقّداً. لقد قبضَ الجنود على بطرس واقتادوه من مكان إلى مكان مع عشرات السجناء؛ وكان من الممكن نسيانُه والخلط بينه وبين غيره. لكن شيئاً من ذلك لم يكن: فالأجوبةُ التي أدلى بها في الاستجواب عادت إليه على شكل بطاقة كُتب عليها: ذاك الذي لا يَعْترف باسمه. وتحت هذه البطاقة التي كانت تخيفه راحوا يسوقونه مرة أخرى إلى مكان ما بثقة وطيدة قرأها على وجوه المواكبين وهي أن جميع السجناء، وهو من ضمنهم، هم الذين يجب أن يُسجنوا وأنهم كانوا يُساقون إلى حيث يجب أن يُساقوا. أحس بطرس أنه قشّة تلقّفتها عجلةُ آلة مجهولة لكنها فعّالةٌ في عملها.

اقتيد بطرس والموقوفون الآخـرون، إلى يمين حقل العذارى، غيرَ بعيد عن الدير، نحو منزل كبير أبيض تحيطُ به حديقة واسعة. كان هذا المنزلُ منزلَ الأمير شتيرباتوف الذي كان كثيراً ما يقصده بطرس قديماً والذي كان يُقيم فيه الآن -كما فهم من أحاديث الجنود- المارشالُ الأمير ديكموهل[1].

اقتيدوا نحو درج المدخل وأُدخلوا واحداً واحداً إلى البيت. كان بطرس السادسَ بين الداخلين. فساروا به عبر الرواق الزجاجي والردهة وغرفة الانتظار التي كان يعرفها جيداً، إلى مكتب للعمل طويلٍ، منخفض السقف، على بابه جلس مساعد عسكري.

كان دافو جالساً في الطرف الآخر من الغرفة، وراء طاولة، وعلى أنفه نظارتان. دنا بطرس منه دنّواً شديداً. كان دافو يراجع ورقة، دون أن يرفع بصره عنها. فسأله بصوت خافت، ودون أن يرفع بصره: مَنْ أنت؟

صمتَ بطرس وعجز عن أن يجيب بكلمة. لم يكنْ دافو بالنسبة إليه رجلاً فرنسياً فحسب بل كان رجلاً مشهوراً بقسوته أيضاً. أحسّ بطرس، وهو ينظر إلى وجه دافو البارد الذي وافق في هذه اللحظة، كما يوافق المعلم الصارم، على التصبّر وانتظار الجواب، أن كل لحظة من التردّد قد تكلفه حياتُه؛ لكنه لم يكن يعلم ما يقول، و لم يجروْ على تكرار ما قاله في الاستجواب الأول؛ ورأى في الكشف عن اسمه وطبقته خطراً وعاراً. فلزم الصمت. ولكنّ قبل أن يختار بطرس ما يفعله، رفَعَ دافو رأسه وردّ نظارتيه على جبينه وطرفَ بعينيه وحدّق فيه. ثم قال بصوت متّزنٍ، بارد، قصدَ إليه قصداً لكي يُخيف بطرس:

١- هو المارشال دافو.

- إني أعرفُ هذا الرجلَ.

إن البردَ الذي سرى في ظهر بطرس ضغط رأسه وكأنه بين فكّي ملزمة:

- سيدي الجنرال، لا يمكنك أن تعرفني، لأني لم أرك قط من قبل...

قاطعه دافو وهو يخاطب جنرالاً آخر كان في الغرفة و لم يلحظه بطرس:

- هذا جاسوس روسي

تذكّر بطرس فجأة أن دافو أمير، فشرع يقول بحدة، وفي صوته شدة غير متوقعة:

- لا، يا مولاي، ما كان بوسعك أن تعرفني. فأنا ضابط متطوّع و لم أترك موسكو قط.

كرّر دافو:

- اسمك؟

- بيزوهوف.

- وما الدليلُ على أنك لا تكذب؟

فهتف بطرس بصوت غلبَ عليه الابتهال دون الشعور بالمهانة:

- مولاي!

رفع دافو بصره وحدّق فيه. نظر أحدهما إلى الآخر بضع ثوان، على هذا النحو، وهذه النظرة أنقذت بطرس. إذْ قامت بين هذين الرجلين علاقات إنسانية، في هذه النظرة، خارج جميع أسئلة الحرب والعدل.

أحسّ كلاهما في هذه اللحظة إحساساً غامضاً بما لا يُحصى من الأشياء، وأدرك كلاهما أنهما من أبناء الإنسانية، أنهما أخوان.

في النظرة الأولى، عندما لم يكدْ دافو يرفع رأسه عن القائمة التي أُشير فيها بالأرقام إلى مصائر البشر وحيواتهم، كان بطرس بالنسبة إليه مجرّد حالة من الحالات، وكان بوسعه أن يأمر بإعدامه دون أن يبكته ضميرُه على فعلته؛ أما الآن فكان يرى فيه إنساناً، فكّر لحظةً وقال ببروده:

– كيف تبرهن على صحّة ما تقوله لي؟

تذكّر بطرس «رامبال» وعيّن فوجه واسمه والشارع الذي يقطنه.

فكرر دافو:

– لستَ مَنْ تزعم.

قدّم بطرس بصوت مرتجف، متهدّج، الأدلة على أقواله.

وفي هذه اللحظة دخل مساعد عسكري وقال شيئاً لدافو.

استضاءَ وجه دافو فجأة للنبأ الذي بشّره به المساعد العسكري وزرّر بزّته. وبدا عليه أنه نسي بطرس تماماً.

وعندما نبّهه المساعد العسكري على وجود السجين قطّب حاجبيه وأومأ برأسه نحو بطرس وأمر بأخذه. ولكنْ إلى أين سيأخذونه، لم يكن بطرس يعلم شيئاً عن ذاك: أيأخذونه إلى مخيّمه القديم أم إلى المكان المُعَدّ للإعدام الذي دلّه عليه رفاقُه وهم يجتازون حقل العذارى.

أدار رأسه فرأى المساعد العسكري يطرح سؤالاً. وأجاب دافو:

– نعم، بلا شك.

ولم يعلم بطرس ماذا تعني هذه الـ «نعم».

كان بطرس يجهلَ كيف سار وكم سار وإلى أين سار. كان يضع قدماً أمام الأخرى ككل الناس، وهو في حالة من اللاشعور والتبلّد الكاملين، دون أن يرى شيئاً حواليه، إلى أن وقفوا جميعاً ووقف هو أيضاً.

أثناء هذا الوقت كله شغلتْ بالَه فكرةٌ واحدة: مَنْ، من الذي حكَمَ عليه؟ لم يحكمْ عليه الناس الذين استجوبوه في المحكمة: فمن المؤكّد أنْ ليس فيهم أحدٌ يريد أو يستطيع أن يفعل ذلك. لم يحكم عليه دافو الذي نظر إليه بإنسانية فائقة. كان دافو قميناً أن يدرك، بعد لحظة، أنهم يقترفون عملاً شائناً لولا أن منعه المساعدُ العسكري من ذلك بدخوله. وهذا المساعد العسكري لم يَقْصد، في الظاهر، أن يسيء إليه، لكنه كان يستطيع ألا يدخل وإذنْ فمَنْ ذا الذي كان يعذّبه ويقتله وينتزع منه حياتَه، بكل ذكرياتها ومطامحها وآمالها وأفكارها؟ من ذا الذي كان يفعل ذلك؟ وأحس بطرس بأنه ما من أحد كان يفعل ذلك.

وإنما كان الفاعل هو النظام القائم، هو تضافر الظروف.

هذا النظام المجهول كان يقتله هو، بطرس، كان ينتزع حياته، كان ينتزع منه كل شيء، كان يبيده.

***

الفصل الحادي عشر

اقتيد السجناء رأساً، من منزل الأمير تشيرباتوف إلى أسفل حقل العذارى، على يسار دير دييفتشي، نحو بستان انتصب فيه عمود الإعدام. وخلف العمود حُفرت حفرةٌ كبيرة تكوّم حولها ترابٌ قُلب منذ هنيهة، وقد ازدحم حول الحفرة والعمود جمهورٌ غفير على شكل نصف دائرة. كان الجمهور يتألف من عدد صغير من الروس ومن أكثرية من جنود نابليون: الألمان والإيطاليين والفرنسيين في بزّات شتى. وعلى يمين العمود ويساره اصطف جندٌ فرنسيون مسلّحون، يلبسون بزات زرقاء ذات كتفيات حمراء، مع رانات وعمرات.

صُفَّ المجرمون بحسب ترتيب القائمة (كان بطرس السادس) واقتيدوا إلى جانب العمود. وانطلقت فجأة من الجانبين قرعاتُ طبل، فأحس بطرس لدى سماعه هذا الصوت بأن شيئاً يتمزّق في نفسه. وفقد ملكة التفكير والفهم. كان بوسعه فقط أن يرى ويسمع. وكانت فيه رغبةٌ واحدة، هي أن ينتهي بأسرع وقت ذلك الشيء الذي قُدّر له أن يتم. كان يلتفت إلى رفاقه ويتفحصهم.

كان الرجلان اللذان في أقصى الصف محكومين بالأشغال الشاقة حليقي الرأس. أحدهما طويل مهزول والآخر أسمر، أشعر عاضلٌ أفطس. وكان الثالث خادماً في نحو الخامسة والأربعين، أشيب الشعر،

جسيماً، ممتلئاً. أما الرابع فكان فلاحاً جميل الطلعة ذا لحية شقراء مروّحية وعينين سوداوين. وأما الخامس فكان عاملاً، فتى نحيلاً أصفر في الثامنة عشرة، يرتدي قميصاً فضفاضاً.

سمع بطرس الفرنسيين يتشاورون في الطريقة التي ينبغي أن يُعدم بحسبها المحكومون، واحداً واحداً أم اثنين اثنين؟ أجاب القائد بلهجة باردة هادئة: اثنين اثنين. فحدثت حركةٌ في صفوف الجنود، كانوا جميعاً يستعجلون في الظاهر، على أن عجلتهم لم تكن عجلة أناس سيؤدون عملاً يفهمه الجميع، وإنما عجلةُ أناس يريدون أن يفرغوا من عمل لابدّ منه، لكنه كريه وغير قابل للفهم.

اقترب ضابط فرنسي، على ذراعه ساعدةٌ، من الجهة اليمنى لصف السجناء وتلا الحكم بالروسية والفرنسية.

ثم دنا من المحكومين أربعة فرنسيين، اثنين اثنين، وأخذوا، بناء على إشارة من الضابط، المحكومَيْن بالأشغال الشاقة اللذين كانا في رأس الصف. وعندما وصل المحكومان إلى العمود توقفا ونظرا حولهما، أثناء الوقت الذي استغرقه المجيءُ بالأكياس، بصمت كما تنظر الطريدة الجريحة إلى الصياد وهو يتقدم. كان أحدهما لا يني يرسم إشارة الصليب، وكان الآخر يحكّ ظهره ويحرك شفتيه حركة تشبه الابتسامة. وبحركات سريعة، عصب الجنود عيونهما ووضعوا عليهما الأكياس وربطوهما إلى العمود.

برز من الصفوف اثنا عشر رامياً يحملون بنادقهم ويسيرون بخطى متّزنة ثابتة، ويقفون على ثماني خطوات من العمود. فأشاح بطرس بوجهه حتى لا يرى ما سوف يجري. وفجأة دوّتْ لعلعةٌ بدتْ لبطرس أعنف من أشد قصفات الرعد هولاً. وتطلّع. كان هناك دخانٌ،

وفرنسيون يفعلون شيئاً قرب الحفرة، وقد امتقعت وجوههم وارتجفت أيديهم. وجيء بالمحكومَيْن التاليين. فنظر هذان أيضاً، بالعيون نفسها، إلى الناس جميعاً بصمت، ليستجديا النجدة، دون أن يفهما، على ما يبدو، ما سوف يجري ودون أن يصدّقاه. لم يكن بوسعهما أن يصدّقاه لأنهما كانا يعلمان ما تمثّله الحياةُ بالنسبة إليهما، لذلك لم يكونا يفهمان، ولم يكونا يصدّقان أن تُنْتزع تلك الحياةُ منهما.

لم يكن بطرس يريد أن يتطلع فأشاح بوجهه مرة أخرى، لكن انفجاراً رهيباً صدم مسمعه مرة أخرى، وفي الوقت نفسه الذي انبعث فيه هذا الصوت رأى دخاناً ودماً ووجوهاً ممتقعة مرتعبة، هي وجوه الفرنسيين الذين كانوا يفعلون شيئاً، مرة أخرى، قرب العمود، وهم يتدافعون بأيدٍ مرتجفة. كان بطرس ينقّل عينيه حوله لاهثاً وكأنه يريد أن يسأل: ما معنى ذلك كله؟ وكان السؤال نفسه يُقرأ في جميع النظرات التي تلاقي نظرته.

كان بطرس يقرأ على وجوه الروس جميعاً، وعلى وجوه الجنود الفرنسيين والضباط، على وجوههم جميعاً بلا استثناء، الرعبَ نفسه الذي في قلبه والاستفظاع نفسه والصراع نفسه. «إنما مَنْ ذا الذي فعل ذلك؟ إنهم يتألمون جميعاً بقدر ما أتألم. من ذا الذي فعل ذلك؟ مَنْ؟» مرّتْ هذه الفكرةُ بباله كالبرق. صرخ أحدهم:

- رماة السرية ٨٦، إلى الأمام!

جيءَ بالخامس الذي كان إلى جانب بطرس وحده. لم يفهم بطرس أنه نجا وأنه لم يُؤْتَ به وبالآخرين جميعاً إلا ليشهدوا تنفيذ الإعدام. كان ينظر ما يجري باستفظاع لا يني ينمو، دون أن يحسّ فرحاً ولا سكينة. كان الخامس هو العامل ذا القميص الفضفاض. لم يكد الجنود

يمسّونه حتى وثب مرعوباً وتعلّق ببطرس (ارتعش بطرس وتملّص منه). لم يكن العامل يستطيع المشي. فجُرَّ من ذراعه وهو يصرخ. حتى إذا بلغ العمودَ سكتَ فجأة. وكأنما قد فَهِم شيئاً ما. فهل فهم أن صراخه كان بلا طائل، أو فكّر أن من المستحيل أن يُقْدِم هؤلاء الناسُ على قتله. على أية حال، لقد تجمّد أمام العمود منتظراً أن يُربط مع آخر وراح يُنقل حوله عينين ملتمعتين كما يفعل الحيوان الجريح.

لم يعدْ بوسع بطرس أن يَحْمل نفسه على الإشاحة بوجهه وإغماض عينيه. لقد بلغ فضوله وانفعاله، كما بلغ فضول الجمهور وانفعاله، ذروتهما عند هذا الإعدام الخامس. وكان هذا المحكوم الخامس يبدو هادئاً كسابقيه: كان يتدثر بقميصه الفضفاض ويفرك قدميه العاريتين إحداهما بالأخرى.

عندما عصبوا عينيه أصلح بنفسه العقدة التي كانت تضايقه في قذاله؛ ثم انقلب إلى الخلف عندما أسندوه إلى العمود الملطخ بالدم، ولما لم يُرِحْه هذا الوضع انتصب من جديد وصفّ قدميه جيداً واستند بهدوء. كان بطرس الذي لا يرفع عنه بصره يُتابعه في أدنى حركاته.

لاشك أن هناك صوتاً آمراً جلجل، ولاشك أن ثماني بنادق انطلقت بعد هذا الأمر. لكن بطرس لم يسمع أدنى انفجار بالرغم من الجهد الذي بذله فيما بعد ليتذكّر ذلك وإنما رأى العامل ينهار فجأة في أغلاله، وظهر الدمُ في موضعين، وارتخت الحبال تحت ثقل الجسم المنهار وإذا بالعامل يجلس أرضاً وقد انحنى رأسه على نحو غريب وانطوت ساقه. وركض بطرس إلى العمود فلم يردّه أحد. كان هناك حول العامل أناسٌ مرتعبون، ممتقعو الوجوه، يفعلون شيئاً ما. كان الفك السفلي لفرنسي عجوز مشورب يرتجف أثناء فكّه للحبال. سقط الجسد. فجره الجنود بارتباك وألقوا به، على عجل، في الحفرة، خلف العمود.

كانوا جميعاً يعلمون، بلا ريب، أنهم مجرمون عليهم أن يخفوا آثار جريمتهم بأسرع وقت.

ألقى بطرس نظرة خاطفة على الحفرة فرأى العامل راقداً وركبتاه في مستوى رأسه، وإحدى كتفيه أعلى من الأخرى. وكانت هذه الكتف تهبط وتصعد على نحو تشنّجي، منتظم. لكنْ سرعان ما انهال ترابُ المجارف على الجسد كله. وصاح جندي على بطرس بصوت ساخط، غاضب، مؤلم كي يعود إلى مكانه. لكن بطرس لم يفهم، وظل قرب العمود و لم يطرده أحد.

عندما طُمرت الحفرة دوّى الأمرُ، فأعيد بطرس إلى مكانه، واستدار الجند الفرنسيون المصطفون على جانبي العمود في نصف دائرة وساروا بخطى موزونة. ومضى الأربعة والعشرون رامياً الذين أُفرغتْ بنادقُهم والذين كانوا يقفون وسط الدائرة، مضوا راكضين إلى أماكنهم في الصف عندما مرّتْ أمامهم سريتُهم.

كان بطرس يتطلع الآن، بعينين فارغتين، إلى هؤلاء الرماة الذين أخذوا يخرجون من الدائرة اثنين اثنين، وهم يَعْدون. وقد لحقوا جميعاً بسريّاتهم ما عدا واحداً منهم. ظلّ هذا الجندي الشاب بوجهه الشاحب شحوب الموت أمام الحفرة، في الموضع الذي أطلق منه الرصاصَ وعمرتُه ساقطةٌ إلى الخلف، وبندقيته مخفوضة. كان يترنّح كالشارب الثمل، يقدّم رجلاً ويؤخّر أخرى لكي يحافظ على توازنه. فخرج من الصفوف مساعدٌ عجوز، وهو يجري، وأمسك به من كتفه وأعاده إلى سريته. وأخذ جمهور الروس والفرنسيين يتفرّق، كانوا جميعاً يسيرون بصمتٍ، مطرقين.

قال واحدٌ من بين الفرنسيين:

– سيعلّمهم هذا كيف يشعلون الحرائق.

التفت بطرس إلى ذاك الذي تكلّم فرأى أنه جندي يحاول عبثاً أن يُعزّي نفسه عمّا جرى. وقبل أن يتمّ كلامه حرّك يده حركةً تنمّ على التقزّز وولّى.

***

الفصل الثاني عشر

بعد تنفيذ الإعدام، فُصل بطرس عن السجناء الآخرين وتُرك وحده في كنيسة أصابها الدمار وحلّتْ بها القذارة.

وعند المساء، دخل الكنيسة مساعدٌ من الحرس ومعه جنديان وأنبأ بطرس بأنه قد عُفي عنه وأنه سينتقل الآن إلى خصاص أسرى الحرب. نهض بطرس وتبع الجنود دون أن يفهم ما قيل له. وسيق إلى خصاص بُنيت في أعلى الساحة من ألواح وأعمدة محترقة، أُدخل إلى واحد منها. وفي الظلمة، أحاط به ما يقرب من عشرين رجلاً. راح بطرس ينظر إليهم دون أن يعرف مَنْ هم، و لَم كانوا هنا، وما الذي يريدونه منه. كان يسمع الكلمات التي يقولونها دون أن يستخلص منها نتيجةً أو يجد لها وجهاً ذلك أنه لم يكن يفهم معناها. كان يجيب عن الأسئلة التي تُلقى عليه، لكنه لم يكن يتساءل عمّن يصغي إليه وكيف ستؤوّل أجوبته. لقد كان ينظر إلى الوجوه والأشباح فتبدو له خاليةً من المعنى.

منذ اللحظة التي رأى بطرس فيها هذا القتل الفظيع الذي ارتكبه رجالٌ ما كانوا يريدون ارتكابه، كان كمنْ انتُزع من نفسه النابضُ الذي يقوم عليه كل شيء ويهب الحياةَ لكل شيء، فانهار كل شيء في كومة مشوّهة من الحطام. انهار فيه إيمانه بالانسجام الشامل وبروح البشر وبروحه هو وبالله. وإن لم يتبيّن ذلك. كان بطرس قد عانى هذه

الحالة من قبل، لكنها لم تبلغْ قط مثل هذه القوة، فعندما كانت تنتابه قديماً شكوكٌ من هذا النوع، كانت أخطاؤه هي السبب. وكان يحسّ أن الخلاص من ذلك اليأس وتلك الشكوك كامنٌ في نفسه. أما الآن فهو يحس أن العالم ينهار أمام عينيه ولا يخلّف سوى الأنقاض العارية من المعنى، لكنه لا ينهار بسبب أخطائه؛ وهو يحس أن ليس بمقدوره أن يسترد إيمانه بالحياة.

كان الناس يحيطون به في الظلمة: لا ريب أن شيئاً فيه قد أثار اهتمامهم كثيراً. كانت تُروى له رواياتٌ، وتُطرح عليه أسئلة، ثم سيق إلى مكان ما، فإذا به أخيراً في زاوية من خصّ، بين رجال ينادي بعضهم بعضاً من كل جوانبه وهم يضحكون، قال صوتٌ من أقصى الخص:

– إذن، أيها الأصدقاء... إن نفس الأمير الذي...

قال ذلك مشدّداً بخاصة على كلمة «الذي».

كان بطرس يفتح عينيه تارة ويغمضهما تارة أخرى، وهو جالس بصمت وبلا حراك على القش، مستنداً إلى الجدار. لكن ما إن يغمضهما حتى يرى أمامه وجه العامل الفظيع، الفظيع خاصةً في بساطته، ويرى وجوه القتلة عن غير عَمْد، وهي أشد فظاعة في قلقها. ثم يفتح عينيه ويلقي، في الظلمة، نظرات شاردة من حوله.

كان يجلس بجنبه رجلٌ قصير، حاني الظهر، لاحظ بطرس وجوده أولاً بسبب الرائحة الكريهة التي تنبعث منه مع كل حركة من حركاته. وكان هذا الرجل يعالج شيئاً ما، في الظلمة، بقدميه، وقد أحسّ بطرس أنه لا يكفّ عن النظر إليه، مع أنه لم ير وجهه. وعندما تعوّدت عيناه الظلمة قليلاً، فهِمَ أن هذا الرجلَ كان يخلع حذاءه. فأثارتْ اهتمامه الطريقةُ التي يفعل بها ذلك.

بعد أن حلّ الخيوط التي تحيط بساقه لفّها بعناية وعكف على قدمه الأخرى وهو يرمق بطرس بنظراته. وبينما كانت إحدى يديه تعلق الخيط، كانت يده الأخرى تحلّ خيط القدم الثانية. حتى إذا احتفى بعناية، وبحركات رشيقة، دقيقة تتالتْ بغير تردّد، علّق حذاءَه بقضيب خشبي مُثبت فوق رأسه، وتناول سكينه فقطع به شيئاً ثم أغلقه ووضعه تحت وسادته، واعتدل في جلسته وأحاط ركبتيه المرفوعتين بذراعيه، وشخص بنظره إلى بطرس. أحسّ بطرس بما يبعث على الرضى والطمأنينة، وبما ينمّ على الرشاقة في حركات هذا الرجل الحاذقة، وفي متاعه الذي رُتّب أحسن ترتيب في زاويته تلك، بل وفي رائحته، فكان لا يرفع بصره عنه.

قال الرجل القصير فجأة:

– لاشك أنك لقيتَ شيئاً من هذه المزعجات، يا سيدي، أليس كذلك؟.

كان في صوته الرخيم كثير من الرفق والبساطة حتى أن بطرس أراد أن يجيبه، لكن فكه ارتجف وأحسّ بالدموع تطفر إلى عينيه. وفي اللحظة نفسها، استأنف الرجل القصير كلامه بالصوت العذب نفسه، دون أن يدع له الوقت لإبداء اضطرابه:

– إيه! يا صقري الصغير[1]، لا تغتمّ، لا تغتمّ، أيها الصديق: فالمحن تدوم ساعة وتبقى لنا حياتُنا الكاملة لنحياها! الأمرُ هكذا، يا عزيزي. الحمد لله، فنحن لا نحيا حياةً مفرطة السوء هنا. هناك الأشرار وهناك الأخيار أيضاً.

١– يا صقري الصغير: كلمة للتحبب تطلق على الشبان ولا سيما في الأغاني الشعبية.

قال ذلك على طريقة الفلاحات الروسيات الرقيقة، الرخيمة.

وجثا على ركبتيه بحركة مرنة، وهو يتكلم، ثم نهض وانصرف وهو يسعل إلى مكان آخر في الخص. سمع بطرس في الطرف الآخر من الخص نفس الصوت اللطيف:

– إنه! النذل، ها هو ذا! لقد عاد، النذل، إنه يتذكّر! دعْنا، دعْنا، كفى.

وعاد الجندي إلى مكانه، وهو يدفع عنه كلباً صغيراً كان يثب حوله، وجلس. كان يمسك في يديه شيئاً ملفوفاً بخرقة. قال وهو يستعيد لهجة الاحترام، ويُخرج من الخرقة بعض حبات البطاطا المشويّة في الرماد، ويمدّها إلى بطرس:

– خذْ وكلْ، يا سيدي. قد حصلنا على الحساء للعشاء. لكن البطاطا فاخرة!

لم يكن بطرس قد أكل شيئاً طوال النهار بدتْ له رائحة البطاطا شهية على نحو غريب. شكر الجنديَّ وراح يأكل.

قال الجندي وهو يبتسم ويأخذ واحدة من حبّات البطاطا:

– أهكذا تأكل البطاطا؟ انظرْ كيف ينبغي أن تفعل.

وأخرج سكينه من جيبه وقسم على راحة يده حبة البطاطا قسمين متساويين ورشّ عليها ملحاً تناوله من الخرقة ومدّها إلى بطرس مردّداً:

– إنها فاخرة، هذه البطاطا. كُلْ لي هذه.

خُيّل إلى بطرس أنه لم يذق ألّذ منها.

قال بطرس:

– سيّان عندي، لكنْ لِمَ أعدموا هؤلاء التعساء!.... كان عمر الأخير عشرين عاماً، على الأكثر.

قال الرجل القصير:

– هسْ، هسْ....

وأضاف بحدّة:

– يا للخطيئة، يا للخطيئة...

وتابع قائلاً، وكأنما كانت الكلمات جاهزةً أبداً في فمه تُفلت منه من تلقاء ذاتها:

– وإذنْ، فقد بقيت هكذا في موسكو، يا سيدي؟

قال بطرس:

– ما كنتُ أظنّ أنهم سيأتون بهذه السرعة. كان بقائي مصادفةً.

– لكن، كيف أخذوك، يا صقري الصغير، من بيتكَ؟

– كلا، وإنما ذهبتُ لأرى الحريق، وهناك قبضوا عليّ وعدّوني بعد المحاكمة مُشعلاً للحرائق.

فهمس الرجل القصير:

أينما تكنْ المحاكمة يكن الظلم.

سأله بطرس وهو يبتلع آخر قطعة من البطاطا:

– وأنت، أَمِنْ زمن بعيد أنت هنا؟

– أنا؟ قبضوا علي، الأحد الماضي، في مستشفى بموسكو.

– ومَنْ أنت، جندي؟

– جندي من فوج أبشيرون. كنت أموت من الحمّى. لم يقولوا لنا شيئاً. كنّا نحو عشرين رجلاً. ما كنّا نفكّر في ذلك ولا نتوقّعه.

سأله بطرس:

– وهل تحسّ بالضيق هنا؟

– كيف لا يحسّ المرء بالضيق، يا صقري الصغير. اسمي أفلاطون.

وأضاف، ولعله أراد أن يسهّل الحديث على بطرس:

– وكنيتي كاراتايف. وقد لقبّوني في الفوج بالصقر الصغير. كيف لا يحسّ المرء بالضيق، يا صقري الصغير! موسكو هي أم المدن. كيف لا يُحسّ المرء بالضيق وهو يرى هذا. لكن الدودة تقرض الملفوف وتموت قبله.

وأضاف بحرارة:

– كذلك كان الشيوخ يقولون.

سأله بطرس:

– كيف قلت ذلك، كيف؟

فسأله كاراتايف:

– أنا؟

وقال وهو يظن أنه يكرر ما قاله قبل هنيهة:

– قلتُ: إنه ليس لنا أن نحكم على الآخرين، وإنما الحكم لله.

وتابع، على الفور، مستفهماً:

- وإذن، فأنت تملك أراضي، يا سيدي؟ وبيتاً؟ كلُّ شيء، إذنْ، في وفرة! وخادمة تُعنى بشؤون المنزل؟ وأبواك، أما يزالان حيّين؟

ومع أن بطرس لم يره في الظلمة، إلا أنه كان يحسّ أن شفتي الجندي - تفترّان عن ابتسامة متحفظة من اللطف بينما كان يطرح أسئلته. وقد تألم تألماً واضحاً حين علم أنْ ليس لبطرس أبوان، أنْ ليس له أمٌّ بخاصة.

قال لبطرس:

- إنما الزوجةُ للنصيحة، والحماةُ للترحيب، لكن ليس هناك ما يعادل الأم!

وتابع:

- وهل لك أولاد؟

وتألم أيضاً عندما أجابه بطرس بالنفي وبادر فأضاف:

- لا أهمية لذلك، فأنت شاب، ويمكنك أن تنجب أطفالاً إن شاء الله. المهم هو الوفاق...

قال بطرس بالرغم منه:

- سواء عندي كل شيء، الآن.

فرد أفلاطون:

- ايه! يا عزيزي. ينبغي ألا نرفض أبداً لا الخُرْج ولا السجن.

واستقرّ في جلسته على نحو أروح وسعل، وكأنما كان يتهيأ لرواية قصة طويلة. وبدأ كلامه قائلاً:

– هكذا، يا صديقي العزيز، كنتُ ما أزال أعيش في المنزل. فالأملاك خصبة والأراضي كثيرة. والفلاحون يعيشون عيشة حسنة وكذلك نحن، الحمد لله. كان الأب يذهب إلى الحصاد سابع سبعة[1] كنا نعيش عيشة حسنة. كنا فلاحين حقيقيين. وانظرْ إلى ماحدث....

وروى أفلاطون كاراتايف قصة طويلة قال فيها أنه ذهب باحثاً عن الحطب في غابة رجل آخر حيث فاجأه الحارس فجلد وحوكم وسيق إلى الجندية. ثم قال بصوت كانت الابتسامة تغيّره:

– وكنا نظن، يا صقري الصغير، أن ما جرى مصيبة، فإذا به مسرّة! ولو لم أرتكب هذا الخطأ لذهب أخي. ولأخي الأصغر أربعة صبية، أما أنا فلم أترك سوى زوجتي. نعمْ، رُزقنا طفلة، لكن الله دعاها إلى جواره قبل أن أصبح جندياً. ولقد ذهبتُ إلى هناك مرةً في إجازة. ونظرتُ: إنهم يعيشون أفضل من ذي قبل. الفناء مليء بالحيوانات، والنساء في البيت، واثنان من أخوتي يعملان خارج القرية. ليس هناك سوى أخي الأصغر ميخايلو. قال إني إذ ذاك: كل أولادي سواسيةُ عندي: أيّ إصبع عضضتَها آلمتك. لو لم يأخذوا أفلاطون لكان على ميخايلو أن يذهب. ثم دعانا جميعاً –عساك أن تصدق ذلك– وأوقفنا أمام الأيقونات، وقال: «تعال، يا ميخايلو، واسجدْ أمامه، وأنت، يا امرأة، اسجدي أيضاً، وأنتم، أيها الصغار، أيضاً. أتفهمون». هكذا قال. اسمعْ، يا صديقي العزيز، إن القدر يختار ضحيّته، ونحن لا نكف عن الحكم: هذا غير حسن، وهذا شيء إن سعادتنا، يا صاحبي، كالماء في الشبكة: نجرها فتنتفخ فإذا سحبناها لم نجد شيئاً. الأمر كذلك.

غيرّ أفلاطون وضعه على القش. وبعد لحظات من الصمت نهض وقال:

١– أي مع ستة عمال بالغين من أسرته الكبيرة.

– هيّا، أظن أنك راغب في النوم؟

وأخذ يرسم إشارة الصليب بسرعة وهو يغمغم:

– أيها السيد يسوع المسيح، أيها القديس نيقولا، أيها الشفيعان فلور ولوران[1]، أيها السيد يسوع المسيح. أيها القديس نيقولا. أيها الشفيعان فلور ولوران، أيها السيد يسوع المسيح، ارحْمنا وخلِّصْنا!

فرغ من دعائه وهو ينحني إلى الأرض، ثم نهض وزفر زفرة، ثم جلس على القش، وقال:

– هكذا، أنمْني، أيها الرب، مثل حجر، وأنهضني كرغيف ناضج.

واستلقى وهو يسحب عليه معطفه.

سأله بطرس:

– ما هذه الصلاة التي تلوتَها؟

قال أفلاطون (وكان قد نام):

– ماذا؟ ما كنتُ أتلوه؟ كنت أصليّ لله. وأنتَ، ألا تصلّي؟

قال بطرس:

– بلى، إني أصلّي أيضاً. لكنْ ما الذي كنتَ تقوله عن فلور ولوران؟

أجاب أفلاطون بحدّة:

– وكيف لا تعرفهما؟ إنهما شفيعا الخيل. ينبغي أن نرأف بالحيوانات

١– فلور ولوران: الشهيدان فلور ولوران اللذان يقع عيدهما في ١٨ آب، كانا مكرمين في روسيا بوصفهما شفيعين حاميين للخيل.

أيضاً. انظرْ لي إلى هذا النذل، لقد تكوّم كالكرة، ابن الكلبة، فأدفأ نفسه.

قال ذلك وهو يمسّ الكلبَ اللابد عند قدميه، ثم استدار إلى الجهة الأخرى وسرعان ما نام.

كانت تُسمع في الخارج، في مكان بعيد، أصواتُ نحيب وصرخات ومن خلال شقوق الخص كانت تُرى النار؛ أما في الداخل فقد كان الصمت والعتمة مخيّمين. ظل بطرس زمناً طويلاً مضطجعاً دون أن ينام، مفتّحاً عينيه في الظلمة، مصغياً إلى الشخير المنتظم لأفلاطون المستلقي بالقرب منه، وكان يشعر أن العالم الذي انهار أخذ يقوم من جديد في نفسه، بجمال جديد، وعلى أسس جديدة لا تتزعزع.

***

الفصل الثالث عشر

كان في الخص الذي سيق إليه بطرس والذي قضى فيه أربعة أسابيع، ثلاثةٌ وعشرون جندياً وثلاثةُ ضباط وموظفان.

تذكّرهم جميعاً، فيما بعد، فكان كأنما يراهم من خلال الضباب، أما أفلاطون كاراتايف فقد ظل منقوشاً في نفسه وكأنه أقوى الذكريات وأغلاها، وكأنه تجسيد لكل ما هو روسي، لكل ما هو خيّر صادق الطوية ومتسق. وعندما رأى بطرس جاره، في اليوم التالي، تأكد في نفسه تماماً انطباعه الأول بالصدق والاتساق: كان كل شخص أفلاطون في معطفه الفرنسي المزنّر بحبل، بقبعته وحذائه متسقاً، كان رأسه متسقاً كل الاتساق، كان ظهره وصدره وكتفاه وحتى ذراعاه اللتان كان يرخيهما وكأنه يريد أن يضم شيئاً بينهما، كل ذلك كان متسقاً؛ كانت بسمته اللطيفة وعيناه الكبيرتان العسليتان الحنونتان متسقة.

لابدّ أن أفلاطون كاراتايف قد جاوز الخمسين إذا حكمنا عليه بما كان يرويه عن الحملات التي شارك فيها بوصفه جندياً قديماً. كان هو نفسه يجهل عمره ولا يُفلح في تحديده؛ لكن أسنانه المتينة الناصعة البياض التي كان يكشف عن صفيها حين يضحك (وما أكثر ضحكه) كانت قوية وسليمة؛ ولم تكن في لحيته أو شعره شعرة بيضاء، وكان جسده كله ينمّ على المرونة وينم خاصة على القوة والجلد.

كان وجهه، بالرغم من بعض التجاعيد الصغيرة المستديرة، يعكس البراءة والشباب، وكان صوته عذباً رخيماً، لكنّ سمتَه الأساسية كانت العفوية واليسر اللذين كان يتكلم بهما. كان يبدو عليه أنه لا يفكر بما قاله وبما سيقوله؛ ولذلك كان في سرعة نبراته وصحتها قوةٌ خاصةٌ عاتيةٌ، من الإقناع.

وقد بلغتْ مقاومتُه الجسدية وخفتُه مبلغاً بدا معه، في آونة الأسر الأولى، أنه لا يعرف التعب والمرض. كان يقول كل مساء حين يضطجع «أَنِمْني، يا إلهي، مثل حجر، وكل صباح حين ينهض «أَنْهضني، أيها الرب، مثل رغيف ناضج». كان يقول دائماً حين ينهض صباحاً مع حركة من كتفيه لا تتغيّر: «يضطجع المرءُ وهو يتكوّر كالكرة، وينهض وهو ينتفض». والواقع أنه لا يكاد يضطجع حتى يغفو على الفور مثل حجر، ولا يكاد ينتفض حتى يتصدى على الفور لعمل من الأعمال، دون أن يُضيع ثانية، كالأطفال الذين سرعان ما يعودون إلى لُعبهم حين يستيقظون. كان يستطيع أن يعمل كل شيء بشكل مقبول وإن لم يكن بالغ الجودة. كان يخبز الخبز ويطهو الطعام ويخيط وينجر ويصنع الأحذية. وكان مشغولاً دائماً فلا يبيح لنفسه أن يثرثر، وهو شيء كان يحبه كثيراً، وأن يغني، إلا إذا جاء الليل. وكان يغني لا كالمغنين الذين يعلمون أن الناس يصغون إليهم، بل كما تغني العصافير، لأن إصدار الأنغام، بالنسبة إليه، كان لابد منه، كما أنه لابدّ أحياناً من التمطّي أو تحريك الساقين؛ أما هذه الأنغام فكانت حلوةً، رقيقة، أنثوية تقريباً، وكئيبة، وكان وجهه حينئذ رصيناً، شديد الرصانة.

عندما وقع أسيراً وطالت لحيته، بدا واضحاً أنه قد انسلخ من الجانب الغريب والعسكري الذي اكتسبه، وعاد، بالرغم منه، كما كان من قبل، الفلاحَ ابن الشعب.

كان يقول:

– الجندي المأذون يرتدي قميصه خارج بنطاله.

لم يكن يحبّ أن يتحدث عن أيام خدمته، مع أنه لم يَشْكُ قط، ومع أنه كان يردد كثيراً أنه لم يُضرَبْ قط طوال هذه الفترة. وكان إذا أخذ يروي تحدّث عن ذكرياته القديمة التي كانت عزيزة عليه بشكل واضح، تحدث عن حياته: حياة الفلاح، «المسيحي»، كما كان يلفظها[1]. و لم تكن الأمثال التي ترصّع أحاديثه لتشبه في شيء تلك الأمثال البذيئة السفيهة، في معظمها، التي يستخدمها الجنود، وإنما كانت حكماً شعبية إذا نُظر إليها وحدها، بمعزل عن الكلام، بدتْ تافهةً، فارغة من المعنى، وإذا استُعملتْ في مكانها اكتسبتْ فجأة، حكمة عميقة.

ما أكثر ما كان يناقض نفسه، لكنّ ما كان يقوله كان صحيحاً دائماً. كان يحب الكلام ويجيده، ويزين أحاديثه بالأسماء المصغّرة وبالأمثال التي يخترعها هو نفسه، كما خُيّل إلى بطرس؛ لكن السحر الأساسي لحكاياته يكمن في أن أبسط الأحداث، تلك التي كان بطرس يراها أحياناً ولا يلتفت إليها، تكتسي، في فمه، طابعاً من اللياقة الجليلة. كان يحب أن يصغي إلى الحكايات (وهي دائماً نفسها) التي يرويها أحد الجنود مساء، لكنه كان يفضل قصص الحياة الواقعية على كل شيء. وكان يبتسم بفرح، وهو يصغي إلى هذه الحكايات، فيعلّق بكلمة ويلقي أسئلة تهدف إلى تثبيت الجانب الأخلاقي فيما يُروى له. لم يكن له تعلّق

١– حياة الفلاح «المسيحي»: إن كلمة Krestianine (المشتقة من Krest أي الصليب) التي تدل، منذ القرن الثالث عشر، على الفلاحين الروس، ليست سوى صيغة شعبية للكلمة الفصيحة Christianine أي مسيحي، على أن أفلاطون يستخدم الصيغة الثانية كتسمية للفلاح.

ولا صداقة ولا حب كما يفهمها بطرس؛ لكنه كان يحب كل إنسان، ويحيا بمودة تامة مع كل ما تضعه الحياة بحضرته، ولاسيّما مع الناس الذين هم تحت بصره، لا مع هذا الإنسان أو ذاك. كان يحب كلبه الصغير، ورفاقه، والفرنسيين، ويحب بطرس الذي كان جاره؛ لكن بطرس كان يحس أن كاراتايف، بالرغم من المحبة الحنونة التي يبديها له (والتي كانت تكريماً تلقائياً لحياة بطرس الروحية)، لن يحزن لحظة واحدة لفراقه. وأخذ بطرس يحس تجاه كاراتايف بالإحساس نفسه.

كان أفلاطون كاراتايف بالنسبة إلى جميع الأسرى الآخرين جندياً عادياً جداً؛ كانوا يسمّونه «الصقر الصغير» أو بلاتوشا، ويسخرون منه بطيبة قلب، ويرسلونه في خدمات يؤدّيها لهم. أما بالنسبة إلى بطرس فقد ظلّ أبداً، كما بدا له في الليلة الأولى، مستعصياً على الفهم، صادقاً ومتسقاً، وتجسيداً أبدياً لروح البساطة والحقيقة.

لم يكن أفلاطون كاراتايف يحفظ شيئاً عن ظهر قلب، ما عدا صلاته. وكان، عندما يروي حكاية، كأنما لا يعلم، وهو يبدؤها، كيف سينهيها.

وعندما كان بطرس يسأل أفلاطون، وهو منذهل أحياناً من معنى أقواله، أن يكرر تلك الأقوال، فقد كان يعجز عن تذكر ما قاله قبل حين عجزه عن أن يقول لبطرس كلمات أغنيته المفضّلة. كانت تدور حول «بتولتي الصغيرة الغالية، وأنا أذوي»، لكن هذه الكلمات لا معنى لها حين تُقال كلاماً. لم يكن يفهم ولم يكن يستطيع أن يفهم قيمة كلمة مأخوذة على حدة. كان كلٌ من أقواله وأفعاله مَظْهراً لنشاط لا شعوري هو حياته. على أن حياته، كما كان يراها هو نفسه، لم يكن لها معنى من حيث هي حياة فردية. لم يكن لها من معنى إلا باعتبار أنها جزء من كل ما يحس به دائماً. كانت أقواله وأفعاله تنبعث عنه على نحو منتظم،

ضروري، عفوي، كما ينبعث الأريج من الزهر، لم يكن بوسعه أن يفهم قيمة (كلمة أو فعل أو معناهما) إذا أخذا منفصلين عن غيرهما.

***

الفصل الرابع عشر

عندما علمت الأميرة ماريا أن أخاها يُقيم لدى آل روستوف في اياروسلافل[1]، تهيّأت، بالرغم من تنبيهات خالتها، للسفر في الحال، لا وحدها بل مصطحبة معها ابن أخيها. أمّا أن يكون ذلك سهلاً أو صعباً، ممكناً أو غير ممكن، فهذا ما لم تسأل عنه و لم تشأ أن تعرفه: كان واجبها يقتضيها لا أن تكون فقط بجانب أخيها الذي ربما كان مشرفاً على الموت، بل أن تبذل وسعها لتحمل إليه ابنه، فاستعدت للسفر. وإذا كان الأمير آندريه لم يخبرها هو نفسه بشيء فقد علّلت ذلك بينها وبين نفسها بأنه كان أضعف من أن يكتب أو أنه كان يعتبر هذه الرحلة الطويلة مفرطة الصعوبة والخطر بالنسبة إليها وإلى ابنه.

في بضعة أيام، كانت الأميرة ماريا مستعدة للسفر. كانت عدتها عربة الأمير البرلينية الضخمة التي جاءت بها إلى فورونيج، وعربة عادية أخرى وعربة نقل. وكانت تصطحب معها الآنسة بورين ونيقولا الصغير ومربّيه، والمربية العجوز وثلاث خادمات وتيخون وخادم شاب وحارس أعارتها إياه خالتها.

ما كان ينبغي التفكير في سلوك الطريق العادية التي تمر بموسكو، وكانت الطريق الملتوية التي ستتبعها الأميرة ماريا والتي تمرّ بليبيتزك،

١ – أياروسلافل: مركز مقاطعة على الفولغا الأعلى، على ٢٦٠كم شمالي موسكو.

ريازان، فلاديمير[1]، شويا، طويلة جداً، عسيرة جداً بسبب نقص خيول البريد في بعض الأماكن، بل إنها كانت شديدة الخطر قرب ريازان حيث كان الفرنسيون يظهرون (كما كان الناس يقولون).

دهشت الآنسة بوريين ودهش ديسال[2] وخدم الأميرة ماريا، طوال هذه الرحلة الشاقة، من صلابة الأميرة ماريا ونشاطها. كانت آخر من ينام وأول من ينهض، ولا تستطيع أية صعوبة أن توقفها. وبفضل نشاطها وطاقتها اللذين كانا يبعثان العزم في رفاق طريقها، بلغوا اياروسلافل في نهاية الأسبوع الثاني.

عرفت الأميرة ماريا، في الآونة الأخيرة من إقامتها في فيرونيج، أعظم سعادة في حياتها. لم يعد حبها لروستوف يعذّبها أو يقلقها. كان هذا الحب يملأ نفسها، وقد غدا جزءاً لا يتجزأ منها، فكفّتْ عن مقاومته. كانت الأميرة ماريا مقتنعة، في هذه الآونة الأخيرة، بأنها محبوبة وبأنها تُحب، دون أن تقول ذلك لنفسها بوضوح.

حصلتْ على هذا اليقين أثناء لقائها الأخير لنيقولا، عندما جاء ينبئها أن أخاها يقيم مع آل روستوف، ولم يلمّح نيقولا إلى استئناف ممكن للعلاقات القديمة بين الأمير آندريه وناتاشا (في حال شفاء الأمير آندريه)، لكنها رأت على وجهه أنه كان يعلم ذلك ويفكر فيه. على أن موقفه المرهف، الرقيق، المتودّد لم يتغيّر، بل إنه كان يبدو مسروراً من أن القرابة بينهما قد أتاحت له أن يعبّر للأميرة ماريا عن صداقته الغرامية بمزيد من الحرية، كما كانت تأمل أحياناً. كانت تعلم أنها تحب لأول مرة ولآخر مرة في حياتها، وكانت تحسّ أنها محبوبة، وكانت سعيدة ومطمئنة بهذا الصدد.

---

١ – ريازان، فلاديمير: مركزان من مراكز المقاطعات شرقي موسكو.

٢ – ديسال: المربي الفرنسي.

لكن سعادة القلب هذه لم تمنعها من أن تحسّ بالحزن على أخيها، بكل ما في الحزن من قوة، بل على العكس، لقد أتاحت لها سكينة النفس التي كانت تتمتع بها من جهة الحب، أن تستسلم كلياً لعطفها على أخيها. وكان هذا الإحساس قوياً جداً في اللحظة الأولى من سفرها من فورونيج حتى أن الذين رأوها تسافر اقتنعوا، حين شاهدوا وجهها المنقلب، اليائس، بأنها ستقع مريضة في الطريق، لكن مشاقّ السفر وهمومه التي انهمكت فيها بهمة ونشاط أنقذتها زمناً من حزنها ووهبتها القوة.

وكما يقع دائماً، لم تكن الأميرة ماريا تفكّر إلا في السفر نفسه، ناسيةً الهدف من وراء ذلك السفر. لكنها عندما اقتربت من إياروسلافل وتذكرت ما قد ينتظرها، لا في مدى أيام عديدة بل في المساء نفسه، أصابها انفعالٌ لا حدود له.

عندما عاد الحارس الذي أُرسل مقدماً ليستعلم عن منزل آل روستوف في ياروسلافل وعن حالة الأمير آندريه، ولقي عند الحاجز العربة البرلينية الكبيرة تدخل المدينة، ارتاع حين رأى شحوب الأميرة التي انحنت من الباب لتكلّمه. قال:

- حصلتُ على جميع المعلومات، يا صاحبة السعادة: آل روستوف يقطنون عند الساحة، في بيت التاجر برونيكوف. ليس المنزل بعيداً، هو فوق الفولغا بالضبط.

نظرت إليه الأميرة ماريا نظرة مستفهمة، مرتعبة دون أن تفهم لم لم يجب عن السؤال الرئيسي: حالة أخيها. فألقت الآنسة بورين هذا السؤال بدلاً منها:

- وكيف حال الأمير آندريه؟

– سعادته معهم، في البيت نفسه.

فكرت الأميرة: «إذن، فهو حي»، وسألت بصوت خافت:

– وكيف حاله؟

– يقول الخدم أنه ما يزال على حالته.

لمْ تسأل الأميرة عن معنى: «مايزال على حالته»، واكتفت بأن ألقتْ بنظرتها خلسة على نيقولا الصغير الجالس قبالتها والذي كان، بسنواته السبع، يبتهج بمنظر المدينة، وأطرقت رأسّها و لم ترفعه إلا عندما توقفت العربةِ الثقيلة في مكان ما وهي تنتفض وتصرّ وترتجّ واصطفقت المراقي حين أُنزلت.

انفتحت أبوابُ العربة. كان، إلى اليسار، مساحة ممتدة من الماء هي النهر الكبير، وإلى اليمين سطح درج؛ وعلى هذا السطح أناس وخدم وفتاة نضرة لها ضفيرة كبيرة سوداء تبتسم ابتسامةً خُيّل إلى الأميرة ماريا أنها تتصنعها تصنعاً، (كانت الفتاة صونيا). صعدت الأميرة الدرجَ وهي تركض، قالت الفتاة التي كانت تتصنع الابتسام: مِنْ هنا، من هنا! فألفت الأميرة ماريا نفسها في غرفة انتظار، ازاء سيّدة مسنة ذات طابع شرقي أقبلت عليها مسرعة وعلى وجهها سيماء التأثر. كانت تلك هي الكونتيسة العجوز. ضمّتْ الأميرة ماريا بين ذراعيها وراحت تعانقها. قالت:

– يا ولدي! إني أحبك وأعرفك منذ زمن طويل.

أدركت الأميرة ماريا، بالرغم من انفعالها الشديد، أن هذه هي الكونتيسة وأنه يجب أن تقول لها شيئاً. فتلفظت، دون أن تعلم كيف، بكلمات مجاملة بالفرنسية، مستخدمة اللهجة نفسها التي قابلتها بها الكونتيسة وسألتْ:

- كيف حاله؟

أجابت الكونتيسة:

- قال الطبيب: إن الخطر قد زال.

لكنها عندما قالت ذلك رفعتْ عينيها إلى السماء وزفرت زفرة، وكان في هذه الحركة تعبيرٌ يكذّب أقوالها.

قالت الأميرة:

- أين هو؟ وهل يمكن أن أراه، هل يمكن.

قالت الكونتيسة وهي تلتفت إلى نيقولا الصغير الذي دخل مع ديسال:

- على الفور، يا أميرة، على الفور، يا صديقتي. أهذا ابنه؟ البيت واسع، وفيه ما يكفي من الأماكن. أوه! يا له من طفل ساحر!

قادت الكونتيسة الأميرة إلى الصالون. كانت صونيا تتحدّث مع الآنسة بوريين. داعبت الكونتيسة الصبيّ. دخل الكونت العجوز ليسلّم على الأميرة. لقد تغير كثيراً منذ آخر مرة رأته فيها. كان، إذ ذاك، شيخاً قصيراً، رشيقاً، مرحاً، واثقاً من نفسه، أما الآن فهو يوحي بأنه رجل جديرٌ بالرثاء، وأنه في حيرة من أمره. كان لا يكفّ، وهو يكلّم الأميرة، عن إلقاء النظرات حوله، كأنه يسأل الجميع إن كان يفعل جيداً ما ينبغي فعله. لقد بدا جلياً، بعد نكبة موسكو ودماره الشخصي، حين ألقي به خارج نطاق حياته المعتادة، أنه فقد الشعور بأهميته وكان يحس أنه زائد عن اللزوم في الحياة.

مع أن رغبة الأميرة الوحيدة كانت في أن ترى أخاها بأسرع وقت،

وبالرغم من الحنق الذي سببته لها آداب السلوك ومجاملات اللياقة بصدد ابن أخيها، في حين أنها لم تكن تريد إلا شيئاً واحداً هو أن تراه، إلا أنها كانت تلاحظ كل ما يجري حولها وتحس بضرورة الخضوع زمناً لهذه الشروط الجديدة التي دخلت فيها. كانت تعلم أن كل ذلك لابد منه، ولهذا لم تحقدْ عليهم وإن شقّ عليها ذلك.

قال الكونت وهو يقدّم لها صونيا:

– هذه ابنة أختي، ألا تعرفينها بعد، يا أميرة؟

التفتت الأميرة نحو صونيا وجهدت في خنق شعور العداء الذي كان يضطرم فيها على هذه الفتاة، فعانقتها. لكنها بدأت تتألم من أن الحالة النفسية للذين يحيطون بها بعيدة إلى هذا الحد عما يجري في نفسها.

سألت مرة أخرى مخاطبةً الجميع:

– أين هو؟

أجابت صونيا وهي تحمرّ:

– إنه تحت، وناتاشا معه. لقد ذهب مَنْ يُخبر عنك. لابدّ أنك متعبة، فيما أقدّر، أيتها الأميرة؟

طفرت دموع الحنق من عيني الأميرة. واستدارت وأوشكت أن تسأل الكونتيسة عن الطريق لتذهب إلى غرفة أخيها، حين تناهى عند الباب، وقعُ خطى خفيفة، مندفعة، خطى تبدو مرحة. التفتت الأميرة فشاهدت ناتاشا تدخل وهي تكاد تركض، ناتاشا هذه التي لم تعجبها في شيء، أثناء مقابلتهما البعيدة في موسكو.

لكنها لم تكد تشاهد وجه ناتاشا هذه حتى أدركت أنها رفيقة ألمها الصادقة ومن ثمّ فهي صديقتها. فاندفعت للقائها وطوقتها وبكت على كتفها.

ما إن علمت ناتاشا التي كانت جالسة عند رأس الأمير آندريه بوصول الأميرة ماريا، حتى خرجت بهدوء من غرفته وجرت إليها بهذه الخطى السريعة التي خيّل إلى الأميرة ماريا أنها خطى فرحة.

عندما دخلت إلى الصالون راكضة لم يكن على وجهها المنفعل سوى تعبير واحد، هو تعبير عن الحب، حب لا نهائي له، لكل ما هو قريب من الإنسان الذي أحبته، تعبير عن الشفقة والعطف والرغبة المشبوبة في أن تبذل نفسها، ما وسعها البذل، في سبيل عونهم. وكان واضحاً في هذه اللحظة أن كل فكرة عن نفسها وعن علاقاتها به، كانت غائبة عن نفس ناتاشا.

لقد أدركت الأميرة ماريا القوية الحدس ذلك كله من النظرة الأولى إلى وجه ناتاشا، فبكت بفرح مرير على كتفها.

قالت ناتاشا وهي تأخذها إلى غرفة أخرى:

– هيّا بنا، هيا بنا إليه.

رفعت الأميرة ماريا وجهها ومسحت دموعها ونظرت إلى ناتاشا. كانت تحس أنها ستعرف كل شيء وستفهم كل شيء منها.

شرعت تقول:

– كيف....

لكنها توقفت فجأة. شعرت أنه لا يمكن السؤال والجواب

بالكلمات. كان بوسع وجه ناتاشا وعينيها أن تقول كل شيء على نحو أوضح وأعمق.

كانت ناتاشا تنظر إليها، لكنها بدت وكأنها فريسة للقلق والشك: هل ينبغي لها أن تقول كل ما تعرفه أم لا؟ أحست إحساساً غامضاً أن من غير الممكن، أمام هاتين العينين المضيئتين اللتين تنفذان إلى أعمق أعماق قلبها، ألاّ تقول الحقيقة كاملةً، كاملةً، كما تراها. وفجأة، ارتجفت شفتها، وتشوّه وجهها من تكشيرة الإجهاش بالبكاء، ثم انفجرت منتحبة وغطت وجهها بيديها.

أدركت الأميرة ماريا كل شيء.

ومع ذلك فقد ظل الأمـل يخالجها، وسألت بكلمات لم تكن تصدّقها:

– كيف حال جرحه؟ وكيف حاله، على العموم؟

كل ما استطاعت أن تقوله ناتاشا:

– سوف، سوف... ترين.

بقيتا بعض الوقت تحت، قرب غرفته، لتجففا دموعهما ولتدخلا إليه بوجه هادئ.

سألت الأميرة ماريا:

– كيف سار مرضه؟ هل ساءت حالته منذ زمن بعيد؟ متى حدث ذلك؟

روتْ ناتاشا أن الحمى والوجع عرضّاه للخطر، في الآونة الأولى، لكن الخطر زال في ترويستا، وأن الطبيب لم يكن يخشى آنذاك إلا

شيئاً واحداً هو الغنغرينة. لكن هذا الخطر زال أيضاً. وعند وصولهم إلى أياروسلافل، أخذ الجرح يتقيّح (كانت ناتاشا تعرف كل ما يتصل بالتقيّح، الخ.) وقال الطبيب أن التقيح يمكن أن يتبع تطوره الطبيعي. وظهرت الحمى. فقال الطبيب إن هذه الحمى لا تنطوي على خطر كبير.

أخذت ناتاشا تقول:

– لكنْ منذ يومين، حدث «ذلك» فجأة....

بلعتْ ناتاشا نحيبها وأردفت:

– لست أدري لماذا، لكنك سترين كيف صار.

سألتها الأميرة:

– هل ضعف؟ هل هزل؟

– لا، ليس الأمر كذلك، الأمر أسوأ. سترين. آه! يا ماريا، إنه عظيم الطيبة، إنه لا يستطيع، لا يستطيع أن يعيش لأن...

***

الفصل الخامس عشر

عندما فتحت ناتاشا الباب بحركة عادية وفسحت الطريق للأميرة، أحستْ الأميرة ماريا بالزفرات تعتصر حنجرتها. وبالرغم من الجهود التي بذلتها لكي تتهيّأ وتهدأ، فقد كانت تعلم أنها لن تقوى على رؤيته دون أن تبكي.

فهمت الأميرة ماريا ما الذي عنتْه ناتاشا بهذه الكلمات: «حدث ذلك منذ يومين». فهمت أن ذلك يعني أن نفسه قد رقّت، وأن هذه الرقة، هذا التحنّن من علامات الموت القريب. وعندما وصلت إلى الباب رأت بعين الخيال وجه الصغير آندريه، حبيب طفولتها، ذلك الوجه الوادع، الحلو الذي قلّما حافظ عليه فيما بعد والذي كان من أجل ذلك يهزّها هزّاً. كانت تعلم أنه سيقول لها تلك الكلمات الحلوة والرقيقة التي قالها لها أبوها قبل وفاته، وأنها لن تستطيع احتمالها وسوف تجهش بالبكاء. لكنْ، كان لابدّ من ذلك عاجلاً أم آجلاً، فدخلت الغرفة. كانت، كلما ميّزت بعينيها الحسيرتين شخصه تمييزاً أوضح وكلما بحثت عن قسماته صعدت الزفرات إلى حنجرتها، وها هي ذي ترى وجهه وتلاقي نظرته.

كان مضطجعاً على أريكة، محاطاً بالوسائد، في مبذل مبطّن بفرو السنجاب. كان نحيلاً، شاحباً. كانت إحدى يديه، وهي يد معروقةٌ،

شاحبة إلى حدود الشفافية، تمسك بمنديل، وكان، يمسّد بيده الأخرى شاربيه الدقيقين، بحركة خفيفة من أصابعه. وراحت عيناه تتطلعان إلى اللتين دخلتا.

عندما رأت الأميرة ماريا وجهه ولاقت نظرته تريثت في مشيتها وأحست فجأة بدموعها تجف وبزفراتها تتوقف. وإذ تبينتْ تعبير وجهه ونظرته انتابها الخوفُ، على حين غرّة، وأحست أنها مذنبة.

تساءلت: «لكنْ، فيم أذنبتُ؟

أجابت نظرتُه الباردة، الصارمة: «في أن تَحْيِيْ وأن تفكري في الحياة، بينما أنا!...

كان في هذه النظرة العميقة، المتجهة لا إلى الخارج بل إلى داخل الذات، ما يُشبه العداء عندما لفَّ بها أخته وناتاشا ببطء

قبّل أخته، ويده في يدها، حسب عادتهما، وقال بصوت متساو، غريب كنظرته.

- مرحباً، يا ماري. كيف فعلت لتصلي إلى هنا؟

لو أنه أطلق صرخة تمزّق الأحشاء لما روعت تلك الصرخةُ الأميرة ماريا بمقدار ما روّعها جَرْس ذلك الصوت.

ثم قال بنفس الصوت المتساوي البطيء، وهو يبذل جهداً ظاهراً لكي يتذكر:

- وجئتِ بنيقولا الصغير معك؟

سألته الأميرة ماريا، وقد دهشت هي نفسها مما تقول:

- كيف ترى نفسك الآن؟

قال:

- عن هذا، اسألي الطبيب، يا صديقتي.

وبذل جهداً ظاهراً آخر ليكون لطيفاً، فقال بشفتيه وحدهما (كان واضحاً أنه لم يفكّر قط فيما قال):

- شكراً، يا صديقتي الغالية، على مجيئك.

شدّت الأميرة ماريا على يده. فكشّر تكشيرة لا تكاد تُلمح من هذا الشد. كان ساكتاً و لم تعرف هي ما تقوله. وأدركت حينئذ ما جرى له منذ يومين. لقد كان في أقواله، في لهجته، ولاسيّما في هذه النظرة، وهي نظرة باردة، تكاد تكون عدوانية، كان في ذلك كله ما يُنبئ بالتجرد من جميع الأشياء الأرضية، تجرد رهيب في نظر الأحياء. كان يبدو عليه أنه يفهم بصعوبة ما هو حي؛ لكنْ، كان واضحاً، في الوقت نفسه، أن ذلك لا يأتي من أنه كان حُرم ملكة الفهم، بل لأنه كان يفهم شيئاً آخر، شيئاً لم يكن يفهمه الأحياء وليس بمقدورهم أن يفهموه، شيئاً كان يستغرقه كله.

قال وهو يقطع الصمت ويشير إلى ناتاشا:

- نعم، كيف جمعنا القدر على هذا النحو الغريب! إنها تُعنى بي دائماً.

كانت الأميرة ماريا تصغي ولا تفهم ما يقول. كيف استطاع وهو آندريه الرقيق الحنون، أن يتكلم هكذا أمام التي يحبها وتحبه! لو كان يعتقد أنه سيحيا لما قال ذلك بتلك اللهجة الباردة جداً والجارحة جداً.

لو لم يكن يعلم أنه سيموت فكيف لا يرأف بها، وكيف أمكنه أن يقول ذلك بحضرتها! هناك تفسير واحد ممكن، هو أن كل شيء سواء عليه، وأن كل شيء سواءٌ عليه لأن شيئاً آخر، شيئاً أعظم خطراً قد انكشف له.

كان الحديث بارداً، متقطعاً، يتلاشى في كل لحظة.

قالت ناتاشا:

- مرّت ماريا بريازان.

لم يلاحظ الأمير آندريه أنها كانت تدعو أخته ماريا. أما ناتاشا فحين دعتها باسمها أمامه فطنت بذلك لأول مرة.

قال:

- ماذا تقصدين؟

- لقد قيل لها أن موسكو غدت رماداً بأكملها، بأكملها، وأن الظاهر...

توقفت ناتاشا: لم يكن الكلام ممكناً. لقد كان يبذل جهداً واضحاً ليصغي لكنه لم يكن يفلح في ذلك.

- نعم، لقد احترقتْ، كما يُقال. وذلك مؤسف حقاً.

وشخص ببصره أمامه بينما كان يمسّد شاربيه بأصابعه وهو شارد اللب.

قال الأمير آندريه فجأة وهو واضح الرغبة في أن يُدخل السرور إلى قلبيهما:

- لقيتِ الكونت نيقولا، اذن، يا ماريا؟

وتابع ببساطة وهدوء وكأنه كان عاجزاً عن فهم مدلول كلماته المركّب بالنسبة إلى الأحياء:

– لقد كتب إلى هنا يقول: إنك تعجبينه كثيراً.

وأضاف بسرعة أكبر، وكأنه كان سعيداً حين وجد أخيراً الكلمات التي طالما بحث عنها:

– وإذا أعجبك أيضاً، فسيكون حسناً جداً... أن تتزوجا.

استمعت الأميرة ماريا إلى هذه الكلمات ولم يكن لها عندها من معنى سوى التدليل على أن أخاها بعيدٌ الآن بعداً رهيباً عن عالم الأحياء.

قالت بهدوء:

– ما جدوى الكلام عليّ!

نظرت إلى ناتاشا، وحين أحست ناتاشا بنظرتها عليها لم ترفع عينيها. وصمت الجميع مرةً أخرى.

قالت الأميرة ماريا فجأة بصوت يرتجف:

– آندريه، هل تريد... أن ترى الصغير نيقولا؟ إنه يتحدث عنك دائماً.

لأول مرة ابتسم الأمير آندريه ابتسامة خفيّة. أدركت الأميرة ماريا بهلع، وهي التي تعرف وجهه جيداً، إن هذه الابتسامة ليست ابتسامة الفرح والحنان على خطور ابنه بباله، لكنها ابتسامة هزء متحفظ؛ رقيق، موجه إليها، لأنها استخدمت آخر وسيلة جديرة، في رأيها، أن تشدّه إلى الحياة.

– نعم، أنا مسرور جداً أن يكون الصغير نيقولا هنا. صحته جيدة؟

عندما جيء إلى الأمير آندريه بالصغير نيقولا الذي نظر إلى أبيه

برعب، وإن لم يبك لأنه لم ير أحداً يبكي، قبّله الأمير آندريه وبدا كأنه لا يجد ما يقوله.

وحين أُخرج الصبي، اقتربت الأميرة ماريا مرة أخرى من أخيها وقبلته وراحت تبكي بعد أن عجزت عن تمالك نفسها زمناً أطول.

حدّق فيها وسألها:

– أتبكين بسبب الصغير نيقولا؟

أومأت برأسها، وهي تبكي، إيماءة الإيجاب.

– ماري، أتعرفين الإنجيـ....

وسكت فجأة.

– ماذا تريد أن تقول؟

قال وهو يلقي عليها نظرته الباردة ذاتها:

– لا شيء. ينبغي ألا تبكي هنا.

عندما أخذت الأميرة ماريا تبكي، أدرك أنها تبكي لأن الصغير نيقولا سيفقد أباه. فتحامل على نفسه وحاول أن يعود إلى الوراء في الحياة وأن ينظر من وجهة نظرهم.

فكرّ بينه وبين نفسه:

«نعم، لابد أن يؤلمهم ذلك! وما أبسطه، مع ذلك!».

«طيور السماء لا تبذر ولا تحصد، لكن أباكم السماوي يطعمها».

قال ذلك في نفسه وأراد أن يقوله للأميرة؛ لكنْ لا، سيفهمون ذلك على طريقتهم، لن يفهموا! ليس بإمكانهم أن يفهموا ذلك، أن يفهموا

أن كل هذه العواطف التي يتمسكون بها، وكل هذه الأفكار التي تبدو لنا شديدة الأهمية، كل ذلك لغوٌ، لا طائل تحته. لن يمكننا أن نتفاهم!».
وصمت.

كان عمر ابن الأمير آندريه سبع سنوات. وكان لا يكاد يُلّم بالقراءة إذ لم يكن قد تعلّم شيئاً بعد. ومنذ هذا اليوم تعلّم كثيراً من الأشياء، فحصّل معارف واكتسب موهبة الملاحظة كما اكتسب خبرة. لكنْ لو أنه كان يملك حينئذ كل هذه الصفات التي اكتسبها فيما بعد لما استطاع أن يفهم فهماً أفضل وأعمق مدلول المشهد الذي حضره والذي كان بين أبيه وبين الأميرة ماريا وناتاشا. لقد فهم كل شيء، وخرج من الغرفة دون أن يبكي، واقترب بصمت من ناتاشا التي تبعته، ونظر إليها نظرة وجلة بعينيه الجميلتين المتأملتين؛ ارتعشت شفته السفلى الحمراء المشمرّة فأسند رأسه إليها وبكى.

منذ هذا اليوم، تحاشى ديسال، وتحاشى الكونتيسة التي كانت تدلّله، وكان إما أن يبقى وحده، وإما أن يدنو، على وجل من الأميرة ماريا ومن ناتاشا التي بدا عليه أنه يحبها أكثر مما يحب عمته ثم يلبد عندهما بدعة ووجل.

عندما خرجت الأميرة ماريا من غرفة الأمير آندريه فهمت تماماً كل ما قاله لها وجهُ ناتاشا. فلم تحدّثْ ناتاشا بعد ذلك عن الأمل بالشفاء. وكانت تتناوب وأياها على البقاء قرب أريكة الأمير آندريه، وكفّتْ عن البكاء، لكنها ظلت توجه الصلوات من أعماق نفسها إلى الأزلي، إلى الذي لا سبيل إلى إدراكه، إلى الذي غدا حضوره فوق الميت محسوساً جداً.

***

الفصل السادس عشر

لم يكن الأمير آندريه يعلم فقط أنه سيموت، بل كان يحس أنه يموت، كان يحس أنه صار نصف ميت. لقد شعر بالتجرد من جميع الأشياء الأرضية، وانتابه إحساس غريب، فرح، بخفة وزن الوجود. كان ينتظر ما لابدّ من تمامه دون عجلة ولا قلق. غدا ذلك الحضور الرهيب الأبدي، المجهول والبعيد الذي لم يكف طوال حياته عن إدراكه، غدا الآن قريباً، بل مفهوماً وملموساً، من جرّاء هذه الخفة الغريبة للوجود.

كان يخشى النهاية قديماً. وقد انتابه مرتين هذه الإحساسُ الرهيب والمعذب، الإحساس بالخوف من الموت، من النهاية، أما الآن فإنه لم يعد يفهمه.

انتابه هذا الإحساس، في المرة الأولى، عندما كانت القنبلة تدور أمامه كالدوّامة، وهو ينظر إلى الحقول المحصودة، وإلى الأدغال، وإلى السماء، ويعلم أن الموت أمامه. ومنذ أن استعاد وعيه بعد جرحه، وتفتّحت في نفسه فوراً زهرةُ الحب الأبدي، الحرّ، المستقل عن الحياة؛ وكأنها تخلّصت من ثقل الحياة الذي كان يحتبسها، منذ ذلك الوقت لم يعد يخاف الموت و لم يعد يفكّر فيه.

كان، في هذه الساعات التي قضاها بعد جرحه، ساعات الوحدة المؤلمة ونصف الهذيان، كلما تفكر في هذا المبدأ الجديد، مبدأ الحب

الأبدي الذي انكشف له، ازداد انسلاخاً من الحياة الأرضية دون أن يدور ذلك بخلده. أَنْ يحب الإنسانُ كل شيء وكل الناس، أن يضحي بنفسه دائماً في سبيل الحب، معناه ألاّ يحب أحداً بالذات، معناه ألاّ يحيا هذه الحياة الأرضية. كان كلما تشرّب مبدأ الحب هذا ازداد انسلاخاً من الحياة، وازداد قدرة على الإلغاء الكامل لهذا الحاجز الرهيب الذي ينتصب، بدون الحب، بين الحياة والموت. عندما كان يتذكر، في هذه الآونة الأخيرة، أنه سيموت، كان يقول: «حسناً! ذلك أفضل».

لكنْ، بعد تلك الليلة في ميتيستشي حيث ظهرت له، في نصف هذيانه، تلك التي كانت تتوق إليها نفسه، وحيث ذرف دموعاً حلوة من الفرح وهو يضغط بيدها على شفتيه، انسلّ حبّ المرأة إلى قلبه انسلالاً خفيّاً، وشدّه، مرة أخرى، إلى الحياة، وطافت به أفكار فرحة صاخبة. وحين استذكر اللحظة التي رأى فيها كوراجين، في مركز الإسعاف، عجز عن استرجاع الشعور الذي خالجه آنذاك: كان يتعذب الآن ليعلم إن كان حيّاً. لكنه لم يجروْ أن يسأل عن ذلك.

كان مرضه يتبع مجراه الطبيعي، لكن ما دعته ناتاشا «ذلك» حدث قبل وصول الأميرة ماريا بيومين. وكان هذا الصراع النفسي الأخير بين الحياة والموت، حيث كانت الغلبةُ للموت. كان الشعور المفاجئ أنه ما يزال يتمسك بالحياة التي تمثّل، بالنسبة إليه، حبّه لناتاشا، وكان الانتفاضةَ الأخيرة المقهورة، من الهلع في وجه المجهول.

كان الوقت مساءً، وكان، كعادته بعد العشاء، في حالة من الحمى الخفيفة، وكانت أفكاره على أشد ما تكون وضوحاً. وكانت صونيا جالسة قرب الطاولة. فغفا. وإذا بإحساس من السعادة يجتاحه.

فكّر: «آه! إنها هي التي دخلت!».

والواقع أن ناتاشا التي دخلت برفق قبل هنيهة، كانت جالسةً مكان صونيا.

كان يحس دائماً، منذ أن صارت تُعنى به، ذلك الإحساس الجسدي بوجودها. كانت جالسة على مقعد تسرد جورباً، وقد أدارت له جانب وجهها وحجبت عنه ضوء الشمعة. (تعلّمت سرد الجوارب منذ أن قال لها الأمير آندريه ذات يوم أنه ما من أحد يحسن العناية بالمرضى كالمربيات العجائز اللائي يسردن الجوارب، وأن في هذا العمل ما يدخل السكينة إلى النفس). كانت أصابعها تعالج بحدة الصنارتين اللتين كانتا تتصادمان بين الحين والحين، وكان يرى بجلاء الجانب المتأمل من وجهها المنحني. بدرتْ منها حركةٌ، فتدحرجت الكبةُ على ركبتيها، فارتعشت وألقت عليه نظرة عجلى، ويدها تستر ضوء الشمعة، وانحنت بحركة حذرة، مرنة، دقيقة، فالتقطت الكبة وعادت إلى وضعها القديم.

نظر إليها دون أن يحرك ساكناً فرأى أنها كانت بحاجة، بعد الحركة التي قامت بها، إلى أن تسترد أنفاسها بحرية، وأنها لم تكن تجرؤ على ذلك فراحت تتنفس بحيطة.

كانا قد تحدثا، في دير الثالوث، عن الماضي وقال لها إنه إنْ عاش فسوف يشكر الله شكراً أبدياً على جرحه الذي جمعهما مرة ثانية؛ لكنهما منذ ذلك الحين لم يتطرقا إلى الكلام على المستقبل.

أخذ يفكر وهو يتطلّع إليها ويصغي إلى صلصلة الصنارتين الخفيفة: «أيكون ذلك ممكناً أم لا يكون؟ أمن الممكن ألاّ يكون القدر قد ساقني إليها على هذا النحو الغريب إلا لكي أموت؟.... أمن الممكن ألا تنكشف لي حقيقة الحياة إلا لكي أحيا في الكذب؟ أحبّها أكثر من كل شيء في العالم. لكن ماذا بوسعي أن أفعل إن أحببتُها؟».

قال ذلك في نفسه، وتأوه بالرغم منه، بفعل عادة أكسبته إياها أوجاعه.

وضعت ناتاشا جوربها، حين سمعته، والتفتتْ إليه، ولاحظتْ فجأة عينيه الملتمعتين، فدنتْ منه بخطى خفيفة وانحنت عليه:

– ألست نائماً؟

– لا، منذ زمن طويل وأنا أنظر إليك؛ أحسست بك تدخلين. ما من أحد يمنحني مثلك هذا الهدوء الناعم العذب... هذا الضياء. أشتهي أن أبكي من الفرح.

دنتْ ناتاشا دنواً أكبر منه. وكان وجهها يشع بفرح عارم.

– أحبك حباً زائداً عن الحد. أحبك أكثر من أي شيء في العالم.

قالت:

– وأنا؟

واستدارت لحظة ثم قالت:

ولَم كان زائداً عن الحد؟

– لم كان زائداً عن الحد؟.... ما رأيك في ذلك، ماذا تحسين في أعماق قلبك، كل قلبك، هل سأحيا؟ ما الذي يبدو لك؟

قالت ناتاشا فيما يشبه الصراخ وهي تمسك يديه بحركة مشغوفة

– أنا واثقة من ذلك، أنا واثقة من ذلك!

أخلد إلى الصمت لحظة ثم قال:

- كم سيكون ذلك حسناً!

وأخذ يدها وقبّلها.

كانت ناتاشا سعيدة ومنفعلة؛ وسرعان ما تذكرت أن ذلك محظور، وأنه بحاجة إلى الهدوء. فقالت وهي تكبت فرحها:

- لكنك لم تنم. حاولْ أن تنام.... أرجوك.

أرخى يدها بعد أن شدّ عليها، فعادت إلى قرب الشمعة وجلست جلستها الأولى. لكنها التفتت مرتين لتراه فالتقتْ عينيه الملتمعتين. عندئذ حددت بقعة في الجورب وأخذت على نفسها ألا تلتفت قبل أن تنهيها.

والواقع أنه لم يلبث إلا قليلاً حتى أغمض عينيه ونام. لم ينم طويلاً. واستيقظ فجأة وهو قلقٌ، يغمره العرقُ البارد.

كان يفكر، وهو نائم، فيما كان يفكر فيه طوال هذا الزمن: في الحياة وفي الموت. وفي الموت أكثر. لقد كان يحس أنه أقرب إلى الموت.

كان يفكر: «الحب؟ ما الحب؟».

«الحب يعارض الموت. الحب هو الحياة. إن كل ما أفهمه، لا أفهمه إلا لأنني أحب. كل شيء كائن، كل شيء موجود لأنني أحب ليس إلاّ. الحب يربط كل شيء. الحب هو الله، والموت، عندي، شذرةٌ من الحب، عودة إلى المنبع الأزلي الشامل». بدت له هذه الأفكار معزّية. لكنها لم تكن سوى أفكار. لقد كان ينقصها شيءٌ ما لقد كان فيها شيءٌ وحيد الجانب، فردي، ذهني، كانت تنقصها البداهة. وهنا عاد إليه القلق نفسه والغموض نفسه. ثم أغفى.

حلم أنه كان ينام في الغرفة نفسها التي يشغلها في الواقع، لكنه كان سليماً معافى، بدلاً من أن يكون جريحاً. ويمرّ أمام الأمير آندريه أناس شتى، تافهون، غير مبالين فيكلّمهم ويناقش وإياهم موضوعاً لا شأن له. فيتهيؤون للذهاب إلى مكان ما. ويحسّ الأمير آندريه إحساساً غامضاً أن كل ذلك تافه، وأن لديه هموماً أعظم شأناً، لكنه يظل يحدثهم مثيراً دهشتهم بأحاديث جوفاء، بارعة وظريفة. وشيئاً فشيئاً يبدأ هؤلاء الأشخاص بالاختفاء، على نحو غير ملحوظ، وتحل محلَّ كل شيء مسألةٌ، هي مسألة إغلاق الباب، فينهض، ويمضي إلى الباب ليغلقه وليدفع المزلاج. هل يتيّسر له الوقت الكافي لإغلاقه، كل شيء يتوقّف على ذلك. فيمضي ويُسرع لكن ساقيه تأبيان التقدم، ويعلم أنه لن يكون لديه الوقت لإغلاق الباب، لكنه يستجمع قواه، مع ذلك، بشكل مؤلم. ويعتصره خوفُ معذِّب. هذا الخوف هو الخوف من الموت: فخلف الباب يقوم «ذلك». لكن بينما هو يزحف إلى الباب بخرق، خائر القوى، إذا بذلك الشيء الفظيع يوشك أن يخلع الباب، بعد أن ألقى بثقله عليه من الجهة الأخرى. إن شيئاً لا إنسانياً، هو الموت، يخلع الباب، ولابد من منعه. فيمسك بالباب ويستجمع قواه الأخيرة، ليحول بينه وبين اقتحام الباب إذ لا يمكن إغلاقه؛ لكن مجهوداته هزيلة، خرقاء، فينفتح الباب وينغلق تحت ضغط الشيء الفظيع.

ومرة أخرى، يُلقي الشيء بثقله من الجهة الأخرى. وتبدو مجهوداته الأخيرة التي تفوق قدرات البشر عقيمة. وينفتح المصراعان بلا ضجيج. ويدخل «ذلك»، إنه الموت. ويموت الأمير آندريه.

لكن الأمير آندريه يتذكر، في اللحظة التي يموت فيها، أنه كان ينام، وفي اللحظة نفسها التي يموت فيها يتحامل على نفسه ويستيقظ.

«نعم، كان ذلك هو الموت. لقد متُّ، لقد استيقظتُ. نعم، إن

الموت يقظةٌ». وإذا بنفسه تستنير، وإذا بالحجاب الذي كان يحجب عنه المستقبل ينقشع أمام نظره الروحي. ويحس بما يشبه تحرر القوة التي كانت مقيّدة فيه حتى ذلك الحين، وبتلك الخفة الغريبة التي لم تفارقه منذ تلك اللحظة.

عندما صحا تململ على الأريكة وهو يسبح في عرقه البارد. اقتربت ناتاشا وسألته عمّا به. فلم يجبها وألقى عليها، دون أن يفهمها، نظرة غريبة.

هذا ما وقع قبل يومين من وصول الأميرة ماريا. ومنذ هذا اليوم أيضاً -كما قال الطبيب.- اتخذت الحمى المنهكة وجهة سيئة. لكن ما قاله الطبيب لم يكن يعني ناتاشا: لقد كانت ترى هذه الأعراض النفسية الرهيبة، وهي أثبت وأدعى إلى اليقين.

منذ هذا اليوم بدأ، بالنسبة إلى الأمير آندريه، الهربُ من الحياة، في الوقت نفسه الذي بدأ فيه الهرب من حلمه. أما بالنسبة إلى مدى الحياة، فإن ذلك لم يكن يبدو له أبطأ من الهرب من النوم بالنسبة إلى مدة الحلم.

لم يكن في هذا الهرب البطيء نسبياً ما هو مرعب أو ما هو فظ.

انقضت أيامه الأخيرة وساعاته الأخيرة بصورة طبيعية وبسيطة.

كانت الأميرة ماريا وناتاشا اللتان لم تفارقاه تحسان بذلك كلتاهما. ما كانتا تبكيان، ولا ترتعدان، وفي الآونة الأخيرة، أحستا كلتاهما أنهما لا تُعنيان به (لم يكن موجوداً، كان قد فارقهما) بل بذكراه القريبة، بجسده. كان إحساسهما كلتيهما من القوة بحيث أن الجانب الخارجي، الجانب الرهيب من الموت كان عديم الأثر فيهما وأنهما ما كانتا تشعران بالحاجة إلى إذكاء ألمهما. ما كانتا تبكيان لا بحضوره ولا

بعيداً عنه، وأيضاً ما كانتا تتحدثان عنه بينهما. كانتا تحسان أنهما لا تستطيعان التعبير عما تفهمانه بالكلمات.

كانتا كلتاهما تريانه يهوي ممعناً في العمق، ببطء وهدوء، بعيداً عنهما، في المجهول، وكانتا تعلمان أنْ لابد من ذلك، وأن ذلك حسن.

دُعيّ إلى الاعتراف والتناول، وجاء الجميع يودعونه. وعندما جيء بابنه شدّ بشفتيه على خده ولوى وجهه عنه، لا لأنه كان يستشعر الألم أو الندم (كانت الأميرة ماريا وناتاشا تفهمان ذلك)، بل لأنه كان يقدّر أن هذا هو كل ما ينتظرونه منه؛ لكن عندما قيل له أن يباركه. فعل كل ما طُلب منه وألقى نظرة حواليه كأنه يريد أن يعلم إن كان ينبغي أن يفعل شيئاً آخر أيضاً.

عندما سرت الاختلاجاتُ الأخيرة في الجسد الذي أخذت الروح تفارقه، كانت الأميرة ماريا وناتاشا حاضرتين.

قالت الأميرة ماريا:

- قُضي الأمر!

قالت ذلك في حين كان الجسد جامداً، لا حراك فيه، آخذاً في البرودة منذ دقائق. دنتْ ناتاشا ونظرت إلى العينين الميتتين وبادرت إلى إطباقهما. أطبقتهما ولم تقبّلهما، لكنها حطّت شفتيها على ما كان أقرب ذكرى إليها.

«أين ذهب؟ أين هو الآن....؟».

عندما أُلبس الجسد وغُسل وسجيّ في نعشه، جاء الجميع يودّعونه وكانوا جميعاً يبكون.

كان الصغير نيقولا يبكي في ذهول مؤلم مزّق قلبه. وكانت الكونتيسة وصونيا تبكيان شفقة على ناتاشا ولأنه قضى نحبه. وكان الكونت العجوز يبكي لأنه أحس أن عليه أيضاً اجتياز هذه الخطوة الرهيبة عما قريب...

أخذت ناتاشا والأميرة ماريا تبكيان أيضاً، لكنهما ما كانتا تبكيان بسبب حزنهما الشخصي. كانتا تبكيان وهما غارقتان في الحماسة الورعة التي امتلكت نفسيهما أمام الشعور بسر الموت البسيط والجليل الذي تمّ تحت بصرهما.

***

الجزء الثاني

الفصل الأول

إن مجموع أسباب ظاهرة من الظاهرات لشيءٍ يتعذر على العقل البشري بلوغه. لكن الحاجة إلى تحرّي الأسباب هي خاصة النفس الإنسانية. والعقل البشري العاجز عن النفاذ إلى مالا يحصى من شروط الظاهرات وإدراك تعقدها، وهي شروط إذا أخذ كل منها على انفراد أمكن أن يبدو وكأنه السبب، يتشبث بأول علاقة من علاقات السببية تعرض له، بأسهلها منالاً ويقول: هذا هو السبب. وأسبق علاقة سببية ظهرت في الأحداث التاريخية (حيث يتركّز موضوع الملاحظة في أعمال البشر) هي مشيئة الآلهة، ثم مشيئة الرجال الذين يحتلون أبرز مركز في التاريخ، الأبطال التاريخيين. لكن يكفي أن نتعمق في كل حدث تاريخي، أي في نشاط كافة الناس الذين شاركوا فيه، لنتأكد من أن مشيئة البطل التاريخي ليست قاصرة عن توجيه هذا النشاط فحسب، بل إنها هي نفسها مُوجّهة أبداً. وقد يبدو أنه لا فرق بين فهم معنى الحدث التاريخي بهذه الطريقة أو بتلك. لكن الفرق بين من يقول: إن شعوب الغرب اتجهت إلى الشرق لأن نابليون شاء ذلك، ومن يقول: إن ذلك وقع لأنه كان لابدّ من حدوثه، هو الفرق نفسه بين الذين كانوا يؤكدون أن الأرض ثابتة وأن الكواكب تدور حولها، والذين كانوا يقولون: إنهم لا يعلمون على أي شيء تستند الأرض، وإن كان هناك، بكل تأكيد، قوانين تنظم حركتها وحركة الكواكب

الأخرى. لا يوجد ولا يمكن أن يوجد من علل للحدث التاريخي غير علة العلل. لكن هناك قوانين تَحْكم الحدث، قوانين نجهل جزءاً منها ونستشفّ جزءاً آخر. اكتشاف هذه القوانين غير ممكن إلا إذا عزفنا عزوفاً كاملاً عن تحري الأسباب في مشيئة رجل واحد، كما أن اكتشاف قوانين حركة الكواكب لم يصبح ممكناً إلا عندما تخلّى البشر عن مفهوم ثبات الأرض.

يرى المؤرخون أن أهم فصل في حرب ١٨١٢ بعد معركة بورودينو واحتلال العدو لموسكو وحريق موسكو، هي مسيرة الجيش الروسي من طريق ريازان إلى طريق كالوغا[١] ومعسكر تاروتينو[٢]، وهو ما يُسمى مسيرة الجناح إلى ما وراء كراسنايا باكرا[٣]. وهم يعزون شرف هذه المأثرة العبقرية إلى عدد من الشخصيات، ويتناقشون ليعلموا أيهم أحق بها. حتى المؤرخون الأجانب، وحتى المؤرخون الفرنسيون يعترفون بعبقرية الجنرالات الروس وهم يتحدثون عن مسيرة الجناح هذه. أمّا لماذا يرى الكتابُ العسكريون ومن ورائهم جميعُ الناس، في مسيرة الجناح هذه، ابتكاراً داهياً توصلت إليه شخصية واحدة أنقذت روسيا وألحقت الدمار بنابليون، فمن العسير فهمه. من العسير، أولاً، فهمُ ما

١- «من طريق ريازان إلى طريق كالوغا»: تحول الجيش الروسي من شرقي موسكو إلى جنوبيها ليسد طريق كالوغا على نابليون (كالوغا: مركز مقاطعة على ١٥٠كم جنوبي موسكو) وهو الطريق الذي يقضي إلى المقاطعات الجنوبية الأكثر خصباً.

٢- «معسكر تاروتينو»: قرية على ٦٠كم جنوبي موسكو أقام فيها الجيش الروسي معسكراً له في ٢٠ أيلول. وفي ٦ تشرين وقعت فيها معركة حامية الوطيس مع طليعة الجيش الفرنسي التي تركت موسكو؛ فانسحب الجيش إلى طريق سمولنسك.

٣- «كراسنايا باكرا»: (باكرا الجميلة): قرية على الباكر، وهو رافد من الروافد الجنوبية للموسكفا على ٢٠كم جنوبي موسكو.

في هذه الحركة من عمق وعبقرية؛ إذ لا حاجة لأي مجهود فكري من أجل التنبؤ بأن أفضل موقع للجيش (عندما لا يكون مُهاجَماً) يكون حيث تكون المؤن أوفر. إن كل واحد، حتى الصبي المحدود ابن الثالثة عشرة، كان يمكنه التنبؤ، دون مشقة، بأن أفضل موقع للجيش سنة ١٨١٢، بعد التخلي عن موسكو، كان على طريق كالوغا. وهكذا، فنحن لا نفهم، أولاً، ما الاستنتاجات التي توصل بها المؤرخون إلى أن يروا في هذه المناورة شيئاً عميقاً. وأعسر من ذلك، ثانياً، أن نفهم، على وجه الدقة، بمَ رأى المؤرخون في هذه المناورة خلاص روسيا ودمار فرنسا؛ ذلك أن مسيرة الجناح هذه كان يمكن أن تكون، في ظروف أخرى غير التي سبقتها ورافقتها وتبعتها، شؤماً على الجيش الروسي، وأن تنقذ الجيش الفرنسي. وإذا كان وضع الجيش الروسي قد أخذ يتحسن منذ اللحظة التي نفّذت فيها هذه الحركة، فلا ينتج عن هذا أبداً أن هذه الحركة كانت سبباً لذلك.

ومسيرة الجناح هذه، ما كانت لتنفع في شيء، بل إنها كانت جديرة بأن تدمّر الجيش الروسي، لولا تدخل ظروف أخرى. ماذا كان سيقع لو لم تُحرق موسكو؟ لو لم يغب الروس عن نظر مورا؟ لو أن نابليون لم يخلد إلى الكسل؟ لو أن الجيش الروسي خاض المعركة في كراسنا باكراً عملاً بنصيحة بينيغسن وباركلي؟ ماذا كان سيقع لو أن الفرنسيين هاجموا الروس أثناء مسيرتهم وراء الباكرا؟ ماذا كان سيقع لو أن نابليون هاجم الروس، فيما بعد، أثناء اقترابه من تاروتينو، ولو بعشر القوة التي أظهرها في سمولنسك؟ ماذا كان سيقع لو أن الفرنسيين زحفوا على بطرسبرج؟... في جميع هذه الفرضيات، كانت مزايا مسيرة الجناح جديرة بأن تتحول إلى كارثة.

ثالثاً، إن أكثر ما يستعصي فهمه، هو أن رجالاً يدرسون التاريخ

يرفضون عمداً أن يفهموا أنه لا يمكن أن تعزو مسيرة الجناح هذه إلى رجل واحد، وأن أحداً لم يكن قد تنبّأ بها، وأن هذه المناورة، مثلها مثل الانسحاب إلى فيلي، لم يفكر فيها أحد من قبل، و لم تظهر حينذاك، في مجموعها، لأحد، وأنها نجمت، خطوة فخطوة، وحدثاً بعد حدث، ودقيقة دقيقة، عمّا لا يُحصى من ظروف شتى، و لم تظهر في مجموعها إلا عندما اكتملت وأصبحت من الماضي.

كانت الفكرة السائدة لدى القيادة الروسية، في مجلس فيلي، هي الانسحاب الذي كان يفرض نفسه بنفسه، على خط مستقيم، أي على طريق نيجني نوفغورود. ودليل ذلك أغلبية الأصوات، في المجلس، التي أعلنت موافقتها بهذا الاتجاه، وأيضاً وعلى الخصوص، المحادثة التي جرت، في أثر جلسة المجلس، بين القائد العام ولانسكوي المعتمد العام. وقد عرض لانسكوي للقائد العام أن مؤن الجيش قد جُمّعت، بشكل رئيسي، على طول نهر الأوكا، في مقاطعتي تولا وكالوجا، وأن المؤن، في حالة الانسحاب إلى نيجني، ستغدو مقطوعة عن الجيش بالاوكا العريض الذي يتعذر اجتيازه أحياناً في بداية الشتاء. كان هذا أول دليل يؤيد ضرورة العدول عن الانسحاب على خط مستقيم إلى نيجني، وهو ما بدا، في مبتدأ الأمر، طبيعياً جداً، فمال الجيش ميلاً أكبر إلى الجنوب، على طريق ريازان، مقترباً من التموينات، ثم إن تراخي الفرنسيين الذين غاب الروس عن أنظارهم، والحرص على الدفاع عن مصنع السلاح في تولا، وخصوصاً مزية الاقتراب من التموينات، كل ذلك اضطر الجيش، فيما بعد، إلى أن يزيد في انحرافه نحو الجنوب، على طريق تولا. وبعد أن وصلت قيادة الجيش الروسي إلى طريق تولا بحركة مجازفة خلف الباكرا، فكرت في التوقف قرب بودولسك دون أن يخطر ببال أحد موقع تاروتينو؛ لكنّ ما لا يُحصى من الظروف، وعودة القطعات الفرنسية إلى الظهور بعد أن غاب الروس عن نظرها

ومشاريع المعركة، وخصوصاً وفرة المؤن في كالوغا، كل ذلك أجبر جيشنا على أن يزيد في انحرافه إلى الجنوب وأن يصل إلى مركز طرق تموينه متحوّلاً من طريق تولا إلى طريق كالوجا، نحو تاروتينو. وكما أنه من المتعذّر الإجابة عن السؤال الذي يريد أن يعرف متى هُجرت موسكو، فكذلك من المتعذر أيضاً القول متى قُرّر بالضبط تغيير الاتجاه نحو تاروتينو، ومن الذي قَرّر ذلك. وعندما وصل الجيش إلى تاروتينو بفعل قوى تفاضلية لا حصر لها، عند ذاك فقط أخذ الاعتقاد يسود بأن ذلك قد أُريد وقُدِّر منذ زمن طويل.

***

الفصل الثاني

كانت مسيرة الجناح الشهيرة تقوم فقط على مايلي: هي أن الجيش الروسي انحرفَ، وهو يتراجع دائماً على خط مستقيم باتجاه معاكس لهجوم الفرنسيين، عن وجهته الأصلية بعد أن انتهى الهجومُ، واتجه بطبيعة الحال، حين رأى أن العدو لا يطارده، إلى الجهة التي كانت وفرة المؤن تجتذبه إليها.

ولو سلّمنا أن الجيش الروسي كان جيشاً بلا قادة، بدلاً من أن يكون على رأسه جنرالات عباقرة، لما استطاع أن يقوم بشيء آخر غير حركة العودة إلى موسكو، راسماً قوس دائرة في الجهة التي يكون التموين فيها أوفر والمقاطعة أغنى.

إن هذا التحوّل من طريق نيجني نوفغورود إلى طريق ريازان، تولا وكالوجا كان طبيعياً جداً حتى إن هذا الاتجاه هو الذي كان يسلكه نهّابو الجيش الروسي، وهو الذي فُرض على كوتوزوف من بطرسبرج. وَفي تاروتينو، لقي كوتوزوف من الامبراطور ما يشبه اللوم لأنه قاد الجيش على طريق ريازان وقد أُشير عليه أن يلزم الموقع المقابل لكالوجا، وهو الموقع الذي كان يحتله عندما بلغته رسالة الإمبراطور.

اتخذ الجيش الروسي الذي كان يتدحرج كالكرة في اتجاه الدفع الذي كان يضغط عليه، أثناء الحملة كلها وأثناء معركة بورودينو، اتخذ

الموقعَ الذي كان طبيعياً بالنسبة إليه، عندما توقفتْ قوة الدفع ولم يتعرّض لدفع جديد.

ليست مزية كوتوزوف فيما يسمى المناورة الاستراتيجية العبقرية، بل في أنه كان وحده القادر على فهم الأحداث الجارية. كان وحده القادر حينئذ، على فهم معنى عطالة الجيش الفرنسي، ولقد ظل وحده يؤكد أن معركة بورودينو كانت نصراً؛ كان الوحيد الذي استخدم طاقته كاملة ليجنّب الجيش الروسي معارك عديمة الجدوى، وإنْ كان ينبغي له، فيما يبدو، بحكم مركزه كقائد عام، أن يكون نصيراً للهجوم.

كان الوحش الذي جُرح في بورودينو طريحاً في مكان ما تركه فيه الصياد وهو يهرب؛ لكن الصياد لم يكن يعلم إن كان الوحش مايزال حياً، أو إن كان قوياً أو لابداً فقط. وفجأة، سُمع من الوحش أنين

كان أنينُ الحيوان الجريح، أنين الجيش الفرنسي، وهو أنين مُعلن عن دماره، يتمثّل في إرسال لوريستون[1] بعروض الصلح إلى معسكر كوتوزوف.

كتب نابليون إلى كوتوزوف، وملؤه قناعة بأن الخير ليس ما كان خيراً بل ما كان يمرّ بباله، الكلمات الأولى التي خطرتْ بذهنه والتي لم يكن لها أي معنى.

كتب يقول:

«السيد الأمير كوتوزوف، إني أرسل إليك أحد مرافقيّ العسكريين

١- لوريستون: المركيز دي لوريستون (١٧٦٨-١٨٢٨)، درس مع بونابرت في مدرسة المدفعية في بريين وأصبح مرافقاً عسكرياً له منذ ١٨٠٠؛ سفير فرنسا في بطرسبرج من ١٨١١ إلى ١٨١٢، مارشال فرنسا في عهد عودة الملكية.

من الجنرالات ليحدثك عن عدد من الموضوعات المهمة. وأنا أرغب إلى سموك أن تصدّق ما سوف يقوله لك، ولاسيّما عندما يعرب عن مشاعر التقدير والاحترام الخاص التي أكنها منذ زمن طويل لشخصك.... ولمّا لم يكن لهذه الرسالة من غرض آخر، فإني أرجو الله أن يحفظك برعايته الكريمة والمقدسة.

موسكو في ٣٠ تشرين الأول ١٨١٢
التوقيع: نابليون

أجاب كوتوزوف:

- ستلعنني الأجيال الآتية إذا نظرتْ إليّ على أنني أول محرك لأية مصالحة. هذه هي الروح الراهنة لأمتي.

وظل يبذل وسعه لكي يحول دون انتقال الجيش إلى الهجوم.

أثناء شهر نهب الجيش الفرنسي لموسكو والتوقف الهادئ للجيش الروسي في تاروتينو، طرأ تغيّرٌ في نسبة قوى الجيشين (روحاً وعدداً) رجّح الكفّة إلى جانب الروس. ومع أن وضع الجيش الفرنسي وعظم ملاكاته كانا خافيين على الروس. إلا أن ضرورة الهجوم قد تجلت بعدد لا حصر له من الدلائل، حالما تبدلتْ نسبة القوى. وهذه الدلائل هي: إرسال لوريستون، وفرة المؤن في تاروتينو، المعلومات الواردة من جميع الجهات حول العطالة والفوضى لدى الفرنسيين، أفواجنا التي استُكملت بوصول المجنّدين الجدد، صحو الطقس، استراحة الجنود الروس الطويلة، نفاد الصبر الذي يظهر عادة بين القطعات المستريحة، لإنجاز المهمة التي تجمّعت من أجلها، الفضول لما كان يجري في الجيش الفرنسي الذي غاب عن الأبصار منذ زمن طويل، الجرأة التي بها

أخذت المراكز الروسية المتقدمة تنسل نحو الفرنسيين المعسكرين في ضواحي تاروتينو، أخبار الانتصارات السهلة التي أحرزها الفلاحون والأنصار عليهم، والتنافس الذي كانت تثيره الرغبة في الانتقام التي استقرت في نفس كل واحد منذ أن دخل الفرنسيون موسكو، وعلى الخصوص الشعور الغامض الذي تولّد في نفس كل جندي بأن نسبة القوى قد تغيرت وأن التفوق الآن إنما هو في جانبنا. لقد تغيّرت نسبةُ القوى وغدا الهجوم أمراً لابدّ منه وأحدث تغيّرُ القوى هذا في الدوائر العليا حركة متسارعة وأطلق جلجلة الأجراس، بمثل السرعة والثبوت اللتين تدق بهما الساعة عندما تدور الإبرة دورتها الكاملة.

***

الفصل الثالث

كان الجيش الروسي بقيادة كوتوزوف وأركـان حربه، وقيادة الإمبراطور من بطرسبرج. فقبل تلقي نبأ التخلي عن موسكو، كانت قد وضعت، في بطرسبرج، خطةٌ مفصلة للحرب كلها وأُرسلت إلى كوتوزوف للاسترشاد بها. ومع أن هذه الخطة بُنيت على فكرة أن موسكو ماتزال بين أيدينا، إلا أنها قد لقيت موافقة الأركان والقبول بتطبيقها. وإن كان كوتوزوف قد كتب أن عمليات التضليل البعيدة هي دائماً صعبة التنفيذ. ومن أجل حل الصعوبات المعترضة، كانت تُرسل إليه التعليمات الجديدة والشخصيات الجديدة المكلّفة بمراقبة طريقة عمله ورفع تقرير عنها.

وفضلاً عن ذلك، فقد تعرضت أركانُ الجيش الروسي إلى تعديل عميق. كان لابد من خلف يحل محل باغراتيون الذي قُتل، ومحل باركلي الذي تنحّى بعد أن جُرحت كرامته. وجرى الفحص الجدي عمّا هو أفضل: وضع «آ» محل «ب»، و»ب» محل «د»، أو على العكس، وضع «د» محل «آ» إلخ، وكأنما كان يمكن أن ينجم عن ذلك شيء آخر سوى ارضاء آ أو ب.

أما في الأركان فقد كانت الفئات تسلك سلوكاً حذراً أكثر من المعتاد، على أثر العداء القائم بين كوتوزوف ورئيس أركانه بينيغسن، ووجود

أشخاص موثوقين أرسلهم الإمبراطور، وعلى أثر تلك التنقلات. كان «آ» يكيد لـ «ب» و«ب» لـ «جـ» الخ... وكان الغرض من هذه المكائد جميعاً، في جميع التنقلات والتركيبات، هو، قبل كل شيء، الاستيلاء على قيادة العمليات التي ظن هؤلاء الناس جميعاً أنهم قادرون على قيادتها؛ لكن تلك العمليات كانت تجري بمعزل عنهم، تماماً كما كان ينبغي لها أن تجري، أي دون أن تتوافق أبداً مع ما كان يتخيّله الناس، وإنما كانت تنبع من واقع العلاقة بين الجماهير. لم تكن جميع هذه التركيبات التي تتلاقى وتتشابك تمثّل في الدوائر العليا سوى الصورة الأمنية لما كان ينبغي أن يتمّ.

كتب الإمبراطور، في الثاني من تشرين الأول، في رسالة وصلت بعد معركة تاروتينو:

الأمير ميشيل ايلاريونوفتش؛ إن موسكو في أيدي العدو، منذ الثاني من أيلول. آخر تقاريرك يرجع إلى تاريخ العشرين، وطوال هذا الوقت، لم يقتصر الأمر على أنه لم يُشرع بشيء للعمل ضدّ العدو وإنقاذ عاصمتنا الأولى، بل إنكم قد تراجعتم أيضاً، كما تقول آخر تقاريركم. إن سيربوخوف[1] تحتلّها مفرزة عدوة، وتولا، بمصنعها الشهير الضروري جداً للجيش، في خطر. وأرى، من تقرير الجنرال وننتز نجيرود[2]، أن قطعة عدوة قوامها عشرة آلاف رجل تتقدم على طريق بطرسبرج. وأن قطعة أخرى من بضعة آلاف رجل تتجّه إلى دميتروف[3] وتزحف ثالثة على طريق فلاديمير[4]. أما الرابعة، وهي عظيمة الشأن، فهي بين روزا

١- سيربوخوف: مدينة صغيرة على نحو ١٠٠كم جنوبي موسكو.

٢- وننتز نجيرود: جنرال روسي.

٣- دمتروف: مدينة مقاطعة على ٦٠كم إلى الشمال من موسكو.

٤- طريق فلاديمير: باتجاه شرقي موسكو.

وموجاييسك[1]. فيما أن العدو قد جزّأ قواه، بحسب هذه المعلومات، إلى مفارز قوية، وبما أن نابليون نفسه مايزال في موسكو مع حرسه، أمن الممكن أن تكون أمامك قوى عدوة عظيمة الشأن إلى الحد الذي تمنعك فيه من الانتقال إلى الهجوم؟ إن الممكن، على العكس من ذلك، هو الافتراض المعقول بأنه يطاردك بمفارز وربما بقطعات أضعف بكثير من الجيش الذي أوكل إليك. ويبدو أنه كان بوسعك، في ظل هذه الظروف، أن تهاجم، على نحو مجد، العدو الذي هو أضعف منك وأن تبيده، أو أن تجبره، على الأقل، على التراجع، فتحتفظ بجزء كبير من المقاطعات التي يحتلها حالياً، وتبعد بذلك الخطر الذي يتهدد تولا ومدناً أخرى في الداخل. وإذا كان بمقدور العدو أن يدفع بقطعة ضخمة من الجند إلى بطرسبرج ليهدّد العاصمة التي لم يبق فيها سوى القليل من العدد والمعدات، فسوف تتحمل المسؤولية في ذلك، لأن في يديك جميع الوسائل الكفيلة برد هذا البلاء الجديد، إذا استخدمتَ الجيش الذي أوكل إليك بحزم وقوة. تذكّرْ أن عليك أن تبرر ضياع موسكو أمام الوطن المُهان. وأنت تعلم بالتجربة أنني مستعد دائماً لمكافأتك. ولن يضعف هذا الاستعداد، لكنّ من حقّنا، روسيا وأنا، أن نتوقع من جانب كل حميّة وصمود وظفر يُبشر بها ذكاؤك، ومواهبك العسكرية، وبسالة الجيوش التي بأمرتك».

لكنْ بينما كانت هذه الرسالة التي تدل على أن نسبة القوى أخذت تتّضح أيضاً في بطرسبرج، في طريقها إلى كوتوزوف، كان كوتوزوف قد غدا عاجزاً عن منع الجيش الذي يأمره، شن الهجوم، وكانت المعركة قد بدأت.

١- روزا وموجابيسك: مدينتان من مدن المقاطعة إلى الغرب من موسكو، والثانية منهما على طريق سمولنسك.

في الثاني من تشرين الأول، قتل القوزاقي شابوفالوف الذي كان في دورية، أرنباً بطلقة بندقية وجرح أخرى، وقد توغّل، وهو يطارد الأرنب الجريح، إلى أعماق الغابة فإذا به يقع على الجناح الأيسر لجيش مورا الذي كان متوقفاً هنا دون أي احتراس. وقد روى القوزاقي، وهو يضحك، لزملائه أنه أوشك أن يقع في قبضة الفرنسيين. و لم يلبث حامل العلم الذي سمع هذه الحكاية أن أخبر بها رئيسه.

جيء بالقوزاقي واستُجوب؛ أراد رؤساؤه أن ينتهزوا الفرصة ويغيروا لينهبوا بعض الجياد، لكن واحداً منهم، وكان يعرف أعضاء القيادة العليا، أطلع جنرالاً في الأركان على هذه الواقعة. ومنذ بعض الوقت، كان الموقف في غاية التوتر، في الأركان، وقد جاء ايرمولوف[1] يتوسّل إلى بينيغسن[2]، قبل بضعة أيام، بأن يستخدم نفوذه لدى القائد العام ليحمله على الانتقال إلى الهجوم:

فأجاب بينيغسن:

– لو لم أكن أعرفك لظننت أنك لا تريد ما تطلبه. يكفي أن أشير بشيء على صاحب السمو حتى يفعل العكس تماماً.

برهن النبأ الذي حمله القوزاقي والذي أيدته الاستطلاعات أن الحدث كان كامل النضج. أفلت النابض المشدود وصرّ المنبّه ودقت الساعة. و لم يستطع كوتوزوف، بالرغم من سلطانه الظاهر، وذكائه، وخبرته، ومعرفته بالرجال، وبعد أن أخذ بعين الاعتبار مذكرة بينيغسن الذي كان يرسل تقاريره مباشرة إلى الإمبراطور، ورغبةَ جنرالاته

١– ايرمولوف: الجنرال اليكسي بتروفتش ايرمولوف، وكان في ١٨١٢ رئيساً للأركان في الجيش الأول.

٢– بينيغسن: كان الجنرال بينيغسن رئيساً للأركان العامة.

الإجماعية، ورغبة الإمبراطور المُفْتَرَضة، والمعلومات التي قدّمها القوزاقي، لم يستطع بعد ذلك أن يوقف الحركة المحتومة، فوافق على الأمر الواقع حين أمر بما كان يعتبره عبثاً وشؤماً.

***

الفصل الرابع

لم يكن تقرير بينيغسن عن ضرورة الهجوم ومعلومات القوزاق التي تثبت أن جناح الفرنسيين الأيسر مكشوف، سوى الدلائل الأخيرة على ضرورة تنظيم هذا الهجوم، وقد تحدّد موعده في الخامس من تشرين الأول.

في صباح الرابع من تشرين الأول، وقّع كوتوزوف على الترتيب القتالي. قرأه تول على ايرمولوف، وعهد إليه بالتدابير الواجب اتخاذها. قال ايرمولوف:

- طيّب، طيّب. ليس لدي الوقت الآن.

وخرج من مسكنه الخشبي. كان الترتيب الذي وضعه تول ممتازاً.

جاء في هذا الترتيب، كما جاء في ترتيب اوسترليتس، مع أنه لم يكن مكتوباً بالألمانية: «الرتل الأول يسير باتجاه كذا، والرتل الثاني يسير باتجاه كذا وكذا، الخ». وكانت هذه الأرتال تصل، على الورق، إلى أماكنها المحدّدة لها، في الساعة المحددة لها، وتبيد العدو. كان كل شيء مقدّراً من قبل، كما هي الحال في جميع الترتيبات، وكما هي الحال في جميع الترتيبات، لم يصل أي رتل في الوقت والمكان المحدّدين له.

عندما أصبح الترتيب جاهزاً من حيث عدد النسخ المطلوب،

استُدعي ضابط وأُرسل إلى إيرمولوف بغية تسليمه الأوراق للتنفيذ. فقصد فارس الحرس الشاب، وهو ضابط مرافق لكوتوزوف، إلى سكن ايرمولوف، وقد فُتن بعظم مهمته.

أجابه المرافق:

– لقد خرج.

فمضى فارس الحرس إلى منزل جنرال كان ايرمولوف يزوره غالباً.

– لا، الجنرال ليس هنا أيضاً.

فاعتلى فارس الحرس جواده وذهب إلى آخر.

– لا، لقد ذهب.

فكر الضابط: «بشرط ألا يجعلوني مسؤولاً عن التأخر!» يا لها من ورطة!» وطاف بالمعسكر كله. قال بعضهم: إنهم رأوا إيرمولوف يمرّ مع جنرالات، وقال البعض الآخر: إنه رجع إلى بيته من غير شك. فتّش عنه الضابط حتى السادسة مساء، دون أن يذوق الطعام. لم يترك ايرمولوف من أثر، ولم يكن أحد يعلم أين يمكن أن يكون، تناول الضابط وجبة خفيفة عند أحد زملائه ورجع إلى المقدّمة، إلى مقر ميلورادوفيتْش. لم يكن ميلورادوفيتشْ موجوداً أيضاً. لكنْ قيل له إنه في الحفلة الراقصة في منزل كيكين، وإن ايرمولوف لابد أن يكون هناك.

– لكنْ، أين منزله؟

قال ضابطُ قوزاق وهو يشير إلى منزل من منازل النبلاء، على بعد كبير:

– هناك، في ايتشكينو.

- وكيف يكون هناك، وراء خطوطنا؟

- لقد أُرسل فوجان من أفواجنا إلى الخط. إن هناك اليوم حفلة من هذه الحفلات الضخمة! لديهم فرقتان موسيقيتان وثلاث جوقات من المغنين.

مضى الضابط إلى ما وراء الخط، إلى ايتشكينو. فسمع من بعيد، وهو يقترب من المنزل، نغمات فرحة في أغنية راقصة من أغاني الجنود

«في المروج... في المروج!...» كان الغناء يصل إليه مصحوباً بالصفير والصنوج، ومُغطى بالصيحات، في بعض الأحيان. طرب الضابط عند سماع هذه الأصوات، لكنه خاف، في الوقت نفسه. من أن تُلقى عليه مسؤولية التأخر في نقل الأمر المهم الذي أوكل إليه كانت الساعة قد شارفت التاسعة. ترجّل عن جواده وصعد درج منزل عظيم من منازل النبلاء ظل سالماً، وكان بين الخطوط الروسية والفرنسية. كان الخدم، في غرفة الخدمة وفي الردهة، منهمكين في تقديم الخمور والأطعمة. وقد استقر المغنون تحت النوافذ. أُدخل الضابط فرأى، في الحال، كل جنرالات الجيش الكبار مجتمعين وبينهم، شخص ايرمولوف الطويل المهيب. كانوا جميعاً يشكلون نصف دائرة ويُغربُون في الضحك، وقد حلّوا أزرار ستراتهم الرسمية، واحمرت وجوههم وانتعشت. وفي وسط الصالون، أخذ جنرال جميل، قصير القامة، متضرّج الوجه، يرقص برشاقة ومهارة إحدى الرقصات الشعبية:

- ها! ها! ها! نيقولا ايفانوفيتش! ها! ها! ها!....

أحس الضابط أنه إذا دخل في هذه اللحظة ومعه ذلك الأمر المهم أصبح مذنباً مرتين، فأراد أن ينتظر، لكن أحد الجنرالات شاهده وعندما علم لِمَ كان هنا، أخبر بذلك ايرمولوف. ولم يلبث ايرمولوف أن جاء

إليه وهو متجهّم، وبعد أن استمع إليه، أخذ الورقة دون أن يقول له شيئاً.

في المساء نفسه، قال لفارس الحرس زميلٌ له في الأركان وهو يتحدث عن ايرمولوف:

– أتظن ذهابه كان مصادفة؟ هذه مكائد، كل ذلك مدبّر، لخداع كونوفنتزين. سترى أي خبصة ستقع غداً!

***

الفصل الخامس

نهض كوتوزوف، في اليوم التالي، مبكراً، فتلا صلاته وارتدى ملابسه وصعد إلى عربته، وقد ملأه شعور مزعج بأن عليه أن يقود معركة لا يوافق عليها، ومضى من ليتاشوفكا إلى المكان الذي ينبغي لأرتال الهجوم أن تتجمّع فيه، على خمسة فراسخ وراء تاروتينو. وفي الطريق، كان كوتوزوف يغفو ثم يفيق ويصيخ السمع ليعلم إن كان على اليمين رميٌ، إن كانت المعركة لم تبدأ بعد. لكن كل شيء كان مايزال صامتاً. وقد أخذ يتبلّج فجر يوم خريفي رطب، مكفهر. وعندما دنا كوتوزوف من تاروتينو، شاهد خيّالة يسوقون خيلهم إلى الورد، وهم يجتازون الطريق التي كانت عربته تسلكها. فنظر إليهم وأوقفهم وسألهم عن فوجهم. كان الخيّالة جزءاً من رتل ينبغي له أن يكون بعيداً، إلى الأمام، كامناً للعدو. ففكّر القائد العام: «لعل ذلك خطأ». لكنه رأى، أبعد من ذلك، أفواج المشاة، والبنادق المركوزة في حزَم، وجنوداً يعدّون طعامهم ويقطعون الحطب، وهم في سراويلهم الداخلية. استدعى ضابطاً، فصرّح الضابط بأنه لم يتلق أمراً بالسير.

بدأ كوتوزوف يقول:

- كيف لم يتلق....

لكنه سكت فجأة وأرسل من يطلب القائد. ونزل من عربته وانتظر بصمت وهو يتمشى طولاً وعرضاً، خافض الرأس لاهث الأنفاس. فلما

وصل ايشن، ضابط الأركان الذي طلبه، اشتد احمرارُ وجهه، لا لأن هذا الضابط كان مسؤولاً عن الخطأ بل لأنه كان شخصاً يمكن أن يصب غضبه عليه. هاجٍ هائج الشيخ، وهو يرتجف ويختنق، ومثل هذا الهياج كان يصيبه أحياناً ويدفعه إلى التدحرج على الأرض، وانقضّ على ايشن، وهو يهدده بقبضتيه ويمطره بأقذع السباب، واتّفق أن جاء أحد الضباط فجأة، وهو النقيب بروزين، ولم يكن مذنباً في شيء، فناله ما نال زميله.

كان يصرخ بصوت أجش وهو يحرك يديه ويترنح:

– أيّ حقير هذا، أيضاً؟ ليُرمَ بالرصاص! أنذال!

كان يحسّ بألم جسدي. لقد وُضع، وهو القائد العام، صاحب السمو، الذي كان يؤكد له الجميع أنه لم يحظ أحدٌ في روسيا بمثل هذا السلطان، في وضع خليق أن يجعل منه أضحوكة الجيش كله.

كان يفكر: «أكان بي حاجة إلى كل هذه الصلاة اليوم، أكان بي حاجة إلى أن أسهر الليل لإعداد كل شيء أحسن إعداد! عندما كنت ضابطاً فتى لم يكن يجرؤ أحد على السخرية مني، على هذا النحو... أما الآن!». كان يستشعر ألماً جسدياً وكأنه يعاني عقاباً جسدياً ولا يستطيع إلا أن يجسّده بصرخات الغضب والألم؟ لكن قواه ما لبثت أن تخلّت عنه، فألقى بنظراته من حوله، وهو يحس أنه قال كثيراً من الكلام الذي يستوجب الندم، ثم صعد عربته وعاد أدراجه بصمت.

لم يعد الغضب إلى كوتوزوف بعد تدفّقه ذاك، وأصغى وهو يطرف بعينيه على نحو ضعيف، إلى تبريرات بينيغسن وكوتوفيتزين وتول، (أما ايرمولوف فلم يَمْثل بين يديه إلا في اليوم التالي) وإلى دفاعهم وإلحاحهم لكي يُنفّذ التحرك الفاشل في اليوم التالي. وكان لابد لكوتوزوف من الموافقة مرة أخرى.

***

الفصل السادس

في اليوم التالي، تجمّع الجند منذ المساء في الأمكنة المقررة لهم، وأخذوا يزحفون في الليل. كانت الليلة خريفية بغيومها ذات السواد البنفسجي، ولكن بدون مطر. وكانت الأرض رطبة لكن بدون وحل، وكان الجند يسيرون بدون ضوضاء، فلا يُسمع غيرُ قعقعة المدافع المخنوقة. وقد مُنع الكلام بصوت عال، والتدخين بالغليون، وقدحُ القدّاحة؛ ومُنعتْ الخيل من الصهيل. كان سرّ العملية يزيد في جاذبيتها. كان الرجال يسيرون فرحين. وتوقّفت بعض الأرتال، ووضع الجنود بنادقهم في حزم، واستلقوا على الأرض الباردة، ظناً منهم أنهم بلغوا غايتهم؟ وسارت أرتالٌ أخرى (معظم الأرتال) الليل كله، ووصلت كما يبدو، إلى حيث لا ينبغي لها أن تذهب.

وصل الكونت أورلوف دينيسوف[1] وحده بقوزاقه (أدنى المفارز عدداً) إلى المكان المقرر وفي الوقت المطلوب. توقّفت مفرزته عند أقصى أطراف الغابة، على الطريق المؤدية من قرية ستروميلوفو إلى قرية دميتروفسكوي.

أوقظ الكونت اورلوف قبل الفجر وكان غافياً. وجيء بأحد الفارين

١- الكونت اورلوف دينيسوف: فاسيلي اورلوف دينيسوف (١٧٥٥-١٨٤٤)، ابن زعيم قوزاق الدون، أبلى بلاء حسناً في حروب ١٨٠٧ إلى ١٨١٤.

من المعسكر الفرنسي. كان ضابط صف بولوني من فيلق بونياتوسكي. بيَّن ضابطُ الصف هذا بالبولونية أنه فرّ إلى الجيش الروسي لأنه كان ضحية تجاوز، وأنه كان يجب أن يُرفّع إلى ضابط منذ زمن بعيد، وأنه كان أشجع الناس ولذلك ترك الفرنسيين وأراد أن ينتقم. وقال إن مورا كان يقضي الليل على فرسخ من هنا وأنه لو زُوِّد بمئة رجل لقبض عليه حياً. تشاور الكونت اورلوف دينيسوف مع زملائه. كان العرض مغرياً بحيث لم يمكن رفضه. كان الجميع يتطوعون للذهاب وينصحون بالمحاولة. وبعد العديد من المناقشات والمشاورات قرّر الجنرال غريكوف[1] أن يرفق ضابط الصف بفوجين من القوزاق.

قال الكونت اورلوف دينيسوف لضابط الصف وهو يسمح له بالذهاب:

– لكن تذكّرْ جيداً أنك إن كنت كاذباً فسأشنقك كالكلب؟ وإن كنت صادقاً فستكسب مئة دوكا.

لم يجب ضابط الصف وامتطى جواده، وهو واثق الهيئة، وذهب مع غريكوف الذي استعدّ بحرارة، وغابا في الغابة. أما الكونت اورلوف الذي كان يرتعد من برودة الصباح المنبلج قبل حين، والذي انفعل من جرّاء المسؤولية التي أخذها على عاتقه، فقد خرج من الغابة بعد ذهاب غريكوف، وراقب المعسكر العدوّ الذي أصبح يُرى على الضوء الخادع للصباح البازغ، وعلى ضوء نيران المخيمات التي أخذت تخمد. كان على أرتالنا أن تظهر إلى يمين الكونت اورلوف دينيسوف، على سفح هضبة مكشوفة. تطلّع الكونت اورلوف دينيسوف إلى هذه الجهة؟ لكن هذه الأرتال لم تظهر للعيان مع أنه كان يمكن مشاهدتها

١– الجنرال غريكوف: أحد جنرالات قوزاق الدون.

من بعيد. وبدا للكونت اورلوف دينيسوف ولمرافقه العسكري خاصةً الذي كان ثاقب النظر، أن الحركة أخذت تدبّ في المعسكر الفرنسي.

قال الكونت اورلوف بعد أن نظر إلى المعسكر:

آه! لقد فات الأوان، في الحقيقة!

وفجأة، وكما يقع غالباً حين يغيب عن بصرنا منْ وثقنا به، بدا له من الجلي، الواضح تماماً أن ضابط الصف هذا إنما كان منافقاً، كاذباً، وأنه لن يفعل شيئاً سوى إحباط الهجوم كله بسبب غياب الفوجين اللذين قادهما إلى مكان لا يعلمه إلا الله. أيمكن أسر قائد عام، في مثل هذه الكتلة من الجند.

قال الكونت:

– لقد كذب هذا اللئيم، في الحقيقة.

قال أحد تابعيه، وقد ساوره الشك في نجاح العملية وهو ينظر إلى المعسكر، كما ساور اورلوف دينيسوف:

– يمكننا ارجاعُهم.

– حقاً؟.... ما رأيك؟ أينبغي أن ندعهم يعملون؟ أوْ لا؟

– أترغب في إرجاعهم؟

قال الكونت اورلوف بحزم، فجأة، وهو ينظر إلى ساعته:

– ليعودوا، ليعودوا! لقد فات الأوان، وطلع الصبح.

عدا المرافق العسكري عبر الغابة في إثر غريكوف. وعندما عاد غريكوف، قرر اورلوف دينيسوف، وهو مضطرب بسبب هذه

المحاولة الملغاة، وبسبب الانتظار الضائع لأرتال المشاة التي لم تكن لتظهر، وبسبب قرب العدو، (كان جميع رجاله يحسون الإحساس نفسه)، قرّر أن يهاجم.

أمر بصوت خافت: إلى جيادكم! فامتطى الجند جيادهم، ورسموا إشارة الصليب...

- إلى المسير!

ودوّت في الغابة صيحات النخوة: «هـورّا»!، وانقضّت سرايا القوزاق بفرح على العدو، كما تنثال من كيسها حباتُ القمح، سريةً بعد سرية، ورماحُها على نسق، وتخطّت إحدى السواقي.

علت صرخةُ الهلعِ من أولِ فرنسي شاهد القوزاق، وإذا بكل من في المعسكر يهبّ مذعوراً، عارياً، ويفرّ على وجهه، تاركاً المدافع والبنادق والخيل.

لو أن القوزاق طاردوا الفرنسيين دون أن يهتموا بما كان يجري خلفهم وحولهم، لأمسكوا بمورا وبكل من كان هناك. وذلك ما كان يطلبه الرؤساء. لكنه كان من المستحيل زحزحة القوزاق إذا ما وقعوا على الغنيمة وعلى الأسرى. ما كان أحدٌ يعبأ بالأوامر. ولقد أسروا ألفاً وخمسمئة أسير، وغنموا ثمانية وثلاثين مدفعاً، وأعلاماً، وأهم من ذلك كله عندهم أنهم غنموا سروجاً وأغطية، وحاجات شتى. كان لابد من التصرف بذلك كله، والحفاظ على الأسرى والمدافع، واقتسام الغنائم، والخصام بل والتقاتل فيما بينهم: ولقد شُغل القوزاق بذلك كله.

أما الفرنسيون الذين لم يُطارَدوا فقد تمالكوا أنفسهم شيئاً فشيئاً، وأعادوا تشكيل صفوفهم وفتحوا النار. وكان اورلوف دينيسوف مايزال ينتظر الأرتال دون أن يتقدم.

على أنه، وفقاً للترتيب القتالي: «الرتل الأول يسير»، الخ، أخذت أفواج أرتال المشاة المتأخرة، بإمرة بينيغسن وقيادة تول، تسير كما كان مقرّراً، وبلغتْ، كما يحدث دائماً، مكاناً ما، لكنه ليس المكانَ الذي تلقّوا الأمر بالذهاب إليه. وكما يحدث دائماً، فإن الرجال الذين انطلقوا بفرح توقفوا شيئاً فشيئاً، وظهر عليهم الاستياءُ والشعورُ بالبلبلة، وعادوا إلى مكان ما في الخلف. كان المرافقون العسكريون والجنرالات الذين أخذوا يعدون عدواً، يصرخون ويغضبون ويتنازعون ويقولون: إنهم ليسوا في المكان الذي ينبغي أن يكونوا فيه وأنهم قد تأخّروا، ويسبّون الآخرين الخ، وأخيراً انصرفوا عما هم فيه من خصام، وساروا لمجرد السير فقط. «لابد أن نصل إلى مكان ما!». والواقع أنه لم يصلوا إلى حيث ينبغي أن يصلوا، بينما وصل آخرون إلى حيث ينبغي أن يصلوا، ولكن بكثير من التأخر حتى إن ذلك كله غدا بلا جدوى، بل إنهم غدوا هدفاً سهلاً للعدو فقط. كان تول الذي لعب في هذه المعركة دور ويروذر في اوسترلتس، يعدو بحميّة، من مكان إلى آخر، ويجد أينما ذهب أن كل شيء سار بعكس المطلوب. وعلى هذا النحو، وقع على فيلق باغوفو[1] في قلب الغابة، في حين كان النهار طالعاً، وأنه كان ينبغي لهذا الفيلق أن يكون مع اورلوف دينيسوف منذ زمن طويل. فعدا تول إلى قائد الفيلق، وقد انفعل واغتمّ من الفشل وقدّر أن هناك من يتحمّل تبعةَ ذلك، وأنحى عليه باللائمة قائلاً: إنه يستحق أن يُرمى بالرصاص. لكن باغوفو، وهو جنرال قديم، رابط الجأش، متمرّس بالحروب، قد أرهقته أيضاً هذه التوقفات، وتلك البلبلة، وهذه الأوامر المتناقضة، تثور ثائرته ويرد على تول بعنف، مخالفاً بذلك طبعه ومبتعثاً الدهشة العامة. أجاب:

١- فيلق باغوفو: شارل باغيهوفود (١٧٦١-١٨١٢)، جنرال من أصل سويدي، شارك في جميع الحملات منذ ١٨٠٩، قتل في معركة تاروتينو.

– لا أريد أن أتلقى دروساً من أحد، وأنا أعرف كغيري كيف أموت مع جنودي.

وسار إلى الأمام مع فرقته وحدها.

عندما أفضى باغوفو إلى ساحة القتال، تحت نار الفرنسيين، تقدّم غير مُبال، وهو ذلك البأس الذي يملكه التأثر، وقاد جنده، تحت وابل من النار، دون أن يتساءل إن كان تدخله في المعركة، في هذا الوقت، وبفرقة واحدة، نافعاً أو غير نافع. كان الخطر والقذائف والرصاص هو بعينه ما يلزمه في غضبه فقتلته احدى الرصاصات الأولى، وقتلت الرصاصات التالية الكثير من جنوده. وظلت فرقته هدفاً للنار، بعض الوقت، دون أي نفع يُرجى.

***

الفصل السابع

على أن رتلاً آخر كان مقدراً له أن يهاجم الفرنسيين هجوماً جبهياً، وفي هذا الرتل كان كوتوزوف. كان يعلم أنه لن ينتج من هذه المعركة التي نشبت رغم إرادته سوى البلبلة، فكان يكبح جماح الجند ما وسعه الكبح ويأبى أن يتزحزح.

كان كوتوزوف يمتطي بصمت حصانه الأشهب الصغير، ويجيب برخاوة على الاقتراحات بالهجوم.

قال لميلورادوفيتش الذي كان يطلب إليه أن يتقدّم إلى الأمام:

– ليس على لسانك سوى كلمة هجوم ولا ترى أننا لا نعرف كيف نقوم بالمناورات المعقّدة.

وأجاب غيره قائلاً:

– لم يعرفوا، في هذا الصباح، كيف يمسكون بمورا حياً، وكيف يصلون في الوقت المناسب إلى غايتهم، أما الآن فلم يبق من مجال للعمل!

وعندما أنبئ كوتوزوف أن مؤخرات الفرنسيين التي كانت مُخلاة بحسب تقارير القوزاق، قد عززتها الآن كتيبتان من البولونيين، حدج ايرمولوف بطرفه (لم يكلمه منذ البارحة):

– يطلبون الهجوم، ويقدمون مشروعات شتى، لكن إذا حان وقت العمل لم نجد شيئاً جاهزاً، ويتخذ العدو المستنفر احتياطاته.

غضّن ايرمولوف عينيه وابتسم ابتسامة خفيفة وهو يسمع هذه الكلمات. لقد أدرك أن العاصفة بالنسبة إليه قد مرّت، وأن كوتوزوف سيقتصر على هذا التلميح.

قال ايرمولوف بصوت خافت وهو يدفع بركبته رايفسكي الذي كان جنبه:

– إنما يهزأ مني.

بعد ذلك بقليل تقدّم ايرمولوف نحو كوتوزوف وقال بكل احترام:

– لم تضع الفرصة، يا صاحب السمو، فالعدو لم ينصرف. هلا أمرت بالهجوم. وإلا فإن الحرس لن يرى دخان البارود

لم يقل كوتوزوف شيئاً، لكنْ عندما قيل له أن قوات مورا آخذة في الانسحاب أمر بالتقدم بيد أنه كان يأمر بالتوقف ثلاث أرباع الساعة كل مئة خطوة.

اقتصرت المعركة كلها على قتال قوزاق اورلوف دينيسوف، أما القطعات الأخرى فقد فقدت فقط بضع مئات من الرجال دون أي نفع.

على إثر هذه المعركة، تلقى كوتوزوف أحرف اسمه الأولى بالماس، وتلقى بينيغسن ماساً أيضاً ومئة ألف روبل، وتلقى الآخرون بحسب رتبهم كثيراً من الأوسمة الرفيعة، وحدثت تغييرات جديدة في الأركان.

«هكذا تجري الأمور دائماً عندنا، كل شيء يتم بعكس المراد».

كذلك كان يقول الضباط والجنرالات الروس بعد معركة تاروتينو، كما يُقال اليوم أيضاً، وهم يقصدون أن أحد الحمقى هو الذي عمل كل شيء بعكس المراد، أما نحن فكنا سنتصرف تصرفاً آخر. لكن الذين يتكلمون هذا الكلام لا يفهمون شيئاً من القضية التي يتكلمون عليها أو يخطئون عن قصد، لأن كل معركة، سواء كانت تاروتينو أو بورودينو أو اوسترلتس، تجري على نحو مختلف كل الاختلاف عما قدّره منظموها. وهذا أمر جوهري.

إن عدداً لا يحصى من القوى الحرة (والمرء في المعركة أكثر حرية منه في أي مكان آخر لأن الأمر يتعلق هنا بحياته أو موته) تؤثّر في مجرى المعركة، وهذا المجرى لا يمكن معرفته سلفاً وهو لا يتطابق أبداً مع اتجاه قوة وحيدة.

إذا أثّرت عدة قوى في جسم ما باتجاهات مختلفة وفي وقت واحد، فإن اتجاه حركة هذا الجسم لا يمكن أن يكون اتجاه أي من هذه القوى منعزلةً؛ لكنه سيكون أقصر اتجاه متوسط، وهو ما يُعبّر عنه في الميكانيك بالخط القطري لمتوازي أضلاع القوى.

وإذا كنا نقرأ فيما يروي المؤرخون، ولاسيّما المؤرخين الفرنسيين، أن الحروب والمعارك تجري، برأيهم، وفقاً لخطة موضوعة سلفاً، فإن النتيجة الوحيدة التي يمكن استخلاصها من ذلك هو أن رواياتهم خاطئة.

فمن الجلي أن معركة تاروتينو لم تبلغ الهدف الذي قصد إليه تول، وهو أن يدفع الجند إلى المعركة بنظام، وفقاً للخطة القتالية، ولا الهدف الذي قد يكون الكونت اورلوف انتواه، وهو أسر مورا، ولا الهدف الذي ربما توخاه بينيغسن وآخرون في استئصال فيلق كامل دفعة

واحدة، ولا هدف الضابط الذي كان يبغي المشاركة في المعركة وحسن البلاء فيها، ولا هدف القوزاقي الذي كان يطمح أن يستولي على قدر أكبرٍ من الغنائم، وهلّم جرّاً. ولكن إذا كان الهدف هو ما بلغه الروس فعلاً وما تمنّوه جميعاً (أعني طرد الفرنسيين من روسيا وإبادة جيشهم)، فمن الجلي تماماً أن معركة تاروتينو كانت، بسببٍ من هفواتها، ما يلزم بالضبط، في هذه المرحلة من الحملة. ومن الصعب والمتعذر أن نتصور لهذه المعركة نتيجة أكثر مطابقة للهدف من النتيجة التي آلت إليها. لقد حصل الروس على أعظم النتائج من الحملة بأدنى الجهد، وفي حال كاملة من البلبلة والاضطراب، وبخسائر طفيفة، فانتقلوا من التراجع إلى الهجوم، وانكشف ضعفُ الفرنسيين، وبوشر بالدفعة التي كان ينتظرها جيش نابليون ليلوذ بالفرار.

***

الفصل الثامن

دخل نابليون موسكو بعد الانتصار الباهر في الموسكوفا؛ وهذا الانتصار لا يمكن أن يطوله الشك لأن الفرنسيين ظلوا، بعد المعركة، سادة الأرض. ويتراجع الروس ويسلّمون العاصمة. وتغدو موسكو التي تغص بالمؤن والأسلحة والذخائر والثروات التي لا حصر لها، في يديْ نابليون. ولا يقوم الجيش الروسي، وهو أضعف مرتين من الجيش الفرنسي، بأية محاولة للهجوم، طوال شهر كامل. ويصبح وضع نابليون كأبهر ما يكون. ولكي ينقض الجيش الفرنسي بقوى أكبر مرتين على فلول الجيش الروسي ويبيدها، أو لكي يعقد صلحاً مربحاً، أو لكي يباشر في حالة الرفض، حركة تهدد بطرسبرج، أو حتى لكي يعود، في حالة الفشل، إلى سمولنسك أو فيلنا، أو يبقى في موسكو؛ وبكلمة واحدة، لكي يحافظ على هذا الوضع الباهر الذي كان فيه هذا الجيش، لم يكن هناك من حاجة، على ما يبدو، إلى عبقرية خاصة. كان يكفي من أجل ذلك أن يفعل أبسط الأشياء وأسهلها: ألاّ يدع الجند يستسلمون للنهب، أن يُعدّ ألبسة الشتاء التي كانت موسكو تستطيع أن توفّرها للجيش كله، أن يجمع بطريقة عقلانية المؤن الموجودة والتي كانت كافية لأكثر من ستة أشهر (على ما قاله المؤرخون الفرنسيون). لكن نابليون، هذه العبقرية المتفرّدة بين العبقريات، نابليون الذي كانت له السلطة التامة على جيشه، كما يؤكد المؤرخون، لم يفعل شيئاً من ذلك.

و لم يقتصر الأمر على أنه لم يفعل شيئاً من ذلك، بل إنه استخدم سلطته لكي يختار بين جميع السبل التي عرضتْ له، أشدها غباءً وشؤماً. فمِنْ كل ما كان يستطيع أن يفعله نابليون: قضاء الشتاء في موسكو، الرجوع إلى الوراء ممعناً نحو الشمال أو نحو الجنوب على الطريق التي سلكها كوتوزوف، أيمكن أن نتصور غباءً وشؤماً أشد مما فعل، أي البقاء في موسكو حتى تشرين الأول سامحاً لجنده أن ينهبوا المدينة ثم متردداً في أن يترك فيها حامية، ومغادرة موسكو، والاقتراب من كوتوزوف، وعدم خوض المعركة، والمضيّ إلى اليمين، ووصول مالي اياروسلاقتز، دون أن يجرب حظه في شق ممرّ له، وعدم السير في الطريق التي سلكها كوتوزوف بل الرجوع إلى الوراء نحو موجاييسك بطريق سمولنسك المخرّب، لايمكننا أن نتصور شيئاً أشد غباءً وشؤماً على الجيش، كما تكفّلت النتائج بالبرهنة على ذلك. ليتصوّرْ أبرعُ الاستراتيجيين، على افتراض أن هدف نابليون كان أن يقود جيشه إلى دماره، سلسلة أخرى من الأفعال خليقة أن تُلحق الدمار التام بالجيش الفرنسي بشكل أكيد، محقّق ومستقل عن كل ما يستطيع الجند الروس أن يقوموا به، أكثر ممّا فعله نابليون.

لقد فعل النابغةُ نابليون ذلك. لكن القول: إن نابليون خسر جيشه لأنه أراد ذلك أو لأنه كان غبياً، خاطيءٌ خطأ زعمنا أن نابليون قاد جنده إلى موسكو لأنه أراد ذلك ولأنه كان ذكياً وعبقرياً.

في كلتا الحالتين لم يكن فعله الشخصي أبلغ تأثيراً من الفعل الشخصي لأي من جنوده، إلا أنه تطابق مع القوانين التي تحكم هذه الظاهرة.

ومن الخطأ المؤكّد أن نزعم، كما يزعم بعض المؤرخين، أن قواته ضعفت في موسكو (لمجرد أن النتائج لم تبرّر عمل نابليون). في حين أنه كان في سنة ١٨١٣، كما كان من قبل ومن بعد، يستخدم كل

علمه وكل قواه ليعمل على أحسن وجه في سبيل مصلحته ومصلحة جيشه. وليس نشاط نابليون، في هذه الفترة، أقل إثارة للدهشة منه في مصر وإيطاليا والنمسا وبروسيا. ولسنا ندري بالضبط إلى أي حد كانت عبقريته حقيقية في مصر، حيث هبت القرون الأربعون لتتأمل عظمته، لأن جميع مآثره المجيدة لم يصفْها غيرُ الفرنسيين. ولا نستطيع أن نحكم بيقين على عبقريته في النمسا وبروسيا، لأننا مضطرون أن نستقي شهاداتنا على عمله هناك من مصادر فرنسية وألمانية؛ فالاستسلام الذي لا وجه له لفيلق دون قتال ولقلاع دون حصار يحمل الألمان على التسليم بعبقريته كتفسير وحيد للحرب التي قادها في ألمانيا. أما نحن فليس هناك، والحمد لله، ما يدعونا، إلى التسليم بعبقريته لنستر عارنا. لقد دفعنا ثمن الحق في تأمل هذه القضية ببساطة ودون مواربة، ولن نتخلى عن هذا الحق.

إن نشاطه في موسكو مذهل وعبقري شأنهُ شأن نشاطه في أي مكان آخر. ومنذ دخوله إلى موسكو حتى خروجه منها، كانت تصدر عنه الأوامر تلو الأوامر والخطط تلو الخطط، ولم يضطرب لغياب السكان ووفد مثلهم وحتى لحريق موسكو. ولم تغبْ عن نظره مصلحة جيشه، ولا تحركات العدو ولا مصلحة شعوب روسيا، ولا إدارة شؤون باريس، ولا الاعتبارات الدبلوماسية حول شروط الصلح المطلوبة.

***

الفصل التاسع

من الوجهة العسكرية، يصدر نابليون، منذ دخوله إلى موسكو، أوامر صريحة إلى الجنرال سيباستياني[1] لمراقبة تحركات الروس، ويرسل قطعات من الجند في اتجاهات شتى، ويأمر مورا بالتعرض لكوتوزوف. ثم يحرص على تحصين الكرملين؛ ثم يرسم الخطة العبقرية للحملة المقبلة على خريطة روسيا بأسرها. ومن الوجهة الدبلوماسية، يستدعي نابليون النقيب إياكوفليف، وهو باذّ الهيئة رثّ الكسوة، لا يعرف كيف يغادر موسكو، ويَعرض له بالتفصيل سياسته ومروءته، ويكتب رسالة إلى الإمبراطور الكسندر يرى من واجبه فيها أن يُعلم صديقه وأخاه أن روستوتبشين أساء القيام بمهمته في موسكو، ويرسل إيا كوفليف إلى بطرسبرج[2] ويبسط

١- «الجنرال سيباستياني»: الفيكونت هوراس دي سيباستياني (١٧٧٢-١٨٥١)، ولد في كورسيكا، كان أجمل جنرال في الجيش، سفير فرنسا في تركيا في ١٨٠٦، مارشال فرنسا في ١٨٤٠.

٢- «يرسل اياكوفيلف إلى بطرسبرج»: ايفان اياكوفيلف (١٧٦٧-١٨٤٦)، نقيب في الحرس متقاعد، وهو رجل ثري، أراد أن يترك موسكو في ٢ أيلول لكن الفرنسيين منعوه من ذلك؛ احترق قصره، وكان يهيم على وجهه في موسكو المحترقة، وتوجه إلى المارشال مورتييه طالباً جوازاً بالمرور. أذن له نابليون بمقابلته، وكان يعرف أخاه، السفير لدى الملك جيروم في ريستفاليا، وسمح له بمغادرة موسكو، بعد أن حمله رسالة إلى الكسندر الأول مع عروض الصلح. أما ابنه غير الشرعي ووارثه في أمواله كلها فكان الكاتب المهاجر: هرزن (١٨١٢-١٨٧١).

بالتفصيل أيضاً، أمام توتولمين[1]، مشروعاته، ويستفيض في الكلام على مروءته، ويرسل هذا الشيخ إلى بطرسبرج ليشرع في المحادثات.

ومن الوجهة القانونية، يصدر الأمر، بعد الحرائق فوراً، بالبحث عن المذنبين ومعاقبتهم. ويُعاقَب المجرمُ روستوتبشين بحرق بيته.

ومن الوجهة الإدارية، تُمنح موسكو دستوراً، وتقام فيها بلدية ويُعمّم ما يلي:

«يا أهالي موسكو!

إن مصائبكم لشديدة، لكن جلالة الإمبراطور والملك يريد أن يضع حداً لها. لقد علمتكم أمثلةٌ رهيبة كيف يُعاقب العصيانَ والجريمة. وقد اتُخذت تدابير صارمة لإنهاء الفوضى وإعادة الأمن العام. وسوف تتولى بلديتكم أو إدارةَ مدينتكم هيئةٌ إدارية تُنتخب من بينكم. وهي التي ستُعنى بكم وبحاجاتكم ومصالحكم. وسوف يتميز أعضاؤها بالوشاح الأحمر الذي يضعونه بشكل متصالب، وسيضع العمدةُ، فضلاً عن ذلك، نطاقاً أبيض. أما، خارج الدوام، فلن يضعوا سوى ساعدة حمراء على الذراع اليسرى.

لقد أُنشئت الشرطةُ البلدية طبقاً للنظام القديم، وبفضل نشاطها يسود نظامٌ أفضل. وعينت الحكومة مفوّضيّن عامين أو مديرين للشرطة، وعينت عشرين مفوضاً موزعين في جميع أحياء المدينة. وتستطيعون معرفتهم من الساعدة البيضاء التي سيحملونها على الذراع اليسرى. وفُتحت بعضُ الكنائس المخصصة لمختلف الشعائر وأقيمت فيها الخدمة الإلهية دون

١- «أمام توتولمين»: ايفان فاسيليفتش توتولمين (١٧٥١-١٨١٥)، جنرال في ١٨١٢، ومدير بيت اللقطاء في موسكو، ظل في المدينة مع هذه المؤسسة. استدعاه نابليون وتحدث معه طويلاً.

أي عائق. إن مواطنيكم يعودون إلى بيوتهم كل يوم وقد أعطيت الأوامر لِيُمنحوا العون والحماية الواجبتين في الشدائد. هذه هي الوسائل التي استخدمتها الحكومة لإعادة النظام والتخفيف من وضعكم؛ لكن لبلوغ هذا الهدف، يجب أن تضموا جهودكم إلى جهودها، أن تنسوا، إذا أمكن، المصائب التي كابدتموها، أن تمنّوا أنفسكم بمصير أقل قسوة، أن تتأكدوا أن الموت المحتّم المخزي ينتظر الذين يتعدون على أشخاصكم أو على ما بقي من أملاككم، وألاّ يساوركم الشك، أخيراً، أن هذه الأملاك سيُحافظ عليها، لأن هذه هي مشيئة أعظم الملوك وأعدلهم. أيها الجنود والأهالي، من أية أمة كنتم! أعيدوا الثقة العامة، مصدر سعادة الدولة، عيشوا أخوةً، تبادلوا العونَ والحماية، اتحدوا لمقاتلة النوايا الإجرامية، أطيعوا السلطات العسكرية والمدنية، وعما قريب سيرقأ دمعُكم».

ومن ناحية تموين الجيش، أمر نابليون جميع قطعاته أن تأتي إلى موسكو، كل بدورها، بغية «السلب» لكي تحصل على المؤن وتؤمن بذلك إعاشة الجيش بعض الوقت.

ومن الوجهة الدينية، أصدر نابليون أمره بإعادة الكهنة واستئناف الخدمة في الكنائس

ومن ناحية التجارة وتموين الجيش أعلن في كل مكان مايلي:

إعلان

يا أهالي موسكو الوادعين، أنتم يا أصحاب المهن ويا أيها العمال الذين أبعدتهم الويلات عن المدينة، وأنتم أيها الفلاحون المشرّدون الذين مايزال يحتجزهم في الحقول خوفٌ لا أساس له، اصغوا! لقد عاد الهدوء إلى

العاصمة واستتبّ فيها النظام. إن مواطنيكم يخرجون بلا خوف من ملاجئهم حين يرون أنهم يُحترمون. وكل عنف يُمارَس عليهم وعلى أملاكهم يُعاقَب على الفور. إن جلالة الإمبراطور والملك يحميهم ولا يعتبر أن له عدواً بينكم سوى أولئك الذين يعصون أوامره. وهو يريد أن يضع حداً لمصائبكم ويعيدكم إلى بيوتكم وإلى أسركم. استجيبوا إذن لنواياه الخيّرة وتعالوا إلينا بلا خوف. أيها الأهالي! عودوا بثقة إلى منازلكم: وستجدون على الفور الوسائل الكفيلة بتأمين معاشكم! يا أصحاب المهن، أيها العمال المجدون! استأنفوا أعمالكم: فالبيوت والحوانيت ودوريات الحماية تنتظركم وستقبضون لقاء عملكم الأجر الذي تستحقونه! وأخيراً، أنتم أيها الفلاحون، اخرجوا من الغابات التي التجأتم إليها من الخوف، عودوا إلى مساكنكم مع الثقة الكاملة بأنكم ستجدون الحماية. وقد أُقيمت في المدينة مستودعات يستطيع الفلاحون أن يحملوا إليها المحاصيل الفائضة. واتخذت الحكومة التدابير التالية لتأمين التصريف الحر: ١- بدءاً من هذا اليوم، يستطيع الفلاحون والزراع وسكان ضواحي موسكو أن يحملوا إلى المدينة، دون خوف، محاصيلهم من أي نوع كانت، إلى المستودعَيْن المخصصين لهذا الغرض في شارع موخوفايا[1] واخوتني رياد[2]. ٢- تُشترى منهم هذه المحاصيل بأسعار تُحدَّد بناء على اتفاق مشترك بين البائع والمشتري؛ لكن إذا لم يحصل البائع على السعر العادل المطلوب، فسيكون حراً في أن يأخذ بضاعته، الأمر الذي لا يستطيع أحد أن يمنعه منه بأية حجة كانت. ٣- يُخصّص يوما الأحد والأربعاء لإقامة السوق الكبرى، ولهذا الغرض ستُعدّ مفارز من الجند بعدد كاف في يومي السبت والثلاثاء على جميع الطرق الكبرى، وعلى مسافة من المدينة، لحماية

١- «شارع موخوفايا»: شارع مواز للجناح الغربي من الكرملين.

٢- «أوخوتني رياد»: ساحة سوق مفتوح غربي الكرملين.

القوافل. ٤- وستُتّخذ التدابير نفسها التي تؤمن للفلاحين عودة عرباتهم وخيلهم دون أي عائق. ٥- ستُتخذ تدابير فورية لإعادة الأسواق العادية. يا أهالي المدن والقرى، وأنتم يا أصحاب المهن، أيها العمال، مهما تكن الأمة التي تنتمون إليها! إننا نهيب بكم أن تتقيدوا بالتعليمات الرحيمة لجلالة الإمبراطور والملك، وأن تتعاونوا معه لإقامة الرخاء العام. احملوا إلى عتباته الاحترام والثقة ولا ترددوا في أن تتحدوا معنا»!

ومن أجل رفع معنويات الجيش والشعب كانت تجري الاستعراضات المستمرة، وتُوزَّع المكافآت. وكان الإمبراطور يجوب الشوارع على جواده ويشدّ من عزيمة الأهالي؛ وبالرغم من مشاغله بصدد شؤون الدولة، فقد زار شخصياً المسارح التي أنشئت بناء على أمره.

ومن ناحية الإحسان، وهو أجمَل أمجاد الأمراء، عمل نابليون أيضاً كل ما كان منوطاً به. فأمر أن يُكتب على المؤسسات الخيرية: «بيت أمي»؛ جامعاً بهذا الفعل بين حنان الابن وعظمة فضيلة الملك. ولقد زار الميتم، وبعد أن أعطى الأيتام الذين أنقذهم يديه البيضاوين ليقبّلوهما، تحدّث بلطف مع توتولمين. ثم أمر أن تُدفع مرتبات الجند، حسب رواية يتير البليغة، بالعملة الروسية المزورة التي أمر بصنعها.

«لقد أمر بتوزيع المعونات على منكوبي الحريق، معيداً استخدام هذه الوسائل بعمل خليق به وبالجيش الفرنسي. أما المؤن فكانت أثمن من أن ينالها أجانب معظمهم أعداء، لذلك آثر نابليون أن يمنحهم المال لكي يتموّنوا في الخارج، فأمر بتوزيع روبلات ورقية».

أما من ناحية انضباط الجيش، فكانت الأوامر لا تكف عن الصدور لمعاقبة المخالفات أثناء الخدمة بشدة، ولوضع حدّ للنهب.

***

الفصل العاشر

إنه لشيء غريب، مع ذلك، أن هذه التدابير وتلك الاهتمامات والخطط التي لم تكن تقلّ في شيء عن غيرها في حالات مشابهة، لم تصل إلى صميم الأشياء، لكنها كانت تدور كما يتّفق لها ودون أي هدف، دون أن تدير معها الأجهزة المكمّلة، كما تدور عقارب ميناء الساعة الذي فصل عن آليته.

فمن وجهة النظر العسكرية، إن خطة الحملة العبقرية التي قال عنها تيير «إن عبقريته لم تتخيّل شيئاً أعمق وأبرع وأدعى للإعجاب منها، والتي دلل، بمناسبة الكلام عليها، في مجادلته الكتابية مع السيد فان[1]، على أن تحرير هذه الخطة العبقرية يجب أن يرجع إلى الخامس عشر من تشرين الأول لا إلى الرابع منه، هذه الخطة لم تُنفّذ قط و لم يكن بالإمكان تنفيذها لأنها لم تكن تتصل بالواقع في شيء. فأعمال تحصين الكرملين التي اقتضت هدم الجامع (كان هذا هو الاسم الذي أطلقه نابليون على كنيسة الطوباوي فاسيلي) بدت عارية من أية فائدة. ووضع الألغام تحت الكرملين لم يكن له من غرض سوى تلبية رغبة الإمبراطور الذي أراد أن ينسفه عند رحيله من موسكو، أي أن الطفل سيضرب البلاط

---

١ – فان: اغاتون فرانسوافان (١٧٧٨–١٨٣٧) أمين سر نابليون ومؤرخه، أنعم عليه بلقب بارون، نشر «مذكرات ومخطوطات تخدم تاريخ نابليون».

الذي آلمه حين وقع عليه. ومطاردة الجيش الروسي التي شغلت نابليون كثيراً تكّشفت عن ظاهرة لا سابقة لها. لقد أضاع قادةُ الجيش الفرنسي الجيش الروسي المكون من ستين ألف جندي، ويرى «تيير» أن مهارة مورا وأيضاً عبقريته، فيما يبدو، أتاحتا وحدهما العثور على هذا الجيش كما يُعثر على الدبوس.

ومن وجهة النظر الدبلوماسية، فإن جميع عهود الشهامة والإنصاف التي بسطها نابليون أمام توتولمين، وأمام إياكوفليف الذي كان همه أن يحصل قبل كل شيء على معطف وعربة، كانت باطلة: فالكسندر لم يستقبل هذين السفيرين و لم يجب على الرسالتين اللتين حملاهما.

ومن الوجهة القانونية، احترق نصف موسكو الذي ظل سليماً بعد إعدام مشعلي الحرائق المزعومين.

ومن الوجهة الإدارية، فإن إنشاء بلدية لم يضع حداً للنهب و لم يستفد منه إلا بعض أشخاص في البلدية نهبوا موسكو، بحجة المحافظة على النظام، أو حموا أملاكهم الخاصة من النهب.

ومن الوجهة الدينية، فإن ما تمتْ تسويته بسهولة في مصر بزيارة الجامع لم يعط أية نتيجة هنا، لقد حاول كاهنان أوثلاثة كهان وُجدوا في موسكو أن يمتثلوا لإرادة نابليون، لكن أحدهم صفعه جندي فرنسي أثناء القداس، أما الكاهن الآخر فقد كتب عنه موظفٌ فرنسي التقرير التالي: «إن الكاهن الذي اكتشفته ودعوته إلى أن يبدأ تلاوة القداس، قد نظف الكنيسة وأغلقها. وفي هذه الليلة جاء أيضاً مَنْ يخلع الأبواب ويكسر الأقفال ويمزِّق الكتب ويرتكب ضروباً أخرى من الفوضى».

ومن الوجهة التجارية، فإن الإعلان الموجه إلى الصناع المجدين وإلى جميع الفلاحين ظلّ بلا صدى. لم يكن هناك صناع مجدون. أما

الفلاحون فكانوا يحتجزون المفوّضين الذين يغامرون بأنفسهم إلى أبعد ما ينبغي ومعهم هذا الإعلان، ويقتلونهم...

ومن ناحية التسليات والعروض المسرحية المقدمة للأهالي وللجند، فإن العملية فشلت هنا أيضاً. فالمسارح التي أُسست في الكرملين وفي بيت بوزنياكوف لم تلبث أن أُغلقت لأن الممثلين والممثلات قد تعرّضوا للسلب.

ولم يعط الإحسانُ النتائج المرجوّة. فالأوراق النقدية المزورة والحقيقية غمرت موسكو وغدت عديمة القيمة. وكان الفرنسيون الذين يكدّسون الغنائم يأبون إلا الذهب. ولم تكن الأوراق النقدية التي طلب نابليون توزيعها بسخاء على البائسين عديمة القيمة فحسب، بل إن النقود الفضية ذاتها كانت تبادل بالذهب دون سعرها الواقعي.

لكن أعجب مثال على عدم فاعلية الأوامر العليا في هذه الفترة كانت جهود نابليون لإنهاء النهب وإعادة الانضباط.

وفيما يلي تقارير السلطات العسكرية:

«يستمر النهب في المدينة رغم الأمر بإنهائه. لم يستقر النظام بعد وليس هناك تاجر يتجّر بشكل مشروع. إن بائعي مطاعم الجند وحدهم يجازفون بالبيع، لكنهم لا يبيعون إلا الأشياء المسروقة».

«إن قسم دائرتي مايزال فريسةً لنهب جنود الفيلق الثالث الذين لم يكفهم أنهم انتزعوا من البؤساء اللاجئين في الأقبية القليلَ الذي بقي لهم، بل بلغت بهم الوحشية أن يجرحوهم بضربات سيوفهم، ولقد رأيت أمثلة كثيرة على ذلك».

«لا جدوى سوى أن الجنود يستجيزون السرقة والنهب. في التاسع من تشرين الأول».

«السرقة والنهب يستمران. وفي قطاعنا عصابة من اللصوص يجب إيقافهم على أيدي حرّاس أشداء. في الحادي عشر من تشرين الأول».

«الإمبراطور في غاية الاستياء من أن يرى أبداً، بالرغم من الأوامر الصريحة لإنهاء النهب، فصائل من نهابي الحرس يعودون إلى الكرملين. وقد تجددت الفوضى وتجدّد النهب، في الحرس القديم، بعنف أشد من ذي قبل، نهار أمس والليلة الفائتة واليوم. إن الإمبراطور يرى بانذهال جنوداً من النخبة خُصصوا لحماية شخصه، جنوداً ينبغي أن يكونوا قدوة في الطاعة، يمضون في عصيانهم إلى حد نهب الأقبية والمخازن المعدّة للجيش. بل إن بعضهم انحط إلى حد عدم مراعاة الحراس وضباط الحرس وشتمهم والتحامل عليهم».

وكتب الحاكم:

«إن المارشال الأكبر للقصر يشكو بشدة من أن الجنود ما يزالون يقضون حاجاتهم الطبيعية في جميع الأفنية، بل وتحت نوافذ الإمبراطور، بالرغم من المنع المتكرر».

كان هذا الجيش، كالقطيع الذي أُطلق سراحه فداس بقدميه الغذاء الذي كان يمكن أن ينقذه من المجاعة، يتفكك وينهار مع كل يوم يمرّ من جراء إقامة في موسكو لا طائل تحتها.

لكنه لم يكن يتزحزح.

ولم يلذْ بالفرار إلا عندما تملّكه خوف جنوني في إثر نبأ أسر القوافل على طريق سمولنسك وفي إثر نبأ معركة تاروتينو. ونبأ معركة تاروتينو نفسه الذي تلقاه نابليون فجأة أثناء عرض عسكري، أوحى إليه بالرغبة في معاقبة الروس، كما يقول تيير، فأصدر أمره بالرحيل الذي كان يطالب به الجيش بأسره.

لقد حمل رجال الجيش معهم، وهم يهربون من موسكو، كل ما سرقوه. وحمل نابليون أيضاً كنزه الخاص. وعندما رأى نابليون القوافل التي تزحم الجيش انتابه الذعر (كما يقول تيير). لكنه، بسبب من خبرته بالحرب، لم يأمر بإحراق العربات الزائدة كما فعل بعربات أحد مارشالاته وهو يقترب من موسكو؛ لقد تطلع إلى العربات الخفيفة والعربات البرلينية وقال: إن الأمور حسنة على هذا النحو، وأن هذه المركبات تصلح للمؤن والمرضى والجرحى.

كان وضع الجيش كله شبيهاً بوضع حيوان جريح يحسّ بدنو أجله ولا يعلم ما يفعل. ودراسة مناورات نابليون البارعة وأهدافه هو وجيشه، منذ دخوله إلى موسكو حتى تدمير ذلك الجيش، تضاهي دراسة دلالة وثبات حيوان أصيب بجراح قاتلة، وانتفاضاته. إن الحيوان الجريح، في الأغلب، يرتمي عند أدنى الأصوات تحت نار الصياد، فينطلق إلى الأمام ويعود إلى الوراء ويعجّل بنهايته. هذا ما فعله نابليون تحت ضغط جيشه كله. إن ضجيج معركة تاروتينو جفّل الوحش، فارتمى لملاقاة الطلقة النارية، وركض إلى الصياد، وعاد أدراجه، وأخيراً اندفع إلى الوراء، ككل الحيوانات، في أوعر الطرق وأشدها خطراً، ولكنْ على آثار قديمة معهودة.

لقد كان نابليون الذي يبدو لنا موجّهاً لهذه الحركة بأسرها (كما ينظر المتوحشون إلى الصورة المنقوشة على مقدمة السفينة على أنها القوة التي تحرك تلك السفينة)، أثناء كل هذه الفترة من نشاطه، شبيهاً بالطفل الذي يتصوّر، وهو يتمسك بسير مثبت في داخل عربة، أنه يقودها.

***

الفصل الحادي عشر

في السادس من تشرين الأول، في الصباح المبكر، خرج بطرس من الخصّ ثم عاد أدراجه ووقف عند الباب يلاعب الكلب الصغير ذا الشعر الضارب إلى البنفسجي. وكان هذا الكلب يعيش في الخص، قاضياً ليله مع كاراتايف؛ كان يذهب أحياناً إلى المدينة لكنه كان يعود منها دائماً. ولعله لم يكن له صاحب قط، وليس له صاحب الآن، وليس له اسم. سمّاه الفرنسيون: آزور، وسماه الجندي الذي كان يروي الحكايات: فيمغالكا، وسماه كاراتايف وبقية الجنود: سيري (الرمادي)، وأحياناً: فيسلي (الأذنان المتدليتان). وكان يبدو أن انعدام الصاحب والاسم والعرق بل واللون المحدد، أن كل ذلك لا يضايق أبداً هذا الكلب الصغير الضارب إلى البنفسجي. كان ذيله الكثّ ينتصب على شكل قنزعة من الريش الصلب المدوّر، وكانت قوائمه المعوجّة تخدمه أحسن خدمة حتى إنه كان يرفع برشاقة قائمة خلفية ويخب بمهارة فائقة وبخفة على القوائم الثلاث، وكأنه يأنف من الاستعانة بالقوائم الأربع. كان كل شيء عنده مدعاة إلى السرور، فتارة يتمرّغ على ظهره وهو ينبح من الفرح، وتارة أخرى يتدفأ تحت الشمس وعلى وجهه أمارات التفكر والاعتداد، وتارة ثالثة يتلهى بملاعبة قطعة من خشب أو عود من قش.

كان لباس بطرس يتألف الآن من قميص وسخ ممزق، وهو الأثر الباقي من ثيابه القديمة، ومن بنطال عسكري مربوط عند الكعبين ليكون أدفأ،

حسب نصيحة كاراتايف، ومن معطف وقبّعة فلاح. لقد تغيّر كثيراً من الناحية الجسدية، في هذه الآونة الأخيرة فلم يعد يبدو شديد الضخامة، وإن احتفظ بذلك المظهر الجسيم والقوي الخاص بعائلته. وغطت لحيته وشارباه أدنى وجهه. وأحاط شعره الذي طال وتشعث وامتلأ قملاً، برأسه مثل قبعة كبيرة. وكان تعبير عينيه حازماً، هادئاً، حافلاً بالحياة، وكأنه مستعد لاستقبال أي انطباع، كان تعبيراً لم يمرّ به من قبل، أما عفويته القديمة التي كانت تنعكس حتى في نظرته فقد حلّ محلها انضباطٌ داخلي شديد جاهز للعمل وللرد. وكان حافي القدمين.

كان بطرس ينظر تارة إلى الحقل، في الأسفل، حيث كان يمرّ، في هذا الصباح، كثيرٌ من العربات والخيّالة، وتارة أخرى ينظر بعيداً، إلى الضفة الأخرى من النهر، وحيناً إلى الكلب الصغير الذي كان يتظاهر بأنه يريد أن يعضه حقاً، وحيناً آخر إلى قدميه اللتين كان يرّيحه أن يبدل من أوضاعهما وهو يحرك إبهاميهما القذرتين. وكان كلما رمى قدميه بنظرته طافت بوجهه ابتسامة حافلةٌ بالرضى. كان منظر هاتين القدمين الحافيتين يذكّره بكل ما عاشه وفهمه منذ بعض الوقت، وكانت هذه الذكرى حلوة عليه.

كان الطقس، منذ بضعة أيام، هادئاً، صافياً، مع قليل من الجمد الأبيض في الصباح، وهو ما يُدعى صيف القديس مارتان.

كان الهواء لطيفاً في الشمس، وكان هذا الدفء الممتزج بنداوة تجدّدت مع جمد الصباح وماتزال محسوسة، ممتعاً كأشد ما يكون الإمتاع.

كان ذلك البريق السحري والبلوري منتشراً على جميع الأشياء، بعيدها وقريبها، وهو بريقٌ لا يُرى إلا في هذه الفترة من الخريف.

وعلى البعد، ارتسمت هضاب الدوري، مع القرية والكنيسة والبيت الأبيض الكبير. وبرزت الأشجارُ العارية والرمل والحجارة والسطوح وسهم الكنيسة الأخضر وزوايا البيت الأبيض البعيدة، كل ذلك برز في الهواء الشفاف، في خطوط فائقة الدقة، وبجلاء خارق. وأقرب من ذلك، ظهرت الخرائب المألوفة لبيت محترق من بيوت النبلاء كان يحتله الفرنسيون، بليلكها الذي مازال أخضر داكناً على طول السياج. وحتى هذا البيت الخرب والملوّث الذي كانت بشاعته مثيرة للاشمئزاز في الجو الداكن، بدا الآن، في هذا البريق الساطع الجامد، جميلاً جمالاً يبعث الطمأنينة في النفس.

برز عند زاوية الخص عريف فرنسي بلباس مهمل، وقبعة شرطة على رأسه، وغليون بين أسنانه، واقترب من بطرس وهو يغمز بعينه غمزة ودية. وقال:

- أي شمس هذه، يا سيد كيريل؟ (هكذا كان الفرنسيون يسمون بطرس). كأننا في الربيع.

واستند إلى الباب وعرض على بطرس غليوناً، مع أنه كان يعرضه دائماً على بطرس وأن بطرس كان يرفض في كل مرة. وبدأ يقول:

- ليتنا نسير في مثل هذا الوقت...

وسأله بطرس عما يُقال عن الرحيل، فروى العريف أن جميع القطعات سترحل وأن أوامر ستصدر اليوم بصدد السجناء. وفي خص بطرس، كان الجندي سوكولوف يحتضر فقال بطرس للعريف أنه لابد من اتخاذ قرار بشأنه. فأجاب أنه يستطيع أن يكون مطمئناً، وأن لهذا الغرض عربات إسعاف ومستشفيات، وأن تعليمات ستصدر بشأن المرضى، وأن كل ما يمكن أن يقع قد حسبت القيادة حسابه، على العموم

– ثم إنه ليس عليك، يا سيد كيريل، إلا أن تقول كلمة للنقيب، كما تعلم. أوه! هو.... لا ينسى شيئاً أبداً. قلْ له عندما يقوم بجولته، وسيفعل كل شيء لك....

أما النقيب الذي عناه العريف فكان كثيراً ما يتحدّث مطولاً مع بطرس ويمنحه الكثير من أفضاله.

– لقد قال لي في ذلك اليوم، انظرْ، إن كيريل، وحقّ القديس توما، رجل متعلّم، يتكلم الفرنسية؛ إنه نبيل روسي أصابته المصائب، لكنه رجل. وهو يتقن الـ..... فإن طلَبَ شيئاً فليقلْ لي ولن يُرفض طلبه. عندما ينهي المرء دراسته، كما ترى، فهو يحب العلم والرجال اللائقين. إنما أقول لك هذا، يا سيد كيريل. فلولاك، في قضية ذلك اليوم، لانتهت الأمور نهاية سيئة.

وبعد أن ثرثر العريف فترة انصرف (أما قضية ذلك اليوم التي أشار إليها فهي مشاجرة بين السجناء والفرنسيين استطاع بطرس فيها أن يُهدّئ رفاقه.) وسأله على الفور بعض السجناء الذين حضروا الحديث بينه وبين العريف عمّ تحدث. وبينما كان بطرس يروي لهم ما قاله العريف عن الارتحال، اقترب من الخص جنديّ فرنسي هزيلٌ، أصفر، رث الثياب.

توجه إلى بطرس رافعاً أصابعه إلى جبهته بحركة سريعة خجلة تنوب مناب السلام. وسأله إن كان الجندي بلاتوش[1] الذي أوصاه على قميص موجوداً في هذا الخص.

فقبل ثمانية أيام، تلقى الفرنسيون جلداً وقماشاً وطلبوا إلى الجنود السجناء أن يصنعوا لهم أحذية وقمصاناً.

١- بلاتوش: الصيغة الفرنسية لبلاتوشا، وهي تصغير بلاتون: أفلاطون.

قال كاراتايف وهو يخرج ومعه القميص مطوياً بعناية:

- إنه جاهز، إنه جاهز، يا صقري الصغير!

كان كاراتايف لا يرتدي، بسبب الجو المعتدل ولكي يكون أكثر راحة في عمله، سوى سروال وقميص ممزق أسود كالأرض. وكان شعره ملفوفاً بخيط على عادة العمال، وقد بدا وجهه المدوّر أكثر تدويراً وبشاشة.

قال مبتسماً وهو يبسط القميص الذي صنعه:

- ما اتُفق عليه فهو واجب الأداء. لقد قلتُ في نهار الجمعة، وهأنذا أفي بوعدي.

ألقى الفرنسي حوله نظرة قلقة، وكأنما تغلّب على تردده، فخلع بعجلة بزته وارتدى القميص. لم يكن يلبس تحت بزته قميصاً بل صدرة طويلة وسخة، من الحرير المعرّق فوق جذعه الأصفر، الناحل. وكان واضحاً أن الفرنسي يخشى أن يضحك منه السجناء الذين كانوا ينظرون إليه، فبادر مسرعاً إلى إدخال رأسه في القميص. و لم يفهْ أحدٌ من السجناء بكلمة.

قال أفلاطون وهو يشد القميص:

- إنه على قدّك، كما ترى.

تطلع الفرنسي إلى القميص، بعد أن أدخل رأسه ويديه فيه، دون أن يرفع بصره وتفحّص خياطته.

قال أفلاطون وعلى وجهه ابتسامة متّسقة، وكأنما كان معجباً بعمله:

- إيه! ماذا تريد. يا صقري الصغير، ليس هذا المكان مشغلاً، ثم إن الآلات اللازمة غير موجودة، ولقد قيل:

بدون أدوات لا نستطيع أن نقتل قملة.

قال الفرنسي:

– إنه جيد، إنه جيد، شكراً، لكن لابد أنه قد بقيتْ لديك بقيةٌ من القماش؟

قال كاراتايف الذي مازال مأخوذاً بعمله:

وسيكون القميص أكثر ملاءمة حين تلبسه على الجلد مباشرة. سيكون مريحاً ولطيفاً...

وكرر الفرنسي وهو يبتسم ويتناول ورقة نقدّية يمدّها إلى كاراتايف:

– شكراً، شكراً، يا صاحبي، البقية... لكن البقية....

رأى بطرس أن أفلاطون لم يشأ أن يفهم ما يقوله الفرنسي، فراح ينظر إليهما دون أن يتدخل. شكره كاراتايف على النقود وظل يبدي إعجابه بعمله. وأصر الفرنسي على أن يستردّ ما بقي من النسيج ورجا بطرس أن يترجم أقواله:

قال كاراتايف:

– ما حاجته إلى هذه القطع؟ يمكن أن تصنع منها لفائف رائعة للأقدام. لكن الواقع أن هذا شأنه. هذا شأنه.

قال ذلك وقد تجهّم وجهه فجأة، ثم أخرج من قميصه رزمة صغيرة من بقايا القماش وناولها الفرنسي دون أن ينظر إليها. ورجع إلى الداخل فنظر الفرنسي إلى القماش وفكر ورشق بطرس بنظرة متسائلة، وصرخ فجأة بصوت حاد وهو يحمرّ، وكأنما قالت له نظرة بطرس شيئاً ما:

– بلاتوش، اسمع يا بلاتوش، احتفظ بها لنفسك.

ومدّ إليه القطع وأدار ظهره وانصرف.

قال كاراتايف وهو يهز رأسه:

-أرأيت إلى هذا، يقولون عنهم أنهم ملحدون، ومع ذلك فإن لهذا نفساً كريمة. وليس من باب الاعتباط أن الشيوخ كانوا يقولون: اليد الندية معطاءة واليد الجافة غير معطاءة.

إنه عار تماماً ومع ذلك فهو يعطي. ولزم الصمت لحظة وهو يبتسم مفكراً، ونظرته عالقةٌ ببقايا القماش وقال:

– من المؤكد، يا صديقي، أنها ستكون لفائف رائعة.

وعاد إلى خصه.

***

الفصل الثاني عشر

مضت أربعة أسابيع على سجن بطرس. وقد عرض عليه الفرنسيون نقله من خص الجنود إلى خص الضباط، لكنه ظل في المكان الذي اقتيد إليه في اليوم الأول.

عرف بطرس، في موسكو الخربة المحترقة، أقصى حدود الحرمان التي يستطيع الإنسان مكابدتها؛ لكنه كان يتحمل وضعه دون مشقة بل بفرح، وذلك بفضل بنيته القوية وصحته التي لم يعرفها على حقيقتها حتى الآن، وخصوصاً لأن هذه الحرمانات قد حدثت على نحو طفيف جداً بحيث لا يمكن القول متى بدأت. في هذا الوقت بالذات وجد تلك السكينة وذلك الرضى اللذين طمح إليهما قديماً و لم يجدهما. وطالما بحث في حياته، ومن وجوه شتّى، عن هذه السكينة، عن ذلك الوفاق مع الذات اللذين أذهلاه بوجودهما لدى الجنود، في معركة بورودينو، بحث عنهما في محبة البشر، في الماسونية، في لهو الحياة الاجتماعية، في الخمر، في بطولة التضحية، في حبه الرومانسي لناتاشا، بحث عنهما على دروب الفكر فباء بحثُه وباءت محاولاته جميعاً بالخيبة. و لم يحصل على هذه السكينة وهذا الوفاق مع الذات إلا من خلال أهوال الموت والحرمان، ومن خلال ما أدركه في كاراتايف، ودون أن يكلف نفسه عناء التفكير في ذلك كله . فكأن اللحظات الرهيبة التي عاشها أثناء تنفيذ أحكام الإعدام قد محت من خياله وذاكرته الأفكار والمشاعر المقلقة التي

بدت له مهمة من قبل. لم يكن يفكر لا في روسيا ولا في الحرب ولا في السياسة ولا في نابليون . كان جلياً عنده أن كل ذلك لا يخصّه، وأنه لم يكن مدعواً للحكم عليه وأنه لا يستطيع، من ثم، أن يفعل ذلك. كان يردد قول كاراتايف: «روسيا والصيف لايتحالفان»، وكانت هذه الكلمات تُدخل إلى نفسه سكينة غريبة. صار يجد انتواءه قتل نابليون وحساباته بصدد الأرقام السحرية ووحش الرؤيا، صار يجدها غير مفهومة، بل سخيفة. وبدا له الآن غضبهُ على امرأته وخشيته من أن تدنّس اسمه شيئاً تافهاً بل مضحكاً. إذ ماذا يضيره من أن تعيش تلك المرأة، حيث تشاء، الحياة التي تحلو لها؟ ومَنْ من الناس يضيره ذلك، وماذا يهمه هو نفسه إن علم الفرنسيون أو لم يعلموا أن اسم السجين هو الكونت بيزوخوف؟

صار الآن يتذكر كثيراً حديثه مع الأمير آندريه ويوافقه على رأيه كل الموافقة، إلا أن يكون قد فهم فكرته فهماً مختلفاً بعض الشيء. كان الأمير آندريه يرى ويقول أن السعادة ليست سلبية أبداً، لكنه كان يلوّن قوله هذا بشيء من المرارة والتهكم. وكان، وهو يتكلم على هذا النحو، يريد أن يعبر عن فكرة أخرى، هي أننا لم نُؤْتَ جميع تطلعاتنا إلى السعادة الإيجابية إلا لتؤلمنا حين نعجز عن إرضائها. لكن بطرس كان يعترف بهذه الحقيقة دون أن يخفي وراءها قصداً آخر. فغياب الألم، وإشباع الحاجات، والحرية، من ثم، في اختيار مشاغله، أي في اختيار نمط حياته، كل ذلك كان يبدو له الآن كأنه سعادة الإنسان القصوى بلا منازع. لقد قدّر، هنا فقط، وللمرة الأولى، استمتاع المرء بالطعام حين يجوع، وبالشرب حين يعطش، وبالنوم حين ينعس، وبالدفء حين يبرد، وبالكلام حين يشتهي أن يتكلم وأن يسمع صوتاً بشرياً. بدا له إشباع الحاجات والغذاء الجيد والنظافة والحرية، الآن بعد أن حرم ذلك كله، بدا ذلك كأنه السعادة التامة، وبدا له اختيار مشاغله أي

حياته، الآن وقد غدا الاختيار جدّ محدود، شيئاً شديد السهولة بحيث نسي معه أن فرط السهولة في الحياة يدمر السعادة التي يجدها المرء في إشباع حاجاته، في حين أن حرية أكبر في اختيار المشاغل، تلك الحرية التي وفرّتها له ثقافتُه وثروته ووضعه في المجتمع، هي التي تجعل اختيار المشاغل على درجة لا تُقهر من الصعوبة وهي التي تدمر الحاجة إلى أحد المشاغل بل تدمر الإمكانية ذاتها.

لم تكن أحلام بطرس تتّجه الآن إلا إلى اللحظة التي يغدو فيها حراً. ومع ذلك فقد ظل فيما بعد، طوال حياته، يذكر بحماسة شهر الأسر هذا، وتلك الإحساسات القوية الفرحة التي لن تعود، ولاسيما تلك الحرية الداخلية الكليّة التي لم يعرفها إلا في هذه الحقبة، وظل يتحدث عن ذلك كله بحماسة.

وعندما نهض مبكراً في اليوم الأول، وخرج من الخص عند الفجر ورأى، أول ما رأى، القباب الداكنة وصلبان دير نوفودفيتشي، ثم رأى الجمدَ الأبيض على العشب المغبر، وسفوح هضاب الدوري، والحافة المشجرة المتعرجة فوق النهر الذي كان يغيب في الرحاب البنفسجية النائية، وعندما أحس بالهواء الندي وسمع نعيب غربان الزرع وهي تطير من موسكو عبر السهول، وعندما انبثق النور، بعد ذلك، من المشرق، وبرز جانب من الشمس بروزاً بهياً من خلف إحدى الغيوم، وتوهج كل شيء في النور البهيج: القباب والصلبان والندى والرحاب النائية والنهر، عند ذاك أحس بطرس بإحساس جديد لم يحس به من قبل، إحساس بفرح الحياة وقوتها.

لم يلازمه هذا الإحساس طوال أسره فحسب، بل على العكس، لقد كبر فيه مع تزايد صعوبات وضعه.

إن هذا الإحساس بالاستعداد لكل شيء. هذا الإحساس بالانضباط الأخلاقي نمّاه في بطرس أيضاً ذلك التقديرُ الرفيع الذي توطّد بين زملائه إزاءه، بعد قليل من وصوله إلى الخص فبفضل معرفته لعدد من اللغات، وبفضل التقدير الذي أبداه الفرنسيون له، وبفضل بساطته في أن يعطي كلٍ ما يُطلب منه (كان يقبض ثلاثة روبلات في الأسبوع باعتباره ضابطاً)، وبفضل قوته التي برهن عليها للجنود حين أدخل المسامير في حاجز الخص، وبفضل اللطف الذي أظهره في علاقاته مع زملائه، بفضل ذلك كله، كان بطرس يبدو للجنود كأنه كائن متفوق، وغامض بعض الشيء. إن هذه الصفات نفسها التي كانت مربكة إن لم نقل مؤذية له، في العالم الذي كان يعيش فيه قديماً، إن هذه الصفات: قوته واحتقاره لسهولات الحياة، وشروده وبساطته، غدت تضعه هنا، بين هؤلاء الناس، في مصف البطل. وكان بطرس يحس أن ذلك يطرح على عاتقه واجبات شتى.

***

الفصل الثالث عشر

بدأ تحرك الفرنسيين الذين كانوا يرتحلون، في ليلة السادس إلى السابع من تشرين الأول: كانوا يدمرون المطابخ والخصاص، ويحّملون العربات ويبدؤون سيرهم جنداً وقوافل.

في السابعة صباحاً اصطف أمام الخص حرسٌ فرنسي يرتدي لباس الميدان، بالقبعات والبنادق وحقائب الظهر والحزم الضخمة، ونشبت محادثات حامية تتخللها الشتائم، على طول الصف.

أما في الخص فكان الجميع مستعدين، قد ارتدوا ثيابهم وانتعلوا أحذيتهم وشدوا أوساطهم و لم يبق عليهم سوى انتظار الأمر بالخروج، ما عدا الجندي سوخولوف، الجندي المريض الشاحب المهزول الذي أحاطت بعينيه دوائر زرقاء، فإنه لم يرتد ثيابه و لم ينتعل حذاءه، وظل جالساً مكانه، وقد جحظت عيناه من الهزل، ينظر نظرة استفهام إلى زملائه الذين لم يعيروه التفاتهم، ويئن أنيناً منتظماً. وكان واضحاً أن ما حمله على الأنين لم يكن الألم، فقد كان مصاباً بالزحار، بقدر ما كان خوفه وحزنه من أن يظل وحيداً.

اقترب بطرس من المريض وقرفص أمامه وقد تمنطق بحبل واحتذى حذاء صنعه له كاراتايف من جلد صندوق شاي حمله فرنسي ليصنع به نعلاً جديداً. قال:

- لا تجزعْ، يا سوخولوف، فلن يرحلوا كلياً. إن لهم مستشفى، ها هنا. ولعلك ستكون أحسن حالاً منا.

فأنّ الجندي أنيناً أشد:

- أوه! يا ربي! أوه! هذه منيتي! أوه! يا ربي!

قال بطرس وقد نهض واتجه إلى باب الخص:

- وسأسألهم أيضاً.

وعندما بلغ البابَ كان العريفُ الذي عرض عليه غليوناً البارحة آتياً من الخارج مع جنديين وقد دنا من الباب. كانوا بلباس الميدان، وعلى ظهورهم أكياسهم وتحت ذقونهم زناقاتهم، وهو ما غيّر وجوههم التي كان يعرفها جيداً.

كان العريف يتجه إلى الباب ليغلقه بناء على أمر رؤسائه. ذلك أنه كان يجب تفقّد السجناء قبل الرحيل.

بدأ بطرس كلامه:

- أيها العريف، ما مصيرُ المريض؟....

لكنه حين قال هذه الكلمات ساورته الشكوك، وتساءل إن كان هذا هو العريف الذي يعرفه بعينه أو أنه عريف آخر لا يعرفه، لفرط ما كان متغيّراً في هذه اللحظة. وفضلاً عن ذلك، ففي اللحظة نفسها، دوى فجأة قرع طبول من الجانبين، فقطب العريف حاجبيه لدى سماعه كلمات بطرس، وصفق الباب وهو يجدّف تجديفاً منكراً. وحلّت في الخص عتمة مختلطة بالضوء. وكان قرع الطبول ما يزال يدوي بقسوة في الجانبين، مغطيّاً أنات المريض.

قال بطرس في نفسه: «ها هي ذي!... إنها تعود من جديد !».

وسرتْ في ظهره رعشة لا إرادية . لقد تعرّف بطرس في وجه العريف المتغيّر وفي جرس صوته وفي دوي الطبول المهيّج والمُصمّ، على تلك القوة الخفية التي لا ينالها التأثر، والتي كانت تدفع البشر إلى أن يقتلوا أمثالهم من البشر بالرغم من إرادتهم، تلك القوة التي شاهد آثارها أثناء تنفيذ أحكام الإعدام . وكان الخوف من هذه القوة ومحاولة الفرار منها وتوجيه الرجاء أو التقريع إلى الناس الذين هم أدوات لها، كان كل ذلك عبثاً لا طائل تحته. كان بطرس يعلم ذلك الآن، ويعلم أنه لابدّ من الانتظار والصبر. لم يعد بطرس إلى جنب المريض وكفّ عن النظر إليه . وظل على باب الخص، صامتاً مقطّب الحاجبين.

عندما فُتح الباب وخفّ السجناء إلى المخرج وهم يتدافعون، كقطيع من الخراف، شق بطرس طريقاً لنفسه ودنا من النقيب الذي كان مستعداً –على حد قول العريف– أن يفعل كل شيء من أجله. كان النقيب أيضاً بلباس الميدان، وكان وجهه البارد ينطق أيضاً بـ «ذلك» الذي تعرّفه بطرس في كلام العريف وفي قرع الطبول.

كان النقيب يردد، وهو يقطّب حاجبيه وينظر إلى الأسرى الذين يمرون أمامه:

– أسرعوا، أسرعوا.

قال الضابط وهو ينظر اليه ببرودة كأنه لم يعرفه:

– ماذا! ماذا تريد؟ .

فحدّثه بطرس عن المريض.

قال النقيب:

يستطيع أن يمشي، يا للشيطان!

ثم استأنف كلامه دون أن ينظر إلى بطرس:

- أسرعوا، أسرعوا.

رد بطرس:

- كلا، فهو في حالة احتضار...

صرخ النقيب وهو يقطب حاجبيه بحنق:

- هل تسمح!....

كانت الطبول تدوي: ران.... ران.... ران بلان - بلان...

وأدرك بطرس أن القوة الخفية قد استحوذت كلياً على هؤلاء الرجال، وأنه من اللغو أن يضيف شيئاً، مهما يكن ذلك الشيء.

فُصل الضباط السجناء عن الجنود وأُمروا بالسير في المقدمة. كان عدد الضباط الذين فيهم بطرس، يبلغ الثلاثين، أما الجنود فكانوا حوالي ثلاثمئة جندي.

كان الضباط الآتون من خصاص أخرى أشخاصاً لا يعرفهم بطرس، وكانوا أحسن لباساً منه بكثير، فراحوا ينظرون إليه، بحذائه ذاك، نظرة الحذر والعداء. وكان يمشي، غير بعيد عنه، رائدٌ ضخم ذو وجه أصفر، منتفخ، خشن، يرتدي دثاراً فضفاضاً من قازان مزنّراً بمنشفة، وكان واضحاً أن هذا الرائد يتمتع بالتقدير العام لزملائه. كانت إحدى يديه الممسكة بكيس التبغ داخلة في دثاره، وكان يتوكأ، باليد الأخرى، على غليونه التركي الطويل. كان يتذمر ويثور على الناس جميعاً، وهو ينفخ

ويهمهم، لاعتقاده أنهم يدفعونه، وأنهم يستعجلون حيث لا حاجة إلى الاستعجال، وأنهم يُدهشون ولا داعي إلى الدهشة. وأخذ ضابط آخر، قصير ونحيل، يوجّه الكلام إلى كل أحد ويقدّم الفرضيات عن وجهتهم وعن المسافة الي قد يقطعونها في اليوم. وراح موظف ينتعل جزمة مبطنة باللباد ويلبس بزة من المعتمدية، راح يركض في كل الجهات ويحاول أن يشهد أنقاض موسكو، ناقلاً ملاحظاته بصوت عال عمّا احترق وعن الأحياء التي يجتازونها. وتصدى لمناقشته ضابط ثالث من أصل بولوني، إذا حكمنا عليه من لهجته، فجعل يبرهن له أنه مخطىء في معرفة الحي.

قال الرائد باهتياج:

– فيم تتناقشان؟ لا فرق إن كان حي القديس نيقولا أو القديس بليز؛ فكل شيء قد تحول إلى رماد، كما تريان، هذا كل شيء... مالكم تتدافعون، أليس هناك ما يكفي من المكان؟

ولقد أضاف الجملة الأخيرة بتبرّم مخاطباً بها مَنْ كان يمشي خلفه ولم يدفعه قط.

كانت أصوات السجناء الذين ينظرون إلى الأنقاض تهتف، من هذه الجهة تارة، وتارة أخرى من تلك:

– أواه، أواه، أواه، أيّ فعل فعلوا! وحتى زاموسكفوريتشي[1] زوبوفر والكرملين... انظروا، ذهبَ نصفُه. كنتُ أقول لكم أن حي زاموسكفوريتشي بأسره قد احترق، وها أنتم ترون.

قال الرائد:

١– زاموسكفوريتشي: حي في الجهة الأخرى من النهر، جنوبي الكرملين.

– تعلمون، في الواقع، أن ما احترق قد احترق، فما جدوى الكلام عليه!

وعند المرور بحي خاموفنيكي (وهو من الأحياء النادرة التي ظلت سليمة في موسكو)، أمام الكنيسة، تكتّل جمعُ السجناء فجأة في جانب واحد وعلتْ هتافات الاستفظاع والاشمئزاز.

– يا للأشقياء! إن هؤلاء لملحدون! لكنه ميت، نعم، إنه ميت حقاً... لقد لطّخوه بشيء ما.

تقدم بطرس هو أيضاً نحو الكنيسة التي يوجد بقربها ما أثار تلك الهتافات، فرأى على نحو غامض شيئاً يستند إلى السياج. وعلم من زملائه الذين يرون خيراً منه أنه جثة رجل أُسند إلى السياج وهو واقف ولُطخ وجهه بالسناج.

صرخ بهم حرّاس الموكب:

– امشوا، ملعونٌ اسم... أسرعوا... يالثلاثين ألف شيطان...

وبغضب أشدّ فرّق الجنود الفرنسيون بصفائح السيوف، جمهور السجناء الذين، كانوا يتأملون الميت.

***

الفصل الرابع عشر

سار السجناء، في أزقة خاموفنيكي، وحدهم مع حراسهم وعرباتهم وشاحناتهم التي كانت تتبعهم؛ لكنهم عندما بلغوا مخازن المعتمدية، وقعوا، على حين غرّة، وسط قافلة كبيرة من المدفعية كانت تتقدم في كتلة متراصة، مختلطة بالعربات الخاصة.

وعند الجسر، وقفوا جميعاً ريثما يمرّ الذين في المقدمة. وانكشفت من الجسر لأعين السجناء صفوف لا نهاية لها من قوافل أخرى تسير إلى الأمام وإلى الخلف. فعلى اليمين، حيث تنعطف طريق كالوغا أمام نيسكو تشنوي لتغيب في البعد، كانت تمتد القطعات والقوافل امتداداً لا آخر له. وكانت تلك القطعات قطعات فيلق «بوهارنيه[1] التي انطلقت قبل غيرها؛ وخلفها، على طول الرصيف وعلى جسر بطرس، جاءت قطعات «تي» مع متاعه[2].

أما قطعات «دافو» التي كان السجناء فيها فقد كانت تجتاز «كريمسكي برود» ودلف قسم منها إلى شارع كالوغا. لكن القوافل

١- «فيلق بوهارنية»: الكونت أوجين دي بوهارنية (١٧٨١-١٨٢٤) ابن جوزفين، نائب ملك ايطاليا، كان يقود فيلقاً في ١٨١٢.

٢- «تي مع متاعه»: ميشيل تي (١٧٦٩-١٨١٥)، مارشال، دوق ديلسنجن في ١٨٠٩، أمير الموسكوفا في ١٨١٢، كان يقود المؤخرة الفرنسية أثناء الانسحاب.

كانت شديدة الطول بحيث أن آخر عربات بوهارنيه لم تكن قد خرجت من موسكو بعد في شارع كالوغا، عندما كانت مقدمة قطعات «ني» تنفذ من شارع اوردنكا الكبير[1].

كان السجناء، بعد أن اجتازوا كريمسكي برود، يتقدمون بضع خطوات ويتوقفون ثم يستأنفون سيرهم، في حين كان يتزايد زحام العربات والناس من كل الجهات. وبعد أن قضوا أكثر من ساعة ليقطعوا مئات الخطوات التي تفصل الجسر عن شارع كالوغا، وبعد أن بلغوا الساحة حيث يلتقي شارعا زاوموسفكورتيشه وكالوغا، توقفوا وانتظروا عدة ساعات في مفرق الطرق هذا. ومن كل صوب كانت تُوافي جلبة متصلة من قرقعة العربات ووطء الخطى والصيحات الهائجة والتجاديف، وكأنها هدير البحر. وكان بطرس لاصقاً بجدار بيت محترق، يصغي إلى هذه الضوضاء التي اقترنت في خياله بقرع الطبول.

تسلق بعض الضباط السجناء جدار المنزل المحترق الذي استند إليه بطرس ليروا بوضوح أكبر. كانوا يقولون:

– ما أكثر الناس! ما أكثر الناس!... لقد كدّسوا المتاع حتى فوق المدافع! انظر إلى الفرو الذي نهبه الأنذال... تطلّعْ إلى ذلك، خلفهم، في العربة... أقسم لك أن هذا مأخوذ من إحدى الأيقونات. لابد أنهم ألمان. وهذا، في الواقع، أحد فلاحينا!... آه! الأنذال! ذاك أنه ينوء بحمله ولا يكاد يقوى على السير! بل إنهم جاؤوا بالعربات الخاصة!... وهذا آخر يجلس على صناديق يا الله!... هناك مشاجرة!...

– أحسنت، على الوجه، أحسنت، على الوجه! إذا استمررنا على

١– كريمسكي برود، شارع كالوغا، شارع اوردنكا الكبير؛ شارع زاموسكفو ريتشية، المؤدي إلى الجنوب، باتجاه كالوغا.

هذا المنوال فسنظل هنا في هذا المساء. انظروا، انظروا... لاشك أن هذا لنابليون بذاته. أترى أيّ جياد هذه! مع الشعار والتاج. هذا منزل قابل للتفكيك. لقد أوقع جرابه، إنه لا يرى. مشاجرة أخرى... امرأة مع طفلها، ولا بأس بها! نعم، تستطيعين أن تركضي ماشئت، سيدعونك تمرّين هكذا... انظرْ، لا نهاية لما نرى. بنات هوى روسيات، أقسم لك، بنات هوى! ما أشدَّ استرخاءهن في تلك العربات الخفيفة!

وإذا بموجة من الفضول العام تحمل السجناءَ، مرة أخرى، نحو الطريق، كما جرى قرب كنيسة خاموفنيكي، فيرى بطرس، بفضل قامته، من فوق رؤوسهم، ما كان يثير فضولهم. كانت هناك نساء متبرجات متزينات بألوان صارخة، يطلقن صيحات حادة، ملزوزات بعضهن إلى بعض في ثلاث عربات خفيفة شاردة بين عربات الذخيرة.

منذ اللحظة التي أحس فيها بطرس بظهور تلك القوة الخفية، لم يعد هناك شيء يبدو له غريباً أو مرعباً: لا الجثة الملطخة بالسناج، ولا هؤلاء النسوة اللواتي يستعجلن إلى جهة ما، ولا أنقاض موسكو. لا شيء مما كان يراه الآن ترك فيه أثراً، وكأنما كانت نفسه تأبى، وهي تستعد لصراع صعب، أن تتقبّل انطباعات جديرة أن تضعفها.

وتمرّ قافلة النساء. وفي أثرها، تجيء العجّالات مرة أخرى، ويجيء الجنود والشاحنات والعربات والجنود وعربات الذخيرة، والنساء بين الحين والحين.

لم يكن بطرس يرى الناس منفصلين، لم يكن يرى سوى حركتهم.

كان جميع هؤلاء الناس وهذه الجياد يبدون كأنما تطاردهم قوة غير مرئية. كانوا جميعاً، في هذه الساعة التي شاهدهم فيها بطرس، ينبعثون من مختلف الشوارع، تحركهم رغبةٌ واحدة، هي أن يمرّوا بأسرع ما

يمكن. وكانوا جميعاً إذا اصطدموا بالآخرين ثاروا وتضاربوا بالأيدي؛ كانت الأسنان البيضاء تنكشف، والحواجب تقطّب، والتجاديف نفسها تتردد على الأفواه، وكانت الوجوه جميعاً تحمل التعبير نفسه المزدهي، الحازم، الوحشي ببرودة، وهو التعبير الذي أدهش بطرس في الصباح، عند قرع الطبل، على وجه العريف.

عند المساء فقط، جمع رئيس القافلة جنده، ودخل، بعد كثير من الصراخ والنقاش، بين القوافل الأخرى، ونفذ السجناء إلى طريق كالوغا، يحيط بهم الحراس من كل جانب.

ساروا بسرعة شديدة دون أن يرتاحوا، ولم يتوقفوا إلا عند مغيب الشمس. وتجمعت القوافل وتهيّأ الرجال لليل. وبدا عليهم جميعاً التكدّر والاستياء. وسُمعتْ زمناً طويلاً ومن جميع الجهات، التجاديفُ والصيحات الهائجة والضربات. وجاءت عربةٌ كانت تتبع القافلة فارتطمت بعربة نقل وحطمتها بعريشها. وسارع بعض الجنود: فضرب بعضهم رؤوس الجياد المقرونة بالعربة لكي يرجعوها إلى الخلف، وتقاتل الآخرون فيما بينهم، ورأى بطرس ألمانياً يجرح في رأسه جرحاً بليغاً بضربة سيف.

فكأن جميع هؤلاء الرجال كانوا يحسّون، الآن وهم يقفون في قلب الحقول، في غسق الخريف البارد، بالإحساس نفسه، إحساس اليقظة المزعجة بعد الاستعجال والاندفاع اللذين استبدا بهم عند الإنطلاق. وكأن كلا منهم فهِمَ، حين وقفوا، أنهم لم يكونوا يعلمون بعد إلى أين يذهبون، وأنهم قد يتعرضون، أثناء سيرهم هذا، إلى كثير من الأشياء الشاقة والعسيرة.

في هذه المرحلة، عامل الحراسُ السجناءَ معاملة أقسى من التي

عوملوا بها عند الانطلاقَ. ولأول مرة، كان اللحم الذي وُزّع عليهم من لحم الخيل.

وكان المرءُ يحس لدى الجميع، من الضباط إلى آخر جندي، بضرب من الحقد الشخصي على كل من السجناء، وهو حقد حلّ فجأة محل العلاقات الودية التي سادت حتى هذه اللحظة.

وتزايد هذا الحقد حين تبينوا أثناء التفقد أن جندياً روسياً قد فرّ، في غمرة الاضطراب الذي رافق الرحيل عن موسكو، متظاهراً بألم في بطنه، ورأى بطرس فرنسياً يضرب جندياً روسياً انحرف كثيراً عن الطريق، وسمع صديقه النقيب يلوم ضابط صف على هرب هذا الجندي الروسي ويهدّده بالمجلس الحربي. ولما برّر ضابط الصف مسلكه بقوله إن الجندي كان مريضاً وأنه لم يعد يقوى على السير، أجاب الضابط بأن الأمر قد أعطي لقتل المتخلّفين. كان بطرس يحس بأن تلك القوة الغاشمة التي استولت عليه أثناء إعدام مشعلي الحرائق والتي لم يظهر لها أثر بعد ذلك أثناء أسره، قد استولت على حياته مرة أخرى. كان خائفاً؛ لكنه كان يحس أنه كلما أمعنت القوة الغاشمة في سحقه، نمت وتوطّدت في نفسه قوة حيوية مستقلة عنها.

تعشى بطرس حساء من دقيق الشيلم ولحم الخيل وتحدّث مع رفاقه.

لم يتحدث بطرس ولا أحد من رفاقه عما شاهده في موسكو، ولا عن فظاظة الفرنسيين، ولا عن الأمر الذي تبلغوه بقتل المتخلفين: كانوا جميعاً على جانب كبير من الانتعاش والبهجة، وكأنهم يريدون أن يتصدوا لتفاقم الأوضاع. كانوا يتحدثون عن ذكرياتهم الشخصية، عن مشاهد مضحكة شهدوها أثناء الحملة، لكنهم كانوا يتحاشون الحديث عن الوضع الحاضر.

كانت الشمس قد غابت من وقت طويل. والتمعت في السماء نجومٌ مضيئة هاهنا وها هناك؛ وانتشر في جانب من السماء ضوء أحمر كالحريق، ضوء البدر الذي أخذ يشرق، وارتعش القرصُ الأحمر الضخم ارتعاشاً غريباً في الضباب الرمادي. وأخذ الجو يغدو مضيئاً. انتهى المساء لكن الليل لم يأت بعد. وترك بطرس رفاقه الجدد ومضى، بين نيران المخيّم إلى الجانب الآخر من الطريق حيث الجنودُ الأسرى، على ما قيل له. كان يشتهي أن يحدثهم. لكن حارساً فرنسياً أوقفه على الطريق وأرجعه من حيث أتى.

عاد بطرس أدراجه، لكنه لم يعد إلى رفاقه، إلى قرب النار، وإنما مضى إلى عربة محلولة لم يكن قربها أحد. وجلس مستنداً إلى عجلاتها علي الأرض الباردة ضاماً ساقيه تحته، مطرقاً رأسه، وظل زمناً طويلاً يفكر بلا حراك. مضى أكثر من ساعة و لم يزعجه أحد. وإذا به ينفجر مُقهقهاً على نحو صاخب لفت إليه الناس الذين أدهشهم هذا الضحك الغريب والمنفرد بشكل ظاهر.

كان بطرس يضحك: ها! ها! ها!. ويقول بصوت عال محدّثاً نفسه: لم يدعني الجندي أمرّ. لقد قبضوا علي وحبسوني. وهم يحتفظون بي أسيراً. مَنْ، أنا؟ أنا؟ أنا، روحي خالدة! ها، ها، ها!... ها! ها! ها!.... ولفرط ما ضحك انسابت الدموع من عينيه.

نهض أحدهم ودنا منه ليرى ممّ يضحك هذا الفتى الطويل الغريب. فكفَّ بطرس عن الضحك ونهض وابتعد عن الفضولي وألقى نظرة حوله.

أخذ يسكن المخيم المترامي الأطراف الذي يمتد إلى مدى البصر والذي كان يعج قبل هنيهة بزفير النيران وأصوات الرجال؛ وراحت

النيران الحمراء تخبو وتبهت. وبلغ البدر كبد السماء المضيئة، وبدأت الغابات والحقول التي كانت غير مرئية حتى هذه اللحظة خارج المعسكر، تنكشف من بعيد. ووراء هذه الغابات والحقول برزت لا نهايةٌ بعيدة، مضيئة، متحركة، تشدّ الناظر إليها شداً. نظر بطرس إلى السماء، إلى الأعماق التي تتلألأ فيها النجوم، وقال في نفسه:

«كل هذا لي أنا، وكل هذا فيّ أنا، وكل هذا أنا. وكل هذا هو ما قبضوا عليه وحبسوه في خص تكتنفه ألواح الخشب!».

وتبسم ومضى يتمدد قرب رفاقه.

***

الفصل الخامس عشر

في الأيـام الأول من تشرين الأول، حمل مبعوث جديد إلى كوتوزوف رسالة من نابليون مع عروض الصلح، وكانت الرسالة مؤرخة من موسكو كذباً، في حين كان نابليون في هذا الوقت غير بعيد، أمام كوتوزوف، على طريق كالوغا القديمة، فردَّ كوتوزوف على هذه الرسالة رده على الرسالة الأولى التي حملها لوريستون: قال إنه لا مجال لبحث الصلح.

وبعد ذلـك بوقت قليل، أبلـغـتْ مـفـرزة الأنـصـار بقيادة دوروخـوف[1] التي كانت تعمل على يسار تاروتينو أن قطعات عدوة شوهدت في فومنسكوي[2]، وأنها تتكون من فرقة بروسية، وأن هذه الفرقة منفصلة عن بقية الجيش، وأن بالإمكان إبادتها بسهولة. وكان الجنود والضباط يطالبون بأن يعملوا من جديد. وكان جنرالات الأركان الذين شجعتهم ذكرى الانتصار السهل في تاروتينو يلحون على كوتوزوف ليحملوه على قبول عرض دوروخوف. ولم يكن كوتوزوف يرى الهجوم ضرورياً. ورَجَح

١- مفرزة الأنصار بقيادة دوروخوف: جنرال الفرسان ايفان.دوروخوف، وقد تميز كقائد للأنصار أثناء انسحاب الفرنسيين.

٢- فونسكوي: قرية في جنوب موسكو.

حلّ وسط، وهو الحل الذي سينُفّذ: أُرسلت مفرزة صغيرة إلى فومنسكوي لتهاجم بروسييه.

وبطريق المصادفة الغريبة، آلت هذه المهمة، وهي أكثر المهمات صعوبة وأعظمها خطراً، كما سنرى ذلك فيما بعد، إلى دوكتوروف، دوكتوروف نفسه القصير المتواضع الذي لم يصوره أحد وهو يضع خطط المعارك، ويندفع على رأس أفواجه، ملقياً بملء يديه الأوسمة على سريات المدفعية. الخ...، دوكتوروف نفسه الذي كان يُعتبر متردداً قليل الفطنة، لكنه دوكتوروف نفسه الذي نجده في مركز القيادة حيثما يغدو الوضع عسيراً، في جميع حروب الروس ضد الفرنسيين منذ اوسترلتس حتى ١٨١٣. ففي اوسترلتس، كان آخر من بقي قرب سد اوجيست، جامعاً الأفواج، منقذاً ما يمكن إنقاذه، عندما هرب الجميع أو هلكوا و لم يبق جنرال واحد في المؤخرة. ولقد ذهب إلى سمولنسك، وهو مريض وفريسة لنوبة حمى، ومعه عشرون ألف رجل ليدافع عن المدينة ضد جيش نابليون بأسره. و لم يكد يغفو على باب مالاكوف، وهو في أشد نوبات الحمى، حتى يوقظه قصف المدفعية، فتصمد سمولنسك يوماً كاملاً. وفي معركة بورودينو، عندما قُتل باغراتيون، وعندما ذُبّح جند الجناح الأيسر بنسبة تسعة إلى واحد، وعندما كانت كل قوة المدفعية موجهة إلى ذلك الجناح، لم يُرسَلْ أحد سوى دوكتوروف بالذات، هذا المتردد القليل الفطنة، وقد سارع كوتوزوف إلى إصلاح الخطأ حين أرسل في بداية الأمر ضابطاً آخر. ويذهب دوكتوروف هذا القصير المتواضع إلى هناك، وتغدو بورودينو أروع أمجاد الجيش الروسي. ولقد وصف لنا الواصفون الكثير من الأبطال شعراً ونثراً، لكن لم يفه أحد بكلمة واحدة عن دوكتوروف.

أُرسل دوكتوروف إلى فومنسكوي، مرة أخرى، ومنها إلى مالو إياروسلافتيز[1]، إلى المكان الذي دارت فيه آخر معركة ضد الفرنسيين، إلى المكان الذي بدأ فيه هلاكهم بشكل جلّي. ومرة أخرى يصف لنا الواصفون كثيراً من العبقريات والأبطال أثناء هذه المرحلة من الحملة، لكن لا يفوه أحد بكلمة واحدة عن دوكتوروف، أو إنْ ذكره أحد فباقتضاب شديد وعلى نحو ملتبس. إن هذا الصمت تجاه دوكتوروف يدل أعظم دلالة على مزاياه.

من الطبيعي أن من لا يعرف عمل آلة يتصور وهو يراها تعمل أن القطعة الرئيسية هي البراية التي سقطت فيها مصادفة والتي عرقلت عملها. إن من لا يعرف آلية الآلية لا يستطيع أن يفهم ان هذه البراية التي تعوق وتعرقل حركتها ليست واحداً من أجهزتها الرئيسية. وإنما الجهاز الرئيسي هو هذه المسننة الناقلة للحركة التي تدور بصمت.

في العاشر من تشرين الأول، في اليوم نفسه الـذي قطع فيه دوكتوروف نصف الطريق إلى فومنسكوي وتوقف في قرية اريستوفو، استعداداً لتنفيذ الأوامر الصادرة إليه بدقة، تحوّل الجيش الفرنسي كله، بعد أن بلغ بحركته التشنّجية موقع «مورا»، ليخوض المعركة هناك، على ما يبدو، تحوّل فجاة، ودون أي سبب، إلى اليسار، على طريق كالوغا الجديدة، ودخل إلى فومنسكوي حيث كان بروسييه وحده حتى هذه اللحظة. وكان تحت إمرة دوكتوروف في ذلك الحين

١- «مالو إياروسلافيتز»: مدينة من مدن المناطق في مقاطعة كالوغا، دارت فيها معركة ضارية في ١٢ تشرين الأول، وقد احتلت المدينة وأعيد احتلالها ثماني مرات، وظلت في أيدي الفرنسيين. إلا أنهم تراجعوا إلى طريق سمولنسك.

المفرزتان الصغيرتان، مفرزة فيغنر[١] ومفرزة سيسلافين[٢]، فضلاً عن دوروخوف.

في مساء الحادي عشر من تشرين الأول، وصل سيسلافين إلى أريستوفو، مصطحباً معه إلى مقر القيادة جندياً فرنسياً من الحرس وقع أسيراً. قال الأسير أن الجند الذين دخلوا اليوم إلى فومنسكوي يشكّلون المقدمة لمعظم الجيش، وأن نابليون معهم، وأن هذا الجيش غادر موسكو منذ خمسة أيام. وفي المساء نفسه روى قنٌّ آتٍ من بوروفسك أنه شاهد جيشاً عظيماً يدخل المدينة. ونبّه قوزاق مفرزةَ دوروخوف على وجود الحرس الفرنسي الذي يسير نحو بوروفسك وغدا واضحاً، تبعاً لهذه المعلومات كلها، أن الجيش الفرنسي كله موجودٌ الآن حيث كان من المظنون أنه لا يوجد سوى فرقة واحدة، وأنه يبتعد عن موسكو في اتجاه غير متوقع، هو طريق كالوغا القديمة[٣]. ولم يشأ دوكتوروف أن يقوم بأي عمل لأن واجبه لم يتجلّ له إذ ذاك بوضوح. لقد تلقى أمراً بمهاجمة بورسييه، ولم يكن في فومنسكوي من قبل سوى بروسييه، أما الآن ففيها الجيش الفرنسي بأسره. وأراد ايرمولوف أن يعمل على هواه، لكن دوكتوروف أصرّ على ضرورة تلقي الأوامر من القائد العام فتقرر إرسال تقرير إلى القائد العام.

١– فيغنر: ايفان فيغنر (١٧٨٧–١٨١٣) نقيب، من أوائل منظمي مفارز الأنصار.

٢– سيسلافين: الكسندر سيسلافين (١٧٨٠–١٨٥٨) عقيد في ١٨١٢، قائد جماعة من الأنصار.

٣– طريق كالوغا القديمة: كان هناك طريقان يتجهان من موسكو إلى كالوغا، كانت الطريق الجديدة تمر من تاروتينو، والقديمة وهي أميل إلى الغرب، تمر من فومنسكوي وبورفسك ومالو إيار وسلافتز.

اختير لهذه المهمة ضابط قدير هو بولخوفيتينوف، الذي كان عليه أن يشرح القضية مشافهة ليكمّل التقرير المكتوب. وعند منتصف الليل، راح بولخوفيتينوف يعدو بأقصى سرعته إلى مقر القيادة العامة حاملاً الرسالة المختومة ومزوداً بتعليمات شفهية، مصطحباً معه قوزاقياً يقود جياد البدل.

***

الفصل السادس عشر

كانت الليلة الخريفية معتمة، معتدلة. وكان المطر يهطل منذ ثلاثة أيام. وبعد أن بدّل بولخوفيتينوف الخيل مرتين وقطع، في ساعة ونصف، ثلاثين فرسخاً على طريق موحلة، لزجة، وصل في الساعة الثانية صباحاً إلى ليتاشوفكا. ترجّل أمام منزل خشبي على سياجه لافتة كُتب عليها: «مقر القيادة العامة»، ودخل إلى البهو المظلم.

قال لشخص نهض وهو ينفخ في عتمة البهو:

– الجنرال المناوب، أسرعْ! عاجل جداً!

همس صوت الحاجب الذي أراد أن يتشفع لسيده:

– إنه مريض منذ مساء أمس، وهذه هي الليلة الثالثة التي لم ينم فيها. الأفضل أن توقظ النقيب أولاً.

قال بولخوفيتينوف وهو يعبر باباً مفتوحاً عثر عليه بعد التلمّس:

– الأمر مهم جداً، من قبل الجنرال دوكتوروف.

فمشى الحاجب أمامه وأخذ يوقظ شخصاً مضطجعاً:

– يا صاحب السعادة، يا صاحب السعادة، هناك رسول.

قال صوت نائمٌ:

– ماذا، ماذا؟ من قبل من؟

قال بولخوفيتينوف الذي لم يكن يرى في العتمة شخص المتكلم وإن مّر من صوته أنه ليس كونوفنيتزين:

– من قبل دوكتوروف واليكسي بيتروفتش[1]. إن نابليون في فومنسكوي.

رأى الرجل المستيقظ يتثاءب ويتمطى. قال وهو يتلمس بيده ما حوله:

–لا أود إيقاظه. إنه مريض حقاً ولعل ما نسمعه ليس سوى إشاعات.

قال بولخوفيتينوف:

– هذا هو التقرير، وقد أُمرتُ بتسليمه مباشرة إلى الجنرال المناوب.

قال الرجل الذي كان يتمطى مخاطباً الحاجب:

– انتظر، سأشعل الضوء. أين تدسّه دائماً، يا ملعون؟

كان المتكلم هو تشربينين، مرافق كونوفنتزيجين العسكري.

وأضاف قائلاً:

– وجدتُه، وجدتُه.

قدح الحاجب القداحة. كانت تشربينين يتلمّس باحثاً عن الشمعدان.

ثم قال بقرف:

١– اليكسي بيتروفتش: هو الجنرال ايرمولوف.

– آه! الأوغاد!

رأى بولخوفيتينوف، على ضوء الشرر وجه تشربينين الشاب الذي كان يمسك بالشمعة، ورأى في زاويةٍ رجلاً ينام. كان النائم هو كرنوفنيتزين.

وعندما التهبت أعواد الكبريت لدى احتكاكها بالصوفان لهباً أزرق أولاً، ثم لهباً أحمر، أضاء تشربينين الشمعة، الأمر الذي طرد الحشرات التي كانت تقرضها، ثم تفحّص الرسول. كان بولخوفيتينوف مغطى بالوحل، وعندما أراد أن يمسح وجهه بكمه لطّخ به وجهه.

قال تشربينين وهو يتناول الظرف:

– مَنْ بلّغ عن ذلك؟

قال بولخوفيتينوف:

– الخبر صحيح. فالأسرى والقوزاق والكشّافة متّفقون على إعطاء المعلومات نفسها.

قال تشربينين الذي نهض ودنا من الرجل الذي غطى رأسه بقلنسوة وتدثر بمعطف:

– لابدّ من إيقاظه.

ناداه:

– يا بطرس بيتروفيتش!

فلم يتحرك كونوفنيتزين.

فقال وهو يبتسم، واثقاً أن هذه الكلمات ستوقظه:

- إلى مقر الأركان العامة!

وبالفعل فقد نهض الرأس ذو القلنسوة، في الحال. واحتفظ وجه كونوفنيتزين الجميل الصارم ذو الوجنتين الملتهبتين من الحمى، للحظة من الزمن، بظل الأحلام البعيدة أشد البعد عن الوضع الراهن، لكنه سرعان ما ارتعش، واستعاد وجهه تعبيره المعتاد، الهادىء والصارم.

سأله في الحال، لكن دون عجلة، وهو يطرف بعينيه من الضوء:

- ما القضية؟ مِنْ قبل مَنْ؟

وفضّ الظرف وراح يقرأ وهو يصغي إلى تقرير الضابط. ولم يكد ينتهي من قراءته حتى وضع قدميه، وكانتا في جوربين صوفيين، على الأرض الممهّدة، وانتعل جزمته. ثم نزع قلنسوته وبعد أن مسد شعره على صدغيه وضع عمرته.

- هل استغرق مجيئك زمناً طويلاً؟ هيا بنا إلى القائد العام.

لقد أدرك كونوفنيتزين في الحال أن للنبأ الذي حُمل إليه أهمية كبرى وأنه لا ينبغي أن يضيع الوقت. أكان ذلك خيراً أم كان شراً، إنه لم يكن يفكر في ذلك أو يتساءل عنه. لم يكن ذلك يعنيه. لم يكن ينظر إلى أحداث الحرب بعقله، ولا بالمحاكمة، بل بشيء آخر.

لقد كانت تحيا في أعماق نفسه قناعة عميقة ضمنية بأن الأمور ستجري على مايرام، وأن واجبه يقتضيه لا أن يركن إليها ولا أن يتكلم عليها بل أن يؤدي مهمته فقط. وكان يؤدي مهمته مكرساً لها كل قواه.

كان يبدو أن بطرس بيتروفيتش كونوفينتزين، مثله مثل دوكتوروف لم يوضع في قائمة مَنْ يُدعون أبطال ١٨١٢ مثل باركلي ورايفسكي

وايرمولوف وبلاتوف وميلارادوفيتش، إلا على سبيل المجاملة، وكان مشهوراً، مثل دوكتوروف، بأنه رجل محدود القدرات والمعرفة، وأنه مثل دوكتوروف، لم يكن يضع خططاً للمعارك لكنه كان دائماً في أشد الأماكن حرجاً؛ كان ينام دائماً وبابه مفتوح، منذ أن عُيّن جنرالاً مناوباً، ويأمر أن يوقظ عند وصول كل رسول، وكان أبداً تحت النار في المعارك، حتى أن كوتوزوف كان يلومه على ذلك ويتردد في إرساله بمهمة، وكان، شأنه شأن دوكتوروف، واحدة من هذه المسننات التي لا يشاهدها الناس والتي تكون الجزء الأساسي في الآلة، من دون صرير ولا ضوضاء.

عندما خرج كونوفنيتزين من المنزل الخشبي في تلك الليلة الرطبة المظلمة، قطّب حاجبيه، من جهة لأن وجع رأسه تزايد، ومن جهة أخرى لأن فكرة مزعجة خطرت بباله وهي أن ذلك العش في الأركان، عش الشخصيات ذات النفوذ سيضطرب لهذه الأخبار، ولاسيما بينغسين الذي كان يضمر عداوة شديدة لكوتوزوف منذ تاروتينو، وأن هذه الشخصيات ستقترح وتناقش وتصدر الأوامر والأوامر المضادة. كان هذا التوقّع ثقيلاً على نفسه وإن علم أنه لا مناص منه.

وبالفعل فإن تول الذي مرّ به ليحمل إليه النبأ سرعان ما شرع يعرض وجهات نظره على الجنرال الذي يقطن معه، فاضطر كونوفنييزين الذي أصغى إليه، وهو صامت متعب، أن يذكره بوجوب الذهاب إلى القائد العام.

***

الفصل السابع عشر

كان كوتوزوف قليل النوم ليلاً، ككل المسنين، كان يقع له غالباً أن يغفو فجأة، في النهار. أما في الليل فكان يقضي معظم الوقت مستلقياً بثيابه على سريره مستغرقاً في التفكير بدل النوم.

هكذا كان الآن يفكر وهو مستلق على سريره، ورأسه الكبير، الثقيل، المشوّه مستند إلى يده السمينة، وعينه الوحيدة محدّقة في الظلمة.

منذ أن أصبح بينغسين الذي كان يتصل مباشرة بالإمبراطور والذي كان أعظم الناس نفوذاً في الأركان، يتحاشاه، غدا كوتوزوف أشد هدوءاً بمعنى أنه لم يعدْ هناك مَنْ يجبره على المشاركة في هجمات لا جدوى منها. وكان يرى أن الدرس المستفاد من معركة تاروتينو وأحداث الأمس التي كانت ذكراها مؤلمة له كان نافعاً بهذا الصدد أيضاً.

فكّر في نفسه: «ينبغي أن يدركوا أننا سنخسر حين ننتقل إلى الهجوم. الصبر والزمن هما المحاربان الباسلان عندي!». كان يعلم أنه لا يجوز أن نقطف التفاحة مادامت فجة. ستسقط التفاحة من ذاتها إذا نضجت، وإذا ما قطفناها قبل أوانها فستفسد الثمرة والشجرة وستضرس الأسنان. كان، كالصياد المجرّب، يعلم أن الوحش قد جُرح جرحاً بإمكان القوة الروسية وحدها أن تحدث مثله، أما إن كان الجرح

مميتاً أم لا، فتلك مسألة لم تُحلّ بعد. كان كوتوزوف، الآن بعد قناعته بإرسال لوريستون وبيريتيه وتبعاً لتقارير الأنصار، واثقاً من أن الوحش قد أصيب إصابة مميتة. لكن كان لابد من الأدلة على ذلك، كان لابد من الانتظار.

كان يقول في نفسه: «إنهم يرغبون أن يُسرعوا كي يروا كيف قتلوه. انتظروا، وسترون الأشياء بجلاء! إنهم يجرون دائماً وراء المناورات، ووراء الهجمات! ما جدوى ذلك؟ لا غاية لذلك سوى إظهار التميّز. وكأن في القتال شيئاً مسلياً. إنهم كالأطفال الذين لا نستطيع أن نعرف منهم كيف جرت الأشياء، لأنهم يريدون جميعاً أن يبرهنوا على أنهم يحسنون القتال. لكن القضية الآن غير هذا».

«وأية مناورات بارعة يقترح علي هؤلاء الناس جميعاً! إنهم يظنون أنهم يحتاطون لكل شيء عندما يحتاطون لاحتمالين أو ثلاثة (وتذكّر خطة العمليات العامة المرسلة من بطرسبرج). لكن الاحتمالات لا حصر لها».

أما مسألة ما إذا كان الجرح الذي أصاب العدو في بورودينو مميتاً أم لا فكانت معلقة منذ شهر فوق رأس كوتوزوف.

فمن جهة احتل الفرنسيون موسكو، ومن جهة أخرى كان كوتوزوف يحسّ بكل كيانه وبيقين أن الضربة الرهيبة التي سددها حين وجّه كل قواه بكل الروس لابد أن تكون مميتة. لكنه كان بحاجة إلى أدلة، على كل حال، وكان ينتظرها منذ شهر، وكلما كان الوقت يمرّ كان صبره ينفد. وكان يفعل، وهو مستلق على سريره أثناء ليالي الأرق، الشيء نفسه الذي كان يفعله جنرالاته الشباب والذي كان يلومهم عليه. كان يتخيّل كل الاحتمالات الممكنة مثل هؤلاء الشباب، مع هذا

الفارق وهو أنه لم يكن يبني شيئاً على هذه الفرضيات وأنه لم يكن يرى واحدة أو اثنتين بل آلافاً من الفرضيات. وكان كلما فكّر فيها بدت له أكبر عدداً. كان يتخيل كل أنواع تحركات جيش نابليون، إما في مجموعه، أو في بعض أجزائه، نحو بطرسبرج، وضدّه نفسه، للإلتفاف عليه، وكان يتخيّل للالتفاف أيضاً هذا الاحتمال (وهذا أكثر ما كان يخافه) الذي فيه يوجه إليه نابليون سلاحه ذاته ببقائه في موسكو منتظراً إياه، وكان يتخيل أيضاً حركة جيش نابليون المتراجعة نحو «ميدين» و«ايوخنوف»[1]؛ لكن الشيء الذي لم يستطع أن يتوقعه كان ما وقع، كان هذه الطفرات التي لا تخضع للنظام ولا العقل، هذه الطفرات التشنجية لجيش نابليون أثناء الأحد عشر يوماً الأولى التي تلت رحيله عن موسكو، هذه الطفرات التي مكنّت كوتوزوف مما لم يكن يجرؤ على التفكير فيه حتى الآن: إبادة الفرنسيين إبادة كلية. كانت تقارير دوروخـوف عن فرقة بروسييه، والأخبار التي حملها الأنصار عن اشتداد الضيق الذي أصاب الجيش الفرنسي، والأنباء التي شاعت عن استعدادات الفرنسيين للرحيل عن موسكو، كان كل ذلك يؤكد هذه الفرضية وهي أن الجيش الفرنسي قد انهزم وأنه على وشك الفرار؛ لكن ذلك كله لم يكن سوى فرضيات تبدو عظيمة الشأن بالنسبة إلى الشباب، لا بالنسبة إلى كوتوزوف. كان يعلم، بتجربته أثناء ستين عاماً، مدى الثقة التي يجب أن توليها الشائعات، ويعلم إلى أي حد يستطيع الذين يرغبون في شيء أن يجمّعوا الأنباء على نحو تبدو فيه مؤيدة لرغباتهم، ويعلم أن الناس، في هذه الحالة، يهملون عمداً كل ما يناقض تلك الرغبات. كان كوتوزوف كلما تزايدت رغبته في ذلك الشيء تناقص ما يجيزه لنفسه من إيمان به. وكانت هذه القضية هي التي

١- ميدين وايوخنوف: مدينتان من مدن المناطق في مقاطعة سمولنسك، غربي مالو إيار وسلافتز.

استأثرت بقوى نفسه جميعاً. أما ما سوى ذلك فلم يكن سوى أمر من أمور الحياة العادية، من مثل مناقشاته مع أركانه، والرسائل التي كان يكتبها من تاروتينو إلى السيدة دي ستال[1]، وقراءة الروايات، وتوزيع المكافآت، واتصاله ببطرسبرج. الخ لكن هزيمة الفرنسيين التي تنبأ بها وحده كانت أمنيته الوحيدة العميقة.

في ليلة الحادي عشر من تشرين الأول كان مضطجعاً، ورأسه مستند إلى يده، يفكّر في ذلك.

وبدرت من الغرفة المجاورة حركة وسُمعت خطوات تول وكونوفنتيزين وبولخوفيتينوف.

فصاح بهم المارشال:

– هيه! مَنْ الآتي؟ ادخلوا، ادخلوا! ما الجديد؟

وبينما كان أحد الخدم يشعل الشمعة، لخصّ تول زبدةَ الأخبار.

سأل كوتوزوف الذي أدهش وجهُه تول بصرامته الباردة بعد أن أُشعلتْ الشمعةُ:

– من ذا الذي حمل هذه الأنباء؟

– لا يمكن أن يتطرق إليها الشك، يا صاحب السمو.

– جئني به، جئني به!

كان كوتوزوف جالساً على سريره وقد تدلت إحدى ساقيه واستند

---

١ –١٧٦٦

١٨١٧) تقيم في بطرسبرج، في هذا الوقت.

بطنه الضخم على ساقه الأخرى المثنية. وكان يطرف بعينه السليمة ليرى الرسول بجلاء، وكأنما يريد أن يقرأ في قسماته ما كان يعنيه.

قال لبولخوفيتينوف بصوت الشيخ الرصين وهو يزرر قميصه على صدره:

– تكلّمْ، تكلم، يا صاحبي. ادنُ، ادن أيضاً. ما هذه الأنباء التي حملتها لي؟ نابليون ترك موسكو؟ أهذا صحيح؟

نقل بولخوفيتينوف أولاً الرسالة التي أوكلتْ إليه بالتفصيل. فقاطعه كوتوزوف قائلاً:

– تكلّمْ، انتقلْ إلى لب الموضوع، ولا تتباطأْ.

فروى بولخوفيتينوف كل شيء وصمت منتظراً الأوامر. وتدخّل تول لكن كوتوزوف قاطعه. أراد أن يقول شيئاً، لكن وجهه تغضّن على حين غرّة، وتشنّج، فأومأ إيماءة لتول، واستدار إلى الجهة المقابلة، إلى زاوية الغرفة المزدانة بالأيقونات، وقال بصوت مرتعش وهو يضم يديه:

– يا إلهي، أيها الخالق! لقد سمعتَ صلاتنا. خلصت روسيا. أشكرك يا إلهي!

وبكى.

***

الفصل الثامن عشر

اقتصر نشاط كوتوزوف منذ اللحظة التي علم فيها بتخلي الفرنسيين عن موسكو وحتى آخر الحملة، على كبح جماح جنده بالسلطة أو بالحيلة أو بالرجاء، وعلى منعهم من القيام بأية هجمات أو مناورات ومن محاولة المصادمة العقيمة مع عدو منهار. ويتقدم دوكتوروف نحو مالوإياروسلافتز، لكن كوتوزوف يتأخر مع معظم الجيش ويأمر بإخلاء كالوجا، لأن الانسحاب إلى ما وراء هذه المدينة بدا له جدّ ممكن.

ويتراجع كوتوزوف في كل الجهات، لكن العدو يفرّ هارباً في اتجاه معاكس، دون أن ينتظر انسحاب كوتوزوف.

إن مؤرخي نابليون يصفون لنا مناورته البارعة نحو تاروتينو ومالو اياروسلافتز ويبنون الفرضيات حول ما كان سيقع لو أن نابليون نجح في التغلغل إلى مقاطعات الجنوب الغنية.

لكن المؤرخين ينسون، فضلاً عن أنه لم يكن هناك ما يمنع نابليون من التوجه إلى هذه المقاطعات الجنوبية (لأن الجيش الروسي ترك له الطريق خالية)، أنه ما من شيء كان قادراً على إنقاذ جيش نابليون، لأن هذا الجيش كان يحمل في ذاته بذور موته المحتّمة. كيف كان يمكن لهذا الجيش الذي وجد في موسكو مؤناً وافرة لم يعرف كيف يحافظ عليها فداسها بالأقدام، هذا الجيش الذي لم ينظّم توزيع الأرزاق حين وصوله

إلى سمولنسك بل إنه أباحها للنهب، كيف كان يمكن لهذا الجيش أن يستردّ قواه في مقاطعة كالوغا التي يقطنها الروس نفسهم الذين يقطنون موسكو، والتي تملك النارُ فيها الخاصية التي تملكها هناك في التهام كل ما يمكن أن يحترق؟

لم يكن بوسع هذا الجيش أن يسترد قواه أينما كان. فلقد كان يحمل في ذاته منذ معركة بورودينو ونهب موسكو، ما يشبه الشروط الكيميائية لتفككه.

كان رجال هذا الجيش القديم يفرّون مع قادتهم دون أن يعلموا إلى أين، ولا يرغبون إلا في شيء واحد (من نابليون إلى آخر جندي): أن يتخلصوا شخصياً بأسرع ما يمكن من هذا الوضع الذي لا مخرج له والذي أخذوا يعونه جميعاً، وإن كان وعيهم لا يخلو من الغموض.

ولهذا السبب فعندما تظاهر الجنرالات، في مجلسهم في مالو ياروسلافتز، بأنهم يتشاورون مُبدين آراء شتى، كان آخر الآراء، رأي الجندي الساذج «موتون» القائل بما كان يفكر فيه الجميع أي بوجوب الانسحاب بأسرع ما يمكن، هذا الرأي هو الذي أفحم الجميع، ولم يعترض أحدٌ، حتى ولا نابليون، على هذه الحقيقة التي يقرّها الجميع.

لكن معرفة الجميع بوجوب الانسحاب لم تُجد شيئاً، إذ كان الجميع يخجلون من الاعتراف بأنهم مضطرون إلى الفرار. وكان لا بدّ من هزة خارجية للتغلب على هذا الخجل. وجاءت هذه الهزة في الوقت المناسب. جاءت مما يُسميّه الفرنسيون: «هورا» الإمبراطور.

ففي اليوم التالي لذلك المجلس، مرّ نابليون مع حاشيته من المارشالات ومع حرسه وسط مواقع الجند، بحجة التفتيش على القطعات وعلى ساحة المعركة الأخيرة والمعركة الآتية. وإذا بقوزاق من النهّابين يقعون

عليه مصادفة ويوشكون أن يأسروه. وإذا كان القوزاق لم يأسروا نابليون هذه المرة، فإن ما أنقذه هو الذي أهلك الفرنسيين: الغنيمة التي ارتمى عليها القوزاق، في تاروتينو وفي هذا المكان على السواء، مهملين الرجال. لقد انقضّوا على الغنيمة، دون أن ينتبهوا إلى نابليون، ونجح نابليون في الإفلات منهم.

بما أن «أبناء الدون أوشكوا أن يأسروا الإمبراطور بين ظهراني جيشه، فقد كان جليّاً أنه لم يبق عليه سوى الفرار بأسرع ما يمكن على أقصر الطرق وأشهرها».

لقد فهم نابليون هذا الإنذار، ذلك أنه بكرشه الصغير، كرش ابن الأربعين، لم يعد يحس بخفة الأمس وجرأته. وسرعان ما رأى رأيَ «موتون» بتأثير الخوف الذي ألقاه القوزاق في نفسه، فأصدر أمره، كما يقول المؤرخون، بالتراجع على طريق سمولنسك.

لأَنْ يكون نابليون متفقاً بالرأي مع «موتون»، ولأَنْ يأخذ الجندُ بالانسحاب، إن ذلك لا يدل على أنه أمر بذلك، لكنه يدل على أن القوى التي كانت تفعل فعلها في مجموع الجيش فتدفعه على طريق موجاييسك كانت تفعل فعلها في نابليون أيضاً.

***

الفصل التاسع عشر

عندما يكون المرءُ في حالة الحركة فإنه يعطي دائماً هذه الحركة هدفاً. فلكي يقطع ألف فرسخ لابد له من التفكير في أنه سيلقى خيراً في نهاية مطافه. إن الأمل بأرض موعودة ضروري لكي يهبه القوة على المضيّ.

كانت موسكو هي أرض الفرنسيين الموعودة عند هجومهم، أما عند انسحابهم فقد غدا الوطنُ تلك الأرضَ الموعودة. لكن الوطن كان شاسع البعد، ومَنْ كان عليه أن يقطع ألف فرسخ لابد له من أن يقول لنفسه، ناسياً هدفه النهائي: «سأصل اليوم، بعد أن أقطع أربعين فرسخاً، إلى موضع أستطيع أن أستريح فيه وأن أنـام»؛ إن موضع الاستراحة هذا يحجب، أثناء المرحلة الأولى، الهدفَ النهائي ويغدو مركزاً لجميع الرغبات وجميع الآمال. هذه الاستعدادات التي تظهر في الفرد تتضخّم دائماً في الجماعة.

كان الهدف النهائي، الوطن، بالنسبة إلى الفرنسيين الذين كانوا يتراجعون على طريق سمولنسك القديمة، شاسع البعد، أما الهدف الأقرب الذي كانت تتجه إليه جميع الرغبات وجميع الآمال التي بلغتْ أشدّها في الجماعة، فكان سمولنسك، لا لأن هؤلاء الرجال كانوا يعتقدون أن سمولنسك طافحة بالمؤن والقطعات النشيطة، لا لأن أحداً أبلغهم ذلك (على العكس، كانت ملاكات الجيش العليا ونابليون

ذاته يعلمون أن هناك قليلاً من المؤن)، بل لأن ذلك وحده كان يمكنه أن يهبهم القوة على التقدم واحتمال صنوف الحرمان الراهنة. لقد انخدعوا جميعاً، مَنْ كانوا يعلمون ومَنْ لم يكونوا يعلمون، على السواء، فكانوا يطمحون إلى بلوغ سمولنسك وكأنها الأرض الموعودة.

ما إن أدرك الفرنسيون الطريق الكبرى حتى خفّوا إلى هدفهم الوهمي بقوة خارقة وسرعة غريبة. وفضلاً عن سبب الاندفاع العام هذا الذي كان يربط جموع الفرنسيين في كلٍّ واحد ويمنحهم ضرباً من القوة، فقد كان هناك سبب آخر يجمعهم. وكان هذا السبب يكمن في عددهم. كانت كتلتهم الهائلة تجذب إليها الذرات البشرية، شأنها شأن قانون الجاذبية في الفيزياء. لقد كانوا يسيرون في كتلة واحدة من مئة ألف رجل مثل دولةٍ كاملة.

كان كل منهم لا يطمح إلا إلى شيء واحد: أن يستسلم، أن يفلت من جميع الفظائع وجميع المصائب. لكن قوة الاندفاع الجماعي نحو الهدف، نحو سمولنسك، كانت تجّر كل واحد إلى الوجهة نفسها؛ هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن فيلقاً لا يمكن أن يستسلم لسرية، وعبثاً كان الفرنسيون يحاولون أن يستغلوا أدنى الفرص ليتخلص بعضهم من بعض وأدني الذرائع قبولاً ليقعوا في الأسر؛ ذلك أن هذه الذرائع لم تكن تتيسر دائماً. وكان عددهم ذاته وسيرهم السريع في صفوف متراصة، كان ذلك يحرمهم من هذه الإمكانية، وكان، بالنسبة إلى الروس، لا يجعل إيقاف هذه الحركة التي بُذل فيها كلُ ما في كتلة الفرنسيين هذه من طاقة، لا يجعله صعباً فحسب بل ومستحيلاً أيضاً. إلى التصدّع الآلي لهذا الجسم لا يمكنه أن يُسرِّع مسيرةَ الانحلال الجارية إلى ما وراء حدّ معين.

لا يمكننا تذويب كتلة من الثلج دفعة واحدة. هناك حدّ معين من

الزمن لا يمكن قبله لأي اشتداد في الحرارة أن يُذوّب الثلج. بل على العكس، كلما اشتدت الحرارة تصلّب الثلج المتبقّي.

لم يكن بين قادة الجيش الروسي من يفهم هذا سوى كوتوزوف. وعندما اتّضحتْ وجهةُ هرب الجيش الفرنسي على طريق سمولنسك، فإن ما توّقعه كونوفنتزين في ليلة ١١ تشرين الأول بدأ يتحقق. كانت جميع ملاكات الجيش العليا تريد أن تُظهر حسن بلائها، وأن تقطع على الفرنسيين خطَّ التراجع، وأن تُباغتهم، وأن تأسرهم، وأن تدحرهم، كانت جميع الملاكات العليا تطالب بالهجوم.

كان كوتوزوف وحده يبذل كل ما لديه من قوة (وهذه القوة ضئيلة جداً لدى القائد العام) ليعارض الهجوم.

لم يكن بوسعه أن يقول لهم ما نقوله نحن اليوم: لمَ القتال وسد الطريق وهلاك الرجال والإجهاز على التعساء بشكل لا إنساني؟ ما جدوى ذلك كله عندما يذوب ثلثُ هذا الجيش، بدون قتال، من موسكو إلى فيازما؟ كان يحدّثهم، وهو يعلم، بما أوتي من حكمة الشيوخ، ما كان بمقدورهم أن يفهموه، كان يحدثهم عن البديل الأفضل فيهزؤون منه، ويفترون عليه، ويستشيطون غيظاً ويستبسلون في غير أوان الاستبسال.

وفي فيازما، لم يستطع ايرمولوف وميلورادفيتش، وبلاتوف وآخرون، وقد كانوا بمحاذاة الفرنسيين، أن يقاوموا الرغبة في شطر قطعتين عسكريتين عدوتين ودحرهما. وأرسلوا إلى كوتوزوف، ليعلموه عن نيتهم، مغلّفاً كان يحوي، بدلاً من التقرير، ورقة بيضاء

وبالرغم من جهود كوتوزوف لكبح جماح الجند، فقد هاجم هؤلاء الجند العدوَّ وجهدوا في أن يسدّوا الطريق عليه. ورُوي أن أفواجاً من

المشاة كانت تُغير على العدو تتقدّمها الموسيقا وتُعلن عنها الطبول، فتقتل وتفقد آلاف الرجال.

أما قطع الطريق فإنهم لم يقطعوا طريقاً و لم يدحروا أحداً. وكان الجيش الفرنسي يرصّ صفوفه أمام الخطر بإحكام أشد، ويتابع طريقه المشؤومة إلى سمولنسك، وهو يذوب على نحو منتظم.

***

الجزء الثالث

الفصل الأول

إن معركة بورودينو مع ما تبعها من احتلال موسكو وهرب الفرنسين دون معارك جديدة، ظاهرة من أكثر ظواهر التاريخ تنويراً.

يتفق المؤرخون جميعاً على التأكيد بأن عمل الدول والشعوب الخارجي في النزاعات التي تقسمها يتمخّض عن الحروب، وأن القدرة السياسية للدول والشعوب تزيد أو تنقص مباشرة تبعاً لنجاحاتها العسكرية زيادة أو نقصاً.

مهما تكن غريبة الروايات التاريخية المتعلقة بهذا الملك أو ذاك الإمبراطور الذي خاصم ملكاً آخر أو امبراطوراً آخر فجمع جيشه، وقاتل جيش عدوه، وظفر بالنصر، وقتل ثلاثة آلاف أو خمسة آلاف أو عشرة آلاف رجل، واحتل بذلك دولة أو شعباً كاملاً من عدة ملايين من البشر؛ ومهما يكن عصيّاً على الفهم كيف أن هزيمة جيش، وهو جزء من مئة من مجموع قوى الأمة، تؤدي إلى خضوع تلك الأمة، فإن جميع الوقائع التاريخية (بقدر ما نعلم منها) تثبت أن الانتصارات الكبرى أو الصغرى لأسلحة شعب ما على أسلحة شعب آخر هي سبب زيادة قدرة هذا الشعب أو ضعفه، أو هي على الأقل الدليل الأساسي على تلك الزيادة وذلك الضعف. يربح جيشٌ معركة فتزداد على الفور حقوق الشعب الغالب على حساب المغلوب. ويتعرض جيشٌ للهزيمة فلا يلبث

شعبه أن يفقد حقوقه، على مقدار الهزيمة، فإذا كانت الهزيمة كاملة كان خضوعه كاملاً.

كذلك كان الأمر (حسب ما ينبئنا التاريخ) منذ أقدم الأزمنة إلى أيامنا هذه. وكل حروب نابليون تأكيد لهذه القاعدة. فبمقدار هزيمة الجيوش النمساوية، حُرمت النمسا حقوقها، بينما ازدادت حقوق فرنسا وقدرتها. ووضعت الانتصارات الفرنسية في ايينا واوسترلتس حداً لوجود بروسيا المستقل.

لكن، في سنة ١٨١٢، ينتصر الفرنسيون قرب موسكو، وتُحتَل موسكو، وعلى أثر ذلك، وبدون معارك جديدة، إذا بالجيش المؤلف من ستمئة ألف رجل، ثم فرنسا النابوليونية هما اللذان يكفّان عن الوجود، لا روسيا. أما قسر الوقائع لتكييفها وفق قوانين التاريخ، والقول أن الروس ظلوا سادة الموقف في بورودينو، وأنه قد جرت معارك أخرى، بعد موسكو، أبادت جيش نابليون، فذلك أمر غير ممكن.

بعد انتصار الفرنسيين في بورودينو، لم تقع أية معركة، لا معركة شاملة ولا حتى معركة على شيء من الأهمية، ومع ذلك فقد كفّ الجيش الفرنسي عن الوجود. ما معنى ذلك؟ لو كان الأمر يتعلق بمثلٍ مأخوذ من تاريخ الصين لأمكننا القول أننا لسنا هنا إزاء ظاهرة تاريخية (وهذا هو مخرج المؤرخين عندما لا تتوافق الأشياء مع أفكارهم)؛ ولو كان الأمر نزاعاً قصير الأجل شارك فيه جيش صغير، لأمكننا اعتبار هذه الظاهرة استثناءً؛ لكن هذه الواقعة وقعت على مرأى من آبائنا الذين كان موت الوطن وحياته، بالنسبة إليهم، مدار الأمر، ثم إن هذه الحرب كانت أعظم من جميع الحروب التي نعرفها.

لقد أثبتتْ فترةُ حملة ١٨١٢ التي تمتّد من معركة بورودينو إلى طرد

الفرنسيين أن المعركة الرابحة ليست سبباً للغلبة وليست حتى دليلاً عليها؛ لقد أثبتت أن القوة التي تقرر مصير الشعوب لا تكمن في الغزاة، ولا حتى في الجيوش والمعارك، بل إنها تكمن في شيء آخر.

إن المؤرخين الفرنسيين الذين يصفون وضع الجيش الفرنسي قبل رحيله عن موسكو، يؤكدون أن كل شيء كان سليماً في الجيش الكبير، ما عدا الخيّالة والمدفعية ومسيرة القوافل، وأنه كان يعوزهم العلف للخيل والماشية. ولم يكن هناك من علاج لهذه الفاقة لأن الفلاحين في الضواحي المحيطة كانوا يفضلون أن يحرقوا العلف على أن يعطوه الفرنسيين.

لم تُعطِ المعركةُ الرابحة النتائج المعتادة، لأن الفلاحين كارب وفلاس اللذين ذهبا إلى موسكو بعرباتهما، بعد رحيل الفرنسيين، بغية النهب، ولم يبرهنا عموماً على أي شعور بطولي من الناحية الشخصية، لم يحملا علفهما إلى موسكو، وكذلك فعل أمثالُهم من الفلاحين الذين لا حصر لهم، بالرغم من الثمن المرتفع الذي عُرض عليهم؛ لقد كانوا يحرقون هذا العلف.

لتتصوّرْ رجلين يُقدمان على المبارزة بالسيف، وفقاً لكل قواعد المبارزة: فتطول المبارزة كثيراً؛ وفجأة يحسّ أحد الخصمين أنه جريح ويدرك أن الأمر ليس مزاحاً، بل إن حياته ذاتها تتعرض للخطر، فيرمي بسيفه، ويتناول أول هراوة تقع تحت يده ويشرع في تدويرها حول رأسه. لكن لنفرضْ أن الرجل الذي استخدم بعقلٍ أفضلَ الوسائل وأبسطها لبلوغ هدفه قد حرّكته، في الوقت نفسه، تقاليدُ الفروسية فأراد أن يخفي ما جرى في الواقع وأكدّ أنه انتصر على خصمه بالسيف طبقاً لكل قواعد المبارزة. من السهل حينئذ أن نتصوّر اللبسَ والغموض اللذين يسوق إليهما وصف مثل هذه المبارزة.

أما المبارز الذي كان يطالب أن تجري المبارزة وفقاً لكل قواعد المبارزة فهو الفرنسيون؛ وأما خصمه الذي رمى بسيفه وتسلّح بالهراوة فهو الروس؛ وأما الذين يجهدون أن يفسّروا كل شيء بحسب قواعد المبارزة فهم المؤرخون الذين كتبوا عن هذا الحدث.

لقد بدأتْ، مع حريق سمولنسك، حربٌ لا مثيل لها في التقاليد العسكرية. فحرق المدن والقرى، والانسحاب بعد المعارك، والضربة الموجّهة في بورودينو وما تبعها من انسحاب جديد، وحريق موسكو، ومطاردة النهّابين، وأسر القوافل، وحرب الأنصار، كل ذلك كان خرقاً للقواعد.

كان نابليون يحسّ بذلك، ومنذ أن توقف في موسكو في وضعية المبارز الصحيحة فرأى هراوة يلوّح بها الخصم فوق رأسه بدلاً من السيف، لم يكف عن الشكوى لكوتوزوف وللإمبراطور الكسندر من أن الحرب تسير خلافاً لكل القواعد (وكأن هناك قواعد لقتل الناس). وبالرغم من شكاوى الفرنسيين بصدد عدم مراعاة القواعد، وبالرغم من أنفة الشخصيات الروسية الرفيعة التي رأت أن من العار عليها القتال بالهراوة، وأرادت أن تراعي قواعد المبارزة فتتخذ الوضع المناسب يميناً وشمالاً، وتضرب الضربة الخاطفة الأولى الخ... فإن هراوة الحرب الشعبية علت بكل قوتها الرهيبة المهيبة، من غير مبالاة بالقواعد ولا اكتراث لذوق أحد، ومن دون الاهتمام بشيء، وببساطة بلهاء لكنها فعّالة. لقد علتْ، وهوت، وقرعت الفرنسيين حتى إبادة الغزو.

والشكر يُزجى لا لشعب كالشعب الفرنسي في سنة ١٨١٣ يدير السيف ويعيده من مقبضه إلى خصمه المنتصر الكريم بعد أن يحييه وفقاً لكل قواعد الفن، بل الشكر للشعب الذي لم يتساءل، في ساعة المحنة،

كيف تصرّف الآخـرون وفقاً للقواعد في مثل هذه الحـالات، فيرفع ببساطة وبدون جهد أول هراوة لقيها ويضرب بها إلى أن يُخلي الشعورُ بالمهانة والرغبة في الثأر مكانهما للاحتقار والشفقة.

***

الفصل الثاني

من أشد المخالفات لما يسمى قواعد الحرب إثارةً وخصباً عملُ الرجال المنعزلين ضد الرجال المتكتلين في جماعة. إن عمليات من هذا النوع تحدث دائماً في الحرب الذي تتّخذ طابعاً وطنياً. وهي تقوم على مايلي وهو أنه بدلاً من تقابل الجمع والجمع، يتفرّق الرجال ويهاجمون منفردين ويهربون إذا أحسوا أنهم يتصدّون لقوات كبيرة. ثم يعيدون الكرّة في أول فرصة تسنح لهم. هذا ما كان يفعله المغاوير في أسبانيا؟ وهذا ما كان يفعله الجبليون في القوقاز، وهذا ما كان يفعله الروس في سنة ١٨١٢.

لقد أُطلق على هذا الشكل من الحرب اسمُ حرب الأنصار وظن الذين دعوها كذلك أنهم قد فسّروا معناها بهذه التسمية. على أن هذا النوع من الحرب لا يُفلت من جميع القواعد فحسب، بل إنه يتعارض تعارضاً مباشراً مع مبدأ تكتيكي معروف ومشهور بأنه لا يُخطئ. وهذا المبدأ يدعو إلى أن يعمد المهاجمُ إلى حشد قواته لكي يكون، ساعة المعركة، أقوى من خصمه.

إن حرب الأنصار (وهي حرب تكلّلت دائماً بالنجاح كما يدلّنا التاريخ) تناقض هذه القاعدة مناقضة صريحة.

ويأتي هذا التناقض من أن العلم العسكري يوحّد بين قوة الجيوش

وملاكاته. ويقول العلم العسكري إنه كلما ازداد عدد الجيش ازدادت قوته. الكتائب الضخمة هي التي تنتصر دائماً.

والعلم العسكري، عندما يقول هذا القول، يُشبه علماً للحركة لا يستند في دراسته للأجسام المتحركة إلا على العلاقة بين كتلها، فيستنتج أن قواها متساوية أو غير متساوية حسبما تكون كتلها متساوية أو غير متساوية.

إن القوة (كمية الحركة) هي حاصل ضرب الكتلة بالسرعة.

وفي الحرب، إن قوة الجيش هي أيضاً حاصل الكتلة مضروبة بشيء آخر، بشيء مجهول هو س.

والعلم العسكري الذي يرى في التاريخ أمثلة جمة لا تتوافق فيها كتلة الجيش مع قوته، وتتغلب فيها مفارز صغيرة على الكبيرة، يسلّم، على نحو ملتبس، بوجود ذلك المضاعف المجهول ويحاول أن يعثر عليه في الترتيب الهندسي حيناً، وفي التسليح حيناً آخر، وفي عبقرية القادة معظم الأحيان. لكن إدخال جميع قيم المضاعف هذه لا تعطي النتائج المطابقة للوقائع التاريخية.

على أنه يكفي أن تقلع عن الفكرة الخاطئة، وهي فكرة لقيت القبول إرضاءً للأبطال، حول فعالية أوامر القيادة العليا في زمن الحرب، حتى نعثر على ذلك المجهول.

هذا المجهول هو معنويات الجيش، أي أعظم قدر أو أدنى قدر من الرغبة في القتال وفي التعرضِ للمخاطر، الرغبة التي يمكن أن تكون لمجموعة الرجال الذين يشكلون جيشاً، بصرف النظر عن كونهم يحاربون بإمرة قادة عباقرة أو غير عباقرة، على ثلاثة خطوط أو على خطين، بهراوات أو ببنادق تطلق ثلاثين طلقة في الدقيقة. فالرجال

الذين يملكون أعظم قدر من الرغبة في القتال يضعون أنفسهم دائماً في أنسب الشروط للقتال.

إن معنويات الجيش هي المضاعفُ الذي تُضرب فيه الكتلة وتكون القوة هي حاصل الضرب. فتحديد قيمة معنويات الجيش والتعبير عنها، أي تحديد هذا المضاعف المجهول الذي تضرب فيه الكتلة والتعبير عنه، تلك هي مشكلة العلم.

هذه المشكلة لا يمكن أن تُحل إلا إذا كففنا عن أن نُدخل بشكل اعتباطي الشروط التي تتجلى فيها القوة، من مثل توجيهات القائد، والتسلّح الخ... معتبرين أن تلك الشروط هي قيمة ذلك المضاعف، بدلاً من إدخال القيمة الكلية للمجهول «س»، وإلا إذا قبلنا ذلك المجهول بكليّته، أي باعتباره أعلى قدر أو أدنى قدر من الرغبة في القتال والتعرض للمخاطر. حينذاك فقط نستطيع أن نأمل، بمقارنة القيمة النسبية لهذا المجهول، في تحديد المجهول ذاته، معبّرين عن الوقائع التاريخية المعروفة بالمعادلات.

عشرة رجال أو عشر كتائب أو فرق يقاتلون خمسة عشر رجلاً أو خمس عشرة كتيبة أو فرقة وينتصرون عليهم، أي أنهم يقتلونهم ويأسرونهم دون استثناء ويفقدون أربعة رجال أو أربع كتائب أو فرق؛ هناك إذن أربعة رجال فُقدوا في هذا الجانب، وفي الجانب الآخر خمسة عشر رجلاً. وبالتالي فإن أربعة تساوي خمسة عشر، ٤س = ١٥ع. إذن، س/ع = ١٥/٤. وهذه المعادلة لا تعطينا قيمة المجهول لكنها تعطي النسبة بين مجهولين. وحين نضع في مثل هذه المعادلات الوحدات التاريخية (المعارك، الحملات، فترات الحرب)، مأخوذةً على انفراد، فإننا نحصل على سلسلة من الأرقام التي لابد أن تحتوي على قوانين والتي يمكن أن تكتشف فيها تلك القوانين.

إن القاعدة التعبوية التي تقضي بالعمل في صفوف متراصة أثناء الهجوم وبترتيب منتشر أثناء الانسحاب تؤكد فقط، وعلى نحو غير مقصود، هذه الحقيقة وهي أن قوة الجيش منوطة بمعنوياته. فمن أجل قيادة الناس إلى حومة الوغى، لابد من انضباط أكبر من ذاك الذي يحتاج إليه صد الهجوم، وهو انضباط لا يحصل إلا بحركة جماعية. لكن هذه القاعدة التي تهمل روحَ الجيش هي دائماً منقوصة ومناقضة، على نحو مذهل، للواقع حيثما تجلّى الهياج العارم أو الهبوط الكبير في معنويات الجيش - في جميع الحروب القومية.

لقد تراص الفرنسيون في جماعة، أثناء انسحابهم في سنة ١٨١٢: مع أنه كان ينبغي لهم، بحسب التكتيك، أن يدافعوا بترتيب منتشر، وذلك لأن معنويات الجيش قد هبطت هبوطاً شديداً بحيث أن الكتلة وحدها حفظت وحدته. وعلى العكس من ذلك، كان على الروس، بحسب التكتيك، أن يهاجموا في صفوف مرصوصة، لكنهم انتشروا، في الواقع، لأن معنوياتهم ارتفعت ارتفاعاً شديداً بحيث غدا الأفراد المنعزلون يضربون الفرنسيين دون أن يتلقوا أمراً بذلك، و لم يكن بهم من حاجة إلى الإكراه الذي يعرّضهم للمشاق والمخاطر.

***

الفصل الثالث

بـدأت الحـرب المسماة بحرب الأنصار مع دخـول العدو إلى سمولنسك.

وقبل أن تعترف حكومتنا رسمياً بحرب الأنصار هذه، أُبيد آلافُ الجنود من الجيش العدو، من المتخلفين للنهب، والباحثين عن الكلأ، على أيدي القوزاق والفلاحين الذين كانوا يذبحون هؤلاء الرجال بشكل لا شعوري كما تذبح الكلابُ كلباً مسعوراً ضل طريقه. وكان دينيس دافيدوف أول من أدرك، بغريزته الروسية، قيمة هذا السلاح الرهيب الذي كان يبيد الفرنسيين دون أن يعبأ بقواعد الفن العسكري، وإليه يعود الفضل في أنه خطا الخطوة الأولى لإقرار هذا الشكل من الحرب شرعياً.

في ٢٤ آب نُظّمت أول مفرزة من أنصار دافيدوف[1]، ثم نُظمت مفارز أخرى على أثرها، وكلما كانت الحملة تتقدم، كان عددُ المفارز يتزايد.

كان الأنصار يدمّرون الجيش الكبير جزءاً جزءاً. كانوا يكنسون

١- دافيدوف: دينيس دافيدوف، الشاعر الشهم، عقيد من عقداء الفرسان في سنة ١٨١٢، نظم أول مفرزة من مفارز الأنصار.

الأوراق الميتة التي تنفصل من ذاتها عن الشجرة الجافة، أي الجيش الفرنسي، ويهزّون هذه الشجرة أحياناً. وفي تشرين الأول، في الوقت الذي كان الفرنسيون يهربون فيه إلى سمولنسك، كانت هذه المفارز المختلفة في أهميتها وطابعها تُعَدّ بالمئات. كان بينها مفارز تتّخذ كل مظاهر الجيش بمشاتها ومدفعيتها وأركانها وتسهيلات حياتها؛ وكان بعضها لا يحتوي إلا على القوزاق والفلاحين؛ وكان بينها مفارز صغيرة، هي خليط من المشاة والفرسان. ومنها ما كان مؤلفاً من الفلاحين والنبلاء الريفيين الذين لا يعرفهم أحد. وكان أحد قادة هذه المفارز شمّاساً أسر، في شهر واحد، بضع مئات من الأسرى. وكانت هناك امرأة اسمها فاسيليا، وهي زوجة أحد القيّمين، قتلت مئات الفرنسيين.

في أواخر أيام تشرين الأول بلغت حربُ الأنصار ذروتها. لقد انتهت تلك المرحلة الأولى من الحرب التي كان فيها الأنصار يدهشون هم أنفسهم من جسارتهم، ويخشون في كل لحظة أن يطوقهم الفرنسيون وأن يأسروهم، والتي كانوا يختبئون فيها في الغابات، دون أن يريحوا خيلهم أو يترجلوا عنها، وهم يتوقعون في كل لحظة مطاردة العدو لهم. أما الآن فإن الحرب اتخذت شكلاً، وصار كل واحد يعرف بوضوح ما الذي يمكن وما الذي لا يمكن الشروعُ به ضد الفرنسيين. ومنذ هذه اللحظة، كان قادة المفارز وحدهم، وكانوا يسيرون مع ضباط أركانهم بعيداً عن الفرنسيين، بحسب القواعد، ما يزالون يعدّون كثيراً من الأشياء غير ممكن. وكان قادة المفارز الصغيرة الذين بدؤوا عملهم منذ زمن بعيد، والذين كانوا يراقبون الفرنسيين عن كثب، يعدّون ممكناً ما لم يكن قادة المفارز الكبيرة يجرؤون على التفكير فيه. أما القوزاق والفلاحون الذين كانوا يندسون بين الفرنسيين، فكانوا يرون أن كل شيء غدا ممكناً، منذ الآن.

في الخامس والعشرين من تشرين الأول، ألفى دينيسوف نفسه مع مفرزته، وكان من بين الأنصار، في أشدّ الحمى، حمّى اللهفة إلى القتال. لقد ظل يمشي مع رجاله منذ الصباح. ولقد رصد، طوال النهار، في الغابات التي تحف بالطريق الكبرى، قافلة فرنسية كبيرة تحمل تجهيزات الخيّالة والأسرى الروس، وتتجه إلى سمولنسك، بعد أن انفصلت عن معظم الجيش وسارت في ظل حراسة مشدّدة كما أخبر بذلك الكشافون والأسرى. ولم يصل خبر مرور هذه القافلة إلى دينيسوف ودولوخوف وحدهما (وكان دولوخوف أيضاً قائداً لمفرزة صغيرة من الأنصار تعمل في أمكنة مجاورة)، لكنه وصل أيضاً إلى قادة المفارز الكبرى المجهّزة بأركان؛ كانوا جميعاً على علم بذلك، وكانوا، كما قال دينيسوف، بالمرصاد. ولقد أرسل قائدان من قادة هذه المفارز الكبيرة، أحدهما بولوني والآخر ألماني، أرسلا يسألان دينيسوف، في الوقت نفسه تقريباً، أن ينضم إليهما لمهاجمة القافلة.

قال دينيسوف بعد أن قرأ رسالتيهما:

– لا يا صاحبيَّ، فأنا كبير في السن إلى الحد الكافي.

وكتب إلى الألماني يقول: إنه بالرغم من رغبته الصادقة في أن يضع نفسه بإمرة جنرال باسل شهير فقد قُدِّر عليه أن يُحرمَ هذه السعادة لأنه كان قد وضع نفسه بإمرة جنرال بولوني. أما الجنرال البولوني فقد كتب إليه الشيء نفسه وأخبره أنه كان بإمرة الألماني.

بعد هذه الترتيبات، عزم دينيسوف، دون إعلام هذين القائدين، أن يهاجم مع دولوخوف القافلة الفرنسية وأن يأسرا من فيها، وذلك بقواتهما الخاصة المحدودة العدد. كانت القافلة تتجه، في يوم ٢٢

تشرين الأول، من قرية ميكولينو نحو قرية شامشيفو[1]. وإلى يمين الطريق من ميكولينو إلى شامشيفو كانت تمتد غابات كبيرة تبلغ الطريق في بعض الأماكن، وتبتعد عنه في أماكن أخرى فرسخاً أو أكثر. ففي هذه الغابات سار دينيسوف طوال النهار مع مفرزته، دالفاً إلى أعماق الغابات حيناً، متقدماً على أطرافها حيناً آخر، دون أن تغيب عن نظره حركةُ الفرنسيين. وفي الصباح، ظفر قوزاق دينيسوف، غير بعيد من ميكولينو حيث تلامسُ الغابةُ الطريق، بعربتي نقل غائصتين في الوحل ومحمّلتين بسروج الخيل، واقتادوهما إلى قلب الغابة. ومنذ ذلك الحين وحتى المساء، ظلت المفرزة تراقب تحركات الفرنسيين دون أن تهاجم. كان من اللازم ترك الفرنسيين يبلغون شامشيفو بكل هدوء دون تخويفهم، وحينذاك يتحقق الاتصال بدولوخوف الذي كان سيأتي مساء للتشاور في أحد الأكواخ وسط الغابة (على فرسخ من شامشيفو)، ويتم الانقضاض على القافلة فجأة، من الجانْبين، عند الفجر، لقتل كل من فيها دفعة واحدة وأسره.

وإلى الوراء من ميكولينو، على فرسخين منها، في موضع تبلغ فيه الغابةُ الطريقَ، تُرك ستة قوزاق لينبّهوا على ظهور الأرتال الفرنسية الجديدة، فور ظهورها.

أمام شامشيفو، كان على دولوخوف أيضاً أن يستطلع الطريق ليعلم على أية مسافة تقع القطعاتُ العدوة الأخرى. وقد قُدّرت القافلة بألف وخمسمئة رجل، وكان لدى دينيسوف مئتان، ولدى دولوخوف نحوُ ذلك. لكن تفوّق العدو لم يكن ليوقف دينيسوف. الشيء الوحيد الذي كان يود أن يعرفه أيضاً، هو ما هي، بالضبط، القطعات التي كانت في القافلة؛ ولهذا كان عليه أن يستولي على «لسان» (أي على رجل

١- قريتان على طريق سمولنسك.

من الرتل العدو). فقد كانت غارة الصباح على عربات النقل خاطفة بحيث قُتل جميعُ الفرنسيين الذين كانوا فيها و لم يُؤسر سوى فتى طبّال، منفرد لم يمكنه أن يقول شيئاً دقيقاً عن تشكيل الرتل.

كان دينيسوف يجد خطراً في الهجوم مرة ثانية لأنه خشي أن يُنذر الرتل كله؛ لذلك أرسل إلى الأمام، إلى شامشيفو، فلاحاً من مفرزته اسمه تيخون تشيرباتي وأمره أن يأسر واحداً على الأقل، من محاسبي التجهيزات الذين كانوا في المقدمة.

***

الفصل الرابع

كان اليوم من أيام الخريف المعتدلة الممطرة. وكان الأفق والسماء بلون الماء العكر. والمطر يهطل رذاذاً تارة، وقوياً مائلاً تارة أخرى.

كان دينيسوف، بلفاعه الصوفي وقبعة الفراء التي ترشح ماءً، يمتطي جواداً أصيلاً، مهزولاً، ضامراً. وكان كحصانه الذي أمال رأسه جانباً ومدّ أذنيه، يكشّر من انصباب المطر وينظر أمامه بعناية. وقد بدا عدم الرضا على وجهه الذي أصابه الهزال وغطته لحية قصيرة، كثة وسوداء.

وإلى جانب دينيسوف جاء معاونُه، نقيب القوزاق، بلفاع صوفي وقبعة فراء مثله، وهو يمتطي جواداً ضخماً، محكم الهيئة، من جياد الدون.

وكان الثالث نقيب القوزاق لوفايسكي، وكان باللفاع الصوفي وقبعة الفراء أيضاً، كان رجلاً طويلاً ورقيقاً مثل لوح من الخشب، وكان أبيض اللون، أشقر الشعر، ذا عينين ضيقتين، صافيتين، ينم تعبيره ومظهره كله على ثقة مطمئنة بالذات. ومع أنه لم يكن من الممكن القول: ما الشيء الخاص في الفرس والفارس، عند النظرة الأولى التي نلقيها على النقيب وعلى دينيسوف فقد كان واضحاً أن دينيسوف الذي بلله المطر والذي بدا الضيق عليه، كان رجلاً يمتطي جواداً؛ بينما لم يكن النقيب الذي وجد الراحة الآن كما كان يجدها دائماً من قبل، رجلاً يمتطي جواداً، لكنه كان رجلاً يؤلّف مع جواده كائناً واحداً مضاعف القوة:

وأمامهم، على مقربة منهم، جاء الدليل وهو فلاح بلّله المطر حتى عظامه بقفطانه الرمادي وقبعته البيضاء.

وإلى الوراء قليلاً، كان يسير ضابط فتي يرتدي معطفاً فرنسياً أزرق، ويمتطي جواداً قرغيزياً مهزولاً، رقيقاً، طويل الذيل، غزير العرف، مدمّى الفم بسبب اللجام.

وإلى جانبه فارس أردف خلفه فتى يلبس بزة فرنسية رثّة ويضع على رأسه قبّعة زرقاء، وقد تشبّث بالفارس بيديه المحمّرتين من البرد، وأخذ يحرك قدميه الحافيتين ليدفئهما، وراح يلقي حوله، وهو يرفع حاجبيه، نظرات مدهوشة. كان الفتى هو الطبال الفرنسي الذي أسر صباحاً.

وخلفهم، على طريق الغابة الضيق، الموحل، المحفّر، كان الفرسان والقوزاق يسيرون ثلاثة ثلاثة أو أربعة أربعة، بعضهم باللفاع الصوفي، وبعضهم بالمعطف الفرنسي، ومنهم من ألقى على رأسه غطاء السرج. وكانت الجياد الشقر والكمت تبدو سوداء بسبب المطر. وكانت أعرافها المبللة تُظهر رقابها رقيقةً بشكل غريب. وكانت الثياب والسروج والأعنة مبلّلة، لزجة، وكذلك الأرض والأوراق الميتة التي كانت تغطي الطريق. وقد انكمش الرجال وجهدوا ألا يتحرّكوا ليدفئوا الماء الذي تسلّل إلى أجسادهم، ولكي يحولوا دون تسرب الماء البارد الذي سال تحت سروجهم وعلى ركبهم وفوق أعناقهم. وفي وسط رتل القوزاق كانت عربتا النقل المقرونتان إلى جياد فرنسية وإلى جياد القوزاق المسروجة، تنتفض على أرومات الأشجار والأغصان الميتة وتتخبط في أخاديد الطريق المملوءة ماءً.

كبا جواد دينيسوف وهو يدور حول نقعة ماء واصطدمتْ ركبةُ الفارس بشجرة. فصاح دينيسوف بغضب:

- ايه! يا للشيطان!

ولسع جواده بالسوط مرات، وهو يكشر عن أسنانه، فلطّخ برشاش الوحل نفسه ولطّخ رفاقه. كان دينيسوف منقبض الصدر بسبب المطر وبسبب الجوع (لم يذق الطعام أحدٌ منذ الصباح)، ولأن دولوخوف، على الخصوص، لم يبعث بأي خبر وأن الرجل الذي أرسله ليبحث عن «اللسان» لم يعد بعد. كان يحدث نفسه وهو لا يفتأ يرمي ببصره إلى الأمام لعله يلمح رسول دولوخوف: «لعلنا لن نعثر على مناسبة أخرى كالتي نعثر عليها اليوم لمهاجمة إحدى القوافل. لكن الهجوم، ونحن منفردون، مجازفة كبرى، أما تأجيل الهجوم إلى يوم آخر فمعناه أن نترك اللقمة سائغة للأفواج الكبيرة ونحن نتفرج عليهم.

وعندما بلغ فرجة في الغابة يمتد فيها النظر بعيداً إلى اليمين توقف وقال:

- هناك شخصٌ آت.

نظر النقيب إلى الجهة التي أشار إليها دينيسوف.

قال النقيب، وكان يحب أن يستخدم ألفاظاً لا يعرفها القوزاق:

- هما اثنان، ضابط وقوزاقي. لكنْ لا يجوز «التخمين» أنه المقدّم.

هبط الفارسان منحدراً وتواريا عن النظر ليعودا إلى الظهور بعد لحظات. أقبل أولاً ضابط أشعث، قد بلله المطر حتى العظم، وشمر بنطاله حتى ركبتيه، وكان يعدو على حصانه وقد ضجر منه وهو يستحثه بالسوط. وجاء خلفه أحد القوزاق يخبّ خباً وهو واقف على ركابيه. اقترب الضابط -وهو فتى ذو وجه عريض متورد وعينين حادتين بهيجتين- من دينيسوف وقدم له ظرفاً مبللاً وقال:

– هذا من قبل الجنرال؛ المعذرة إن لم يكن جافاً....

تناول دينيسوف الظرف، وهو مقطّب الحاجبين، وفضّه.

قال الضابط مخاطباً النقيب بينما كان دينيسوف يقرأ الرسالة:

– لا همّ للناس إلا ترديد القول: إن الأمر محفوف بالمخاطر. على كل حال، لقد أخذنا حذرنا، أنا وكوماروف –وأشار إلى القوزاقي الذي معه–. فمع كل منا مسدسان.

ثم سأل وهو يرى الطبّال الفرنسي:

– وهذا، ما هذا؟ أهو أسير؟ وهل تقاتلتم؟ أيمكنني أن أكلّمه؟

في هذه اللحظة، هتف دينيسوف بعد أن تصفّح الرسالة:

– روستوف! بيتيا! لَمَ لمْ تقل مَنْ أنت؟

التفت دينيسوف، وقد افتر عن ابتسامة، ومدّ يده للضابط.

كان هذا الضابط هو «بيتيا روستوف».

لقد تهيأ بيتيا، طوال الطريق، كي يتخذ بحضرة دينيسوف الموقف الذي يليق برجل وبضابط، دون أن يلمّح إلى علاقتهما السابقة. لكن، ما إن تبسّم دينيسوف، حتى استضاء وجهه، واحمر من الفرح ونسي اللهجة الرسمية التي أعدّها، وأخذ يروي كيف أنه مرّ أمام الفرنسيين، وكم كان مسروراً لأنه كُلّف مثل هذه المهمة، وأنه خاض القتال في فيازما، وأن أحد الفرسان قد أبلى بلاءً حسناً.

فقاطعه دينيسوف قائلاً، وقد عاد إلى وجهه تعبيره القلقُ:

– حسناً! أنا مسرور بلقائك.

وقال للنقيب:

- يا ميشيل فيوكليتيتش، وهذه الرسالة من الألماني أيضاً. إنه ملحق بشخصه. (ثم روى دينيسوف أن الرسالة التي حُملت إليه تشتمل على أمر جديد من الجنرال الألماني بالانضمام إليه لمهاجمة القافلة، وختم كلامه قائلاً:

- إن لم نأسرها غداً فسوف يشلّحوننا إياها.

بينما كان دينيسوف يكلّم النقيب، اضطرب بيتيا للهجته الباردة، وقدّر أن سبب هذه اللهجة هي حال بنطاله، فأصلحه خفية تحت معطفه وهو يحاول أن يظهر بأفضل مظهر عسكري ممكن.

سأل دينيسوف، ويده على عمرته، وقد عاد إلى لعب دور المساعد العسكري أمام الجنرال، وهو دور أعدّه سلفاً:

- أهناك أوامر من سعادتكم؟ أم ينبغي لي أن أبقى بقرب سعادتكم؟

قال دينيسوف بتفكّر:

- أوامر؟... أتستطيع البقاء إلى صباح الغد؟

فهتف بيتيا:

- آه! أرجوك... أأستطيع البقاء معك؟

وسأله دينيسوف:

- لكنْ، ما الذي قاله لك الجنرال بالضبط، أأمرك أن ترجع على الفور؟

احمرّ بيتيا، وقال بلهجة مستفهمة:

– لكنه لم يقل شيئاً. أظن أنني أستطيع.

قال دينيسوف:

– طيب. اتفقنا.

والتفت إلى مرؤوسيه فأرسل الجند إلى الاستراحة عند الكوخ، عند المكان المحدد في الغابة، وأمر الضابط ذا الحصان القرغيزي (كان هذا الضابط يقوم بمهمة المرافق العسكري) أن يذهب للبحث عن دولوخوف ليعلم أين موضعه، وإن كان سيأتي في المساء. وكان دينيسوف ذاته ينوي أن يذهب مع النقيب وبيتيا حتى أطراف الغابة، من ناحية شامشيفو، ليلقي نظرة خاطفة على الموقع الفرنسي الذي سيشن الهجوم عليه غداً.

قال للفلاح الذي كان يعمل دليلاً:

– هيا، أيها الملتحي، دلّنا على شامشيفو.

انعطف دينيسوف وبيتيا والنقيب ومعهم بعض القوزاق والفارس الذي أردف الأسير، إلى اليسار، عبر الوادي، متجهين نحو أطراف الغابة.

***

الفصل الخامس

انقطع المطر وأخذ الضباب وحده يهبط وتقطرت أغصان الأشجار ماء. كان دينيسوف والنقيب وبيتيا يتبعون بصمت الفلاح ذا القبعة الذي كان يسير بخفة وبغير ضوضاء على الجذور والأوراق المبلّلة، وكانت قدماه الملتويتان في حذاء من القنب، تقودانه إلى أطراف الغابة.

عندما بلغ الفلاحُ منعطفاً توقْف وألقى نظرة دائرية واتجه نحو ستر من الأشجار التي أخذت تنفرج بعضها عن بعض. ثم جمدَ بالقرب من سنديانة لم تفقد أوراقها بعد ودعا الآخرين بحركة خفيّة من يده.

اقترب دينيسوف وبيتيا. ومن الموضع الذي وقف فيه الفلاح رأيا الفرنسيين. فوراء الغابة مباشرة، امتد حقل من القمح آخذ في الانحدار، وإلى اليمين، وراء واد وعر، يشاهد الناظر قرية صغيرة وبيتاً من بيوت النبلاء انهارت سقوفه. وفي هذه القرية وهذا البيت، وعلى المنحدر كله وفي الحديقة، وقرب الآبار والمستنقع، وعلى طول الطريق التي تصعد من الجسر إلى القرية، على مسافة لا تزيد عن خمسمئة متر، كان يُرى جُمهور من الناس في الضباب المتحرك. وكانت تُسمَع بوضوح الصيحات التي يطلقونها بلغة غريبة ليحثوا الجياد المقرونة إلى عربات النقل على صعود السفح المنحدر، كما كانت تسمع النداءات التي يتبادلونها.

قال دينيسوف بصوت خافت دون أن يرفع بصره عن الفرنسيين:

- هاتوا السجين.

ترجّل القوزاقي وأنزل الفتى واقتاده إلى دينيسوف. فسأله دينيسوف وهو يشير إلى الفرنسيين عن مختلف هؤلاء الجند. كان الفتى ينظر إليه مرعوباً، وقد دسّ يديه المقرورتين في جيبه، ورفع حاجبيه، وبالرغم من رغبته الظاهرة في أن يقول كل ما كان يعرفه، إلا أنه تخبّط في أجوبته واكتفى بأن ردّ بـ«نعم» على كل ما كان يسأله دينيسوف. فتجهّم دينيسوف وانصرف عنه إلى النقيب فأطلعه على ما توصّل إليه من رأي.

كان بيتيا ينظر، وهو يدير رأسه بحركة حادة، إلى الطبال حيناً وإلى دينيسوف حيناً آخر، إلى النقيب تارة وإلى الفرنسيين في القرية وعلى الطريق تارة أخرى، جاهداً ألا يفوته شيءٌ مهم.

قال دينيسوف، وفي عينيه بريقُ الفرح:

- سواء أأتى دولوخوف أم لم يأت، فينبغي أن نظفر بهم!... ما رأيك؟

قال النقيب:

- المكان مناسب.

تابع دينيسوف قائلاً:

- سنرسل المشاة من الأسفل، من جانب المستنقعات، فيتسلّلون إلى الحديقة؛ وستصل أنت مع القوزاق من هذه الجهة - وأشار إلى الغابة خلف القرية - وأنا مع فرساني من هنا. وعند أول طلقة نارية...

قال النقيب:

- لا يمكننا المرور من الوادي فهو سبخ وسوف تغوص الخيل معه. ولابد من انعطاف أكبر نحو اليسار.

وبينما هم يتكلّمون همساً، دوّت طلقة نارية في الأسفل، في الوادي، في الجانب الآخر من المستنقع، ثم دوت طلقة ثانية، وتعالت من جانب الفرنسيين الذين كانوا على المنحدر صيحةٌ جماعية، كأنها صيحة الفرح، أطلقتها مئات الأصوات. وفي اللحظة الأولى تراجع دينيسوف والنقيب كلاهما خطوة إلى الوراء. لقد كانا شديدي القرب حتى خُيّل إليهما أنهما سبب هاتين الطلقتين وتلك الصرخات. لكنهما لم يكونا هما المقصودين. ففي الأسفل، في المستنقع كان يركض رجل يرتدي شيئاً أحمر. وكان هو المقصود بالطلقتين وبصرخات الفرنسيين.

قال النقيب:

- لكن هذا صاحبنا تيخون.

- إنه هو! هو بعينه!

قال دينيسوف:

- يا له من خبيث.!

قال النقيب وهو يغضّن عينيه:

- سوف يتخلص من هذه الورطة!

جرى الرجل الذي سمّياه تيخون إلى النهر ورمى بنفسه فيه رأساً مثيراً الماء من كل الجوانب، واختفى لحظة وخرج يحبو على يديه ورجليه، وهو أسود من الماء، وتابع طريقه وهو يركض. فتوقف الفرنسيون الذين كانوا يلاحقونه.

قال النقيب:

- إنه خفيف.

قال دينيسوف، وعلى وجهه أمارة السخط نفسها:

- يا له من حيوان! ما الذي كان يصنعه حتى الآن؟

قال بيتيا:

- ومَنْ هذا؟

- إنه أحد قوزاقنا. وقد أرسلته ليأسر «لساناً».

قال بيتيا وهو يهزّ رأسه منذ أول كلمة قالها دينيسوف، وكأنه فهم كل شيء، مع أنه لم يفهم كلمة واحدة مما قيل له.

كان تيخون تشيرباتي واحداً من أنفع رجال المفرزة. كان فلاحاً من بوكروفسكوي قرب «غجات» وعندما وصل دينيسوف، في بدء عملياته، إلى بوكروفسكوي واستدعى كعادته القيم، سأله عما يعرفه عن الفرنسيين، فأجابه القيّم، كما يجيب أقرانه الذين يريدون تبرئة أنفسهم، بأنه لا يعرف شيئاً البتة. لكنْ عندما أوضح دينيسوف أن هدفه ضربُ الفرنسيين، وسأله إن كان بين الفرنسيين من جازف بالوصول إلى هذا المكان، أجاب القيم بأن الناس شاهدوا «نهّابين»، أما في هذه القرية فإن تيخاتشيرباتي هو الذي يهتم بهذه الأشياء. فاستدعى دينيسوف تشيرباتي وهنّأه على نشاطه، وقال له بحضور القيّم بضع كلمات عن الإخلاص للقيصر والوطن وعن الحقد على الفرنسيين الذي ينبغي أن يؤججه أبناءُ الوطن في نفوسهم.

قال تيخون وقد بدا عليه التحرّج من كلام دينيسوف.

– لم نسئ إلى الفرنسيين. كل ما فعلناه أننا تسلينا قليلاً، الشبابُ وأنا. فقتلنا منهم نحو عشرين من النهابين، وفيما عدا ذلك فإنا لم نفعل شراً...

وفي اليوم التالي قيل لدينيسوف وهو يغادر القرية –وكان قد نسي الفلاحَ تماماً– إن تيخون انضم إلى جنده وأنه يطلب البقاء. فسمح له دينيسوف بذلك.

ما لبث تيخون الذي استُخدم، أول الأمر، في الأعمال الخشنة مثل إشعال النار وجلب الماء وسلخ الخيل الخ. أن أظهر كثيراً من الميل إلى حرب الأنصار. والمؤهلات العظيمة لها. كان يذهب ليلاً للصيد ويعود كل مرة بثياب وأسلحة فرنسية، وقد يعود بالأسرى أيضاً إذا أُمر بذلك فأعفاه دينيسوف من أعمال السخرة، وصار من عادته أن يصطحبه في الدوريّة وأدخله في القوزاق.

لم يكن تيخون يحب ركوب الخيل وكان يذهب دائماً على قدميه دون أن يدع الفرسان يسبقونه. وكان سلاحه يتألف من بندقية قصيرة يحملها للتسلية قبل كل شيء، ومن رمح وفأس كان يستخدمها بالسهولة التي يستخدم بها الذئب أسنانه لتفلية جلده ولطحن العظام الضخمة على السواء. وكان لتيخون من صحة اليد ما يتيح له أن يشطر الجسر بضربة واحدة وأن يُقطِّع بها، إذ يمسكها برأسها، قضباً رفيعة وأن يصنع ملاعق. وكان يحتل، بين جند دينيسوف مكاناً استثنائياً، متميّزاً. فإذا تعلّق الأمر بعمل صعبٍ، شديد الصعوبة، منفّر، من مثل تخليص عربة من الوحل بدفعة كتفٍ، أو جرّ جواد من ذيله خارج المستنقع، أو سلخه، أو التسلل بين صفوف الفرنسيين، أو قطع خمسين فرسخاً في يوم واحد، كان الناس جميعاً يشيرون إلى تيخون وهم يضحكون.

وكانوا يقولون عنه:

– وماذا يضيره من ذلك، هذا الشيطان. إنه قوي كالثور.

وفي ذات مرة، أطلق عليه النار فرنسيّ أسره تيخون، من مسدس فأصابه في أسفل الخاصرة. وكان هذا الجرح الذي لم يعالجه تيخون إلا بالفودكا، من الداخل والخارج، موضوعاً لمداعبات المفرزة الضاحكة، وهي مداعبات كان يقبلها تيخون راضياً.

كان القوزاق يقولون له وهم يضحكون:

– لن يأخذوك ثانية، أيها الفتى، إذن؟ فقد أصابك التيبّس من ذلك.

فيطوي جسده عمداً ويكشّر ويتظاهر بالغضب ويوسع الفرنسيين أقذع الشتائم. وكان لهذا الحادث أثر واحد فيه: وهو أنه منذ جرحه هذا، قلّما كان يعود بالأسرى.

كان تيخون أسرع الناس وأبسلهم في المفرزة. فلم يكتشف أحد من فرص الهجوم مثلما اكتشف، ولم يأسر ويقتل أحدٌ من الفرنسيين قدر ما أسر وقتل؟ ومن أجل هذا كان تيخون مهرّج القوزاق والخيّالة، وقد قبل راضياً هذا المنصب. أما هذه المرة فقد أرسله دينيسوف، في الليلة السابقة إلى شامشيفو ليأتيه بأسير. لكن تيخون، إما أنه لم يكتف بأسير واحد، وإما أنه قضى الليل نائماً، تسلل في وضح النهار بين الأدغال، وسط جموع الفرنسيين، فاكتشفه الفرنسيون، كما شاهد دينيسوف ذلك من عل.

***

الفصل السادس

بعد أن تحدث دينيسوف إلى النقيب بعض الوقت عن هجوم الغد الذي يبدو أنه قد قرّر نهائياً، حين رأى قرب الفرنسيين، ثنى عنان جواده وعاد أدراجه.

وقال لبيتيا:

- هيّا، يا صاحبي، فلنجفّفْ أنفسنا الآن.

عندما وصل دينيسوف إلى الكوخ وقف وتفحّص الغابة بعينيه. وإذا برجل طويل الساقين يخطر بيديه الطويلتين ويتقدم بخطى واسعة وخفيفة بين الأشجار، مرتدياً سترة، محتذياً حذاء من القنب، لابساً على رأسه قبعة من قازان، متقلّداً بندقية ومعلقاً فأساً في نطاقه. ولما رأى هذا الرجلُ دينيسوف رمى في الدغل شيئاً من يده على عجلة ورفع قبعته التي تبللت وتهدّلت حواشيها واقترب من قائده. كان هذا هو تيخون. كان وجهه ذو العينين الصغيرتين الضيقتين، وجهه المجدورُ، الذي خدّدته التجاعيد، يشع بالبهجة والرضا. رفع رأسه عالياً وحدّق في دينيسوف وكأنما كان يحبس نفسه عن الضحك.

قال دينيسوف:

- قل لي، من أين طلعت؟

أجاب تيخون بجرأة وعجلة وبصوت خفيض وأجش لكنه رخيم:

– من أين طلعت؟ كنتُ أتعقّب الفرنسيين.

– ولماذا تورطت بينهم في وضح النهار؟ حيوان! وهل أسرت أحداً منهم.

قال تيخون:

– نعم، هذا نعم، لقد أسرت منهم.

– وأين الذي أسرته؟

وأردف تيخون وهو يوسع قدميه الضخمتين، المسطحتين، في حذاء القنب:

– أسرتُ واحداً، أول الأمر، عند الفجر وجئت به إلى الغابة. لكني رأيته لا يصلح لشيء. فقلتُ في نفسي: فلأذهبْ مرة أخرى، ولسوف أقع على واحد أفضل.

قال دينيسوف للنقيب:

– آه! النذل، هذا هو السبب. و لَم لَمْ تأت به؟

فقاطعه تيخون فوراً وباهتياج:

– و لَم آتي به، وهو لا يصلح لشيء. ألستُ أعرف ما الذي يلزمك منهم؟

– يا للحيوان!... وبعد ذلك؟

تابع تيخون قائلاً:

– ذهبتُ أبحث عن آخر. زحفتُ هكذا في الغابة وانبطحت. –

وارتمى تيخون فجأة، وبحركة مرنة، على الأرض، على بطنه، ليُريَ كيف فعل– وإذا بواحد يجيء. فالتقطته هكذا. –ووثب تيخون على قدميه، مسرعاً خفيفاً– وقلتُ له: هيا، إلى الأمام، إلى العقيد. فيأخذ في الزعق. وكان هناك أربعة غيره. فانقضّوا علي بسيوفهم الصغيرة، حينذاك، رفعتُ أنا فأسي هكذا، وقلت لهم: ماذا دهاكم، ليكنْ المسيح معكم.

قال تيخون ذلك وهو يصرخ ويحرك يديه، ويقطب حاجبيه كالمتوعْد، وينفخ صدره.

قال النقيب وهو يغضن عينيه الملتمعتين:

– لذلك رأيناك من أعلى التلة تولي هارباً بأقصى سرعتك فوق نقع الماء.

كان بيتيا يشتهي كثيراً أن يضحك. لكنه رأى الآخرين يتمالكون أنفسهم. فراح ينقّل عينيه بشدة من وجه تيخون إلى وجهيْ النقيب ودينيسوف دون أن يدرك ما الذي كان يعنيه ذلك كله.

قال دينيسوف بغضب وهو يسعل سعالاً خفيفاً:

– لا تتظاهر بالغباء. لماذا لم تأت بالأسير الأول؟

حك تيخون ظهره بيد، ورأسه بيده أخرى، وسرعان ما تهلل وجهه بابتسامة مشرقة وبلهاء كشفت عن غياب سنّ من أسنانه (ومن هنا لقب تشير باتي[1]). فتبسم دينيسوف وأغرب بيتيا في ضحك فرح شاركه فيه تيخون نفسه.

١– تشيرباتي: أثرم.

قال تيخون:

– ماذا تريد، إنه لم يكن نظامياً. وكيف آتي به بزيه الزريّ ذاك. ثم إنه كان شخصاً غبياً يا صاحب السعادة. لم يتورع عن أن يقول لي: كيف أمشي، وأنا ابن جنرال.

قال دينيسوف:

– يا لك من حيوان! لقد كنتُ بحاجة إلى استجوابه...

قال تيخون:

– لكني استجوبته. قال: لا أعرف الكثير عن جندنا. إنهم كثيرون، لكن ليس لهم قيمة تُذكر. ليس لهم من الجند سوى الاسم. وقال: اضربوهم ضربة قوية وستظفرون بهم جميعاً.

قال تيخون ذلك وهو يلقي على دينيسوف نظرة فيها الابتهاج والحزم.

قال دينيسوف بقسوة:

– انتظر حتى أجلدك مئة جلدة، لتتعلم كيف تتظاهر بالغباء.

قال تيخون:

– لكن لماذا تغضب، ألستُ أعرفهم، فرنسيّيك؟ انتظر حتى يحل الليل وسآتيك بمن تشاء، بثلاثة إذا اقتضى الأمر.

قال دينيسوف:

– هيا، لنمض.

ولزم الصمت، حتى الكوخ، وهو مقطّب الحاجبين بغضب.

سار تيخون في أثرهم، وسمع بيتيا القوزاق يمزحون ويضحكون معه بصدد الجزمة التي رماها في الدغل.

عندما أقلع بيتيا عن الضحك الذي راوده وهو يصغي إلى تيخون ويراه يتبسم وأدرك أن تيخون هذا قد قتل رجلاً، أحسّ بالضيق. وألقى نظرة على الطبال الأسير فانقبض قلبه. لكن هذا الضيق لم يدمْ سوى لحظة. ورأى من الضروري أن يرفع رأسه وأن يظهر بمظهر المستبسل وأن يسأل النقيب بلهجة العالم بالأمور عن مشروع الغد، وذلك حتى يكون جديراً بهؤلاء الرفاق.

أما الضابط الذي أُرسل للبحث عن دولوخوف فقد لقي دينيسوف على الطريق وقال له أن دولوخوف سوف يصل وأن الأمور عنده تسير سيراً حسناً.

وفي الحال انبسطت أسارير دينيسوف ونادى بيتيا وقال له:

– هيا! حدّثني عن نفسك.

***

الفصل السابع

ترك بيتيا أهله، عند مغادرته موسكو، ليلتحق بفوجه، وما لبث بعد ذلك، أن عُيِّن ضابطاً مرافقاً لجنرال كان قائداً لمفرزة عظيمة الأهمية. ومنذ أن رُقّي بيتيا إلى رتبة ضابط ولاسيما منذ انضمامه إلى الجيش العامل الذي شارك معه في معركة فيازما، كان في حالة دائمة من الهياج الفرح إذ أحسَّ بنفسه رجلاً كبيراً، وفي خوف مستمر من أن تفوته فرصةُ عمل بطولي حقيقي. كان سعيداً جداً مما رآه ومما عاشه في الجيش؛ لكنه كان يخيل إليه دائماً أن البطولة الحقّة إنما تجري حيث لا يكون. لذلك كان يتحرّق أن يكون حيث تكون.

فعندما أعرب الجنرال، في ٢١ تشرين الأول، عن رغبته في إرسال أحد العناصر إلى مفرزة دينيسوف، طلب بيتيا بلهجة التوسّل المُلحّ أن يُعيّن هو نفسه، فلم يستطع الجنرال أن يرفض. لكنه حين تذكّر تصرّف بيتيا الطائش في معركة فيازما حيث عدا بجواده إلى الخطوط الأولى تحت نار الفرنسيين وأطلق رصاصتين من مسدسه، بدلاً من أن يمضي في الطريق التي أُرسِل إليها. منعه صراحة من المشاركة في أية عمليات يقوم بها دينيسوف مهما يكن نوعها ولهذا السبب احمرّ بيتيا واضطرب عندما سأله دينيسوف إن كان يستطيع أن يبقى. كان بيتيا يقدّر، قبل أن يبلغ أطراف الغابة، أنهُ لكي يؤدي مهمته بدقة فينبغي أن يعود فوراً. لكنه عندما رأى الفرنسيين وتيخون، وعندما علم أن الهجوم سيتم، لا

محالة، في الليل، أصابه ما يصيب الشباب من تقلب يغيّرون معه آراءهم بسرعة، فقرّر بينه وبين نفسه أن الجنرال الذي كان يكن له حتى هذه اللحظة كثيراً من التقدير لم يكن شيئاً مذكوراً، لم يكن سوى ألماني، وأن دينيسوف كان البطل، وكذلك النقيب كان بطلاً أيضاً، وتيخون أيضاً، وأن من العار عليه أن يتركهم في هذه الساعة العسيرة.

كان الليل يهبط عندما وصل دينيسوف وبيتيا والنقيب إلى الكوخ. كان الناظر يميّز، في غبش المساء، جياداً مسرجة، وقوزاقاً، وفرساناً يبنون خصاصاً في فرجة الغابة، (ولكي لا يرى الفرنسيون الدخان) أخذوا يشعلون ناراً مجمرة في واد ذي شجر. وفي مدخل الكوخ، كان أحد القوزاق يقطّع خروفاً، وهو مشمّر عن كميّه. وفي الداخل، راح ثلاثة ضباط من مفرزة دينيسوف يضعون باباً ليقوم مقام الطاولة. خلع بيتيا ثيابه المبلّلة التي أعطاها كي تُجفّف وانضم من فوره إلى الضباط ليساعدهم في إعداد مائدة الطعام.

وبعد عشر دقائق، أعدت الطاولة التي غُطّيت بمنشفة، وكان عليها فودكا، وقنّينة روم، وخبز أبيض، ولحم الخروف المشوي، وملح.

امتلأ بيتيا، وهو يجلس إلى الطاولة مع الضباط ويقطّع لحم الخروف الطري بيديه اللتين سال عليهما الدهن، بحب طفولي رقيق، عارم.

لجميع الحاضرين، وكان مقتنعاً، من ثمّ، أن الآخرين يكنّون له الحب نفسه.

قال لدينيسوف:

– ما رأيك، إذن، يا فاسيلي فيدورفتش، أتقبل أن أبقى معكم يوماً واحداً؟

وأجاب نفسه دون أن ينتظر الجواب:

-بما أنهم أرسلوني للاستعلام، فهأنذا أستعلم... لكنْ دعني أذهب إلى أكثر... أكثر الأماكن أهمية.. لستُ بحاجة إلى مكافأة. أود لو...

وصرف بيتيا بأسنانه ونظر حوله وهو يرفع رأسه ويحرّك يده.

كرّر دينيسوف وهو يبتسم:

- أكثر الأماكن أهمية....

وأردف بيتيا قائلاً:

- لكن دعني آمر فعلياً، دعني آمر حقاً، وماذا يكلفّك ذلك؟

وقال لضابط أراد أن يقطع شيئاً من اللحم فمدّ له سكينه:

- آه! أتبحث عن سكين؟

وشكره الضابط على ذلك فاحمر بيتيا وقال:

- احتفظ به، أرجوك. فعندي منه الكثير.

وهتف فجأة:

- يا إلهي! لقد نسيتُ تماماً. إن معي زبيباً رائعاً، بدون بزر. جاءنا قيّم جديد للمطعم ولديه أشياء ممتازة لقد اشتريت منه عشر ليرات. فأنا معتاد على الحلويات. أتريدون شيئاً منه؟

وهُرع بيتيا إلى المدخل الذي كان فيه تابعهُ القوزاقي وحمل قفة يمكن أن تسع خمس.ليبرات من الزبيب، وقال:

- كلوا، يا سادة، كلوا.

وسأل النقيبَ:

–أم لعلك بحاجة إلى إبريق قهوة، اشتريتُ من القيم إبريقاً رائعاً! فلديه أشياء جميلة جداً. وهو شريف جداً. هذا هو الجوهري. سآتيك بالإبريق، بكل تأكيد. أم لعلك تحتاج إلى أحجار القدح لأن الذي معك قد تلف. قد يحدث هذا. لقد حملتُ معي منها.... (وأشار إلى القفة) لديّ ما يقرب المئة. اشتريتُها بثمن بخس. خذْ، ما تحتاج إليه، أرجوك أو خذها جميعاً إذا شئت... وفجأة ارتاع بيتيا من أن يكون قد تجاوز الحدّ، فتوقّف عن الكلام واحمرّ.

وحاول أن يتذكر إن كان قد أقدم على حماقات أخرى. وعندما استعرض ذكريات النهار توقف عند ذكرى الطبال الفرنسي. وفكر في نفسه: نحن هنا بخير، أما هو فماذا أصابه؟ أين وضعوه؟ وهل أطعموه؟ ألم يسيئوا إليه. لكنه لم يكن يجرؤ على السؤال بعد أن تبيّن أنه بالغ بصدد الأحجار.

ثم فكّر: بل إني أستطيع أن أسألهم. لكنهم سيقولون: هذا صبي، ولذلك أخذته الشفقة على ذاك الصبي الآخر. سأريهم غداً أيّ صبي أنا؟ أمن المخجل أن أسأل هذا السؤال؟ فليكنْ!

وما لبث أن احمرّ ونظر إلى الضباط وفي نفسه خوف من أن يرى السخرية على وجوههم، وقال:

– أيمكن استدعاء الفتى الذي أُسر؟ وأن نعطيه شيئاً يأكله... فلعله...

قال دينيسوف الذي بدا عليه أنه لا يجد في هذا التذكير ما يُخجل:

–نعم، محزنٌ، هذا الصبي. فَليُؤتَ به. اسمه «فنسان بوس» فليؤت به.

قال بيتيا:

- سأدعوه بنفسي.

فردد دينيسوف:

- امضِ، امض. محزنٌ، هذا الصبي.

كان بيتيا قرب الباب عندما قال دينيسوف هذه الكلمات. فانسل بين الضباط ورجع إليه. وقال:

- اسمح لي أن أقبلك، يا صديقي العزيز. آه! ما أجمل هذا؟ وما أكرمه!

وبعد أن قبل دينيسوف خرج راكضاً.

صاح بيتيا وهو يقف على العتبة:

- بوس! فنسان!

استعلم صوت في العتمة:

- من تطلب، يا سيدي؟

أجاب بيتيا أنه يطلب الفتى الفرنسي الذي أُسر في هذا اليوم.

قال القوزاقي:

- آه! فيسيني؟

لقد غير القوزاق اسم فنسان إلى فيسيني[1] وغيّره الفلاحون والجنود إلى فيسينيا. وفي الحالتين، فإن الإشارة إلى الربيع تتّفق ومظهر هذا الفتى.

١- فيسيني: تعني ربيعي، وهي صفة من «فيسنا" أي الربيع.

فصاحت في العتمة أصوات مختلطة بالضحكات:

– إنه يتدفأ هناك أمام النار. فيسينيا! فيسينيا! فيسيني!

قال فارس قريب من بيتيا:

– إنه فتى شاطر، لقد أطعمناه قبل قليل. رهيب، لكم كان جائعاً!

سُمع وقعُ خطوات في العتمة، وبدا الطبّال عند الباب وقدماه تخبطان في الوحل.

قال بيتيا:

– آه! هذا أنت! أتريد أن تأكل؟

وأضاف وهو يضع يده على ذراعه في حركة خجلة ودية:

– لا تخفْ، لن يسيء إليك أحد. ادخلْ، ادخل.

وأجاب الطبال بصوت متهدج:

– شكراً، يا سيدي.

ومسح رجليه الوسختين بالعتبة. تمنّى بيتيا أن يقول له أشياء كثيرة، لكنه لم يجرؤ. كان يقف بجانبه في المدخل وهو يقدّم رجلاً ويؤخّر أخرى. ثم أخذ يده في العتمة وشدّ عليها. وردد بيتيا في ضرب من الهمس الحنون:

– ادخل، ادخل.

وقال في نفسه:

– آه! ليتني أستطيع أن أفعل شيئاً له!

ثم فتح الباب وأدخل الفتى قدّامه.

عندما دخل الطبّال الكوخ، جلس بيتيا بعيداً، لأنه رأى أن من العار الاهتمام به. كان يتلمس النقود التي في جيبه ويتساءل إن لم يكن عيباً أن يعطيه إياها.

***

الفصل الثامن

انصرف انتباه بيتيا، بوصول دولوخوف، عن الطبال الذي أمر دينيسوف بإعطائه شيئاً من الفودكا ولحم الخروف وبإلباسه معطفاً روسياً حتى لا يرسله مع بقية الأسرى، بل ليحتفظ به عنده. لقد سمع بيتيا الناس يتحدثون كثيراً في الجيش عن بسالة دولوخوف الخارقة وعن قسوته تجاه الفرنسيين، ولذلك، فإنه لم يرفع بصره عن دولوخوف منذ أن دخل الكوخ وكان يرد رأسه إلى الوراء ليكون جديراً برفقة أمثاله.

راعتْ ثيابُ دولوخوف بيتيا ببساطتها. لقد كان دينيسوف يلبس معطفاً قوقازياً قصيراً، ويحتفظ بلحيته كاملة، ويضع على صدره وسام القديس نيقولا صانع المعجزات، وكان في أسلوب كلامه وفي عاداته وحركاته يُبرز ما في وضعه من خصوصية. أما دولوخوف الذي كان يلبس في موسكو قديماً بزّة فارسية، فقد كان يظهر الآن بمظهر آنق ضابط من ضباط الحرس. كان حليق الذقن، يلبس سترة الحرس الطويلة المبطنة، وفي عروتها وسام القديس جورج، وعلى رأسه عمرة بسيطة وضعها وضعاً سوياً. خلع، في زاوية، معطفه المبلّل ودنا من دينيسوف دون أن يسلّم على أحد، وسأله فوراً عن الهجوم. فأعلمه دينيسوف بتطلّع المفارز الكبرى إلى القافلة، وبمهمة بيتيا، وبردّه على الجنرالين. ثم روى كل ما يعرفه عن وضع المفرزة الفرنسية. قال دولوخوف:

- ممتاز، لكن ينبغي أن نعرف ما نوع الجند الفرنسيين وما أهميتهم. ولابد من الذهاب إليهم. فبدون أن نعرف عددهم، لا نستطيع أن نقحم أنفسنا في هذا المشروع. أحب أن أفعل الأشياء باحكام. ولنْرَ إن كان أحد هؤلاء السادة يحب أن يأتي معي إلى معسكرهم؟ فمعي بزّة رسمية.

هتف بيتيا:

- أنا، أنا.... أنا أذهب معك!

قال دينيسوف مخاطباً دولوخوف:

- لا داعي إطلاقاً لذهابك إلى معسكرهم. أما هذا، فلن أدعه يذهب، مهما كلّف الأمر.

فهتف بيتيا:

- و لَمَ ذاك! لماذا لا أستطيع الذهاب...

- لأنه ليس لك شغل هناك.

فسأل دولوخوف:

- يا إلهي، اعذرني لأنني... لأنني.... سأذهب، هذا كل شيء. أتأخذني؟

أجابه دولوخوف بشرود وهو يتفرّس الطبّال الفرنسي:

- و لَمَ لا؟....

وسأل دينيسوف:

- أمن زمن طويل أسرتم هذا الفتى؟

أسرناه اليوم، لكنه لا يعرف شيئاً. وأنا أحتفظ به.

فسأله دولوخوف:

– والآخرون، ماذا تفعل بهم؟

فصاح دينيسوف الذي احمر فجأة:

– كيف، «ماذا أفعل بهم»؟ إنني أرسلهم لقاء إيصال وأستطيع أن أقول دون تردد: إن ضميري لم يبكتني بموت رجل واحد. أليس إرسال ثلاثين رجلاً أو ثلاثمئة رجل تحت الحراسة إلى المدينة أبسط من أن نلطّخ –وأنا أقول ذلك بصراحة– شرفَ الجندي؟

قال دولوخوف وهو يبتسم ابتسامة باردة:

– جديرٌ بهذا الكونت الشاب ذي الستة عشر عاماً أن يقول هذا الكلام اللطيف، أما أنت فكان يجب عليك أن تطرح ذلك جانباً منذ زمن طويل.

قال بيتيا بخجل:

– لكنني لم أقل شيئاً، وإنما قلت: إنني لا محالة، ذاهب معك.

وتابع دولوخوف وكأنه كان يجد لذة خاصة في الكلام على هذا الموضوع الذي يغيظ دينيسوف:

– أما نحن، يا صاحبي، فقد حان الوقت لإطْراح هذا اللطف جانباً.

وقال وهو يهز رأسه:

– قلْ لي، لماذا احتفظتَ أنتَ بهذا؟ ألأن الشفقة أخذتك عليه؟ إننا نعرفها، إيصالاتك... إنك ترسل مئة رجل فيصل منهم ثلاثون. إنهم يموتون جوعاً أو يُقتلون. وإذن ما الفرق بين أن نأسرهم أو لا نأسرهم؟

هزّ النقيب رأسه موافقاً وهو يغضّن عينيه الصافيتين:

–لا فرقَ. ولا جدال في ذلك. لكني لا أريد أن يَبكّتني ضميري. تقول: إنهم سيموتون. طيّب! فليموتوا. على شرط ألاّ يكون ذلك من جرّائي.

ضحك دولوخوف:

– مَنْ ذا الذي منعهم من أن يأسروني عشرين مرة؟ وإذا ما أسروني فلن ألقى غير حبل المشنقة الذي ستلقاه أنت أيضاً بما فيك من روح الفروسيّة.

وصمت ثم أضاف:

– إلى العمل. وليُرسَلْ تابعي القوزاقي مع الرجال. فعندي بزتان فرنسيتان.

وسأل بيتيا:

– إذن، ستأتي معي؟

فصاح بيتيا وقد احمرّ حتى كاد يذرف الدمع، وألقى نظرة على دينيسوف:

– أنا؟ نعم، نعم، من دون أدنى شك.

ومرة أخرى، أحس بيتيا بالضيق واضطرب، أثناء النقاش بين دولوخوف ودينيسوف حول ما يجب فعله بالأسرى؛ لكنه لم يُفلح هذه المرة أيضاً في إدراك ما كانوا يتحدثون فيه إدراكاً جيداً. وفكّر «إذا كان هذا هو ما يفكر فيه أشخاص عظام، أناسٌ مشهورون، فمعنى ذلك أن الأمور يجب أن تكون كذلك. ومعنى ذلك أن الأمور على خير ما

يُرام. مايلزم خاصة هو ألا يذهب دينيسوف إلى الاعتقاد بأنني سأطيعه وأنه يستطيع أن يأمرني. سأذهب، لا محالة، مع دولوخوف إلى المعسكر الفرنسي. وإذا كان هو قادراً على ذلك، فأنا قادر أيضاً!».

ورداً على ملاحظات دينيسوف الذي طلب إليه ألا يذهب، أجاب بيتيا بأن من عادته هو أيضاً أن يفعل كل شيء بإحكام لا اعتماداً على الحظ، وبأنه لا يفكر إطلاقاً في الخطر الذي يمكن أن يتعرّض له. وقال:

- لأنه -وأرجو أن توافقني على ذلك- إن جهلْنا عددهم فإن حياة مئات الرجال تتوقّف على ذلك، أما على هذا النحو فليس هناك غيرنا نحن الاثنين. ثم إني شديد الرغبة في الذهاب، وسأذهب، لا محالة، لا محالة، وليس بمقدورك أن تمنعني، فلن ينتج عن ذاك إلا ما هو أسوأ....

***

الفصل التاسع

بعد أن ارتدى بيتيا ودولوخوف معطفين فرنسيين ووضعا على رأسيهما عمرتين فرنسيتين، اتجها إلى فرجة الغابة التي لاحظ منها دينيسوف المعسكر، ثم خرجا من الغابة في الظلمة الحالكة وانحدرا إلى الوادي. حتى إذا بلغاه، أمر دولوخوف القوزاق الذين كانوا يرافقونه بالانتظار في هذا الموضعِ وراح يخب بجواده على الطريق باتجاه الجسر. وكان بيتيا يتقدم جنباً إلى جنب معه وهو خائر القوى من الانفعال. وهمس:

– إذا أسرونا فلن يظفروا بي حيّاً. إن مسدسي معي.

أجاب دولوخوف همساً وبحدة:

– لا تتكلم بالروسية.

وفي اللحظة نفسها دوّت في الظلمة صرخة: «من القادم»، وقعقعةُ بندقية.

صعد الدم إلى وجه بيتيا فقبض على مسدسه.

قال دولوخوف دون أن يخفّف أو يزيد من سرعة جواده:

– رمّاحة الفوج السادس.

ارتسم خيالُ الحارس الأسودُ على الجسر.

– كلمة السر؟

كبح دولوخوف جواده وسار خطواً وسأله:

– قل لي، هل العقيد جيرار هنا؟

كرر الحارس وهو يسدّ الطريق دون أن يجيب:

كلمة السر؟

فصرخ دولوخوف وقد احتدّ فجأة ودفع بحصانه في صدر الحارس:

– عندما يقوم ضابط بجولته فإن الحراس لا يسألونه عن كلمة السر... سألتك إذا كان العقيد هنا؟

ودون أن ينتظر دولوخوف جواب الحارس الذي تنحى جانباً، صعد الهضبة بخطى عادية.

ثم شاهد ظلاً أسود لرجل كان يعبر الطريق، فاستوقفه وسأله أين القائد والضباط. وقف الرجل، وكان جندياً يحمل كيساً على ظهره، ودنا حتى لامس بيده جواد دولوخوف، وحكى له ببساطة ومودة أن القائد والضباط في أعلى الهضبة، إلى اليمين، في فناء المزرعة (هكذا كانوا يسمّون المنزل الإقطاعي).

بعد أن سار دولوخوف في الدرب الذي كانت تُسمع من على جانبيه أحاديث بالفرنسية حول نيران المخيّم، دلف إلى فناء المنزل الإقطاعي فلما اجتاز البوابة، نزل عن جواده واقترب من نار كبيرة ملتهبة جلس حولها رجال يتحدثون بصوت عال. وفي جانب منها، كان شيء يطبَخ في قدر، وقد جثا قربه جندي يرتدي معطفاً أزرق،

وعلى رأسه قلنسوة الشرطة، فأضاء اللهبُ وجهه بشدة؛ كان الجندي يحرك القدر بقضيب البندقية.

قال أحد الضباط وكان جالساً في الظل، في الجانب الآخر من النار:

– أوه! إنه لشديد القسوة على الطبخ.

وقال آخر وهو يضحك:

– سوف يمشّيها، تلك، الأرانب...

وصمتا كلاهما وأخذا يتفحّصان الظلمة عندما سمعا خطوات دولوخوف وبيتيا اللذين اقتربا بجواديهما.

قال دولوخوف بصوت قوي واضح.

– سلاماً، يا سادة!

تحرّك الضباط في الظل، ودار أحدهم، وهو رجل مديدُ القامة طويل العنق، حول النار ودنا من دولوخوف وقال:

– هذا أنت، يا كليمان؟ من أين...

لكنه لم يتم كلامه إذ اكتشف غلطه، فقطّب حاجبيه وحيّا قليلاً دولوخوف كما يحيي رجلاً لا يعرفه وسأله فيمَ يمكن أن يكون ذا نفع له فروى دولوخوف أنه يريد هو وزميله أن يلتحقا بفوجهما، وتوجّه إلى الجميع فسألهم إن كان يعرف أحد أين فوج الرّماحة السادس؛ لم يكن أحد يعرف شيئاً؛ وخيّل إلى بيتيا أن الضباط يفحصونهما، دولوخوف وهو، بعداء وريبة. خيمَ الصمت العام بضع ثوان. ثم قال صوتٌ من الجانب الآخر من النار في ضحك مخنوق:

– إذا كنتما تعتمدان على وجبة المساء، فقد جئتما بعد فوات الأوان.

أجاب دولوخوف أنهما أكلا وأن عليهما أن يتابعا طريقهما في هذه الليلة ذاتها.

سلم الجوادين إلى الجندي الذي كان يحرّك القدر وجلس القرفصاء أمام النار، قرب الضابط الطويل العنق. كان هذا الضابط يحدّق في دولوخوف وسأله مرة أخرى من أي فوج هو: فلم يجب دولوخوف، وتظاهر بأنه لم يسمع السؤال، وسأل الضباط، وهو يشعل غليوناً فرنسياً أخرجه من جيبه، إلى أي حد كانت الطريق أمامهم خالية من القوزاق.

أجاب جندي من الجانب الآخر من النار:

– قطّاع الطرق في كل مكان.

فقال دولوخوف إن القوزاق ليسوا خطرين إلا على من كانوا منفردين مثله هو ورفيقه. وأضاف بلهجة مستفهمة:

– لكنهم لا يجرؤون، من غير شك، على مهاجمة المفارز الكبرى. فلم يجب أحد.

كان بيتيا واقفاً أمام النار، يصغي إلى المحادثة، ويقول في نفسه، في كل لحظة:

– حسناً! الآن سوف يذهب.

لكن دولوخوف استأنف الحديث وسأل بصراحة عن عدد الرجال في الكتيبة، وعن عدد الكتائب، وعن عدد الأسرى. وعندما سأل عن الأسرى الروس في تلك المفرزة قال:

– يا لها من لبكة حقيرة أن نجرّر هذه الجثث وراءنا، الأَوْلى قتل هؤلاء الأوباش.

وانفجر في ضحك غريب جداً خُيّل إلى بيتيا معه أن الفرنسيين سيكتشفون الخدعة. على الفور، فتراجع، بالرغم منه، خطوة إلى الوراء. لم يجب أحد عن كلمات دولوخوف ولم يستجب أحدٌ لضحكته. ونهض ضابط فرنسي لم يكن يُرى (كان مستلقياً، متدثراً بمعطفه) وأسرَ شيئاً إلى زميل له، فوقف دولوخوف ونادى الجندي الذي كان يمسك بالجوادين.

تساءل بيتيا وهو يدنو بالرغم منه من دولوخوف: «هل سيأتي بالجوادين أم لا؟».

وجيء بالجوادين. قال دولوخوف:

– سلاماً، يا سادة.

أراد بيتيا أن يقول: مساء الخير، فلم يستطع أن يلفظ تلك الكلمة. كان الضباط يتحدثون بصوت خافت. وقد أبطأ دولوخوف في امتطاء صهوة جواده. لأن الجواد رفض أن يثبت في مكانه؛ ثم اجتاز البوابة بخطى عادية. وكان بيتيا يسير بجنبه، وهو يتمنى أن يلتفت إلى الوراء ليرى إن كان الفرنسيون يتبعونهما، فلا يجرؤ على ذلك.

ولما بلغا الطريق، لم يعد دولوخوف إلى الوراء عبر الحقول، لكنه مرَ بالقرية، وفي أحد الأماكن توقّف وأصاخ السمع وقال:

– أتسمع؟

سمع بيتيا أصواتاً روسية ورأى حول النار أشباح الأسرى العاتمة.

وبعد أن انحدرا إلى الجسر. مرّا أمام الحارس الذي كان يذرع الجسر متجهّماً، دون أن ينبسا بكلمة، وبلغا الوادي حيث كان ينتظر القوزاق.

قال دولوخوف:

– والآن، وداعاً. قل لدينيسوف أن موعدنا الفجر، عند أول طلقة نارية.

وأراد أن يبتعد، لكن بيتيا استوقفه من يده وهتف قائلاً:

– كلا! أنت بطل لا نظير لك! آه! ما أحسن هذا، وما أجمله! لكم أحبك!

قال دولوخوف:

– طيب، طيب.

لكن بيتيا أبى أن يرخيه، ورآه دولوخوف ينحني عليه، في العتمة. أراد أن قبلهُ. قبلة دولوخوف وضحك، وثنى عنان جواده، وتوارى في الظلمة.

***

الفصل العاشر

عندما عاد بيتيا إلى الكوخ، وجد دينيسوف عند المدخل، مضطرباً، قلقاً، ساخطاً على نفسه لأنه تركه يذهب. كان دينيسوف ينتظره. فهتف مردداً وهو يسمع حكاية بيتيا الحماسية:

– الحمد لله! آه! الحمد لله! بئس ما فعلتَ، إني لم أنم بسببك. الحمدُ لله! اذهب الآن إلى النوم فما يزال لدينا متسعٌ من الوقت للإغفاء قبل أن يطلع الصبح.

قال بيتيا:

– نعم... لا. لم أنعس بعد، ثم إني أعرف نفسي، فإذا نمتُ انتهى كل شيء، ومن عادتي ألا أنام عشية المعركة.

ظل بيتيا زمناً في الكوخ يستذكر بفرح تفاصيل رحلته ويتصوّر بقوة ما سوف يجري في اليوم التالي، ثم نهض وخرج عندما شاهد أن دينيسوف قد أغفى.

كان الظلام مايزال مخيّماً، في الخارج. انقطع المطر، لكن الأشجار ظلت تساقط قطرات من الماء. وكان المرء يستطيع أن يميّز، قرب الكوخ، كتلاً سوداء من الخصاص والقوزاق والخيول المربوطة معاً. ووراء الكوخ، كانت عربتا النقل تبدوان بقعة سوداء تحيط بها الجياد،

وفي الوادي، احمرّت النار التي أشرفت على الخمود. لم ينم القوزاق والفرسان جميعاً: كانت تُسمع ها هنا وها هناك أصوات صماء شبيهة بالهمس مختلطة بصوت قطرات الماء المتساقطة، وبصوت أقرب. هو صوت الخيل التي كانت تأكل علفها.

مضى بيتيا إلى الخارج، ونظر حوله في الظلام ودنا من العربتين. كان أحد النائمين يشخر تحت العربتين. ومن حوله الخيل المسرجة تأكل علفها. عرف بيتيا، في سواد الليل، جواده الذي سمّاه كارباخ[1] مع أن أصله من روسيا الصغرى، واقترب منه. قال له وهو يعانقه وينفخ في منخريه:

– يا كاراباخ، سنقوم غداً بعمل كبير.

قال قوزاقي نائم تحت العربة:

– إذنْ، أنت لم تنمْ، يا سيدي؟

لا، لكن... أنت تُدعى ليخاتشوف، فيما أعتقد؟ لقد عدتُ لتوي. ذهبنا إلى معسكر الفرنسيين، وأخذ بيتيا يقصّ عليه بالتفصيل لا أنباء رحلته فحسب، بل وأيضاً لماذا ذهب ولماذا يرى أن مخاطرة المرء بحياته أجدى من العمل الذي يقوم على الحظ.

قال القوزاقي:

– هيا، فعليك أن تنام قليلاً.

أجاب بيتيا:

١– اسم جواد قوقازي.

– لا، تعودت هذا. قل لي: ألم تتلف أحجار القدح في مسدساتكم؟ حملتُ معي الكثير منها. ألستَ بحاجة إلى شيء منها؟ خذْ.

أطل القوزاقي برأسه من تحت العربة ليمعن النظر في بيتيا.

قال بيتيا:

– لأنني تعودتُ أن أفعل كل شيء بعناية. من الناس من يتصرّفون كيفما اتفق الأمر، دون أن يستعدوا، ثم يندمون على ذلك فيما بعد. أما أنا فلا أحب هذا.

قال القوزاقي:

– هذا صحيح.

– وهناك شيء آخر، يا عزيزي، اشحذْ لي سيفي، أرجوك؛ لقد تثلّم.... (لكن بيتيا لم يتم الكلمة لأنه لم يجرؤ على الكذب: إذ لم يُشحذ سيفه قط). أيمكنك أن تفعل ذلك؟.

– ولِمَ لا، ذلك ممكن.

نهض ليخاتشوف، وفتش في الرحال، وما لبث بيتيا أن سمع صفيراً حربياً هو صفير الفولاذ على حجر الشحذ. فتسلق العربة وجلس على حافتها.

كان القوزاقي يشحذ السيف تحت العربة.

قال بيتيا:

– أهم نيامٌ، الشباب؟

– منهم من هو نائم، ومنهم من ليس نائماً.

– والصبي، ماذا أصابه؟

– فيسيني؟ اضطجع هناك، عند المدخل. الخوف، مدعاة للنوم. لكم كان مسروراً!

بعد ذلك لزم بيتيا الصمتَ زمناً يصغي فيه إلى الأصوات. وتناهى وقعُ خطوات، في الظلمة، وظهر شبح أسود.

سأل رجلٌ وهو يقترب من العربة:

– ماذا تشحذ؟

– سيف السيد.

قال الرجل الذي ظنه بيتيا فارساً:

– خيراً. هل بقيت الطاس عندك؟

– هاهي ذي قرب العجلة.

أخذ الفارس الطاس وقال وهو يتثاءب:

– أظن أن النهار يوشك أن يطلع.

وابتعد.

كان على بيتيا أن يعلم أنه في الغابة، مع مفرزة دينيسوف، على فرسخ من الطريق، وأنه يجلس على عربة سُلبتْ من الفرنسيين ورُبطت بجانبها جياد، وأن تحته قوزاقياً يشحذ له سيفه، وأن البقعة السوداء، على يمينه هي الكوخ، وأن البقعة الحمراء المتوهجة، تحت، إلى اليسار، هي النار التي أخذت تخمد، وأن الرجل الذي جاء يبحث عن الطاس فارسٌ عطشان: لكنه لم يكن يعلم ذلك و لم يكن يريد أن يعلم. لقد كان في مملكة مسحورة لا يُشبه شيء منها الحقيقة. فربما كانت البقعة السوداء

الكبيرة الكوخ حقاً، وربما كانت مغارةً تفضي إلى أحشاء الأرض. وربما كانت البقعة الحمراء ناراً، لكنها ربما كانت عين وحش هائل. وربما كان جالساً في الحقيقة على عربة، لكنه ربما كان جالساً على برج عال لو وقع منه لقضى يوماً كاملاً أو شهراً كاملاً للوصول إلى الأرض - أو ربما ظل يسقط دون أن يبلغ الأرض. ولعل الرجل الذي يجلس تحت العربة هو القوزاقي ليخاتشوف بكل بساطة، لكن من المحتمل جداً أن يكون أفضل الناس وأبسلهم وأعجبهم وأكملهم، وإن لم يعرفه أحد. وربما كان فارساً بالفعل ذاك الذي مرّ طالباً الماء والذي ابتعد نحو الوادي، لكن لعله عندما توارى إنما اختفى حقاً و لم يوجد قط.

مهما ير بيتيا الآن فلن يدهشه شيء. كان في مملكة مسحورة كل شيء ممكن فيها.

نظر إلى السماء. كانت السماء أيضاً مسحورة كالأرض، وقد أخذت تنجلي. وكانت الغيوم تركض مسرعة كأنها تريد أن تكشف عن النجوم. وكان يبدو أحياناً أن الغيوم قد كُسحت وأن سماء سوداء، صافية قد ظهرت، وكان يبدو أحياناً أخرى أن السماء ترتفع عالياً، عالياً جداً فوق الرؤوس؛ وكانت تنخفض في بعض الأحيان انخفاضاً شديداً حتى يمكن ملامستها باليد.

أخذ بيتيا يغمض عينيه ويتهادى.

كانت القطرات تتساقط، وكانت تُسمع أصوات خافتة تتكلم وصهلت جياد وتصاولت. وشخر أحد النائمين.

كان السيف الذي يُشحذ يصفر: زيغ، زيغ، زيغ، زيغ.... وفجأة سمع بيتيا أوركسترا شجيّة تعزف نشيداً غير معروف، به عذوبة مهيبة. كان بيتيا موسيقياً مثل ناتاشا وأكثر من نيقولا، لكنه لم يدرس الموسيقا

قط، و لم يفكر فيها قط، ولذلك فقد بدت الأنغام التي طافت بفكره عفوياً جديدة، جذابة، على وجه الخصوص. كانت الأنغام تتسع، وتنتقل من آلة إلى أخرى. وكان هذا هو ما يسمى «التتابع»، مع أن بيتيا لم يكن يملك أية فكرة عن «التتابع». كانت كل آلة، وهي آلة شبيهة بالكمان حيناً، وبالبوق حيناً آخر، وإن كانت أفضل وأصفى من الكمان والبوق. كانت كل آلة تعزف لحنها الخاص، وتذوب، دون أن تتمّه، في آلة أخرى تبدأ الشيء نفسه، ثم في ثالثة ورابعة، ثم تنصهر جميعاً في آلة واحدة، وتتناثر مرة أخرى لتنصهر من جديد في لحن كنسي مهيب حيناً، وفي لحن صاخب من ألحان النصر حيناً آخر.

قال بيتيا في نفسه وقد كاد ينقلب إلى الأمام: «آه! لكن هذا في الحلم. إنها في أذنّي. ولعلها موسيقاي الخاصة. هيّا، اعزفي يا موسيقاي أيضاً، هيّا!.»).

وأغمض عينيه. فتموجت الأنغام، في جهات شتى، وكأنها آتية من بعيد وتناثرت واختلطت، ثم ذاب كل شيء، مرة أخرى في نفس النشيد العذب المهيب. قال بيتيا في نفسه:

آه! ما أعجب هذا! على قدر ما أريد وكما أريد». وحاول أن يقود هذه الجوقة الهائلة من الآلات.

«هيا، برفق، برفق أعظم، بانخفاض الآن». وكانت الألحان تطيعه. «والآن باتساع أعظم، وببهجة أكبر. أيضاً، بفرح أعظم أيضاً». وكانت الألحان المهيبة التي تتسع، تصعد من أعماق مجهولة. وأمر بيتيا: «هيا، أيتها الأصوات، اتحدي!)». ومن بعيد وافتْ أولاً أصواتُ الرجال ثم أصواتُ النساء. وأخذت الأصوات تزداد فخامة في حركة منتظمة، مهيبة. وكان بيتيا يصغي بخشية وفرح إلى جمالها الذي لا يوصف.

كان النشيد يذوب في لحن السير الرسمي الانتصاري، والقطرات تتساقط، والسيف يصفر زيغ، زيغ، زيغ... وتصاولت الخيل مرة أخرى وصهلت دون أن تشوش الجوقة، بل إنها اتحدت بها.

لم يكن بيتيا يعلم كم مضى من الوقت على ذلك: كان يستمتع بهذا الفرح، ويدهش منه أبداً، ويأسف ألا يشاركه فيه أحد. وأيقظه صوتُ ليخاتشوف اللطيفُ:

– السيف جاهز، يا صاحب السعادة. صرت تستطيع أن تشطر به الفرنسي شطرين.

صحا بيتيا وهتف:

– لقد طلع النهار، حقاً لقد طلع النهار!

ظهرت للعيان الجيادُ التي كانت حتى الآن لا تُرى، وانسل الضوء الشاحب من خلال الأغصان العارية، نفّض بيتيا نفسه، ووثب على قدميه، وأخرج من جيبه روبلا أعطاه ليخاتشوف، وهزّ سيفه مجرباً وأعاده إلى غمده. فكّ القوزاق الجياد وشدّوا الأحزمة.

قال ليخاتشوف:

– ها هو ذا القائد.

دعا دينيسوف الذي كان خارجاً من الكوخ بيتيا وأمره بالاستعداد.

***

الفصل الحادي عشر

أخذ كل واحد حصانه بسرعة، في غبش الفجر، وشدّت الأحزمة وتوجه الجميع إلى أماكنهم. كان دينيسوف واقفاً قرب الكوخ يبلغ تعليماته الأخيرة. دلف مشاة المفرزة قبل غيرهم إلى الطريق، في ضوضاء مئة قدم تتخبّط في الوحل، ومالبثوا أن تواروا بين الأشجار في ضباب مطلع الصبح. كان النقيب يصدر أوامره إلى القوزاق. وكان بيتيا يمسك بلجام جواده منتظراً بفارغ الصبر الأمر بامتطائه. كان وجهه الذي غسله بالماء البارد يتوقّد ولاسيما عينيه، وقد سرت في ظهره قشعريرةٌ واهتز جسده كله برعدة سريعة ومنتظمة.

قال دينيسوف:

- حسناً! هل أنتم مستعدون؟ هات الجياد.

وجيء بالجياد. ثار دينيسوف على القوزاقي لأن الأحزمة كانت رخوة. وبعد أن قرّعه، اعتلى صهوة جواده. وضع بيتيا يده على الركاب. وأراد جواده، كعادته، أن يعضّه في ساقه، لكن بيتيا الذي لم يكن يشعر بثقله اعتلى السرج بخفة، ودنا من دينيسوف وهو يلتفت إلى الفرسان الذين كانوا يتحركون خلفه في الظلمة.

قال بيتيا:

– اعهدْ إلي بشيء ما، يا فاسيلي فيدوروفتش؟ أرجوك.... أتوسل إليك...

بدا على دينيسوف أنه نسي وجود بيتيا. فألقى عليه نظرة وقال بقسوة:

– لا أسألك إلا شيئاً واحداً هو أن تطيعني وألا تحشر نفسك في أي مكان.

لم يقل دينيسوف، أثناء الطريق كله، كلمة واحدة لبيتيا، ومشى بصمت. وعندما بلغوا أطراف الغابة ازداد نور الصباح ازدياداً ملموساً في الحقول. تبادل دينيسوف والنقيب بضع كلمات بصوت خافت، فمرّ القوزاق أمامه وأمام بيتيا. ولما مروا جميعاً، استأنف دينيسوف سيره وتوجه إلى المنحدر. كانت الجياد تنحدر إلى الوادي مع فرسانها وهي تتجمّع على أعجازها وتنزلق. وكان بيتيا يتقدم إلى جانب دينيسوف. وكانت الرعدة التي تهز جسده كله تشتّد أبداً. وأخذ النهار يشرق، لولا الضباب الذي مازال يغشي الأشياء البعيدة. وعندما بلغوا أدنى الوادي، استدار دينيسوف وأومأ برأسه إلى القوزاقي الذي كان وراءه. وقال:

– الإشارة!

رفع القوزاقي ذراعه ودوت طلقة نارية. وفي اللحظة نفسها سُمع عدوُ الخيل المُغيرة، والصيحاتُ الآتية من كل صوب، والطلقات النارية.

وفي اللحظة نفسها التي دوى فيها أولُ الجري والصيحات، همز بيتيا جواده وأرخى عنانه واندفع إلى الأمام دون أن يصغي إلى دينيسوف الذي كان يناديه صارخاً بشيء ما. لقد بدا له أن كل شيء قد استضاء وكأنه في وضح النهار، في اللحظة التي انطلقت فيها الإشارة. جرى

إلى الجسر. وكان القوزاق يجرون أمامه على الطريق. وعلى الجسر اصطدم بقوزاقي متخلّف وتابع طريقه. وأمامه كان الرجال، رجال فرنسيون من غير شك، يركضون من الجانب الأيمن إلى الجانب الأيسر من الطريق. وقد سقط أحدهم في الوحل بين قوائم جواد بيتيا.

وقرب أحد الأكواخ الخشبية تجمّع القوزاق وعكفوا على شيء ما. وانبعث من وسط التجمّع صراخ رهيب. فجرى بيتيا نحو هذه الجمهرة وكان أول ما رآه وجه فرنسي شاحب اللون أخذ فكه الأسفل يرتعد وكان يمسك بعصا رمح موجّه إليه.

صاح بيتيا:

- هورا!... هؤلاء رجالنا... يا شباب...

وانطلق إلى الأمام على طول الطريق مُرخياً العنان لجواده الهائج.

كانت تُسمع، في الأمام، أصوات تراشق بالبنادق. وكان القوزاق والفرسان والأسرى الروس الذين تراكضوا في أسمالهم من جانبي الطريق، كانوا جميعاً يطلقون صيحات مختلطة. وكان هناك فرنسي، جسور الطلعة، في معطف أزرق، عاري الرأس، ذو وجه أحمر متشنج. يدافع عن نفسه بحربة ضد الفرسان. وعندما وصل بيتيا، كان قد سقط أرضاً. وفكر بيتيا في مثل لمح البرق: «هأنذا أصل مرة أخرى بعد فوات الأوان»، وجرى إلى الموضع الذي كانت تنبعث منه أصوات التراشق الكثيف. كانت الطلقات النارية تنطلق من فناء المنزل الإقطاعي الذي ذهب إليه في ليلة البارحة مع دولوخوف. لقد كمن الفرنسيون فيه وراء السياج، في الحديقة الكثيفة الشجر التي اجتاحها الشوك. وأخذوا يطلقون النار على القوزاق المتجمعين أمام البوابة. وعندما اقترب بيتيا من البوابة لمح خلال دخان البارود، دولوخوف وقد شحب وجهه

شحوباً مائلاً إلى الخضرة، وراح يصيح بشيء على رجاله. كان يصيح في اللحظة التي حاذاه فيها بيتيا:

– من الخلف! انتظروا المشاة!».

صرخ بيتيا:

– ننتظر؟.... هورا!...

وجرى بحصانه، دون أن يتأخر لحظة، إلى الموضع الذي كانت تنطلق منه الطلقات النارية والذي كان دخان البارود فيه أكثف ما يكون. ودوّت صلية، فطاشت رصاصاتٌ، وصفرت أخرى وفرقعت. وفي أثر بيتيا، عبر القوزاق ودولوخوف البوابة جرياً. وفي هذا الدخان الكثيف المتحرك، كان بعض الفرنسيين يلقون بسلاحهم ويركضون خارج الأشواك للقاء القوزاق، وكان بعضهم الآخر يهبطون الأكمة هاربين إلى المستنقع. كان بيتيا يجري على حصانه عبر الفناء، وبدلاً من أن يشد عنان جواده، راح يحرك ذراعيه بغرابة وسرعة وأخذ ينهار على أحد جانبيه فوق السرج. ووقف جواده فجأة بعد أن تعثّر بالجمر الذي كان يخمد في ضوء الصباح، فسقط بيتيا بثقل على الأرض الرطبة. وشاهد القوزاق ذراعيه وساقيه تتحركان تحركاً تشنجياً، مع أن رأسه لم يتحرك أبداً. لقد اخترقت جمجمته رصاصةٌ.

بعد أن فاوض دولوخوف القائد الفرنسي الذي خرج من المنزل، وعلى رأس سيفه منديل أبيض، وأعلن استسلامه، ترجّل ودنا من بيتيا الذي كان يرقد بلا حراك، وهو ممدود الذراعين، وقال وهو يقطب حاجبيه:

– لقد دفع الثمنَ.

واتجه إلى البوابة للقاء دينيسوف الذي كان مقبلاً.

صاح دينيسوف متعجباً وقد شاهد وضع جسم بيتيا الذي كان فاقداً الحياة من غير شك، وهو وضع يعرفه دينيسوف جيداً:

- قُتل؟

فكرر دولوخوف هذه الكلمة وكأنه كان يجد لذة في تكريرها:

- لقد دفع الثمن.

وذهب بعجلة إلى الأسرى الذين أحاط بهم القوزاق بعد أن ترجلوا ثم صاح بدينيسوف:

- لن نُبقي على الأسرى!

لم يجب دينيسوف؛ ودنا من بيتيا، ونزل عن جواده، وأدار نحوه، بيدين مرتجفتين، وجه بيتيا الملطخ بالدم والوحل والذي دب فيه الشحوب وتذكر: «أنا معتاد على الحلويات، زبيب بديع. خذوه كله».

والتفت القوزاق بدهشة عندما سمعوا أصواتاً شبيهة بالعواء أطلقها دينيسوف وهو ينثني بعجلة ويقترب من السياج ويتشبث به.

كان في عداد الأسرى الروس الذين حررهم دينيسوف ودولوخوف: بطرس بيزوخوف.

***

الفصل الثاني عشر

لم تصدر القيادة الفرنسية، منذ الرحيل عن موسكو، أي أمر جديد بصدد قافلة الأسرى التي كان بطرس فيها. لم تكن هذه القافلة، في الثاني والعشرين من تشرين الأول، مع القطعات والأمتعة التي سافرت معها من موسكو. فنصف العربات المحملة بالبسكويت التي كانت تتبعها في المراحل الأولى أسرها القوزاق، أما النصف الآخر فقد سبقها؛ و لم يبق فارس واحد من الفرسان الذين فقدوا جيادهم حين كانوا يسبقونها؛ لقد اختفوا جميعاً. وحلّ محل المدفعية التي كانت تُرى في المقدمة أثناء المراحل الأولى قافلةٌ هائلة تحمل متاع المارشال «جونو»[1] ويواكبها الوستفاليون. وكانت تتبع السجناءَ قافلة تجهيزات الخيّالة.

منذ فيازما، أخذ الجند الفرنسيون الذين كانوا يسيرون في أرتال ثلاثة، يتقدمون في جماعات. وقد بلغت علامات الفوضى التي لاحظها بطرس بعد موسكو حدودها القصوى الآن.

كانت الطرقات التي يسيرون عليها مغطّاة بجثث الخيل؛ وكان رجال بأطمارهم الرثة، من الذين تخلفوا عن مختلف الوحدات، يتوالون بلا انقطاع، لينضموا إلى هذا الرتل السائر حيناً، أو ليظلوا في الخلف حيناً آخر.

١- المارشال جونو: انتيوس جونو (١٧٧١-١٨١٣). صار دوق ارباتيتس بعد انتصاراته في البرتغال في ١٨٠٧؛ انتحر سنة ١٨١٣.

ولقد وقع أكثر من إنذار كاذب في الطريق، فكان الجنود المرافقون يمسكون حينئذ ببنادقهم ويطلقونها ويولون هاربين، وقد كاد يدهك بعضهم بعضاً؛ لكنهم كانوا يتجمعون بعد ذلك مرة أخرى ويتشاتمون ويتلاومون على هذا الذعر الوهمي.

كانت هذه الجماعات الثلاث التي تسير معاً -مستودع الخيالة، وقافلة الأسرى، ومتاع جونو- ماتزال تشكل كلاً، مع أن بعضها كان كغيره يذوب بسرعة.

فمن مستودع التجهيزات الذي كان عدد عرباته يصل، في البداية، إلى مئة وعشرين، لم يبق أكثر من ستين؛ أما العربات الأخرى فقد أسرت أو تُركت. وفي قافلة «جونو» أسرت أيضاً عدةُ عربات أو تركت. وقد نُهبت ثلاثُ عربات بعد أن سطا عليها المتخلفون من فيلق «دافو». وقد علم بطرس، وهو يصغي إلى أحاديث الألمان، أن هذه القافلة تلقت حرساً أقوى من حرس الأسرى، وأن جندياً ألمانياً من رفاقهم رُمي بالرصاص بأمر من المارشال ذاته لأنهم وجدوا معه ملعقة من الفضة تخصه.

لكن الجماعة التي ذابت أكثر من غيرها، بين هذه الجماعات الثلاث، كانت قافلة الأسرى. فمن بين ثلاثمئة وثلاثين رجلاً ذهبوا من موسكو، بقي الآن أقل من مئة. كان الأسرى يربكون مواكبي القافلة أكثر مما تربكهم سروج مستودع الخيّالة ومتاع جونو. لقد كانوا يدركون أن السروج وملاعق جونو يمكن أن تصلح لشيء ما، أما لماذا ينبغي لجنود تضوروا من الجوع وارتعدوا من البرد أن يحرسوا ويراقبوا روساً أضرّ بهم الجوع والبرد مثلهم، روساً كانوا يموتون وتصدر الأوامر بقتلهم كلما تخلفوا في الطريق، فذلك ما لم يكن عصياً على الفهم فحسب، بل وكريهاً أيضاً. ولقد كانوا يعاملون الأسرى بقسوة فظة إلى حد بعيد،

كأنما كانوا يخشون، في هذا الوضع الزري الذي ألفوا أنفسهم فيه، أن يستسلموا لشعور الشفقة الذي أخذوا يحسّون به تجاه الأسرى وأن يفاقموا من وضعهم الخاص.

وفي دوروغوبوجي[1]، في الحين الذي ذهب فيه الحراس لنهب مخازنهم نفسها، بعد أن حبسوا الأسرى في اسطبلٍ، حفر بعض هؤلاء الأسرى ممراً في الجدار وهربوا منه، لكنهم أعيدوا وأعدموا.

أُهمل منذ زمن بعيدٍ النظامُ الذي وُضع في موسكو والذي كان يقضي بأن يسير الضباطُ الأسرى بمنأى عن الجنود؛ كان جميع الذين يمكنهم السيرُ يسيرون معاً،وقد وجد بطرس، منذ المرحلة الثالثة، كاراتايف والكلب ذا اللون الضارب إلى البنفسجي وذا القوائم الملتوية الذي اختار كاراتايف سيّداً له.

في اليوم الثاني بعد الرحيل عن موسكو، عادت إلى كاراتايف الحمّى التي ألزمته المستشفى في موسكو، وكان كلما ازداد ضعفاً ازداد بطرس ابتعاداً عنه. لم يكن بطرس يعلم لماذا، لكن منذ أن بدأ كاراتايف ينهار، كان على بطرس أن يتحامل على نفسه ليقترب منه. وكان إذا اقترب منه، وإذا سمع أنينه الضعيف كعادته حين يضطجع في المراحل، وإذا شمّ الرائحة الكريهة التي تنبعث منه، ابتعد عنه جهد الإمكان وكف عن التفكير فيه.

لقد تعلم بطرس، في الأسر وفي المعسكر، لا بعقله بل بكيانه كله، وبواسطة الحياة، أن الإنسان قد خُلق للسعادة، وأنه يحمل سعادته في ذاته، وأن هذه السعادة هي في تلبية مطامحه الإنسانية الطبيعية، وأن الشقاء كله إنما يأتيه من الإفراط لا من النقص؛ لكنه تعلّم الآن، في هذه

١– دوروغوبوجي: مدينة من مدن الأقاليم على طريق فيازما – سمولنسك.

الأسابيع الثلاثة الأخيرة من السير، حقيقةً جديدة، معزّية؛ تعلّم أنه ليس في العالم ما يُرعب. تعلّم أنه ليس في العالم وضعٌ يكون فيه الإنسان سعيداً كاملَ السعادة، حرّاً كاملِ الحرية، كما أنه ليس في العالم وضعٌ يكون فيه الإنسان بائساً، معدوماً من الحرية، على نحو مطلق. تعلّم أن للألم حداً، وأن للحرية حداً، وأن هذا الحد قريب جداً؛ وأن ألم الإنسان الذي يتألم لأن بتلة قد انثنت في فراش الورد الذي ينام عليه، مساوٍ لألمه هو، وهو يتألم، في هذه اللحظة، من جراء نومه على الأرض العارية الرطبة، متجمداً من جانب، دافئاً من جانب آخر؛ وأنه كان يتألم فيما مضى عندما كان يحتذي خفاً ضيقاً للرقص كما يتألم الآن وهو يمشي بلا حذاء (لأن حذاءه لم يعد صالحاً للاستعمال منذ زمن بعيد)، وقدماه حافيتان مملوءتان بالجراح. تعلّم أنه عندما كان متزوجاً بملء إرادته، كما كان يعتقد، فإنه لم يكن أكثر حرية منه الآن حين يحبسونه داخل اسطبل، في الليل.

ومن كل ما سيسميه هو، فيما بعد، آلاماً، وإن كان لا يشعر بها في الوقت الحاضر، كان أشدُّها قدميه الحافيتين، المغطاتين بالأورام والجراح (كان لحم الخيل سائغاً ومغذياً، وكان أثر طعم ملح البارود المستعمل بدلاً من ملح الطعام لذيذاً، ولم يكن البرد قارساً، وكان المشي، في النهار، يحمل الدفء، فإذا جاء الليل أشعلت النيران؛ وكان القمل الذي ينهشه يُبقي على دفئه). الشيء الوحيد الذي آذاه، في الأيام الأولى، كان قدماه.

وفي المرحلة الثانية، عندما فحص بطرس جراحه على ضوء النار، ظن أنه لن يستطيع المشيء بعد الآن، ولكن عندما استأنف الجميع سيرهم، تبعهم وهو يعرج عرجاً خفيفاً، حتى إذا حمي، سار بدون ألم، مع أن منظر قدميه، في المساء، كان أبشع. لكنه لم يكن يتطلع إليهما وكان يفكر في شيء آخر.

الآن فقط، أدرك بطرس مدى حيوية الإنسان، وأدرك تلك القوة الشافية التي أُعطيها الإنسان لتحويل انتباهه، وهي قوة شبيهة بصمام الأمان في المراجل الذي يسمح للبخار الفائض أن يخرج كلما تجاوز الضغط حدّه الطبيعي.

لم يكن يرى أو يسمع إعدام الأسرى المتخلفين، مع أن أكثر من مئة منهم قضوا بهذه الطريقة. لم يكن يفكر في كاراتايف الذي راح يزداد ضعفاً يوماً بعد يوم، والذي كان واضحاً أنه سيكابد المصير نفسه. بل لقد غدا أقل تفكيراً في نفسه. كانت الأفكار والذكريات والرؤى الفرحة والمعزيّة التي تتوارد عليه تغدو أكثر استقلالاً عن وضعه كلما تعسر هذا الوضع، وكلما غدا المستقبل مُثقلاً بنذر الشر.

***

الفصل الثالث عشر

في الثاني والعشرين، ظهراً، كان بطرس يصعد أكمة على طريق موحل زلق، وهو ينظر إلى قدميه وإلى وعورة الطريق. ومن وقت إلى آخر كان يلقي نظرة خاطفة على هذه الجماعة المألوفة التي تحيط به، ثم ينقل بصره إلى قدميه. كانت الجماعة القريبة مألوفة وكذلك قدماه. وكان سيريي، الكلب البنفسجي ذو القوائم الملتوية، يخب برشاقة على حافة الطريق؛ وكان يُظهر براعته ورضاه فيرفع قائمة خلفية وينطنط على القوائم الثلاث الأخرى، ثم على الأربع مرة أخرى، وينقضّ، وهو ينبح، على الغربان التي حطت فوق الجيف. كان سيريي أعظم مرحاً وصحة مما كان عليه في موسكو. كان اللحم في كل الجهات، لحم مختلف الحيوانات - بدءاً من لحم الإنسان إلى لحم الخيل - في مختلف أطوار التفسخ. أما الذئاب فكان مرور الرجال يبقيها بعيدة، بحيث استطاع «سيريي» أن يرتع كما يشتهي.

كان المطر يهطل منذ الصباح، وكان يبدو أنه سينقطع بين لحظة وأخرى، وأن السماء ستنجلي، إلا أن المطر كان لا يلبث أن يعود إلى انهمار أشد بعد هدأة قصيرة. وعجزت الطريق المشبعة بالماء عن امتصاص المطر فسالت السواقي في الأخاديد.

كان بطرس يسير وهو يتلفت حوله، ويعد على أصابعه خطواته ثلاثاً

ثلاثاً. وكان يردد في نفسه مخاطباً المطر: هيا انهمرْ، انهمر أيضاً، وأيضاً أقوى.

كان يظن أنه لا يفكر في شيء: لكن نفسه، في مكان ناء، في الأعماق، كانت تفكر في شيء مهم ومعزّ. كان هذا الشيء نتيجَةً في غاية اللطف أوحت بها محادثته مساء أمس مع كاراتايف.

ففي مساء أمس، في مرحلة الليل، أخذ بطرس يرتعد قرب النار الخامدة، فنهض وذهب إلى نار مجاورة أشد التهاباً. كان أفلاطون جالساً أمام النار، مغطى من رأسه إلى قدميه بمعطفه وكأنه حلة القّداس، يقص على الجنود بصوته الصافي، العذب، وإن أضعفه المرض، قصة يعرفها بطرس. مضى نصف الليل. وكانت هذه هي الساعة التي تنتابه فيها نوبةُ الحمى فينتعش انتعاشاً شديداً. وعندما اقترب بطرس من النار، وسمع صوتَ أفلاطون الضعيف المريض، ورأى وجهه الذي يدعو إلى الرثاء وقد أضاءه اللهب بشدة، أحسّ بصدمة مزعجة في قلبه، وأرعبته الشفقةُ التي استشعرها تجاه هذا الرجل، وأراد أن ينصرف، لكنْ لم يكن هناك نارٌ أخرى فجلس وهو يجهد في ألا ينظر إلى أفلاطون.

وسأل:

– وكيف صحتك؟

أجاب أفلاطون

– صحتي؟ إذا شكا المرءُ مرضه، لم يمنحه اللهُ الموت.

واستأنف، على الفور، قصته التي بدأها من قبل، وعلى وجهه الناحل، الشاحب ابتسامةٌ، وفي عينيه بريق خاص من الفرح: «وها إن عشر سنوات، يا صديقي العزيز.».

كان بطرس يعرف هذه القصة منذ زمن طويل، فقد رواها كاراتايف له وحده خمس مرات أو ست مرات، بشعور خاص من الفرح في هذه المرات جميعاً. لكنه راح يصغي إليها، مع معرفته لها، وكأنها شيء جديد، وانتقلت إليه الحماسةُ الهادئة التي كان يشعر بها كاراتايف وهو يروي قصته. وتدور القصة حول تاجر شيخ كان يعيش مع أسرته بكرامة وبتقوى الله، فقصد ذات يوم مع رفيق له، وهو تاجر غني، إلى معرض ماكاريفو[1].

نزل التاجران في نزل، وناما، وفي اليوم التالي عثر على التاجر الغني مذبوحاً ومسلوباً، وعُثر على سكين ملطخ بالدم تحت وسادة التاجر الشيخ. فحوكم التاجر الآخر وجُلد، وبعد أن انتُزع منخراه، كما يقتضي الأمرُ، على حد قول كاراتايف، أرسل إلى السجن.

—وها إن عشر سنوات، يا صديقي العزيز، (في هذه اللحظة من الحكاية وصل بطرس)، تنقضي، أو أكثر، والشيخ يعيش في السجن، خاضعاً كما يقتضي الأمرُ، دون أن يسيء في شيء، يسأل الله الموت فقط. طيب. وإذا بالمساجين يجتمعون ذات ليلة، كما نفعل نحن هنا، والشيخ معهم. وساقهم الحديثُ إلى أن يَرْووا بعضهم لبعض لم جاؤوا إلى السجن، وما الذنب الذي اقترفوه أمام الله. أخذوا يروون إذن. فهذا في ذمته نفس، وذاك، في ذمته نفسان، والثالث أشعل حريقاً، والرابع فارٌّ، وهو هنا هكذا، بدون ذنب. وسُئل الشيخُ، وأنت أيها الجد لماذا تقاسي هذا العقاب؟ فقال: «أنا، يا إخوتي الأعزاء، أنا أتألم لخطاياي وخطايا الآخرين. لكني لم أقتل أحداً ولم أسرق مال غيري، وكنتُ دائماً أعطي السائلين. أنا، يا إخوتي الأعزاء، تاجر؛ أملك ثروة عظيمة.

١— معرض ماكاريفو: أكبر معرض في أوروبا كان يقام كل سنة قرب دير ماكاريفو، غير بعيد عن ينجني نوفغورود، وقد نقل في ١٨١٧ إلى هذه المدينة.

ودونكم ما وقع لي. ثم قصّ عليهم كل ما جرى، بالترتيب. وقال لهم: لست حزيناً على نفسي. ذلك أن الله اختارني. هناك شيء واحد: إنني أرثي لعجوزي وأولادي. ثم أخذ يبكي، ذلك الشيخ. لكنْ، إذا بالقاتل الذي قتل التاجر بين أفراد هذه الجماعة. فيسأل: أين وقع هذا يا جدي؟ ومتى. وفي أي شهر؟ ويستوضح عن كل شيء. ويؤلمه قلبه ويدنو هكذا من الشيخ ويرتمي عند قدميه. «إنك إنما تتألم مكاني أيها الشيخ؛ إنها الحقيقة الخالصة؛ هذا الرجل، أيها الرفاق، إنما يتألم بغير حق. أنا الذي قتل التاجر ودس السكين تحت وسادتك بينما كنت تنام. اغفرْ لي، يا جدي، من أجل المسيح».

صمت كاراتايف وهو يبتسم بفرح وأصلح عيدان الحطب وعيناه تحدّقان في النار.

– عند ذاك قال الشيخ: «ليغفر الله لك، أما نحن، فنحن جميعاً خطاة أمام الله، وأنا أتألم لخطاياي الخاصة.» وأخذ يذرف الدموع السخان.

وتابع كاراتايف كلامه وقد أشرق وجهه بابتسامة كانت تزداد وضوحاً، وكأن ما سيرويه الآن يحتوي على كل ما في القصة من سحر ومغزى:

– وما رأيك، يا صقري الصغير، ما رأيك، يا صقري، لقد اعترف هذا القاتل بجريمته للسلطات. قال: «لقد قتلت ستة أشخاص (كان مجرماً كبيراً) لكن أكثر ما يؤلمني، هو هذا الشيخ. فليكفّ عن البكاء بسبب جريمتي. وشرح كل شيء: فسُجّل وأُرسلت الأوراق إلى حيث يجب أن تُرسل. وطال الوقت، فالمكان بعيد، والحكم يحتاج إلى زمن، وكذلك تنظيم الأوراق بحسب الأصول، من سلطة إلى أخرى.

ووصلت القضية إلى القيصر. وأخيراً وصل أمر من القيصر ينص على إطلاق سراح السجين وإعطائه التعويض المحدّد. ويصل الأمر، ويجري البحث عن الشيخ. أين ذلك الشيخ الذي تألم بغير حق، مع أنه كان بريئاً. هناك أمر من القيصر. وجرى البحثُ عنه. -وارتجف فك كاراتايف الأسفل-. لكن الله كان قد غفر له. لقد كان ميتاً.

وختم كاراتايف كلامه بقوله: هذه هي قصتي، أيها الصقر الصغير. وظل يبتسم بصمت زمناً طويلاً. محدّقاً فيما أمامه.

لم تكن هذه القصة بذاتها هي التي كانت تملأ نفس بطرس الآن، وإنما الذي كان يملؤها، على نحو مشوَّش وفَرِح، هو معنى القصة الخفّي، هو هذا الفرح العارم الذي كان يضيء وجه كاراتايف حينما كان يروي قصته، هو المعنى الخفي لذلك الفرح.

***

الفصل الرابع عشر

صرخ صوتٌ على حين غرة: «إلى أماكنكم!».

فحدث بين الأسرى والحراس اضطرابٌ فَرِحٌ وتوقعٌ لشيء سعيد ورسمي. وتعالت الأوامرُ من كل جانب، وإلى اليسار، ظهر فرسان في أحسن تجهيز، على خيل حسان، وتجاوزوا الأسرى خبباً. واكتست الوجوهُ ذلك التعبير المتوتر الذي يُرى عند اقتراب رجال السلطات العليا. وتكتل الأسرى في جماعة، ودُفعوا إلى خارج الطريق؛ واصطف الحرسُ.

– الإمبراطور! الإمبراطور! المارشال! الدوق!

وما إن مرّ جنود الحرس الذين دلت هيئاتهم على حسن التغذية، حتى أقبلت مركبة تجرها أربعة جياد شهب وحوذيان، مخلّفة وراءها قرقعة عظيمة. ولمح بطرس، في مدى لحظة، وجهاً جميلاً، هادئاً، أبيض، سميناً، وجه رجل على رأسه قبّعة مثلثة القرون[1]. لقد كان أحد المارشالات. توقف نظرُ المارشال على شخص بطرس الضخم، وخُيّل إلى بطرس أنه قرأ، في تعبير وجهه الذي رافق تقطيبه لحاجبيه وإشاحته بوجهه، شيئاً من الشفقة والرغبة في إخفائها.

١– مثلثة القرون: كانت تسمى القبعات العالية التي يلبسها الجنرالات في هذا العصر بكلمة روسية من القرن الثامن عشر «تريوغولكا»: مثلثة القرون، مع أنه لم يكن لها سوى قرنين.

وكان الجنرال الذي يقود القافلة، يجري خلف المركبة، أحمر الوجه، خائفاً، وهو يحث جواده الهزيل. وشكل بعض الضباط جماعة وأحاط بهم الجنود. ونمّت الوجوه جميعاً على الانفعال والتوتر.

سمع بطرس:

– ماذا قال؟ ماذا قال؟

أثناء مرور المارشال تجمّع الأسرى وشاهد بطرس كاراتايف ولم يكن قد رآه بعد في هذا الصباح. كان كاراتايف جالساً في معطفه الزريّ، مستنداً إلى شجرة بتولة. وكان وجهه يشع بمهابة وديعة، فضلاً عن تعبير التحنن الفرح الذي اكتساه وجهه ليلة أمس وهو يروي قصة آلام التاجر البريء.

راح كاراتايف ينظر إلى بطرس بعينيه الوادعتين، المدورتين، المغرورقتين بالدموع، وكأنه يدعوه ليقول له شيئاً ما. لكن بطرس كان شديد الخوف على نفسه، فتظاهر بأنه لم ير نظرته وابتعد على عجل.

عندما استأنف الأسرى سيرهم، التفت بطرس إلى الوراء فرأى كاراتايف جالساً على حافة الطريق، مستنداً إلى شجرة البتولة؛ ورأى فرنسيين يتشاوران، وهما يقفان خلفه. لم يلتفت بطرس بعد ذلك. وصعد السفح وهو يظلع.

في الخلف، في الموضع الذي كان كاراتايف جالساً فيه، دوّت طلقة نارية. سمع بطرس الطلقة بوضوح، وفي اللحظة نفسها التي سمعها فيها تذكّر أنه لم ينته من حساب المراحل الباقية حتى سمولنسك، وهو الحساب الذي بدأه قبل مرور المارشال. واستأنف العدّ. وإذا بجنديين فرنسيين يسبقانه وهما يركضان، وفي يد أحدهما بندقية مايزال الدخان

يخرج منها. كانا شاحبين، وكان في تعبير وجهيهما، وكان أحدهما قد ألقى نظرة وجلة على بطرس، شيء شبيه بما رآه لدى الجندي الشاب أثناء تنفيذ الإعدام. تطلع بطرس إلى الجندي وتذكر أنه أحرق قميصه، أول من أمس، وهو يجفّفه أمام النار، وأن الحاضرين سخروا منه.

أخذ الكلب يعوي في الخلف، في المكان الذي كان كاراتايف جالساً فيه. وفكر بطرس «يا له من غبي، لم يعوي؟».

و لم يلتفت أيضاً الجنود، ولا رفاقه الذين كانوا يسيرون إلى جنبه، إلى المكان الذي طلعت منه الطلقة النارية، ثم طلع منه عواء الكلب؛ لكن الوجوه جميعاً اكتست تعبيراً صارماً.

***

الفصل الخامس عشر

توقف المستودع والأسرى ومتاع المارشال في قرية شامشيفو. وازدحم الناس على النار. اقترب بطرس من نار مشعلة، وأكل قطعة من لحم الخيل، واستلقى وظهره إلى النار، وما لبث أن أغفى. كان ينام مرة أخرى كنومته في موجايسك، بعد بورودينو.

ومرة أخرى، تختلط الأحداثُ الواقعية بالحلم، ومرة أخرى يُلقي إليه أحدُهم، هو أو غيره، أفكاراً، هي الأفكار نفسها التي أتته في موجايسك.

الحياة كل الحياة هي الله. كل شيء ينتقل ويتحرك وهذه الحركة هي الله. ومادام هناك حياة، فسيظل هناك الفرح بالوعي الحميم للألوهية. حب الحياة هو حب الله. أصعب الأشياء وأحقها بالتقدير هو أن نحب هذه الحياة بآلامها، آلامها غير المستحقة.

وتذكر بطرس «كاراتايف»..

وفجأة رأى بطرس أمامه الشيخ الوديع الذي نسيه منذ زمن طويل والذي كان يعلمه الجغرافية في سويسرا، وكان حياً. قال له الشيخ: «انتظر». وأراه كرة أرضية. كانت الكرة حية، متحركة، بدون أبعاد. وكان سطحها كله يتألف من قطرات من الماء مرصوصة بعضها إلى بعض رصاً وثيقاً. وكانت هذه القطرات تتحرك، وتنتقل، فتارة تنصهر

عدةُ قطرات في واحدة، وتارة أخرى تنقسم قطرةٌ واحدة إلى قطرات كثيرة. وكانت كل قطرة تسعى إلى أن تنبسط، إلى أن تشغل أكبر حيّز ممكن، لكن القطرات الأخرى كانت تسعى إلى مثل ذلك فتضغط عليها، وقد تمتصها، وقد تختلط بها.

قال الأستاذ الشيخ:

– هذه هي الحياة:

وفكّر بطرس:

– ما أبسط ذلك وما أوضحه. كيف لم أتمكن من معرفته قبل الآن؟

قال الأستاذ:

–في المركز اللهُ، وكل قطرة تسعى إلى أن تمتدّ لتعكسه في أعظم أبعادها. وهي تكبر، وتنتشر، وتضيق، وتختفي على السطح، وتنزل إلى القاع، وتطفو مرة أخرى. هوذا كاراتايف، لقد انتشر واختفى. هل فهمتَ، يا بنيّ.

وصرخ صوت:

– هل فهمتَ، يا فتى!

فاستيقظ بطرس.

نهض وجلس. كان، أمام النار، فرنسي يجلس القرفصاء، كان قد طرد جندياً روسياً عنها، وقد شمّر عن كميه وأخذ يشوي قطعة من اللحم على طرف قضيب البندقية. وكانت يداه الحمراوان، الكثيفتا الشعر، بعروقهما الناتئة، وأصابعهما القصيرة، تديران القضيب بحذق. واستنار وجهه الأسمر الكالح، ذو الحاجبين المقطبين، بضوء الجمر.

ودمدم وهو يستدير بشدة نحو جندي وقف خلفه:

– سيان عنده، أيها اللص، أذهب!

ألقى نظرة كالحة على بطرس. فأعرض عنه بطرس، وأخذ يتفحصّ الظلمة بعينيه. كان الجندي الروسي الأسير الذي طرده الفرنسي جالساً قرب النار، يمر بيده على شيء قربه. وحين تطلع بطرس عن كثب، عرف الكلب الصغير البنفسجي الذي أقعى قربه وهو يحرك ذيله.

قال بطرس:

– آه! عدتَ؟ آه! أفلا...

ولم يتمّ كلمته. فقد انبعثت في خياله وتشابكت، فجأةً، وفي آن معاً، ذكرى النظرة التي ألقاها عليه أفلاطون وهو جالس تحت الشجرة وذكرى الطلقة النارية التي سمعها في هذا الموضع، وذكرى عواء الكلب، وذكرى الوجهين المذنبين، وجهي الفرنسيين اللذين سبقاه ركضاً، والبندقية المدخنة، وغياب كاراتايف في هذه المرحلة، وأوشك أن يدرك أن كاراتايف قد قتل، ولكن، في اللحظة ذاتها، إذا بذكرى تنبعث في نفسه، ولا يعلم إلا الله من أين جاءت، ذكرى سهرة قضاها، ذات صيف، مع بولونية جميلة على شرفة بيتها في كييف. وأغمض بطرس عينيه، دون أن يتمكن من ربط ذكريات النهار بعضها ببعض، ودون أن يستخلص منها نتيجة من النتائج، واتحدت لوحةُ الطبيعة الصيفية بذكرى استحمامه، وبالكرة الأرضية المائعة والمتحركة، وغاص في الماء، في مكان لم يثبته، وأوغل في غوصه إلى أن أطبق الماء على رأسه.

قبل طلوع الشمس أيقظه الصخب وتراشق بالبنادق عنيف ومتصل. ومرّ أمام بطرس فرنسيون يركضون، وصرخ أحدهم:

- القوزاق!

وبعد لحظة أحدق ببطرس حشدٌ من الوجوه الروسية.

ظل زمناً طويلاً دون أن يدرك ما يجري. كان يسمع صيحات الفرح يطلقها رفاقه من كل جانب.

كان الجنود القدماء يصيحون باكين وهم يضمون إليهم القوزاق والفرسان:

- أيها الأخوة! أيها الرفاق والأصدقاء!

وأحاط القوزاق بالأسرى وقدّموا لهم ما يشاؤون من الثياب والأحذية والخبز. أخذ بطرس ينتحب، وهو جالس بينهم، عاجزاً عن أن يتلفظ بكلمة؛ وعانق أول جندي اقترب منه وقبّله وهو يبكي.

وقف دولوخوف أمام بوابة البيت المتهدّم، وأخذ يستعرض جمهور الفرنسيين الذين جُرّدوا من سلاحهم. وكان هؤلاء يتكلمون، من جراء اضطرابهم لما جرى لهم، بصوت عال؛ لكنهم كانوا يكفون عن الحديث إذا ما مروا أمام دولوخوف الذي كان يضرب جزمته بالسوط ضربات خفيفة، ويتأملهم بنظرته الباردة، المستغلقة التي لا تبشر بخير. وكان تابع دولوخوف القوزاقي يقف في الجهة الأخرى ويُحصي الأسرى مشيراً إلى كل مئة بخط يخطّه بالحوار على البوابة.

سأله دولوخوف:

- ما العدد؟

أجاب القوزاقي:

- صرنا في المئة الثانية.

وكان دولوخوف يكرر كلمة تعلّمها من الفرنسيين:

- أسرعوا، أسرعوا.

فإذا لاقت نظرته نظرات الأسرى الذين يمرون أمامه اشتعلت ببريق وحشي.

كان دينيسوف يسيرُ، كالح الوجه، عاري الرأس خلف القوزاق الذين حملوا جثمان بيتيا روستوف إلى حفرة حفروها في الحديقة.

***

الفصل السادس عشر

بدءاً من ٢٨ تشرين الأول، ومع بداية البرد القارس، ما انفك هرب الفرنسيين يتخذ طابعاً موغلاً في مأساويته، من الرجال الذين كانوا يتجمدون أو يصطلون حتى الموت بنيران المعسكر، إلى الإمبراطور، والملوك والدوقات الذين كانوا يتابعون سفرهم بمعاطف الفرو، في عربات محملة بـالأرزاق المنهوبة؛ لكن مسار هرب الجيش الفرنسي وتفككه لم يصبه، في حقيقة الأمر، أيّ تغيّر منذ الرحيل عن موسكو.

وبين موسكو وفيازما، لم يبق من ثلاثة وسبعين ألف رجل من الجيش الفرنسي، باستثناء الحرس (الذي لم يفعل شيئاً طوال الحرب غير النهب)، سوى ستة وثلاثين ألفاً (ومن ذلك العدد لم يسقط في القتال أكثر من خمسة آلاف). هذا هو أول حد من المتوالية يحدّد بدقة حسابية المتواليات الآتية.

لقد ذاب الجيش الفرنسي وتلاشى بالنسبة نفسها من موسكو إلى فيازما، ومن فيازما إلى سمولنسك، ومن سمولنسك إلى البيريزينا، ومن البيريزينا إلى فيلنا، بغض النظر عن البرد المتفاوت الشدة، وعن مطاردة الروس، وعن العقبات المعترضة في الطريق، وعن الظروف التي ينظر إليها بمعزل عن غيرها. إن الجند الفرنسيين، بعد فيازما، ارتصوا في جماعة واحدة، بدلاً من أن يشكلوا ثلاثة أرتال، وساروا على هذا

النحو إلى النهاية. وقد كتب بيرتييه إلى امبراطوره ما يلي (ونحن نعلم مدى ما يستجيزه القادة من انحراف عن الحقيقة وهم يصفون وضع الجيش):

«أرى من واجبي أن أطلع جلالتكم على وضع جنده في مختلف قطعات الجيش التي أتيح لي أن ألاحظها منذ يومين أو ثلاثة في مراحل شتى. فهم مشتتون تقريباً. وعدد الذين يسيرون في الصفوف النظامية لا يتجاوز الربع على الأكثر في جميع الأفواج. أما الآخرون فيسيرون منفردين في وجهات شتى، من تلقاء أنفسهم، أملاً بالعثور على ما يقيم أودهم، وتخلّصاً من الانضباط. وهم، على العموم، يعتبرون أن سمولنسك هي النقطة التي ينبغي أن ينتظموا فيها مرة ثانية. وقد لوحظ، في هذه الأيام الأخيرة، أن كثيراً من الجند يلقون بطلقاتهم وأسلحتهم. وفي هذه الظروف، تقتضي مصلحة خدمة جلالتكم، ومهما تكن وجهات نظركم اللاحقة، أن يُجمع الجيش في سمولنسك وأن يبدأ بالتخلص من غير المقاتلين كالذين فقدوا جيادهم، ومن المتاع الذي لا خير فيه، ومن عتاد المدفعية الذي لا يتناسب مع القوى الحالية. وفضلاً عن ذلك فمن الضروري توزيع المؤونة، في أيام الاستراحة، على الجنود الذين أنهكهم الجوع والتعب؛ وكثير منهم ماتوا في الأيام الأخيرة على الطريق وفي المعسكرات. وهذه الحالة آخذة بالتفاقم وتحمل على الخوف من أننا إذا لم نقدم الدواء العاجل، فسوف نفقد السيطرة على الجند في القتال. في التاسع من تشرين الثاني. على ثلاثين فرسخاً من سمولنسك».

عندما دلف الفرنسيون إلى قلب سمولنسك التي بدت لهم كالجنة الموعودة، تقاتلوا وهم يتخاطفون المؤن، ونهبوا مخازنهم ذاتها، حتى إذا نهبوا كل شيء فروّا وأوغلوا في الفرار.

كانوا جميعاً يسيرون دون أن يعلموا إلى أين يسيرون ولماذا. وكان نابليون بعبقريته أقل الناس علماً بذلك، لأنه لم يكن يتلقى أوامره من أحد. ومع ذلك فقد ظلّ، هو ومن يُحيط به، يجرون على عاداتهم القديمة: كانت تُحرَّر التعليمات والرسائل والتقارير والأوامر اليومية؛ ويخاطب بعضهم بعضاً بـ «مولاي»، «ابن عمي»، «أمير ايكموهل»، «ملك نابولي»، الخ. لكن الأوامر والتقارير كانت حبراً على ورق، لأنها لم تكن قابلة للتنفيذ، وبالرغم من ألقاب الجلالة، والسمو، وابن العم، التي كانوا يتبادلونها، فقد كانوا يحسون جميعاً أنهم أنذال، جديرون بالرثاء، وأنهم اقترفوا كثيراً من الشر الذي ينبغي أن يدفعوا ثمنه الآن. كان كل واحد لا يفكر إلا في نفسه، وفي إمكان الانصراف والنجاة بجلده بأسرع ما يمكن، وإنْ تظاهر بالاهتمام بالجيش.

***

الفصل السابع عشر

إن تحركات الجيشين الروسي والفرنسي أثناء الانسحاب من موسكو إلى النييمين تشبه لعبة الاستغماية التي يلعب فيها لاعبان عُصبت عيونهما، فيحرّك أحدهما من حين إلى آخر جرساً صغيراً لينبئ بوجوده الشخص الذي يطارده. وهو، في البداية، يحرك الجرس دون خوف، لكنه يسعى جهده، عندما تسوء الأمور بالنسبة إليه، ألا يثير ضجة، ويهرب من خصمه، وغالباً ما يرتمي مباشرة بين ذراعيه، وهو يظن أنه يهرب منه.

كانت جيوش نابليون، في البداية، تنبئ بوجودها، كان ذلك أثناء المرحلة الأولى من السير على طريق كالوجا. لكن، ما إن وافت طريق سمولنسك حتى أخذت تركض وهي تمسك مقرعة الجرس بيدها، وكانت غالباً ما تمضي رأساً إلى الاصطدام بالروس، وهي تظن أنها تهرب.

وبالنظر إلى سرعة فرار الفرنسيين ومطاردة الروس لهم وما ينجم عن ذلك من إنهاك الخيل، وهي الوسيلة الرئيسية لمعرفة موقع الجيش العدو تقريباً، فإن استطلاعات الخيّالة كانت معدومة. وفضلاً عن ذلك، فبسبب التغييرات السريعة الكثيرة في موضع الجيشين، لم يعد ممكناً أن تصل المعلومات، أيا كانت، في الوقت المناسب. فإذا علم أحد الجيشين

في الثاني من الشهر أن الجيش العدو يحتل موضع كذا في الأول من الشهر، ففي الثالث من الشهر، عندما يستطيع ذلك الجيش أن يقوم بعمل ما، يكون الجيش العدو قد قطع مرحلتين واحتل موقعاً آخر.

كان هناك جيش يهرب وآخر يطارده فعند الانطلاق من سمولنسك، كان أمام الفرنسيين عدةُ طرقات؛ وقد يبدو أنه كان يمكن للفرنسيين، بعد توقف دام أربعة أيام، أن يعلموا أين العدو، وأن يضعوا خطة فعالة ويشرعوا بشيء جديد.

لكن، بعد هذه الأيام الأربعة من التوقف، اندفعت جموعهم من جديد لا إلى اليمين، ولا إلى اليسار، لكنها اندفعت دون أية مناورة أو خطة، على الطريق القديمة، أسوأ الطرقات جميعاً، طريق كراسنوي وأورشا[1]، على الدرب المدهوكة.

كان الفرنسيون ينتظرون العدو خلفهم لا أمامهم، فكانوا يفرون وهم ينتشرون تاركين بينهم مسافات تُقدّر بأربع وعشرين ساعة سير. وفي المقدمة كان يفرّ الإمبراطور، ثم الملوك، ثم الدوقات. أما الجيش الروسي الذي اعتقد أن نابليون سينعطف إلى اليمين ليجتاز الدنيبر، وهو الشيء الوحيد المعقول، فقد انحرف هو أيضاً إلى اليمين ودلف إلى طريق كراسنوي الكبيرة وهنا اصطدم الفرنسيون بمقدمتنا، كما هي الحال في لعبة الاستغماية. وحين اكتشف الفرنسيون العدو بغتة، فقدوا رباطة جأشهم، وتوقفوا، واستولى عليهم ذعرٌ مفاجئ، لكنهم ما لبثوا أن استأنفوا سيرهم، تاركين رفاقهم الذين كانوا يتبعونهم. هنا، ظلت التشكيلات الفرنسية تمرّ، الواحدة تلو الأخرى، طوال ثلاثة أيام،

١- كراسنوي واورشا: مدينتان من مدن المقاطعات على الدرب الذاهبة من سمولنسك إلى الغرب، إلى بوريسوف ومينسك.

بين صفوف الروس. مرّ أولاً فيلق نائب الملك، ثم فيلق دافو، ثم فيلق «ني». لقد تخلّى بعضهم عن بعض، وتخلوا جميعاً عن متاعهم، وعن المدفعية، وعن نصف رجالهم، وتابعوا فرارهم، وهم يدورون حول الروس، في الليل فقط، وإلى اليمين.

ولقد هُرع «ني» الذي جاء في المؤخرة لأنه تأخر في نسف جدران سمولنسك التي لم تكن تضايق أحداً (لقد كانوا، بالرغم من وضعهم المزري، أو على وجه الدقة، بسبب هذا الوضع، يريدون أن يعاقبوا الأرض التي آذتهم وهم يقعون عليها(هُرع «ني» الذي كان يسير في المؤخرة بفيلقه المؤلف من عشرة آلاف رجل، إلى جوار نابليون بألف رجل فقط، بعد أن ترك جنده ومدافعه وانسلّ خلسة خلال الغابات كي يجتاز الدنيبر.

ومن أورشا تابعوا فرارهم نحو فيلنا، وهم يلعبون لعبة الاستغماية مع الجيش الذي كان يتبعهم. وفي البيريزينا[1] وقعت البلبلة مرة أخرى؛ فكثيرون غرقوا، وكثيرون استسلموا، لكن الذين استطاعوا أن يجتازوا النهر تابعوا جريهم إلى الأمام. وقد ارتدى قائدهم الأعلى معطف الفرو، وصعد إلى زلاجة، ومضى وحده بأقصى سرعته، تاركاً رفاقه. فذهب منهم من استطاع أن يذهب، ومن لم يستطع استسلم أو مات.

***

١- البيرديزينا: رافد أيمن للدينيبر، وتقطعه الطريق الذاهبة من سمولنسك إلى منسك في بوريسوف. وفيها مرت بقايا الجيش العظيم من ٢٦ إلى ٢٨ تشرين الثاني سنة ١٨١٢ محبطة خطط المارشال تشيتشاغوف الذي كان ينوي أن يسد عليهم الطريق.

الفصل الثامن عشر

قد يبدو أنه بسبب هذا الفرار بالذات من جانب الفرنسيين، في حين أنهم كانوا يفعلون كل ما يمكن أن يؤدي إلى هلاكهم، وفي حين لم يكن لأية حركة من حركات هذه الجماعة، بدءاً من الانعطاف على طريق كالوجا حتى هرب قائد الجيش، أيُّ معنى من المعاني، قد يبدو، في هذه المرحلة من الحملة على الأقل، أنه من المستحيل، على المؤرخين الذين ينسبون عمل الجماهير إلى مشيئة رجل واحد، أن يظلوا أوفياء لمفاهيمهم وهم يصفون هذا الإنسحاب. كلا. بل إن جبالاً من الكتب كتبها المؤرخون عن هذه الحملة، وكلها تشيد بأوامر نابليون، وبعمق خططه، وبمناورات جيشه، وبتوجيهات مارشالاته العبقرية.

إن انسحاب نابليون، بدءاً من مالو إياروسلافتز، في الوقت الذي تُركت له فيه حرية المرور نحو مقاطعة وافرة الموارد، وفي الوقت الذي فُتحت له فيه تلك الطريق الموازية التي طارده عليها كوتوزوف فيما بعد، إن هذا الإنسحاب العقيم على طول طريق مخرّبة قد فسرّته لنا اعتبارات عميقة شتى. واستناداً إلى هذه الاعتبارات العميقة كلها إنما يصف لنا المؤرخون انسحابه من سمولنسك إلى اورشا. ثم يصفون لنا بطولته في كراسنوي حيث كان يستعد، على ما قيل، لقبول المعركة ولقيادتها بنفسه، وحيث كان يتنزه وهو يحمل بيده عصاً من البتولة ويقول:

- لقد عملتُ امبراطوراً بما فيه الكفاية، وحان الوقتُ لأعمل قائداً.

وبالرغم من ذلك، فلم يلبث أن استأنف هربه تاركاً فلول جيشه المفككة التي كانت خلفه بيد القدر.

ثم يصف لنا المؤرخون نُبل مارشالاته ولاسيما «ني»، وهو نبلٌ قوامه أنه انعطف، في الليل، عبر الغابة ليقطع الدنيبير وليُهرع إلى اورشا بدون أعلام، وبدون مدفعية، وبدون تسعة أعشار رجاله.

وأخيراً فإن الرحيل الأخير للإمبراطور العظيم وهو يترك جيشه البطولي، قد صوره المؤرخون على أنه سمة من سمات العظمة والعبقرية. فحتى هذا الفعل الأخير، وهو الفرار الذي يُدعى في لغة البشر منتهى العار، هذا الفعل الذي نُعلّم كل طفل أن يخجل منه، يجد تسويغاً له في لغة المؤرخين.

وعندما يتعذّر على المؤرخين أن يمدوا خيط المحاكمات التاريخية مدّاً أطول، وهو خيط شديد المرونة، وعندما يكون الفعل متعارضاً تعارضاً صارخاً مع كل ما تسميه الإنسانية خيراً بل وعدلاً، فإنهم يلجؤون إلى مفهوم العظمة الذي يُنقذ كل شيء. ويبدو أن العظمة تنفي معيار الخير والشر. فمن كان عظيماً امتنع على الشر. وليس من فظاعة يمكن أن يُجرَّم بها من كان عظيماً.

يقول المؤرخون: «هذا عظيم!»، ومنذ ذلك الحين ينعدم الخير والشر، ويبقى ما هوعظيم وما ليس عظيماً. فما هوعظيم خيرٌ، وما ليس عظيماً شر. والعظمة، عندهم، هي خاصية تلك الكائنات الفذّة التي تُسمى أبطالاً: إن نابليون يُحس، وهو يفرّ في معطفه الدافئ ليعود إلى بيته تاركاً للضياع، لا رفاقه وحدهم بل (وباعترافه هو نفسه) رجالاً ساقهم إلى هذا المكان، يحسّ أن هذا أمر عظيم، فتستريح نفسه.

«ليس بين الرفيع (إنه يرى شيئاً من الرفعة في نفسه) والمضحك سوى خطوة واحـدة[1]». هكذا قال نابليون. والعالم بأسره يكرر طوال خمسين سنة: «رفيع! عظيم! نابليون العظيم! ليس بين الرفيع والمضحك سوى خطوة واحدة!»

ولم يدر بخلد أحد أن التسليم بعظمة ما يخرج على مقياس الخير والشر ليس سوى تسليم بعدم تلك العظمة وبصغرها الذي لا سبيل إلى قياسه.

أما بالنسبة إلينا نحن الذين أعطاهم المسيح مقياس الخير والشر، فليس هناك شيء يخرج على هذا المقياس ولا عظمة حيث لا تكون البساطة والطيبة والحقيقة.

***

١ - «ليس بين الرفيع والمضحك سوى خطوة واحدة»: هذه الكلمات ينسبها الكتاب الروس إلى نابليون، ومنهم دوستويفسكي، ولعل ذلك بسبب ترجمة رديئة لمذكرات كولانكور الذي يتحدث عن الراهب براد سفير فرنسا في فارسوفيا. فقد استعمل هذا الأخير، وهو يروي حواره مع نابليون في كانون الأول سنة ١٨١٢، في بولونيا، استعمل هذه الجملة. لكنه هو الذي قالها لا نابليون.

الفصل التاسع عشر

أي روسي لم يشعر، وهو يقرأ وصف الفترة الأخيرة من حملة ١٨١٢، بإحساس مؤلم من الغيظ والخيبة والارتباك؟ ومَنْ ذا الذي لم يطرح على نفسه هذه الأسئلة: لَمَ لم يُؤسرْ جميعُ الفرنسيين، ولَمَ لم يُبادوا جميعاً، عندما كانت تطوقهم الجيوش الثلاثة المتفوقة عدداً، وعندما كان الفرنسيون المشتتون يموتون جوعاً وبرداً، ويستسلمون جماعات، وعندما كان هدفُ الروس (كما يروي لنا التاريخ) على وجه الدقة، أن يوقفوهم، وأن يقطعوا الطريق عليهم وأن يأسروهم جميعاً؟

وكيف جرى أن هذا الجيش الروسي قد خاض معركة بورودينو، وهو أقل من الفرنسيين عدداً، كيف جرى أن هذا الجيش الذي كان يحيط بالفرنسيين من جهات ثلاث، والذي كان هدفه أن يأسرهم، لم يبلغ هدفه؟ أمن الممكن أن يكون للفرنسيين مثل هذا التفوق الهائل علينا بحيث لم نستطع أن نغلبهم مع أننا طوقناهم بقوى أعظم.

يجيب التاريخ (أو ما يُسمى بهذا الاسم) عن هذه الأسئلة بقوله:

إن هذا حدث لأن كوتوزوف، وتورماسوف[1]، وتشيتشاغوف[2] وغيرهم لم ينفذوا هذه المناورة أو تلك.

لكنْ لماذا لم ينفّذوا كل هذه المناورات؟ وإذا كان الذنب في عدم بلوغ الهدف المنشود يقع على عاتقهم، فلماذا لم يُحاكموا و لم يُعاقبوا؟ وحتى لو سلمنا بأن الذنب في فشل الروس يقع على عاتق كوتوزوف وتشيتشاغوف الخ، فإننا لا نستطيع، مع ذلك، أن نفهم لماذا لم يعمد الروس، في الشروط التي كانت فيها الجيوش الروسية في كراسنوي والبيريزينا (كانت القوى الروسية متفوقة في الحالتين)، إلى أسر الجيش الفرنسي بمارشالاته وملوكه وامبراطوره، بما أن هذا هو الذي كان هدف الروس؟

إن تفسير هذه الظاهرة الغريبة بتأكيد أن كوتوزوف قد منع الهجوم (كما يفعل المؤرخون العسكريون الروس) لا أساس له، لأننا نعلم أن مشيئة كوتوزوف لم تستطع أن تمنع الجيش من الهجوم في فيازما وتاروتينو.

١- تورماسوف: الكسندر بيتروفيتش تورماسوف (١٧٥٢-١٨١٩) جنرال في الخيالة، قائد الجيش في القوقاز في ١٨٠٨، قائد الجيش الثالث المدافع عن جنوب روسيا في ١٨١٢، وصل في تشرين الثاني ١٨١٢ إلى درب منسك ليسد الطريق على نابليون، لكنه لم ينجح في ذلك. وفي كانون الأول عهد إليه المارشال كوتوزوف، وقد مرض، بالقيادة العامة لفترة من الزمن. منح لقب كونت سنة ١٨١٦.

٢- تشيتشاغوف: الأميرال بولس تشيتشاغوف (١٧٦٥-١٨٤٩)، وزير البحرية في (١٨٠٧-١٨١١)، قائد أسطول البحر الأسود وجيش الدانوب في ١٨١٢. وقد جاء على رأس هذا الجيش من مولدافيا، وكان عليه أن يقطع خط الرجعة على نابليون في بوريسوف وأن يأسره، لكنه لم ينجح. وقد اتهم تقريباً بالخيانة العظمى، فترك روسيا إلى الأبد في ١٨١٤ وكتب في فرنسا مذكراته ليبرئ نفسه.

لماذا انتصر الجيشُ الروسي في بورودينو، بقوى أدنى، على عدو في كامل قوته، وهُزمت في كراسنوي والبيريزينا، قوةٌ متفوقة، على يد فلول الفرنسيين المنهزمة؟

إذا كان هدف الروس يقوم على قطع طريق التراجع على نابليون، وأسره مع مارشالاته، وإذا لم يكن بلوغ هذا الهدف ممتنعاً فحسب بل كانت المحاولات المبذولة في هذا الاتجاه قد حُطِّمت على نحو أشد ما يكون إزراء، فإن الفترة الأخيرة من الحملة تغدو حينئذ بحقٍ سلسلةً من الانتصارات كما عرضها الفرنسيون، ويخطئ الروس كلَ الخطأ حين يعرضونها باعتبارها فترة مظفّرة.

إن المؤرخين العسكريين الروس يصلون، في الحدود التي يكون فيها المنطقُ ملزماً لهم، إلى النتيجة نفسها بالرغم منهم، وبالرغم من الجمل الطنانة عن البسالة والإخلاص الخ... إنهم مضطرون بالرغم منهم إلى أن يُقرّوا بأن انسحاب الفرنسيين ابتداءً من موسكو هو سلسلة من الانتصارات لنابليون وسلسلة من الهزائم لكوتوزوف.

لكن، حين نترك جانباً الكبرياء القومية، نحس أن هذه النتيجة تحمل في ذاتها تناقضاً، لأن سلسلة انتصارات الفرنسيين قادتهم إلى الدمار الكلي، في حين أن سلسلة هزائم الروس قادتهم إلى الإبادة الكلية للعدو وإلى تحرير وطنهم.

ومصدر هذا التناقض يكمن في أن المؤرخين الذين يدرسون الأحداث بناء على مراسلات الملوك والجنرالات، وبناء على الأخبار والتقارير، الخ...، توهّموا هدفاً خاطئاً لهذه الفترة الأخيرة من حرب ١٨١٢، هدفاً لم يوجد قط، هدفاً زعموا أنه يقوم على قطع طريق التراجع على نابليون وعلى أسره مع مارشالاته وجيشه.

هذا الهدف لم يوجد قط وما كان يمكن أن يوجد، إذ لم يكن له أي معنى، أولاً لأن جيش نابليون المنهزم كان يهرب من روسيا بكل السرعة الممكنة، أي أنه كان يفعل ما كان يمكن أن يتمناه كل روسي. فلِمَ إذن القيام بعمليات ضد الفرنسيين الذين كانوا يفرون بأسرع ما يسعهم الفرار؟

ثانياً، لقد كان منافياً للعقل اعتراضُ سبيل رجال يكرسون كل طاقتهم للفرار.

ثالثاً، لقد كان منافياً للعقل التفريطُ بالرجال من أجل إبادة الجيش الفرنسي الذي كان يتلاشى بدون سبب خارجي، وبسرعة متزايدة حتى إنه لم يكن بوسعه أن يصل إلى الحدود بعدد أكبر مما وصل به في شهر كانون الأول، أي واحد على مئة من الجيش الكلي، وإن لم تعترضه أية عقبة خارجية.

رابعاً، لقد كان منافياً للعقل العملُ على أسر الإمبراطور والملوك والدوقات، وهم رجال كان أسرهم خليقاً أن يضايق الروس إلى أقصى حد، كما اعترف بذلك أبرع الدبلوماسيين في هذا العصر (دي ميستر وآخرون) وكان أكثر منافاة للعقل أن يعمد الروس إلى أسر قطعات فرنسية في حين أن جندنا قد ذاب نصفهم قبل كراسنوي وأنه كان ينبغي اقتطاع فرقة منهم لحراسة الأسرى، وفي حين أن جنودنا لم يكونوا يحصلون على جرايتهم الكاملة، وأن الأسرى الذين أُسروا من قبل كان الجوع يستأصلهم.

كل هذه الخطة المُعدة على نحو عميق والتي تقضي بقطع طريق التراجع على نابليون وبأسره مع جيشه، شبيهةٌ بخطة بستاني يريد أن يطرد الماشية التي تدوس مساكبه، فيركض إلى البوابة ويضرب هذه

الماشية على رؤوسها. والعذر الوحيد الذي يمكن أن يُحتج به للدفاع عن هذا البستاني هو هيجانه. لكننا لا نستطيع أن نقول الشيء نفسه عن واضعي هذا المشروع لأنهم ليسوا هم الذين قُدِّر لهم أن يتألموا من دوس المساكب.

ثم إن قطع طريق التراجع على نابليون لم يكن منافياً للعقل فحسب بل كان فوق ذلك مستحيلاً.

كان مستحيلاً، أولاً لأنه، كما أننا نعلم بالتجربة أن حركة الأرتال على مسافة خمسة فراسخ في معركة واحدة لا يتفق أبداً مع الخطط، فكذلك احتمال التقاء تشيتشاغوف وكوتوزوف وتغسنتين في ساعة ومكان محدّدين كان ضعيفاً إلى حدّ يعادل الاستحالة؛ وكذلك كان رأي كوتوزوف الذي قال منذ تلقيّه الخطة: إن إلهاء العدو على مسافات كبيرة لا يُعطي أبداً النتائج المتوقّعة.

وثانياً، إن ذلك كان مستحيلاً لأنه لكي يشل الروسُ المقاومة السلبية التي كان جيش نابليون ينسحب بموجبها، فقد كان يلزمهم عددٌ من الجند أكبر بما لا يقاس مما لديهم.

وثالثاً، إن ذلك كان مستحيلاً لأن المصطلح العسكري «قطع» لا معنى له. يمكننا قطع شريحة خبز، لا الجيش. فقطع الجيش، أي سدّ الطريق عليه، مستحيل، لأن هناك دائماً ما يكفي من المكان للالتفاف حول العائق، وهناك أيضاً الليل الذي لا سبيل إلى الرؤية فيه، وهو ما كان يمكن للعلماء العسكريين أن يقنعوا به، لو بمثالَي كراسنوي والبيريزينا. ومن جهة أخرى، فمن المستحيل أسر شخص دون موافقته، كما أن من المستحيل الإمساك بالسنونو، وإن كنا نستطيع أن نقبض عليه عندما يحطّ على يدنا. يمكن أسرُ الذين يستسلمون، كالألمان، وفقاً لقواعد

الاستراتيجية والتاكتيك. لكن الجيش الفرنسي لم يكن يرى، ورأيه الصواب، أية فائدة في الاستسلام، لأن نفس الموت جوعاً وبرداً كان ينتظره في الفرار والأسر.

ورابعاً، وعلى وجه الخصوص، إن ذلك كان مستحيلاً لأنه لم تجر حرب قط، منذ أن كان العالم عالماً، في شروط رهيبة كحرب ١٨١٢، ولأن الجيش الروسي قد بذل كل قواه وهو يطارد الفرنسيين، و لم يكن بوسعه أن يفعل أكثر من ذلك دون أن يدمّر نفسه بنفسه.

فقد الجيشُ الروسي، أثناء سيره من تاروتينو إلى كراسنوي، خمسين ألف رجل بين مريض ومتخلّف، أي أنه فقد عدداً مساوياً لسكان مركز كبير من مراكز الأقاليم. لقد استُبعد نصف الملاكات بدون قتال.

وعن هذه الفترة من الحملة، في حين كان الرجال الذين حُرموا الأحذية والمعاطف الدافئة، والمؤن الكافية، والكحول، ينامون شهوراً في الثلج وفي البرد الذي يبلغ خمس عشرة درجة[1]؛ وفي حين لم يكن النهار يمتد أكثر من سبع ساعات أو ثماني ساعات، ثم يخيم الليل فيما بقي من الوقت، ويغدو الانضباط بلا أثر؛ وفي حين لم يكن الرجال يعيشون كما هي الحال في المعركة، إذ يدخلون لبضع ساعات منطقة الموتَ التي ينعدم فيها النظامُ، وإنما هم يعيشون شهوراً طوالاً يصارعون في كل لحظة الموتَ جوعاً وبرداً؛ وفي حين تلاشى نصف الجيش في ظرف شهر، عن هذه الفترة بالذات يروي لنا المؤرخون كيف أن ميلورادوفيتش اضطر أن يقوم بالسير الجناحي في هذا الاتجاه، وتورماسوف في ذاك الاتجاه، بينما كان على تشيتشاغوف أن ينتقل إلى

١- كانت الحرارة تقاس بميزان (ريومور)، فالخمس عشرة درجة تعادل عشرين درجة تحت الصفر.

مكان كذا (أن ينتقل وهو يغوص في الثلج إلى ما فوق الركبة) وكيف أن فلاناً دحر العدو وقطع عليه الطريق، الخ... الخ.

إن الروس الذين مات نصفهم فعلوا كل ما كان يمكنهم وما كان يجب عليهم أن يفعلوه ليبلغوا هدفاً جديراً بالأمة، وليس ذنبهم أن روساً آخرين انتووا، وهم ينعمون بالدفء في بيوتهم، أن يفعلوا ما كان مستحيلاً.

كل هذا التناقض الغريب بين الواقعة والخبر التاريخي، وهو تناقض لا نجد اليوم إلى فهمه سبيلاً، يأتي فقط من أن المؤرخين الذين كتبوا عن هذا الحدث إنما كتبوا تاريخ المشاعر النبيلة والكلمات البليغة لمختلف الجنرالات، ولم يكتبوا تاريخ الوقائع.

وهم يجدون كلمات ميلورادوفيتش، والمكافآت التي نالها هذا الجنرال أو ذاك ومشاريعهم، مثيرةً للاهتمام العظيم؛ أما مسألة الخمسين ألف جندي الذين ظلوا في المشافي وفي القبور فلا تهمهم في شيء، لأنها ليست موضوعاً لدراستهم.

على أنه يكفي أن ننصرف عن دراسة التقارير والخطط الشاملة وأن نفحص حركة مئات آلاف الرجال الذين شاركوا مشاركة مباشرة وآنية في الحدث، حتى تلاقي جميعُ المسائل التي كانت تبدو حتى هذه اللحظة مستعصية على الحل، الحل المحقّق فجأة، وبسهولة وبساطة خارقتين.

إن الهدف القاضي بقطع خط التراجع على نابليون وجيشه، هدف لم يوجد قط إلا في مخيلة ما يقرب من عشرة أشخاص.

وما كان يمكن أن يوجَد لأنه كان منافياً للعقل ولأن بلوغه كان مستحيلاً.

لم يكن للشعب سوى هدف واحد: تطهير أرضه من الغزاة. وكان هذا الهدف يتحقق، أولاً، من ذاته، لأن الفرنسيين كانوا يفرون، وكان المطلوب، من ثمّ، عدم ايقاف حركتهم. وكان يتحقق، ثانياً، بفعل الحرب الشعبية التي كانت تستأصل الفرنسيين، وثالثاً، لأن الجيش الروسي العظيم كان يسير وراء الفرنسيين متتبّعاً آثارهم، ومستعداً لاستخدام القوة إذا توقفت حركتهم.

كان على الجيش الروسي أن يعمل كما يعمل السوط فوق الحيوان الهارب. والراعي المجرّب كان يعلم أن أحسن السبل هي إبقاء السوط مرفوعاً ومهدداً، وليست جلد الحيوان الهارب على رأسه.

***

الجزء الرابع

الفصل الأول

إذا رأى المرء حيواناً يموت أُصيب بالهلع: إن قوامه أو ماهيته تتلاشى أمام عينيه، وتكف عن الوجود. فإذا كان الذي يموت إنساناً، وإنساناً محبوباً، انضاف إلى الرعب الذي يستشعره المرء أمام دمار الحياة، ضربٌ من التمزق والجرح النفسي الذي يقتل أحياناً، ويلتئم أحياناً أخرى، على نحو ما يقتل الجرح الجسدي ويلتئم، لكنه مؤلم دائماً ويخشى أن يهيجه أيُ احتكاك خارجي.

كانت ناتاشا والأميرة ماريا تحسّان ذلك كلتاهما منذ موت الأمير آندريه. لقد أُرهقتا نفسياً وأغمضتا عيونهما أمام غمامة الموت الرهيبة التي هبطت عليهما، فلم تعودا تجرؤان على مواجهة الحياة. كانتا تقيان جرحهما المفتوح من الاحتكاكات المهينة والمؤلمة. كان كل شيء من مثل عربة تمر في الشارع بسرعة مفرطة، أو إعلان العشاء، أو سؤال الوصيفة عن فستان يجب إعداده، وحتى الكلمة الودية التي يقل فيها الصدقُ والدفء، كل ذلك كان ينكأ الجرح، ويبدو كالإهانة، ويقطع هذا الصمت الضروري الذي كانتا تحاولان جهدهما أن تصغيا فيه إلى تلك الجوقة الرهيبة، القاسية التي لم تسكت بعد في مخيلتهما، والتي كانت تمنعهما من سبر تلك الآفاق البعيدة، الخفيّة واللانهائية التي انكشفت لهما لحظة من الزمن.

كانتا لا تحسان بالإهانة والألم في خلوتهما فقط. فإذا خلت إحداهما

إلى الأخرى أقلّتا من الكلام. وإذا تكلمتا فذلك في أمور لا معنى لها. وكانتا تتحاشيان أن تمسّا ما يمكن أن يتصل بالمستقبل.

كان التسليم باحتمال المستقبل يبدو لهما إهانة لذكراه. وكانتا تتجنبان بعناية أعظم أن تخوضا فيما يتصل بالفقيد. وكان يُخيّل إليهما أن ما عاشتاه وما عانتاه لا يمكن أن تعبّر عنه الكلمات، وأن كل تلميح لفظي إلى جزئيات حياته يدمّر عظمة السر الذي تمّ أمام بصرهما، وقدسيته.

كان تكتّمهما المستمر، وحرصهما الدائم على أن يتحاشيا بعناية كل ما يمكن أن يسوق إلى الحديث عنه: هذه الوقفات عند حدود مالا يجب أن يُقال، كان أثرها الوحيد أنها أظهرت، بصفاء ووضوح أعظم، أمام مخيلتهما، ما كانتا تشعران به.

على أن الحزن الخالص، التام مستحيلٌ، كالفرح الخالص، التام. فقد كانت الأميرة ماريا، بحكم وضعها الذي جعلها سيدة مصيرها، ووصيةً على ابن أخيها ومربيّة له، أول من دعتها الحياة إلى الخروج من الألم الذي عاشت فيه في الأسبوعين الأولين. تلقت من أسرتها رسائل وجب الردّ عليها؛ وكانت الغرفة التي يشغلها نيقولا الصغير رطبة فراح يسعل. ووصل الباتيتش إلى إياروسلافل حاملاً الحسابات، وعرض عليها ناصحاً أن تعود إلى موسكو، إلى منزل الفوزدفيجنكا الذي ظل سليماً والذي لا يحتاج إلا إلى قليل من الإصلاحات. لم تتوقف الحياة وكان لابد من الاستمرار بها. ومهما يكن قد شق على الأميرة ماريا أن تترك هذا العالم من التأمل المنفرد الذي عاشت فيه حتى الآن، ومهما يكن قد ساورها من أسف ووسواس على تركها ناتاشا وحدها، فإن ضرورات الحياة كانت تقتضي ذلك، وقد خضعت لها، بالرغم منها. كانت تدقّق في الحسابات مع ألباتيتش، وتشاور ديسال بصدد ابن أخيها، وتتخذ الترتيبات من أجل سفرها على موسكو.

كانت ناتاشا تبقى وحدها، ومنذ أن أخذت الأميرة ماريا تهتم برحيلها، فقد صارت ناتاشا تتحاشاها.

طلبت الأميرة ماريا إلى الكونتيسة أن تدع ناتاشا تذهب معها إلى موسكو فقبلِ أبواها هذا العرض بفرح، لأنهما كانا يريان قوى ابنتهما تتلاشى يوماً بعد يوم، وكانا يقدران أن تغيير الهواء وعناية الأطباء في موسكو سيكونان مفيدين لها.

أجابت ناتاشا عندما عُرض عليها العرض:

– لن أذهب إلى أي مكان غير هذا المكان، وكل ما أطلبه هو أن تدعوني وشأني.

وهربت وهي لا تكاد تحبس دموعها، وهي دموع أقرب إلى الغيظ والغضب منها إلى الحزن.

كانت ناتاشا، منذ أن أحست بتخلي الأميرة ماريا عنها وبأنها وحيدة في ألمها، تقضي معظم وقتها حبيسة غرفتها، منكمشة على نفسها في زاوية من الأريكة، ممزقة وداعكة بعصبية شيئاً بين أصابعها الدقيقة، المتشنجة، وعيناها شاخصتان بعناد إلى المكان الذي توقفت عليه نظرتها. كانت هذه الوحدة تنهكها وتضنيها؛ لكنها كانت ضرورية لها. فما إن يدخل عليها أحدٌ حتى تنهض بعجلة، وتغير وضعها وتعبير نظرتها، وتتناول كتاباً أو تبدأ الحياكة، منتظرة بفارغ الصبر، وعلى نحو واضح، ذهاب الضيف الواغل.

كان يخيّل إليها أبداً أنها على وشك أن تُدرك وأن تسبر ما تسمّر عليه بصرها الداخلي، وهو مثقل بسؤال رهيب فوق قواها.

في أواخر كانون الأول، كانت ناتاشا قابعة في زاوية أريكتها، وهي

ناحلة وشاحبة، وقد لبست ثوباً صوفياً أسود، وربطت شعرها بإهمال على قذالها، وأخذت تلف وتحل بعصبية طرفي نطاقها، وهي تنظر إلى زاوية الباب.

كانت تنظر إلى حيث ذهب، إلى الجانب الآخر من الحياة. وهذا الجانب الآخر من الحياة الذي لم تكن تفكر فيه قط، والذي كان يبدو لها من قبل بعيداً شديد البعد، مجافياً للحقيقة أشد مجافاة، قد غدا الآن أكثر قرباً وألفة وجلاءً من هذا الجانب القريب من الحياة حيث كل شيء فراغ وخراب أو ألم وإهانة.

كانت تنظر إلى حيث تعلم أنه هناك، لكنها لم تكن تستطيع أن تراه مختلفاً عمّا كان عليه هنا. رأته مرة أخرى كما كان في ميتيستشي، في ترويتسا، في إياروسلافل.

كانت ترى وجهه، وتسمع صوته، وتردّد كلماته والكلمات التي قالتها له، وتتصور بين الحين والآخر، كلمات كان يمكن أن تقولها هي أو يقولها هو آنذاك.

ها هوذا مستلق على أريكة، يرتدي مبذله المخملي المبطن، وقد أسند رأسه على يده الناحلة الشاحبة، وغار صدرُه على نحو رهيب، وارتفعت كتفاه، وزُمَتْ شفتاه زماً قوياً، والتمعت عيناه، بينما أخذت تظهر على جبهته غضون وتختفي، وسرت في إحدى ساقيه رعدة لا تكاد تُرى. إن ناتاشا لتعلم أنه يصارع الألم المضني. فتقول في نفسها: «ماهذا الألم؟ ولم هذا الألم؟ وبمَ يشعر؟ لكم يتوجع!» ويلاحظ انتباهها، فيرفع عينيه ويشرع في الكلام دون أن يتبسم:

- هناك شيء فظيع، وهو أن يرتبط الإنسان إلى الأبد بإنسان يتألم. إن هذا لعذابٌ سرمدي.

ويلقي عليها نظرة فاحصة. فتجيب ناتاشا، كعادتها، دون أن تكلّف نفسها التفكير في جوابها:

- لا يمكن أن يستمر الأمر على هذا المنوال. سوف يزول ذلك، وسوف تُعافى تماماً.

كانت تراه الآن مرة أخرى وتعيش مرة أخرى كل ما أحست به آنذاك. لقد تذكرت النظرة الطويلة الحزينة، الرصينة التي ألقاها عند هذه الكلمات، وأدركت معنى اللوم واليأس في هذه النظرة الطويلة.

كانت تقول في نفسها الآن: «لقد اعترفت بأن الأمر سيكون مريعاً لو أنه استمر يتألم. ولم أقل ما قلته إلا هكذا، لأن الأمر كان سيكون مريعاً بالنسبة إليه. لكنه فهم كلامي فهماً مختلفاً. لقد ظن أن الأمر سيكون مريعاً بالنسبة إلي. كان ما يزال يتمسك بالحياة ويخاف الموت. ثم إني تكلمت بفظاظة وغباء شديدين. كنت أقصد شيئاً آخر. ولو إني قلت ما كنت أفكر فيه إذن لقلت: لو كان محتضراً لو ظل يحتضر طوال حياته أمام عيني لكنتُ سعيدة بالقياس إلى ما أنا عليه الآن. الآن.... لم يبق شيء، لم يبق أحد. أكان يعلم ذلك؟ لا إنه لم يكن يعرفه ولن يعرفه أبداً. والآن لم يعد بوسعي تدارك ما فات.» ومرة أخرى، أخذ يقول لها الكلمات نفسها، لكن ناتاشا أجابته، هذه المرة، في خيالها، جواباً مختلفاً. قاطعته وقالت: «الأمر مريع بالنسبة إليك لا بالنسبة إلي. أنت تعلم أن الحياة بدونك لا تساوي شيئاً، وأن التألم معك هو أكبر سعادة عندي.» فكان يأخذ يدها ويشد عليها كما شدّ عليها في ذلك المساء الرهيب، قبل موته بأربعة أيام. وكانت تقول له أيضاً في خيالها كلمات الحنان والحب، كلمات كان يمكن أن تقولها له آنذاك. كانت تقول وهي تشد يديها بحركة تشنجية وتضغط على أسنانها بعنف وحشي: «أحبك... أحبك... أحبك...»

إذ ذاك يعتصرها ألمٌ يفيض عذوبة، وتطفر الدموع إلى عينيها، وإذا بها تتساءل: لمن تقول هذا؟ وأين هو وما هو الآن؟ وإذا بكل شيء يختفي، مرة أخرى، تحت ستار من الذهول الجاف، القاسي، وإذا بها تنظر إلى حيث كان، مقطبة الحاجبين من الجهد. كان يُخيّل إليها أنها توشك أن تنفذ إلى السرّ... لكن في اللحظة نفسها التي كان يُخيّل إليها فيها أن المجهول سينكشف لها، قَرَع سمعها صوت مزلاج الباب، ودخلت الوصيفة دونياشا إلى الغرفة بعجلة وبدون حيطة، وهي مروّعة الوجه، شاردة اللب، وقالت، وقد نطق وجهها بحيوية غير عادية:

– أتريدين أن تذهبي إلى أبيك، بسرعة. لقد حلت بنا مصيبة بطرس إيليتش... رسالة وخنقها النحيب.

***

الفصل الثاني

فضلاً عن النفور العام الذي كانت تحسّ به ناتاشا إزاء الناس جميعاً، فقد غدت تحس بهذا الإحساس آنذاك، على وجه الخصوص، إزاء أسرتها. فكل ذويها: والدها وأمها وصونيا كانوا من القرب والألفة والمخالطة بحيث أن جميع كلماتهم ومشاعرهم كانت تبدو لها إهانة لهذا العالم الذي أخذت تعيش فيه منذ بعض الوقت، ولم تكن غير مبالية بهم فحسب بل إنها كانت تنظر إليهم أيضاً نظرة العداء. سمعتْ دونياشا تتكلم على بطرس ايليتش، وعلى مصيبة وقعت، لكنها لم تفهم شيئاً.

قالت ناتاشا في نفسها «أية مصيبة أصابتهم، وأية مصيبة يمكن أن تصيبهم؟ كل شيء يستمر، عندهم، كسابق عهده، غارقاً في العادة والهدوء».

عندما دخلت الصالون، كان أبوها يخرج على عجل من غرفة الكونتيسة. كان وجهه متشنجاً ومبللاً بالدموع. وكان واضحاً أنه اندفع إلى خارج هذه الغرفة ليطلق العنان لهذه العبرات التي أخذت تخنقه، ولما رأى ناتاشا أجفل وانفجر منتحباً بنحيب موجع، تشنجي، شوّه كل وجهه المدور، الرخو:

- بيـ... بيتيا... بيتيا، اذهبي، إنها... إنها... تدعوك...

ودنا من كرسي، وهو ينتحب كالطفل، بخطوات قصيرة، حثيثة وغير ثابتة، وتهالك عليها وهو يغطي وجهه بيديه.

وفجأة سرى في كيان ناتاشا كله ما يشبه الشحنة الكهربائية. وشعرت بصدمة رهيبة ومؤلمة في القلب. واعتراها ألم فظيع؛ أحسّتْ أن شيئاً يتمزق فيها وأنها توشك أن تموت. ولكنها على أثر هذا الألم استشعرت في الحال أنها تخلصت من ذلك الحرمان من الحياة الذي كان يرهقها. فعندما رأت أباها وسمعت وراء الباب صرخات أمها الرهيبة، الوحشية، سرعان ما نسيتْ نفسها ونسيت حزنها. وركضت إلى والدها، لكنه حرّك يده بحركة تنم على العجز، وأشار إلى باب والدتها. وظهرت الأميرة ماريا على العتبة شاحبة، وفكها الأسفل يرتجف، وأخذت بيد ناتاشا وقالت لها شيئاً. فلم ترها ناتاشا ولم تسمعها. واجتازت الباب بخطى سريعة، وتوقفت لحظة وكأنها تصارع نفسها، وهُرعت إلى أمها.

كانت الكونتيسة مستلقية على أريكة، تتلوى على نحو غريب، وتضرب رأسها بالجدار. وكانت صونيا والخادمات يمسكن بيديها.

صرخت الأم وهي تدفع عنها اللواتي يُحطن بها:

- ناتاشا! ناتاشا!... هذا غير صحيح، هذا غير صحيح... إنه يكذب... ناتاشا! اذهبْن جميعاً، هذا غير صيح! لقد قتلوه!... ها! ها! ها!... هذا غير صحيح!

وضعت ناتاشا ركبتها على الأريكة، وانحنت فوق أمها، وأخذتها بين ذراعيها، وأنهضتها بقوة غير منتظرة، وأدارت وجهها نحوها، وشدت نفسها إليها، وأخذت تهمس إليها دون أن تتوقف لحظة:

– ماما!... يا أمي العزيزة!... أنا هنا، يا صديقتي، يا أمي.

لم ترخ أمها، وكانت تصارعها برفق، وتطلب الوسائد، والماء، وتنزع عنها ثوبها وتمزّقه. وظلت تهمس، وهي تغطي بقبلاتها رأسها ويديها ووجهها وتحس بدموعها تهمي حين تدغدغ أنفها وخديها:

– يا صديقتي، يا عزيزتي... ماما... يا أمي العزيزة.

شدت الكونتيسة على يد ابنتها وأغمضت عينيها وهدأت لحظة. وفجأة نهضت بحيوية غير معهودة، وألقتْ حولها نظرة شاردة وحين شاهدت ناتاشا شدت رأسها بين يديها بكل قوتها. ثم أدارت نحوها وجهها الذي قلّصه الألم ونظرت إليها ملياً. وقالت لها في همس رقيق:

– ناتاشا، أتحبينني، ألن تخدعيني؟ أتقولين لي الحقيقة كاملة؟

كانت ناتاشا تنظر إليها، وعيناها مغرورقتان بالدموع، وقد غدا وجهها وعيناها مناشدةً خالصة للمغفرة والحب.

كانت تردد وهي تبذل كل ما في محبتها من طاقة لكي تخلصها من فرط الألم الذي كان يرهقها:

– يا صديقتي، يا أمي العزيزة.

ومرة أخرى، أبت الأمُ، في صراعها العاجز ضد الواقعِ، أن تصدق أنها يمكن أن تعيش في حين يُقتل ابنُها الذي يفيضُ حياةً، فهربت من الواقع إلى عالم الجنون.

لم تدر ناتاشا كيف مرّ هذا النهار، والليلُ، ونهار اليوم التالي، والليلة التالية. لم تنمْ ولم تترك أمها. كان حبها العنيد، الصبور كأنما يريد أن يغمر الكونتيسة من كل جانب، لا باعتباره تفسيراً، ولا باعتباره عزاء،

بل باعتباره دعوة إلى الحياة. وفي الليلة الثالثة هدأت الكونتيسة بعض الوقت فأغفت ناتاشا، مسندةً رأسها إلى مُتّكأ الأريكة. وصرّ السرير، ففتحت ناتاشا عينيها. كانت الكونتيسة جالسة في سريرها تتكلم برفق:

– كم أنا سعيدة بوصولك. أنت متعب، أتريد شاياً؟

دنت ناتاشا منها، فتابعت الكونتيسة كلامها وهي تمسك بيد ابنتها:

– صرتَ أجمل، صرتَ رجلاً.

– ماما، ماذا تقولين!...

– ناتاشا، لقد مات! لقد مات!

وضمت الكونتيسة ابنتها وبكت لأول مرة.

***

الفصل الثالث

أجلت الأميرة ماريا سفرها. فعبثاً حاول الكونت وصونيا أن يحلا محل ناتاشا. لقد أدركا أن ناتاشا وحدها هي القادرة على أن تمنع أمها من الغرق في يأس لا حدّ له. لم تترك ناتاشا أمها، طوال ثلاثة أسابيع، وكانت تنام على مقعد في غرفتها، وتسقيها وتطعمها، وتحدّثها بلا كلل، لأن صوتها الحنون العذب وحده كان يُدخل الهدوء إلى نفس الكونتيسة.

لم يكن الجرح النفسي الذي أُصيبت به الكونتيسة ليندمل. ذلك أن موت بيتيا انتزع منها نصف حياتها. فبعد شهر من نبأ موته الذي وصل وهي امرأة غضة رشيقة في الخمسين من عمرها، غدت امرأة عجوزاً، نصف ميتة، لا تُسهم بأي قسط في الحياة التي خرجت من غرفتها. لكن الجرح نفسه الذي قتل الكونتيسة نصف قتلة، هذا الجرحَ الجديد هو الذي دعا ناتاشا إلى الحياة.

إن الجرح النفسي الذي ينجم عن تمزّق الكائن الداخلي، ليلتحم شيئاً فشيئاً، مهما بدا ذلك غريباً، كما يلتحم الجرح الجسدي. حتى إذا التحم الجرح العميق وظهر أنه اندمل، فإنه لا يشفى، سواء أكان جرحاً نفسياً أم جرحاً جسدياً، إلا يفعل الدفعة الداخلية للقوة الحيوية.

هكذا شفي جرح ناتاشا. كانت تظن أن حياتها انتهت. ثم إذا بحبها

لأمها يُظهر لها أن جوهَر حياتها، أي الحب، مايزال حيّاً فيها. استيقظ الحب واستيقظت الحياة معه.

ربطت أيام الأمير آندريه الأخيرة بين ناتاشا والأميرة ماريا. ووثّقت المصيبة الجديدة علاقتهما. وقد أجّلت الأميرة ماريا سفرها، وعُنيتْ بناتاشا، في الأسابيع الثلاثة الأخيرة، وكأنها طفل مريض. فالأسابيع الأخيرة التي قضتها ناتاشا في غرفة أمها هدّت قواها الجسدية.

وفي ذات يوم، بعد الظهر، رأت الأميرةُ ماريا ناتاشا ترتعد من الحمى، فأخذتها إلى غرفتها، وأضجعتها في سريرها. فاستلقت ناتاشا، لكنْ عندما أسدلت الأميرة ماريا الستائر وأرادت الخروج، نادتها ناتاشا إليها.

- لستُ أرغب في النوم. ابقي معي، يا ماريا.

- أنت متعبة، فحاولي أن تنامي.

- لا، لا. لمَ جئت بي إلى هنا؟ سوف تطلبني.

أجابت الأميرة ماريا:

- حالتُها أحسن كثيراً. وكان كلامها، اليوم مقبولاً.

كانت ناتاشا تفحص في ظلمة الغرفة، وهي متمددة على السرير، وجه الأميرة ماريا. وحدثت نفسها: «أهي تشبهه؟ نعم ولا. لكنها متميّزة، غريبة، جديدة تماماً، مجهولة، وهي تحبني. ماذا في نفسها؟ لا شيء غير الطيبة ثم ماذا؟ فيم تفكر؟ كيف تراني؟ نعم، إنها رائعة.

قالت وهي تسحبها من يدها بخجل:

- ماشا، ماشا، لا تظنينني سيئة. كلا؟ ماشا، يا عزيزتي، كم أحبك! لنكنْ صديقتين كاملتين، صديقتين كاملتين.

وأخذتها ناتاشا بين ذراعيها وغمرت بالقبلات يديها ووجهها. كان تجلي عواطف ناتاشا هذا يملأ الأميرة ماريا بالارتباك والفرح.

منذ هذا اليوم توطدت بين الأميرة ماريا وناتاشا هذه الصداقة المشبوبة، الحنونة، التي لا توجد إلا بين النساء. كانتا لا تكفّان عن العناق وتبادل الكلمات الرقيقة، وكانتا تقضيان معظم وقتهما معاً. فإذا خرجت إحداهما قلقت الأخرى، وأسرعت في اللحاق بها. وكانتا تحسان، وهما معاً، بانسجام أكبر مما لو كانتا منفصلتين، مما لو كانت كل منهما خالية إلى نفسها. كان الشعور الذي نشأ بينهما أقوى من الصداقة: كان شعوراً ينفي ما سواه، كان الشعور بأن الواحدة منهن لا تستطيع أن تحيا بدون الأخرى.

كانتا تظلان، في بعض الأحيان، صامتتين ساعات كاملة؛ وكانتا تبدأان حديثهما، أحياناً أخرى، منذ أن تستلقيا على الفراش، وتستمران في حديثهما حتى الصباح. كانت الأميرة ماريا تتحدث عن طفولتها وأمها وأبيها وأحلامها؛ أما ناتاشا التي كانت تُعرض حتى الآن، بشيء من عدم الفهم الهادئ، عن هذه الحياة من الإخلاص، ومن الخضوع، ومن شاعرية التفاني المسيحي، فقد أخذت تحس أنها مشدودة بالحب إلى الأميرة ماريا، وبدأت تحب حتى ماضيها وتفهم هذا الجانب من الحياة الذي فاتها فهمه من قبل. لم تكن تفكر في أن تطبق على حياتها الخاصة الخضوع والتفاني لأنها تعودت البحث عن أفراح أخرى، لكنها أخذت الآن تفهم وتحب، في شخص آخر، هذه الفضيلة التي لم تكن تفهمها من قبل. كما أن الأميرة ماريا التي كانت تصغي إلى قصص ناتاشا عن طفولتها ويفاعتها، اكتشفت هي أيضاً جانباً من الحياة لم تفهمه حتى الآن، الإيمان بالحياة، بأفراح الحياة.

كانتا تمتنعان عن الكلام عليه «هو» لكي لا تفسدا بالكلمات،

كما خُيّل إليهما، سموّ الشعور الذي كان فيهما، وكان من نتيجة هذا الصمت بشأنه أنهما أخذتا تنسيانه شيئاً فشيئاً، من غير أن تتوهما ذلك.

هزلت ناتاشا وشحبت، وبلغت حداً من الضعف الجسدي جعل الناس يتحدثون باستمرار عن صحتها، وكان ذلك يدخل السرور إلى نفسها. لكن الخوف كان يستولي عليها أحياناً، لا الخوف من الموت وحده، بل الخوف من أن تقع فريسة المرض، من أن تضعف، من أن تفقد جمالها، وكان يقع لها، أحياناً، أن تفحص بانتباه ذراعها العارية، وهي مندهشة من هزالها، أو أن تتأمل ملياً في المرآة، عند الصباح، وجهها المهزول، الجدير بالرثاء، كما خُيِّل إليها. كان يُخيّل إليها أن وجهها لابد أن يكون كذلك، ومع ذلك فقد كانت تحس نفسها مروّعة وحزينة.

وذات مرة، صعدت الدرج بسرعة فتقطعت أنفاسها تعباً. وما لبثت أن وجدت لنفسها، لا شعورياً، ذريعة لكي تنزل مرة ثانية، ثم لكي تصعد ثانية وهي تركض، وذلك لكي تختبر قواها وتلاحظ نفسها.

وفي مرة أخرى، نادت دونياشا وارتجف صوتها. فنادتها مرة ثانية مع أنها سمعت خطاها، نادتها بملء صوتها الذي كانت تغني به قديماً، وأصغت إليه.

لم تكن تعلم ذلك، لم تكن لتظن ذلك، لكن تحت طبقة الوحل التي كانت تغطي نفسها، والتي كانت تعتقد أنها كتيمة لا ينفذ منها شيء، أخذتْ تطلع سوقٌ دقيقة وطرية من العشب تأصلت وغطت بنمائها الحي الحزنَ الذي كان يخنقها، بحيث لم يلبث ذلك الحزن أن أضمحلّ وغاب عن النظر. كان الجرح يندمل من الداخل.

في آخر كانون الثاني، سافرت الأميرة ماريا إلى موسكو، وأصر الكونت على أن تصحبها ناتاشا لكي تستشير الأطباء.

***

الفصل الرابع

بعد اشتباك فيازما حيث لم يستطع كوتوزوف أن يكبح جماح جنده الراغبين في دحر العدو، وقطع الطريق عليه، إلخ... تمّ تحرك الفرنسيين الذين لاذوا بالفرار، والروس الذين يلاحقونهم، دون قتال حتى كراسنوي. وكان هذا الفرار من السرعة بحيث أن الجيش الروسي الذي كان يطارد الفرنسيين لم يتمكن من اللحاق بهم، وأن خيل الخيّالة والمدفعية كانت تتوقف، وأن المعلومات عن تحركات الفرنسيين كانت خاطئة دائماً.

كان جنود الجيش الروسي منهكين من جراء هذا السير إلى الحد الذي جعلهم عاجزين عن التقدم بسرعة أكبر.

ولكي ندرك مدى الإرهاق في الجيش الروسي، من المناسب أن نعلم بوضوح أن هذا الجيش الذي لم يفقد خلال مسيرته كلها بدءاً من تاروتينو، أكثر من خمسة آلاف رجل بين قتيل وجريح، ونحو مئة أسير، غدا عدده بعد أن خرج من تاروتينو بمئة ألف رجل، نحو خمسين ألف رجل عند وصوله إلى كراسنوي.

إن حركة الروس السريعة في مطاردتهم للفرنسيين كانت تؤثر في الجيش الروسي تأثيراً مدمراً كتأثير الفرار في الجيش الفرنسي. والفرق الوحيد هو أن الجيش الروسي كان يتقدم بملء إرادته، دون نذير الموت المخيم على

الجيش الفرنسي، وأن المتخلفين الفرنسيين المرضى كانوا يقعون بين أيدي العدو، بينما كان المتخلفون الروس يظلون في بلدهم. والسبب الرئيسي لذوبان ملاكات جيش نابليون كانت تكمن في سرعة حركته، والدليل القاطع على ذلك هو الذوبان المقابل لملاكات الجيش الروسي.

كان نشاط كوتوزوف كله، كما في تاروتينو وفيازما، يرمي فقط -بمقدار ما كانت الأمور ضمن استطاعته- إلى عدم إيقاف حركة الفرنسيين هذه، وهي حركة مشؤومة عليهم، (كما كانوا يريدون في بطرسبرج وكما كان يريد جنرالات الجيش الروسي)، بل إلى تيسيرها وإلى تسهيل حركة قواته ذاتها.

ولكن فضلاً عن التعب الذي أخذ يتجلى في الجيش وعن الخسائر الفادحة التي تكبدها من جراء سرعة حركته، فقد كان هناك سببٌ آخر يدعو كوتوزوف إلى تبطيء حركة جيشه وإلى كسب الوقت. لقد كان هدف الجيش الروسي ملاحقة الفرنسيين. وبما أن الطريق التي يسلكها الفرنسيون مجهولة فكلما تقدم جندنا في آثار الفرنسيين كانت المسافة التي يقطعونها أطول. ولم يكن من الممكن قطع الطرق المتعرجة التي يسير عليها الفرنسيون، بأقصر الطرق، إلا إذا تعقبتها قواتنا إلى مسافة معينة. وكانت المناورات البارعة التي يقترحها جنرالاتنا تتمخّض عن تنقلات للجند وعن تطويل للمراحل، في حين كان الهدف الوحيد المعقول تقصير هذه المراحل. ونحو هذا الهدف، إنما اتجه نشاط كوتوزوف، أثناء الحملة كلها من موسكو إلى فيلنا، لا مصادفة أو على نحو متقطع، بل بمثابرة لم يحدْ عنها مرة واحدة.

كان كوتوزوف يعلم، لا بعقله ولا بعلمه، بل بطبيعته الروسية كلها، كان يعلم ويحسّ ما يحس به كل جندي روسي، وهو أن الفرنسيين قد هُزموا، وأن العدو يفر وأن من الواجب طرده؛ لكنه كان يحسّ في

الوقت نفسه مع جنوده بعبء هذه الحملة التي لا مثيل لها من حيث سرعتها ومن حيث الفصل الذي تجري فيه.

لكن الجنرالات، ولاسيما الجنرالات غير الروس، الذي كانوا يتشوّقون إلى البروز، وإثارة الدهشة، وأسر هذا الدوق أو ذاك الملك، لسبب لا يعلمه إلا الله، هؤلاء الجنرالات كانوا يعتقدون، الآن بعد أن غدت كل معركة ممجوجة ومخالفة للعقل، يعتقدون أن الوقت قد حان لخوض المعركة وقهر العدو. وكان كوتوزوف يكتفي بهز كتفيه عندما يعرض عليه هؤلاء الجنرالات، الواحد بعد الآخر، مشاريع المناورات بجنود نصف جياع، متهرّئي الأحذية، وبدون ثياب دافئة، قد ذاب نصفهم في شهر واحد، بغير قتال، جنود يجب أن يقطعوا المسافة إلى الحدود، وهي مسافة أكبر من التي قطعوها إلى الآن، حتى لو استمر فرار الفرنسيين في أنسب الشروط.

كانت هذه الرغبة في البروز والمناورة ودحر العدو تتجلى على الخصوص عندما يصطدم الجيش الروسي بالجيش الفرنسي.

هذا ما وقع في كراسنوي[1] حيث ظن الروس أنهم لن يجدوا سوى رتل واحد فإذا بهم يداهمون نابليون بشخصه في ستة عشر ألف رجل. وبالرغم من جميع الجهود التي بذلها كوتوزوف ليتحاشى هذا الصدام الباهظ الثمن، وليصون قطعاته، فإن الجنود الروس المنهوكي القوى استفرغوا جهدهم، خلال ثلاثة أيام، للإجهاز على فلول الفرنسيين المنهزمة.

١- «هذا ما وقع في كراسنوي»: وقعت معركة كراسنوي من ٣ إلى ٦ تشرين الثاني ١٨١٢. وقد فقد الفرنسيون فيها ٢٦ ألف رجل وقعوا في الأسر، كما فقدوا مدفعيتهم كلها.

وضع تول الترتيب القتالي: «الرتل الأول يتحرك»، الخ. وكالعادة، لم يجر شيءٌ وفقاً للترتيب. فالأمير اوجين دي بورتمبرغ[1]، كان يطلق النار، من الأعالي، على جموع الفرنسيين الفارين، ويطالب بتعزيزات لم تكن تصل. أما الفرنسيون فقد التفوا حول الروس في الليل، وتبعثروا في الغابة، وانسلوا إلى الأمام، كل بوسائله الخاصة.

وأما ميلورادوفيتش الذي كان يقول إنه لا يريد أن يعلم شيئاً عن حاجات مفرزته المادية، والذي لم يكن يجده أحدٌ عند الحاجة إليه، والذي كان «فارساً لا يعتريه الخوف ولا يلحقه اللوم»، كما كان يدعو نفسه، وهاوياً للمفاوضات مع الفرنسيين، فقد راح يرسل المفاوضين الذي يطالبون باستسلام الفرنسيين، ويضيع وقته ويفعل خلاف ما أمر به.

قال وهو يتقدم نحو جنده ويُريهم الفرنسيين.

– إني أهبكم هذا الرتل، يا أبنائي.

فيدنو فرسانه، وهم على جياد لا تكاد تستطيع التقدم، قد عمدوا إلى حثها بالمهاميز أو بصفائح السيوف، بعد جهود مضنية، من الرتل الذي أهداه لهم، أي من جماعة من الفرنسيين جمدّهم البرد وأضناهم الكلال والجوع؛ فيرمي الرتل الذي قُدِّم هديةً أسلحته ويستسلم، وهو الأمر الذي كان يرغب في أن يفعله منذ زمن طويل.

أسر الروس في كراسنوي ستة وعشرين ألف أسير، وغنموا مئات المدافع، وقطعةً من خشب تُدعى عصا المارشال، وتناقشوا ليعلموا من

١– أوجين دي بورتمبرغ: ابن أخ الأمبراطورة ماري وابن عم الأمبراطور الكسندر الأول. ولد في ١٧٨٨، وانخرط في الجيش منذ ١٨٠٧ وأصبح فيه جنرالاً. (١٧٨٨–١٨٥٧).

الذي أبلى أحسن بلاء، وكانوا مسرورين، لكنهم أسفوا أسفاً شديداً لأنهم لم يأسروا نابليون، أو بطلاً ما، أو مارشالاً، وألقى بعضهم اللوم على بعض في ذلك، ولاسيما على كوتوزوف.

لم يكن هؤلاء الرجال المنقادون لعواطفهم سوى أدوات عمياء لقانون الضرورة، أتفه ضرورة: لكنهم كانوا يظنون أنفسهم أبطالاً ويتصورون أن ما يفعلونه هو أنبل الأشياء وأحقها بالتقدير. وكانوا يتهمون كوتوزوف ويقولون إنه منعهم، منذ بداية الحملة، من الانتصار على نابليون، وإنه لا يفكر إلا في إشباع أهوائه، وأنه لا يريد أن يغادر «المناسج»[1] حيث كان مرتاحاً، وأنه أوقف التحرك في كراسنوي حين علم بوجود نابليون الذي أطار صوابه، وأن من الجائز الاشتباه بتواطئه مع نابليون، وأن نابليون قد رشاه[2]، الخ، الخ.

لم يكن المعاصرون وحدهم هم الذين أعمتهم أهواؤهم فتقوّلوا على كوتوزوف ما تقوّلوه، لكن الأجيال التي جاءت فيما بعد والتاريخ أعلنت أن نابليون عظيم، بينما قيل عن كوتوزوف أنه رجل من الحاشية ماكر، متهتك، ضعيف الخ. –هذا ما قاله الأجانب عنه–، أما الروس فقد قالوا إنه شخص غير واضح الشخصية وإنه دمية لا تنفع إلا باسمها الروسي.

***

١– المناسج: أملاك في مقاطعة ميدين غير بعيدة عن كالوغا أقام فيها كوتوزوف في تشرين الثاني ١٨١٢، وكان في هذه الأملاك مصانع للنسيج، ومن هنا اسمها، مصانع تخص عائلة غونتشاروف التي منها زوجة الشاعر بوشكين.

٢– من مذكرات ولسن (١٧٧٧–١٨٤٩)، وهو ضابط انكليزي تطوع في الجيش الروسي – نظم فرقة ضد نابليون في البرتغال في ١٨٠٨، ألحق في ١٨١٢–١٨١٤ بأركان الجيش الروسي العامة. نشرت مذكراته الثمينة في ١٨٦١.

الفصل الخامس

في سنة ١٨١٢ وسنة ١٨١٣ كان الناس ينعون على كوتوزوف أخطاءه بصراحة. وكان الإمبراطور غير راضٍ عنه. ولقد جاء في تاريخ كتب حديثاً بناء على أمر سام أنه كان رجلاً من رجال الحاشية ماكراً وكذاباً يخاف مجرد اسم نابليون، وأنه حَرمَ بأخطائه الجيشَ الروسي، في كراسنوي والبيريزينا، من المجد، من الانتصار التام على الفرنسيين[1].

ذلك هو مصير هؤلاء الرجال النادرين -لا الرجال العظماء، لا الرجل العظيم الذي لا يسلم به الذهن الروسي- بل هؤلاء الرجال المنعزلين أبداً، الذين يستشفّون مشيئة العناية الإلهية فيُخضعون لها مشيئتهم الخاصة. إن كره الجماهير واحتقارها يعاقبان هؤلاء الرجال على نفاذهم إلى القوانين العليا.

لقد كان نابليون، وهو أتفه أداة من أدوات التاريخ، ذاك الذي لم يبرهن قط على تحلّيه بالكرامة الإنسانية في أي مكان حلّ فيه، حتى ولا في المنفى، كان نابليون، في نظر المؤرخين الروس (وهو شيء مستغرب ومستفظع) موضعَ إعجاب وحماسة؛ إنه عظيم أما كوتوزوف، هذا

١- تاريخ ١٨١٢ ليوغدا نوفيتش: «كوتوزوف وتأملات حول التقصير في نتائج معارك كراسنوي". وبوغدافيتش هذا (١٨٠٥-١٨٨٢) كان استاذاً في أكاديمية الأركان، ونشر سنة ١٨٥٩، فيما نشر: تاريخ الحرب الوطنية في ١٨١٢.

الرجل الذي لم يناقض نفسه مرة واحدة، لا في أفعاله ولا في أقواله، منذ بداية عمله إلى نهايته في ١٨١٢، من بورودينو إلى فيلنا، هذا الرجل الذي يُعطى في التاريخ مثلاً فريداً على إنكار الذات وعلى الإدراك المسبق لمعنى الحدث، أما كوتوزوف فيبدو لهم شخصاً غير واضح وجديراً بالرثاء، ولعلهم كانوا يستشعرون شيئاً من الخجل دائماً وهم يتحدثون عنه في ١٨١٢.

على أنه من الصعب تصور شخصية تاريخية اتجه عملها بمثل هذا الإطراد والاستمرار نحو هدف واحد لا يتغير. ومن الصعب تصور هدف أنبل وأشد توافقاً مع إرادة شعب بأسره. وأصعبُ من ذلك أيضاً أن نعثر في التاريخ على مثال آخر يتم فيه بلوغ الهدف الذي وضعته لنفسها شخصيةٌ تاريخية مثل هذا البلوغ الكلي للهدف الذي اتجهت إليه كل فعالية كوتوزوف في ١٨١٢.

لم يتحدث كوتوزوف قط عن القرون الأربعين التي تتأملنا من أعلى الأهرامات، عن التضحيات التي قدّمها للوطن، عما ينوي أن يفعله أو عما فعله: لم يكن كوتوزوف، على العموم، يتحدث عن نفسه، ولا يحاول أن يلعب دوراً، وكان يبدو دائماً كأنه أبسط الناس وأقربهم إلى الإنسان العادي. كان يكتب إلى بناته وإلى السيدة دي ستال، ويقرأ الروايات، ويحب مخالطة النساء الجميلات، ويمازح الجنرالات والضباط والجنود، ولا يناقض الذين يريدون أن يبرهنوا له على شيء ما. فعندما أقبل عليه الكونت روستوبتشين خبباً، على جسر إياوزا، ليُنحي عليه شخصاً باللائمة، وليحمّله مسؤولية ضياع موسكو، وليقول له: «كيف وعدتَ بألا تتخلّى عن موسكو بدون قتال»؟ أجاب كوتوزوف: «كلا، لن أسلم موسكو بدون قتال»، مع أن موسكو كانت مهجورةً آنذاك. وعندما جاء آراكتشيف، موفداً من قبل الإمبراطور، وأبلغه أنه يجب أن يعيّن

إيرمولوف في قيادة المدفعية، أجاب كوتوزوف: «نعم، هذا بالضبط ما كنت أحدث نفسي به»، مع أنه قال قبل لحظة شيئاً آخر. وماذا يهمّه، هو الذي كان يعرف وحده آنذاك كل ما في الحدث من معنى عظيم، وسط هذا الجمهور القاصر عن الفهم الذي يحيط به، ماذا يهمّه إن علم إلى من يعزو الكونت، روستوبتشين محنَ العاصمة، إلى نفسه أم إلى كوتوزوف؟ ولعله أقل اهتماماً بأن يعلم مَنْ ذا الذي سيُعيّن قائداً للمدفعية.

لقد كان هذا الرجل العجوز الذي أوصلته تجربتُه في الحياة إلى الاقتناع بأن الأفكار والكلمات التي تصلح للتعبير عنها ليست هي التي تقود الناس، يقول كلمات عارية تماماً من المعنى، الكلمات الأولى التي تخطر بباله، لا في هذه الحالات بل بصورة مستمرة.

لكن هذا الرجل نفسه الذي لم يكن يبالي بما يقول لم يقل مرة واحدة، خلال نشاطه كله، كلمة لا تتفق مع هذا الهدف الوحيد الذي كان يلاحقه أثناء الحرب كلها. ولقد عبّر عن فكرته، غيرَ مرة، في شتى المناسبات، بالرغم منه، مع قناعته المؤلمة، من غير شك، بأن الناس لن يفهموه. ومنذ معركة بورودينو، وهي بداية اختلافه مع من حوله، كان وحده القائل «إن معركة بورودينو نصرٌ». وكرر ذلك جهاراً وفي تقاريره وأخباره، حتى موته. كان وحده القائل: «إن ضياع موسكو لا يعني ضياع روسيا». ورداً على عروض الصلح التي قدمها لوريستون قال: «إن الصلح مستحيل لأن هذه هي إرادة الشعب». كان وحده القائل، أثناء انسحاب الفرنسيين كله،: «إن جميع هذه المناورات لا جدوى منها، وأن كل شيء سيتم من ذاته خيراً مما نتمنى وأنه يجب أن نبني للعدو جسراً ذهبياً، وأن معركة تاروتينو وفيازما وكراسنوي ليست ضرورية، وأنه يجبُ أن نصل إلى الحدود بعدد كاف من الجند، وأنه لا يُفرّط بجندي روسي واحد مقابل عشرة فرنسيين».

هذا الرجل الذي يصورونه لنا على أنه رجل مداهن، هذا الرجل الذي يكذب على آراكتشيف ليرضي الإمبراطور، هذا المداهن هو وحده الذي قال في فيلنا، معرضاً نفسه لسخط الإمبراطور «إن متابعة الحرب في الخارج مضرة وعقيمة».

لكن الأقوال وحدها لا تكفي لتبرهن أنه كان يفهم معنى الحدث. فكل أفعاله، بدون أدنى استثناء، اتجهت نحو هدف واحد، لا يتغير، ثلاثي: ١) توجيه جميع القوات لمجابهة الفرنسيين، ٢) الانتصار عليهم، ٣) طردهم من روسيا مع التخفيف، قدر الإمكان، من آلام الشعب والجيش.

إن كوتوزوف، هذا المسوِّف الذي شعاره: الصبر وطول الوقت، كوتوزوف عدو الأعمال الحاسمة، الذي خاض معركة بورودينو مسبغاً على استعداداته هيبة رسميةً لا مثيل لها، كوتوزوف هذا هو الذي قال، في معركة اوسترلتس، حتى قبل بدايتها: إنها ستكون معركة خاسرة، وهو وحده الذي أكّد في بورودينو، بالرغم من جنرالاته الذين زعموا أن المعركة خاسرة، وبالرغم من أن هذه المعركة مثل لم يسبق له نظير في التاريخ عن جيش يُجبر على الانسحاب بعد معركة ربحها، هو الذي أكدّ، ضد الجميع، وحتى موته، أن معركة بورودينو انتصار. وهو وحده الذي أصر، طوال الانسحاب، على ألا يخوض معارك لم يبق منها فائدة، لكي لا يثير حرباً جديدة ولكي لا يتجاوز حدود روسيا.

من السهل اليوم فهمُ معنى الحدث إذا كنا لا نعزو إلى عمل الجمهور الأهداف التي كانت في رأس حفنة من الرجال، لأن معنى الحدث بمجموعه، مع نتائجه، ينكشف أمامنا.

لكن كيف استطاع آنذاك هذا الرجل العجوز، وقد كان وحده في

مواجهة الرأي العام، أن يستشف بهذه الدقة المعنى الشعبي للحدث، وهو معنى لم يحد عنه مرة واحدة في نشاطه كله؟

إن مصدر هذه الموهبة الخارقة، موهبة النفاذ إلى معنى الأحداث الجارية كان في الشعور الوطني الكامن فيه بكل صفائه وقوته.

وإنما اختار الشعب هذا الشيخَ الذي فقد حظوته، ممثلاً للحرب الشعبية، بطرق غريبة جداً، وضد مشيئة القيصر، لأنه آنس فيه هذا الشعور الوطني. وهذا الشعور وحده هو الذي حمله إلى أرفع ذرا السمو الإنساني التي كان منها يركّز كل قواه، باعتباره قائداً عاماً، لا لقتل الناس واستئصالهم بل لإنقاذهم والرأفة بهم.

هذا الوجه البسيط، المتواضع، العظيم، من ثمّ، عظمة حقيقية، لم يكن يمكنه أن يتلاءم وهذا القالب الكاذب للبطل الأوروبي، الذي زعموه قائداً للناس، والذي اختلقه التاريخ.

لا يمكن أن يكون الرجل عظيماً في نظر خادمه لأن للخادم مفهومه الخاص عن العظمة.

***

الفصل السادس

كان الخامس من تشرين الثاني أول يوم في المعركة التي دُعيت معركة كراسنوي، ففي المساء، بعد عدد من المناقشات ومن أخطاء الجنرالات الذين قادوا جندهم إلى حيث لا ينبغي لهم، وبعد إيفاد المرافقين العسكريين وهم يحملون الأوامر المضادة، وحين بات واضحاً أن العدو يلوذ بالفرار في كل مكان، وأن المعركة لا يمكن أن تقع ولن تقع، غادر كوتوزوف كراسنوي وذهب إلى دوبروي التي نُقل إليها في هذا اليوم بالذات مقرُّ الأركان العامة.

كان النهار صافياً، جليدياً، اتجه كوتوزوف، وبصحبته حاشيةٌ كبيرة من الجنرالات المستائين الذين أخذوا يتهامسون وراء ظهره، نحو دوبروي، وهو على جواده الأبيض الضخم. وعلى طول الطريق، كانت جماعات من الفرنسيين الذين أسروا في النهار (ارتفع عددهم في هذا اليوم إلى سبعة آلاف) تزدحم حول النيران لتدفأ. وغير بعيد عن دوبروي، وقف على الطريق، جمهورٌ ضخم من الأسرى في أطمار رثة، وقد تلفعوا وتدثروا بكل ما وقع تحت أيديهم، وارتفع لغطهم قرب صف طويل من المدافع المحلولة. ولدى دنو القائد العام، سكتت الأحاديث وحدّقت الأبصارُ في كوتوزوف الذي كان يتقدّم ببطء في عمرته بحافتها الحمراء، وفي معطفه المبطن المرفوع على شكل حدبة فوق كتفيه المقوستين. وكان أحد الجنرالات يشرح له أين غُنمت المدافع وأُسر الأسرى.

كان كوتوزوف يبدو مشغول البال فلم يسمع أقوال الجنرال. كان يغضن عينيه وهو بادي الاستياء ويفحص بأناة وإمعان الأسرى الذين كان مظهرهم مثيراً للشفقة إلى حدّ كبير. فقد تشوهت وجوه معظم الجنود الفرنسيين من أنوفهم ووجناتهم المتجمدة، وغدت عيونهم جميعاً، تقريباً، حمراء، متورّمة، متقيحة.

وفي جماعة صغيرة من الفرنسيين، على حافة الطريق، راح جنديان، وأحدهما قد تغطى وجهه بالجراح، يمزقان بأيديهما قطعة من اللحم النيء. كان في نظرتهما السريعة التي رشقا بها الذين يمرون وفي التعبير الشرس الذي بدا على الجندي ذي الجراح، وهو يُعرض عن كوتوزوف ويتابع عمله بعد أن ألقى عليه نظرة خاطفة، شيء فظيع وحيواني.

نظر كوتوزوف طويلاً وملياً إلى هذين الجنديين؛ فازداد وجهُه تجهّماً، وغضن عينيه، وهزّ رأسه متفكراً، وفي موضع آخر لاحظ جندياً روسياً يكلم فرنسياً بلطف وهو يضحك ويربت كتفه. هزّ كوتوزوف رأسه مرة ثانية وقد نطق وجهه بالمعاني ذاتها.

سأل الجنرالَ الذي مازال مستمراً في تقريره والذي لفت انتباهَ القائد العام إلى الأعلام التي غُنمت من الفرنسيين والتي نُصبت في مقدمة مفرزة بريوبراجنسكي.

قال كوتوزوف، وهو ينتزع نفسه بمشقة ظاهرة للعيان من موضوع مشاغله الداخلية:

- آه! الأعلام.

وألقى حوله نظرة شاردة. وكانت آلاف العيون تنظر إليه من كل صوب في انتظار ما سوف يقوله.

وقف أمام مفرزة بريوبراجنسكي، وتنهد بعمق وأغمض عينيه. فأومأ أحد أفراد حاشيته إلى حملة الأعلام أن يقتربوا وأن يحيطوا بالقائد العام. ظل كوتوزوف صامتاً بضع لحظات، ثم خضع لمقتضيات وضعه، على كره ظاهر منه، فرفع رأسه وشرع يتكلم، أحاط به حشدٌ من الضباط. فجاب بنظرة متمعنة حلقة الضباط الذين عرف بعضهم. قال وهو يلتفت إلى الجنود، ثم يلتفت إلى الضباط مرة أخرى. وكانت كل كلمة من كلماته التي كان يلقيها ببطء، تُسمع بوضوح، في هذا الصمت الذي خيّم حوله:

- أشكركم! أشكركم جميعاً على خدمتكم الشاقة المخلصة. إن النصر تام، ولن تنساكم روسيا. المجد لكم إلى الأبد!

وصمت وهو ينظر حوله.

وقال لجندي يحمل نسراً فرنسياً أماله سهواً أمام علم مفرزة بريوبراجنسكي:

- اخفضه، اخفضْ رأسه، اخفضه أيضاً، أيضاً، حسنٌ. هكذا.

وهتف وهو يتوجه إلى الجمهور بحركة عجلى من ذقنه:

- هورا! يا أبنائي.

فزمجرت آلاف الأصوات:

- هورا - ا - ا - اه!

بينما كان الجنود يهتفون، طأطأ كوتوزوف رأسه، وهو منحن فوق سرجه، وبرقت عينه ببريق عذب كأنما هو بريق ساخر.

وفجأة تغيّر صوته وتعبير وجهه: لم يعد القائد العام هو الذي يتكلم،

وإنما هو رجل عجوز بسيط كل البساطة، لعله يريد أن يطلع رفاقه على شيء فائق الأهمية.

حدثت حركة في حشد الضباط وفي صفوف الجنود، وذلك لكي يسمعوا ما سيقوله على نحو أفضل:

-اصغوا إلي، أيها الأصدقاء. إني أعلم أن هذا عسير عليكم، لكنْ ما العمل! اصبروا، فقد أشرفت الأمور على الانتهاء. وسوف نستريح عندما نَصْرف زوّارنا. لن ينسى القيصر خدماتكم. هذا عسير عليكم لكنكم على كل حال في بلدكم؛ بينما هم، انظروا إلى أين وصلوا، -قال ذلك وهو يشير إلى الأسرى-. أسوأ من أشقى المتسولين. لم نكن لنرثي لحالهم ما ظلوا أقوياء، أما الآن فيمكن أن نرثي لحالهم أيضاً. إنهم بشر أيضاً. أليس كذلك، يا أبنائي؟

وراح ينظر حوله، فقرأ في العيون المحدقّة فيه، المتنبّهة، المدهوشة باحترام، استحساناً لأقواله: فاستضاء وجهه شيئاً فشيئاً بابتسامة طيبة، ابتسامة شيخ غضّن أطراف شفتيه وعينيه لتصبح نجوماً. وصمت لحظة، وأطرق رأسه، كأنه في حيرة، ثم قال فجأة وهو يرفع رأسه:

- لكنْ، من طلب إليهم أن يأتوا إلى بلادنا؟ لقد استحقوا ما نزل بهم، أولاد العاهـ....

ثم لوّح بسوطه، ومضى عدواً لأول مرة منذ بدء الحملة، وسط الجنود الذين تفرّقوا وأخذوا يضحكون بملء حناجرهم ويطلقون هتافاتهم المجلجلة.

من المستبعد أن يكون الجند قد فهموا أقوال كوتوزوف. فلم يكن بوسع أحد منهم أن يعيد محتوى خطبة الفيلدمارشال، وهي خطبة

رسمية في أول الأمر، ثم ما لبثت أن اصطبغت، في النهاية، ببساطة هي بساطة الشيخ؛ ومع ذلك فإن معناها العميق لم يُفهم فحسب، بل إن هذا الشعور بالنصر المتحد بالشفقة على العدو وبإدراك الحق الصريح الذي تجلى بوضوح في هذه الشتيمة الملأى بطيبة القلب الحارة، هذا الشعور نفسه الذي يسكن نفس كل جندي عبّر عن نفسه بهذه الهتافات الفرحة التي امتدت وقتاً طويلاً.

وعندما سأل أحدُ الجنرالات القائد العام بعد ذلك، إن كان ينبغي أن يُقدّم عربته، انفجر كوتوزوف وهو يجيبه، في نحيب غير منتظر، نم على انفعاله العنيف.

***

الفصل السابع

في الثامنِ من تشرين الثاني، آخر يوم في معارك كراسنوي، كان الليل قد حلّ عندما وصل الجند إلى معسكرهم. وكان النهار كله هادئاً. بارداً، وقد تساقط الثلج تساقطاً متقطعاً وخفيفاً؛ وعند المساء، صفا الجو. ومن خلال ندف الثلج، تراءت السماءُ المنجمة، بسوادها الضارب إلى البنفسجي، واشتد البرد.

وصلت مفرزةٌ من الرماة، انطلقت من تاروتينو بثلاثة آلاف رجل وعادت بتسعمئة رجل، وبلغت قبل غيرها الموضع المحدد للمعسكر في قرية واقعة على الطريق الكبرى. أخبر الرواد الذين جاؤوا للقاء المفرزة أن جميع الأكواخ يشغلها الفرنسيون المرضى أو الموتى والخيّالة والأركان ولم يبق سوى كوخ واحد لقائد المفرزة.

قصد قائدُ المفرزة إلى كوخه. واجتازت المفرزةُ القرية، ثم ركزوا بنادقهم في حزم، بالقرب من أواخر البيوت.

عكفت المفرزة من فورها على إعداد مسكنها وطعامها، مثل حيوان هائل متعدد الأطراف، تفرّق شطر من الجنود، والثلجُ إلى ركبهم، في غابة السندر التي تقع إلى يمين القرية. وسرعان ما وافى منها صوتُ الفؤوس، والقداحات، وتقصّفُ الأغصان التي كانت تُقطع، والأصوات الفرحة؛ وانهمك شطرٌ آخر حول موقع عربات المفرزة

والخيل المجمّعة بشكل قطيع، في تهيئة القدور والبسكوت وفي إطعام الخيول؛ وانتشر آخرون في القرية لترتيب مسكن ضباط الأركان، فرفعوا جثث الفرنسيين الذين شغلوا الأكواخ، واستولوا على الألواح الخشبية، وعلى الخشب الجاف، وعلى قش السقوف من أجل إيقاد النيران وحبك الحواجز التي يلتجئون إليها.

في آخر القرية، وراء الأكواخ، راح نحوُ خمسة عشر جندياً يقلقلون، وهم يصيحون بفرح، حاجزاً عالياً لحظيرة رُفع سقفُها من قبل.

كانت الأصوات تصيح:

– هيّا، هيّا، الجميع دفعة واحدة، ادفعْ!

وفي عتمة الليل ترنح جانب ضخمٌ من حاجز معفّر بالثلج مع قرقعة سببّها البرد. وتزايدت قرقعة الأوتاد السفلى ثم انهار الحاجز جاراً معه الجنود الذين كانوا يضغطون عليه. وعلت صرخاتُ الفرح الصاخبة، والقهقهات:

– امسكوه! اثنين اثنين! هات العتلة إلى هنا! هكذا. أين تحشر نفسك؟

– هيا، الجميع معاً... انتبهوا، يا شباب!... مع الإشارة صمت الجميع وأخذ صوتٌ عذب، مخملي رخيم، يُنشد أغنية. وعند آخر المقطع الثالث، في اللحظة التي كان يتلاشى فيها آخر نغم، هتف عشرون صوتاً مجتمعة: «هو – او – او – او! إنه يرتفع! محاولة واحدة! شدّوا، يا أولادا!...» لكن بالرغم من الجهود المتّحدة، فإن الحاجز لم يرتفع، وسُمع في الصمت لهاث مُضن.

– هيه! أنتم، يا جنود السادسة! يا شياطين! مدّوا إلينا يد المساعدة... سنردها لكم.

انضم إلى الذين يدفعون الحاجز نحوُ عشرين جندياً من السرية السادسة وكانوا في طريقهم إلى القرية؛ وترنح على طول شارع القرية حاجزٌ ملتو، يبلغ طوله نحو عشرة أمتار وعلوه نحو مترين، كان يسحق ويجرّح أكتاف الجنود اللاهثين.

– تقدّمْ، مالك... شُدَّ... ماذا تنتظر؟ كفى... مشت الحال

وظلت الشتائم الفظة الفرحة تدوي.

وفجأة قال صوتٌ آمرٌ لجندي اصطدم بالحاملين:

– ماذا تفعلون؟ القادة هنا؛ الجنرال نفسه في الكوخ، وأنتم هنا أيها الشياطين الأجلاف!

وصرخ بهم ضابط الصف:

– سأريكم كيف تفعلون!

ولطم بكل قوته ظهر أول جندي وقع تحت يده:

– أما كان بوسعكم الإقلال من هذه الضوضاء؟

صمت الجنود. وأخذ الجندي الذي ضربه ضابطُ الصف يمسح، وهو يئن، وجهه المدمى الذي انقشر وهو يصطدم بالحاجز، وقال في همس خجل عندما ابتعد ضابط الصف:

– ما أقسى ضربه، هذا الشيطان! أدمى لي وجهي كله.

قال صوتٌ ضاحك:

– ألا تحب هذا؟

تابع الجنودُ طريقهم وقد غضوا من أصواتهم. حتى إذا اجتازوا

المدينة، استأنفوا كلامهم بصوت عال، خالطين أحاديثهم بالشتائم نفسها التي لا هدف لها.

في الكوخ الذي مروا أمامه، كان بعض القادة مجتمعين، وكانوا يتناقشون بحدة، وهم يتناولون الشاي، في أحداث اليوم وفي المناورات المرتقبة مستقبلاً. واقترحوا السير الجناحي على الميسرة، وقطع الطريق على نائب الملك وأسره.

عندما وصل الجنود بالحاجز، كانت نيران المطابخ تشتعل في كل مكان. وأخذ الحطب يطقطق، والثلج يذوب، وأطياف الجنود السوداء تروح وتجيء على الأرض التي شغلوها، والتي حددها الثلج الموطوء.

كانت الفؤوس والقدّاحات ناشطة في كل مكان. وكان كل شيء يتم دون حاجة إلى الأمر. فكانوا يتزودون بالحطب لليل، ويقيمون الخصاصَ للقادة، ويغلون القدور، ويرتبون بنادقهم وعُددهم.

وُضع الحاجز الذي حمله جنودُ السرية الثامنة على شكل نصف دائرة في جهة الشمال، مستنداً إلى أوتاد خشبية، وأُشعلت النارُ أمامه، وآذن البوق بالتجمع، وجرى التفقد، وأكل الجنود، وجلسوا حول النار، هذا يصلح حذاءه، وذاك يدخّن غليونه، وثالث يفلّي ثيابه فوق اللهب وهو عار.

***

الفصل الثامن

قد يبدو أن مشهد الجنود الروس، في ظروف الحياة الشاقة التي لا تُصدَّق، والتي كانوا يحيونها آنذاك، بدون أحذية شتوية، وبدون ثياب دافئة، وبدون سقف فوق رؤوسهم، في الثلج الذي بلغت برودته ثماني عشرة درجة تحت الصفر، بل ودون جراية يومية تامة لأن المؤن لم يكن يمكنها دائماً أن تتبع الجيش، قد يبدو أن مشهد هؤلاء الجنود من أشد المشاهد بؤساً وكآبة.

على العكس، فلم يكن مشهد الجيش قط، في أفضل الظروف المادية، أكثر بهجة وحيوية. والسبب في ذلك، أنه في كل يوم، كان يُستبعد مَنْ يتخاذل أو يضعف من الجيش. فكل مَنْ كان ضعيفاً مادياً أو معنوياً ظلّ في الخلف منذ زمن طويل، ولم يبق غير زهرة الجيش، بقوة الروح والجسد.

تجمّع في السرية الثامنة التي احتمت بالحاجز أكبر عدد من الجنود. وانضم إليهم ضابطا صف، وكان اشتعال النار أوضح لهباً منه في أي مكان آخر. وكان لابد للمرء من أن يحمل شيئاً من الحطب ليكون له حق الجلوس في ظل الحاجز.

صرخ جندي أحمر الشعر والوجه حمله الدخان على أن يطرف بعينيه وأن يكشّر وأبى أن يبتعد عن النار:

- هيه، ما كيف، ماذا جرى لك... أين تتسكّع؟ أم أن الذئاب أكلتك؟ هات حطباً.

وقال لآخر:

- اذهبْ أنت على الأقل، يا مغفل، وهات حطباً.

لم يكن هذا الجندي الأحمر ضابط صف ولا عريفاً، لكنه كان قوياً، ولذلك كان يأمر مَنْ هم أضعف منه. ونهض الجندي القصير النحيل ذو الأنف الذلق الذي نُعت بالمغفّل طائعاً، ومضى ينفّذ الأوامر، لكن في هذه اللحظة ظهر في ضوء النار شبحُ جندي، شاب رشيقٌ وجميل كان يحمل ملء ذراعيه حطباً.

- أعطني هذا، ممتاز!

كُسر الحطب وكُوِّم، وأُضرمت النار بالنفخ عليها وبتحريك المعاطف فأزّت وزفرت. فاقترب الجنود منها وأشعلوا غلايينهم... ووضع الجندي الشاب والجميل الذي حمل الحطبَ يديه على خاصرتيه وأخذ يضرب الأرض بنعليه ضرباً شديداً وحاذقاً لكي يدفئ قدميه المتجمدتين. راح يدندن أغنيةً، صاحبَ كل كلمة من كلماتها ضربٌ من الفواق:

- آه! يا أمي، الندى بليلٌ، ولطيف، والرامي...

صاح به الجندي الأحمر وقد لاحظ أن نعل هذا الراقص تتدلى:

- هيه! نعلاك باليتان. ما أسوأ الرقص بهما!

توقف الراقص، وانتزع قطعة الجلد المتدلية ورمى بها في النار. وقال:

- الحق معك، يا صاحبي.

ثم جلس وتناول من حقيبته قطعة قماش فرنسي أزرق ولفّ بها رجله. وأضاف وهو يمد رجليه إلى النار:

– إن الحرارة تحرقهما.

– ستُوزَّع عما قريب أحذيةٌ جديدة. يُقال إنه إذا ما انتهت مهمتنا فسوف يُضاعَف ما يُوزَّع من الأمتعة.

قال ضابط صف:

– قل لي، بيتروف هذا، لاردّه الله، أبقي في الطريق؟

أجاب الآخر:

– إني أرقبه من زمن طويل.

– ماذا تريد، كان جندياً هزيلاً....

– يبدو أن تسعة جنود تخلّفوا أمس عن التفقد، في السرية الثالثة.

– كيف تطلب ممن تجمدّت قدماه أن يمضي في سيره.

فردّ ضابط الصف:

– ايه! لا تتفوّهْ بحماقات!

وقال الجندي العجوز الذي تحدث عن الأقدام المتجمدة بلهجة الملامة:

– هل تشتهي أنت أيضاً أن تجرّب ذلك؟

وإذا بالجنديّ ذي الأنف الذلق الذي نُعت بالمغفل ينهض من الجانب الآخر من النار ويقول بصوت حاد ومتهدّج:

- ما قصدُك؟ حتى مَنْ كان ضخماً أصيب بالهُزال، ومصيرُ الهزيل الموت.

وقال فجأة بعزم مخاطباً ضابط الصف:

- خذني أنا مثلاً، أنا منهوك؟ أرسلني إلى المستشفى؛ لأنني مهدود القوى؛ وإلاّ بقيتُ في الطريق على كل حال...

قال ضابط الصف بهدوء:

- لابأس! لابأس!

سكت الجندي القصير واستمر الحديث.

قال أحد الجنود بغية الشروع بحديث جديد:

أُسر اليوم عددٌ لابأس به من الفرنسيين؛ لكن يمكن القول أنه ما من واحد له حذاء حقيقي؛ ليس لأحذيتهم من الأحذية سوى الاسم.

قال الراقص:

- القوزاق هم الذين أخذوا منهم أحذيتهم. عندما نظّفوا الكوخ من أجل العقيد حملوهم إلى الخارج. كان المنظر مؤلماً يا شباب. ولقد فتشوهم، أتعلمون أنه كان بينهم واحدٌ مايزال حياً، وكان يرطن بأشياء على طريقته.

قال الأول:

- وهم نظيفون، يا شباب، وبيض، بيض كالبتولة. ثم إن بينهم فتياناً أشداء، نبلاء.

- ما الذي كنت تظنه إذن؟ إنهم يجندون ناساً من مختلف الأوضاع.

قال الراقص بابتسامة حيرى:

– لكنهم لا يحسنون الكلام مثلنا. سألته: أيّ تاج تتبع؟ فرطن بلغته. يا لهم من ناس غريبي الأطوار!

وأردف الذي تعجّب من بياضهم:

– ما ليس طبيعياً، يا أصحاب، هو ما رواه الفلاحون من أنه عندما شرعوا في رفع الموتى، في موجاييسك، حيث جرى القتال، وكان القتلى فيها منذ شهر، رأوا، على ما رووا، أن قتلاهم بيض كالورق، نظيفون، ليس لهم أدنى رائحة.

فسأل جندي:

– أكان ذلك بسبب البرد؟

– ما أذكاك! البرد! كان الوقتُ حاراً. لو كان السبب هو البرد لما تفسخّ قتلانا أيضاً. فهم يروون أنه عندما كانوا يقتربون من أحد قتلانا كانوا يجدونه منتناً، مليئاً بالديدان. وكان لابد من التلثم بمنديل ومن الإشاحة عنهم عند جرّهم؛ لم يكن من الممكن احتمال ذلك؛ في حين كان قتلاهم بيضاً كالورق، دون أدنى رائحة.

قال ضابط الصف:

– لاشك أن الغذاء هو السبب. كانوا يأكلون كالسادة.

فلم يعترض أحد.

– روى ذلك الفلاح أنه قد جيء، في موجاييسك حيث جرت المعركة، بالقتلى من عشر قرى، وأنهم نُقلوا خلال عشرين يوماً، إذ لم يمكن رفعهم جميعاً، القتلى. وما كان أكثر الذئاب. يبدو أن...

قال الجندي العجوز:

كانت تلك المعركة حقيقية. ليس لنا من ذكرى طيبة غيرها. أما منذ ذلك الحين، فلم يكن كل شيء سوى ألم للناس.

– صحيح، يا عم. لقد تلاقينا أول من أمس. لكن أي لقاء! لم يدعونا نقترب منهم. لقد رموا بنادقهم على عجل. وركعوا قائلين: مغفرة. هؤلاء جنود ليس لهم إلا المظهر الكاذب. ويُروى أن «بوليون»[1] ذاته قد ظفر به بلاتوف مرتين. لكنه لم يكن يعرف كلمة السر. قبض عليه، لكن الآخر تحوّل بين يديه إلى عصفور وطار. ولم يكن من سبيل إلى قتله.

– ما أبرعك في الكذب، يا كيسيليف، كما أراك.

– كيف تتهمني بالكذب، إنها الحقيقة الخالصة.

لو كنتُ مكان بلاتوف لدفنته فور قبضي عليه. ولغرزت وتداً من الحور في قبره. فكم أهلك من البشر!

قال الجندي العجوز وهو يتثاءب:

– سينال حسابه، بأي شكل من الأشكال. ولن يعود إليها أبداً.

وخبا الحديث ونام الجنود.

قال جندي وهو يتأمل المجرّة:

– انظرْ إلى هذه النجوم؛ غريب، ما أشد التماعها!

– هذه، يا شباب، علامة الموسم الجيد.

١– بوليون: هو اسم نابليون مشوهاً على ألسنة الجنود الروس.

- لابد من الحطب أيضاً.

- أوه! يا إلهي.

- ما لك تدفع غيرك؛ لعل النار لك وحدك؟.... انظروا إليه كيف تمدّد.

في الصمت الذي خيم، تعالى شخيرُ بعض الجنود الذين ناموا؛ وكان الآخرون يتململون ويتقلبون ليدفؤوا، ويتبادلون بضعَ كلمات بين الحين والحين. ووافتْ قهقهات فرحةٌ من نارٍ على بعد نحو مئة خطوة.

قال جندي:

- ما أكثر ما يمزحون في الخامسة. وما أكثر الناس. غريب!

نهض جندي وذهب إلى السرية الخامسة. وقال وهو يعود:

- إنهم يمزحون جيداً. جاء فرنسيان. أحدهما متجمد، والآخر متبجّح، غريب! إنه يغني.

- أوه؟ ليتنا نذهب لنراه -...

واتجه بعض الجنود إلى السرية الخامسة.

***

الفصل التاسع

كانت السرية الخامسة تعسكر على أطراف الغابة. وفي وسط الثلج، كانت تلتهب نار كبيرة فتضيء أغصانَ الأشجار المُقلة بالجليد.

في جوف الليل، سمع جنود السرية الخامسة في الغابة خُطى على الثلج، وتقصّف الأغصان.

قال أحد الجنود:

– يا شباب، هذا دب.

فارتفعت رؤوسُ الجنود جميعاً، وأصاخوا بأسماعهم فإذا بهم يرون في ضوء النهار الساطع، شكلين إنسانيين يطلعان من الغابة وهما يرتديان لباساً غريباً ويسند أحدهما الآخر.

كانا فرنسيين اختبأا في الغابة. اقتربا من النار وهما يتكلمان بصوت أجش لغة لا يفهمها الجنود. كان أحدهما، وهو الطويل بينهما، يضع على رأسه عمرة الضابط ويبدو منهوك القوى. وعندما وصل إلى قرب النار، أراد أن يجلس لكنه انهار على الأرض. وكان الآخر، وهو جندي قصير وسمين يربط منديلاً تحت ذقنه، أقوى منه. فرفع رفيقه وقال شيئاً وهو يشير إلى فمه. أحاط الجنود بالفرنسيين، ومدوا معطفاً للمريض، وجاؤوا بالبرغل والفودكا.

كان الضابط الفرنسي الخائر القوى «رامبال»؛ أما الذي كان يضع منديلاً فكان مرافقه موريل.

بعد أن شرب موريل الفودكا وأكل قصعة من البرغل، انتابه فجأة مرحٌ محموم، وتحدث بلا انقطاعٍ إلى الجنود الذين لم يكونوا يفهمونه. رفض رامبال الطعام وظل متمدداً بصمت أمام النار، متكئاً على مرفقه، ناظراً إلى الجنود الروس بعينين حمراوين فارغتين من التعبير. وكان يئن، بين الحين والحين، أنيناً طويلاً، ثم ما يلبث أن يسكت مرة أخرى. أفهم موريل الجنود، وهو يريهم كتفيه، أنه ضابط تجب تدفئته. فأرسل ضابط روسي دنا من النار، أرسل يسأل العميد إنْ كان يقبل بإيواء ضابط فرنسي لديه حتى يسمح له أن يتدفأ، وعندما عاد الرسول ليخبر أن العميد يقبل بإيواء الضابط، قيل لرامبال أن يذهب. فنهض وأراد أن يمشي، لكنه ترنح وأوشك أن يقع لولا أن سنده جندي بجنبه.

قال لرامبال أحد الجنود وهو يغمز بعينه ساخراً:

– ما رأيك؟ لن تنخدع بعد الآن؟

فأنحى الجنود من كل صوب باللوم على هذا الجندي الذي مزح هذه المزحة:

– هيه! ياغبي! اخرس! أيها الجلف، أيها الجلف الحقيقي.

أحاط الجنود برامبال، ورفعه جنديان على أيديهما المتصالبة وحملاه إلى الكوخ. مرّر رامبال ذراعيه حول عنق الجنديين وقال شاكياً وهما يحملانه:

– أوه! يا أصدقائي الكرماء! أوه! يا أصدقائي الطيبين! هؤلاء رجال حقاً! أوه! يا أصدقائي الكرماء، الطيبين.

وكالطفل ألقى رأسه على كتف أحد الجنديين.

في هذه الأثناء، كان موريل جالساً في أفضل مكان، يحيط به الجنود.

كان موريل فرنسياً قصيراً، سميناً، ذا عينين محتقنتين دامعتين، يربط فوق عمرته منديلاً على غرار الفلاحات، ويرتدي فروة امرأة رثةً. كان جلياً أنه ثمل، فقد مرر ذراعه حول عنق جندي يجلس بجنبه وأخذ يغني بصوت أجش ومنقطع أغنية فرنسية وكان الجنود يغربون في الضحك وهم ينظرون إليه.

قال الجندي الذي طوقه موريل بذراعه وكان مغنياً، فكهاً:

- هيّا، هيّا، علمني إياها؟ سأحفظها بسرعة. ماذا قلت؟...

غنّى موريل وهو يغمز بعينه:

- عاش هنري الرابع.

عاش هذا الملك الباسل!

هذا الشيطان على أربع...

فردد الجندي الذي التقط اللحن بالفعل وهو يلوح بيديه:

- فيفاريكا! فيف سيروفارو! سيدنابلاكا!...

فانطلقت القهقهات من كل جانب. وكان موريل، بوجهه المتجعد، يضحك أيضاً.

- ما أبرعه! هُو! هو! هو!

- هيا! زدْنا، زدْنا! .

الذي كانت له موهبة ثلاثية:

أن يشرب، وأن يضرب، وأن يكون هرماً غَزِلاً...

- اللحن جميل أيضاً. هيّا، يا زاليتايف.

رفع زاليتايف عقيرته بالغناء، ونطق بمشقة، وهو يمدّ شفتيه بعناية:

- كو.... كيو - و - و.... ليتريتالا دي بو با ديترا فغالا.

- آه! ما أروع هذا! هذا فرنسي حقاً! أوه.... هو! هو! هو! مالك، أتريد أن تأكل أيضاً؟

أعطه برغلاً؛ لابد له من البرغل لكي يشبع، بعد أن بلغ به الجوع هذا المبلغ.

أُعطي موريل برغلاً؛ وتناول القصعة الثالثة وهو يبتسم. وتهلّلت وجوه جميع الجنود الذين كانوا ينظرون إليه. وظل الجنود المسنون الذين رأوا أن الاهتمام بمثل هذه الحماقات لا يليق بهم، مستلقين عند الجانب الآخر من النار، لكنهم كانوا ينهضون بين وقت وآخر على مرافقهم ليلقوا نظرة على موريل وهم يبتسمون. قال أحدهم وهو يلفُّ نفسه بمعطفه:

- إنهم بشر أيضاً. الافسنتين ينبت هو أيضاً على جذوره.

- أوه! أوه! يا إلهي، يا إلهي! ما أكثر النجوم! هذه علامة الصقيع....

وصمت كل شيء.

كانت النجوم ترتع في السماء كأنها علمت أنه لن يراها أحد، وكانت، وهي تبرق حيناً، وتخبو حيناً، آخر، وتتلألأ في كثير من الأحيان، إنما تتحدث فيما بينها هامسة بشدة عن أمر مفرح لكنه خفيّ.

***

الفصل العاشر

كان الجيش الفرنسي يذوب ذوباناً منتظماً وفقاً لمتوالية عددية دقيقة. وحتى عبور البيريزينا الذي كُتب عنه الكثير لم يكن سوى مرحلة من المراحل المتتالية في دمار هذا الجيش لا الحدث الحاسم في الحملة. وإذا كان الناس قد كتبوا كثيراً ومازالوا يكتبون كثيراً عن البيريزينا، فمردّ ذلك فقط، في الجانب الفرنسي، إلى أن المحن التي كان يكابدها الجيش الفرنسي بشكل تدريجي حتى هذه اللحظة، قد تركّزت، فوق جسر البيريزينا، في لحظة واحدة وفي مشهد فاجع ثبت في ذاكرة الناس جميعاً. أما في الجانب الروسي فقد قيل الكثير وكُتب الكثير عن البيريزينا، والسبب الوحيد لذلك هو أن خطة قد وضعت (وضعها بفوهل) بعيداً عن مسرح الحرب، في بطرسبرج، لجرّ نابليون إلى فخ استراتيجي على البيريزينا. وكان كل واحد مقتنعاً بأن كل شيء سيجري، في الواقع، طبقاً للخطة، ولذلك كانوا يؤكدون أن عبور البيريزينا بالذات هو الذي دمّر الفرنسيين. والواقع، أن نتائج هذا العبور كانت أقل تدميراً للفرنسيين من خسارتهم في المدافع والأسرى في كراسنوي، كما تشهد بذلك الأرقام.

إن المعنى الوحيد لعبور البيريزينا يكمن في أن هذا العبور قد أعطى الدليل الواضح الأكيد على خطأ جميع الخطط الرامية إلى قطع طريق العدو وعلى صحة المسلك الممكن الوحيد الذي كان يطالب به

كوتوزوف، أي الذي كان يقوم على اللحاق بالعدو فقط. لقد كانت جموع الفرنسيين تفرّ بسرعة لاتني تتزايد، رامية بكل طاقاتها على بلوغ هذا الهدف. كانت تفرّ كما يفر الحيوان الجريح، و لم يكن بوسعها التوقف في الطريق. ولقد دلّت على ذلك الحركةُ على الجسور أكثر مما دلّل عليها تنظيم العبور، فعندما تحطّمت الجسور، عمد الجميع: الجنود بغير أسلحة، سكان موسكو، النساء والأطفال الذين كانوا في القوافل الفرنسية، عمد جميع أولئك، بتأثير المقاومة السلبية، إلى الفرار متجهين إلى الأمام، في القوارب، وفي الماء المتجمد، بدلاً من الاستسلام.

كانت هذه الحركة حصيفة. لقد كان وضع الفارين سيئاً مثل وضع المطارِدين. فكان كل واحد يعتمد، حين يبقى مع جماعته، على مساعدة رفاقه في الضرّاء، وعلى المركز المحدد الذي يشغله بين رفاقه. لكنه حين يستسلم للروس يستمر في بؤسه، هذا مع نبذه إلى المنزلة الأخيرة بالنسبة إلى إشباع الحاجات الحيوية. لم يكن الفرنسيون بحاجة إلى معلومات أكيدة ليعلموا أن الأسرى الذين كانوا عبئاً على الروس، على الرغم من رغبة هؤلاء في إنقاذهم، كان يموت نصفهم من البرد والجوع. كانوا يحسون أن الأمور لا يمكن أن تجري على نحو آخر. و لم يكن بوسع الروس الذين كانوا أكثر ميلاً من غيرهم إلى الشفقة، ولا الذين كانوا يشعرون بالعطف على الفرنسيين، ولا الفرنسيين أنفسهم الذين كانوا في خدمة روسيا، لم يكن بوسع هؤلاء جميعاً أن يفعلوا شيئاً للأسرى. إن ما أهلك الفرنسيين هو الفاقة التي كان يعانيها الجيش الروسي. فلم يكن ممكناً أن يمنع هذا الجيش الخبز والثياب عن جنوده الذين يحتاج إليهم، ليعطيها الفرنسيين الذين كانوا مسالمين، غير مكروهين، غير مذنبين، إلا أنهم كانوا أفواهاً لا نفع فيها. ومع هذا فلم يتوان بعض الروس عن إيواء الفرنسيين وإطعامهم؛ لكن ذلك لم يكن سوى استثناء.

من وراء الفرنسيين، كان الهلاك المحتم؛ وكان الأمل أمامهم. لم يبق من مجال للرجوع، ولا من سبيل إلى الخلاص سوى الفرار المشترك. فكانت كل قواهم تتّجه إلى هذا الفرار.

وكلما كان الفرنسيون يفرون، كانت فلولهم أدعى إلى الرثاء، ولاسيما بعد البيريزينا، التي بنى عليها الروس، بعد الخطة الموضوعة في بطرسبرج، آمالاً كباراً، وكانت تنطلق من عقالها أهواء القادة الروس الذين كانوا يتبادلون التهم، ويكيلون التهم لكوتوزوف بخاصة. كانوا يعتقدون أن فشل خطة بطرسبرج يعود إليه، ولذلك فإن الاستياء منه والازدراء له والاستهزاء به كل ذلك قد تجلى بعنف متزايد أبداً. وكان الإستهزاء والإزدراء يتجليان طبعاً في شكل ينمّ على الاحترام، شكل لم يكن كوتوزوف يستطيع معه أن يسأل بمَ يتهمونه. كان الناس يحدّثونه بجد؛ فإذا قدّموا له تقريراً أو طلبوا إليه إذناً تظاهروا بأنهم يقومون بطقس حزين، لكنهم كانوا يتغامزون، من خلف ظهره، ويحاولون في كل لحظة، أن يخدعوه.

كان كل هؤلاء الناس، بسبب من عجزهم عن فهمه، متفقين على التأكيد بأن من غير المجدي مناقشة الشيخ؛ وأنه لن يدرك كل ما في خططهم من عمق؛ وأنه كان يجيب مكرراً جمله المعتادة (كانت تبدو لهم جملاً ليس غير) عن البديل الأفضل، وعن استحالة تجاوز الحدود بعصابة من المشرّدين، الخ. كل ذلك سمعوه قبل الآن منه. وكل ما كان يقوله، من مثل وجوب انتظار المؤن، وأن الرجال لا أحذية لهم، كل ذلك كان شديد البساطة في حين أن ما كانوا يقترحونه عليه كان شديد التعقيد والبراعة بحيث اتضح لهم أنه عجوز غبي وأنهم قادة عباقرة لكن بدون سلطة.

وإنما بلغت هذه الحالة الذهنية وتلك الثرثرات غايتها، بعد الاتصال

بجيش الأميرال اللامع ويتجنستين، بطل بطرسبرج، على وجه الخصوص. كان كوتوزوف يرى ذلك وهو يتنهد، ويكتفي بهز كتفيه. و لم يغضب إلا مرة واحدة، بعد البيريزينا، فكتب الرسالة التالية إلى بينيغسن الذي كان يوجّه إلى الإمبراطور تقارير خاصة.

«نظراً إلى حالتكم الصحية، تفضلوا، يا صاحب السعادة، بالتوجه إلى كالوغا، لدى تسلمكم الرسالة التالية، وانتظار أوامر جلالته الإمبراطورية والتكليف الجديد».

لكن بعد صرف بينيغسن، عاد إلى الجيش الدوق الأكبر قسطنطين بافلوفيتش، وكان قد شارك في بداية الحملة ثم أبعده كوتوزوف. وعندما وصل الدوق الأكبر، هذه المرة، أنبأ كوتوزوف باستياء الإمبراطور من النجاح الضئيل لقطعاتنا ومن بطء التحركات، وأن الإمبراطور ينوي أن يصل قريباً إلى الجيش.

لقد فهم هذا الرجل العجوز الذي كانت خبرته بالبلاط تعادل خبرته بالحرب، لقد فهم كوتوزوف هذا الذي اختير، في شهر آب من السنة نفسها، قائداً عاماً ضدّ مشيئة الإمبراطور، والذي أبعد من الجيش الدوق الأكبر ولي العهد، والذي أمر بالتخلي عن موسكو بمبادرته الشخصية وضد إرادة الإمبراطور، لقد فهم كوتوزوف هذا على الفور أن عهده انقضى، وأن دوره انتهى. وأنه لم يعد يملك سلطته المزعومة. و لم يفهم ذلك من موقف البلاط وحده. وإنما كان يرى، من جهة، أن العمليات العسكرية التي لعب فيها دوره قد انتهت. وكان يحس أن مهمته قد أنجزت. ومن جهة أخرى، لقد بدأ في الوقت نفسه يستشعر التعب في جسده العجوز ويشعر بالحاجة إلى الراحة الجسدية.

***

الفصل الحادي عشر

في التاسع والعشرين من تشرين الثاني، دخل كوتوزوف إلى فيلنا، إلى مدينته الطيبة فيلنا، كما كان يقول، لقد عُيّن مرتين حاكماً لها، خلال عمله. وفي هذه المدينة الغنية التي لم تُصب بأذى، وجد كوتوزوف أصدقاءه القدامى وذكرياته السالفة، فضلاً عن رغد العيش الذي حُرمه زمناً طويلاً. فانصرف فجأة عن همومه العسكرية والسياسية، وانغمس في حياة وادعة منظّمة، على قدر ما كانت الأهواء التي تغلي حوله تتركه وشأنه، وكأنما كل ما كان يجري وما سوف يجري في التاريخ لا يخصه في شيء.

إن تشيتشاغوف، وهو من أنشط أنصار الخطط الرامية إلى قطع العدو ودحره، وهو الذي كان يريد أن يضلّل العدو في اليونان أولاً، ثم في فرسوفيا، لكنه كان يأبى أن يذهب إلى حيث يُرسَل، إن تشيتشاغوف المعروف بجسارة أحاديثه مع الإمبراطور، والذي كان يعتبر كوتوزوف مديناً له بالفضل لأنه عندما أُرسل إلى تركيا، في سنة ١٨١١، ليعقد الصلح، وتبين أن الصلح كان معقوداً، اعترف أمام الإمبراطور بأن الفضل في ذلك يعود إلى كوتوزوف؛ إن تشيتشاغوف هذا هو أول من استقبله في فيلنا، أمام القصر، حيث كان من المقرر أن ينزل. قدّم تشيتشاغوف، وهو بلباس الأميرال العادي، وسيفه إلى جنبه، وعمرته تحت ذراعه، تقريره إلى كوتوزوف وسلّمه مفاتيح المدينة. لقد انعكس

الاحترام المشوب بالازدراء الذي كان يبديه الشباب لهذا الشيخ الخَرف، انعكس، إلى أعلى حد، في موقف تشيتشاغوف الذي كان على علم بالتهم الموجهة إلى كوتوزوف.

قال كوتوزوف، وهو يحدث تشيتشاغوف، فيما قاله، إن العربات المحملة بالآنية والتي انتُزعت منه في بوريسوفو سليمةٌ وستُعاد إليه.

أجاب تشيتشاغوف مُحتَداً وكان يرغب أن يثبت بكل كلمة من أقواله أنه على حق، وأن يعزو، من ثمَّ، إلى كوتوزوف الهمّ الشاغل نفسه:

– تريد أن تقول لي أنه ليس لدي ما يُؤكل فيه... أستطيعُ على العكس أن أوفّر لك كل شيء حتى في الحالة التي ترغب فيها أن تُقيم الولائم.

ابتسم كوتوزوف ابتسامة لطيفة، نافذة وردّ وهو يهز كتفيه:

– ما أردت أن أقول لك إلا ما قلته.

أوقف كوتوزوف الجزء الأعظم من الجند، في فيلنا، ضد مشيئة الإمبراطور. لقد فترت همته وضعف عزمه، على نحو غريب، حسب ما يقول المحيطون به، أثناء إقامته في فيلنا. كان يهتم، على مضض، بشؤون الجيش، ويفوض جنرالاته بكل شيء، ويعيش حياة منحلة، في انتظار الإمبراطور.

سافر الإمبراطور في السابع من كانون الأول مع حاشيته: الكونت تولستوي، الأمير فولكونسكي، اراكتشيف وغيرهم، ووصل إلى فيلنا في الحادي عشر من كانون الأول، وقصد رأساً إلى القصر، في مركبة السفر. وأمام القصر، وبالرغم من البرد الشديد، كان نحو مئة من الجنرالات وضباط الأركان ينتظرون باللباس الرسمي، وكذلك حرس شرف مفرزة سيمينوفسكي.

وصل الرسول الذي يسبق الإمبراطور عدواً في زحافة مغطاة بالزبد وصاح: «ها هو ذا!» فانطلق كونوفنيتزين إلى الردهة ليخبر كوتوزوف الذي كان ينتظر في حجرة البواب.

بعد دقيقة، ظهر شخصُ الشيخ الجسيمُ وهو يتهادى على الدرج، في لباس العرض الرسمي، وقد ازدان صدره بكل أوسمته، وتوشح بطنُه الضخم بوشاح. وضع كوتوزوف قبعته النظامية، ثم حمل قفازيه بيده، ونزل الدرجات بمشقة؛ مواربةً، وتناول التقرير الذي أعده للإمبراطور.

وتشتد الحركة، ويزداد الهمسُ، وتمرّ زحافة أخرى بأقصى سرعتها، وتتجه الأبصارُ إلى المركبة الآتية التي برز فيها شخصا الإمبراطور وفولكونسكي.

كل ذلك، وبسبب من عادة مضى عليها خمسون عاماً، أُصيب الجنرال العجوز باضطراب جسدي؛ فتلمّس نفسه على نحو محموم، وأصلح قبعته، ورفع بصره إلى الإمبراطور في اللحظة نفسها التي كان ينزل فيها من مركبته، واعتدل ووقف وقفة الاستعداد، وتكلم، وهو يقدّم له التقرير. بصوته المعتدل الممالق.

لفّ الإمبراطورُ كوتوزوف بنظرة عجلى من رأسه إلى قدميه. قطّب حاجبيه لحظة لكنه سرعان ما تمالك نفسه، فتقدم وفتح ذراعيه وضم بهما الجنرال العجوز. ومرة أخرى، وبسبب من ردة الفعل المعتادة وبتأثير خواطره الحميمة، أحدثت هذه الضمّة في كوتوزوف أثرها المعهود: لقد أخذ ينتحب.

حيّا الإمبراطور الضباط، وحرس مفرزة سيمينوفسكي، وبعد أن شد مرة أخرى يد الشيخ دخل القصر معه.

وعندما انفرد الإمبراطور به، أعرب له عن امتعاضه من بطء الملاحقة، ومن الأخطاء المرتكبة في كراسنوي والبيريزينا، وأطلعه على مشاريعه بصدد الحملة المقبلة في الخارج. فلم يُبد كوتوزوف اعتراضاً أو ملاحظة. وإنما ارتسم على وجهه التعبير نفسه الخاضع المستسلم الذي ظهر عليه، قبل سبع سنوات، حين كان يُصغي إلى أوامر الإمبراطور في ساحة القتال في اوسترلتس.

عندما خرج كوتوزوف من المكتب واجتاز قاعة الاستقبال بخطوته المتثاقلة الغائصة، وهو خافض الرأس استوقفه صوت يقول:

– يا صاحب السمو.

رفع كوتوزوف رأسه وتأمل طويلاً عيني الكونت تولستوي الذي كان واقفاً أمامه، يحمل شيئاً على طبق فضي. وبدا على كوتوزوف أنه لم يفهم ماذا يُراد منه.

وكأنما أدرك المراد فجأة؛ فطافت بوجهه الضخم ابتسامة لا تكاد تُلحظ، وتناول من الطبق ذلك الشيءَ بتحية عميقة مفعمة بالاحترام. كان ذلك الشيء وسام القديس جورج من الدرجة الأولى[1].

***

١– وسام القديس جورج: أرفع وسام في الجيش الروسي، مع الوشاح الأكبر.

الفصل الثاني عشر

في اليوم التالي، أقام الفيلدمارشال عشاء وحفلة راقصة شرّفها الإمبراطور بحضوره. مُنح كوتوزوف وسام القديس جورج من الدرجة الأولى؛ وغمره الإمبراطور بصنوف التكريم؛ لكن استياءه من كوتوزوف كان معروفاً من الجميع. لقد روعيت اللياقةُ وكان الإمبراطور قدوةً في ذلك؛ لكن كل واحد كان يعلم أن الشيخ مذنب وأنه لا يصلح لشيء. وعندما أمر كوتوزوف، في الحفلة الراقصة، أن تُلقى الأعلامُ التي غُنمت من العدو، عند أقدام الإمبراطور، في صالة الرقص، جرياً على تقليد قديم يرجع إلى عهد كاترين، قطّب الإمبراطور وجهه ممتعضاً، ونطق ببضع كلمات خُيِّل إلى البعض أنهم سمعوا بينها: «ممثل قديم».

ازداد استياء الإمبراطور من كوتوزوف في فيلنا، لأن هذا لم يشأ أو لم يستطع -من غير شك،- أن يفهم أهمية الحملة المرتقبة.

وحين قال الإمبراطور، في صباح اليوم التالي، للضباط المجتمعين حوله: «إنكم لم تنقذوا روسيا وحدها، لكنكم أنقذتم أوروبا»، أدرك الجميع منذ هذه اللحظة أن الحرب لم تنته.

كوتوزوف وحده لم يشأ أن يفهم ذلك، وكان يُعلن رأيه صراحة، وهو أن حرباً جديدة لا يمكنها أن تحسّن وضع روسيا ولا أن تزيد

من مجدها، وأنها لا يمكن إلا أن تُفاقم سوء الأوضاع وتغض من ذرا هذا المجد الذي بلغته حالياً، في رأيه. وكان يبذل وسعه كي يبرهن للإمبراطور على استحالة تجنيد قطعات جديدة؛ وكان يتكلم على وضع السكان المؤلم، وعلى إمكان الفشل، الخ.

في مثل هذه الحالة الذهنية، كان المارشال يبدو، بطبيعة الحال، عائقاً وكابحاً في الحرب المنويّة.

ولتحاشي النزاعات مع الشيخ، وَرَدَ الحلُ من ذاته، وقوامه أن تُسحب من المارشال، دون تخويفه، ودون إعلامه، قاعدة السلطة التي يقف عليها وأن تسلم إلى الإمبراطور بالذات، كما جرى في اوسترلتس وكما جرى في بداية الحملة مع باركلي.

ولهذا الغرض، شُرع شيئاً فشيئاً في إعادة تشكيل الأركان ودُمّرت كل القوة الفعلية في أركان كوتوزوف ووضعت بين يدي الإمبراطور. وعهد إلى تول وكونوفينتزين وايرمولوف بمراكز جديدة. وكان كل واحد يجهر بأن المارشال قد انتابه الضعف الشديد وأن صحته معرضّة للخطر.

كان لابد من أن تتعرض صحته للخطر لكي يسلّم سلطاته إلى بديله. والواقع أن صحته قد تدهورت كثيراً.

وكما انتقل كوتوزوف، بصورة طبيعية وبسيطة وتدريجية، من تركيا إلى وزارة المالية لتجنيد الميليشيا، ثم إلى الجيش في اللحظة المحددة التي كان لا غنى فيها عنه، كذلك ظهر مكانَه، بصورة طبيعية وبسيطة وتدريجية، الآن بعد أن انتهى دوره، ظهر الرجلُ الجديد الذي دعت الحاجةُ إليه.

لقد كان لابد لحرب ١٨١٢ من أن تحمل معنى أوروبياً، فضلاً عن المعنى القومي العزيز على نفوس الروس.

كان لابد من أن يتلو زحفَ شعوب الغرب إلى الشرق زحفُ شعوب الشرق إلى الغرب، وكان لابد لهذه الحرب من رجل جديد يملك صفات أخرى لا يملكها كوتوزوف، وطريقة أخرى للنظر، وتحرّكه دوافع أخرى.

كان الكسندر الأول ضرورياً من أجل زحف شعوب الشرق إلى الغرب ومن أجل تصحيح حدودها كما كان كوتوزوف ضرورياً من أجل إنقاذ روسيا ومجدها.

لم يكن كوتوزوف يدرك معنى هذه الكلمات: أوروبا، التوازن، نابليون. و لم يكن بوسعه أن يفهمها. لم يبق لممثل الشعب الروسي، الآن بعد أن أبيد العدو، وتحررت روسيا وبلغت ذروة مجدها، لم يبق له أن يفعل شيئاً، من حيث هو روسي. لم يبق لممثل الحرب الشعبية إلا أن يموت. ولقد مات.

****

الفصل الثالث عشر

لم يحسّ بطرس، كما يقع في الأغلب، بكل ثقل الحرمان الجسدي وبالقيود التي كابدها في الأسر إلا بعد انقضاء ذلك الحرمان وتلك القيود. لقد قصد بعد تحرره إلى أوريل[1]، وفي اليوم التالي لوصوله، وبينما كان يتهيأ للسفر إلى كييف، ألمّ به المرض فلزم الفراش في أوريل ثلاثة أشهر؛ كان مصاباً، كما قال الأطباء، بالحمى الصفراوية. وبالرغم من العناية التي بذلوها، وبالرغم من الفصد والأدوية، فقد أبلّ من مرضه.

كل ما أصابه، منذ تحرره حتى مرضه، لم يترك في نفسه أثراً. كان يتذكر فقط الطقسَ المغبر المكفهر، الممطر حيناً، والمثلج حيناً آخر، والضيقَ الجسدي، والآلام في القدمين وفي الجنب؛ كان يتذكر انطباعاً عاماً لمصائب البشر وآلامهم؛ كان يتذكّر الفضول الذي أثار قلقه، فضول الضباط والجنرالات الذين كانوا يطرحون عليه الأسئلة؛ ومساعيه ليعثر على عربة وخيل، وكان يتذكّر خاصة عجزه آنذاك عن التفكير والإحساس. لقد رأى في يوم تحرره جثة بيتيا روستوف. وفي اليوم نفسه علم أن الأمير آندريه عاش أكثر من شهر بعد معركة بورودينو وأنه لم يمت إلا منذ وقت قريب، في إياروسلافل، في منزل

١- أوريل: مركز مقاطعة جنوبي موسكو.

آل روستوف. وفي اليوم نفسه، لمَّح دينيسوف الذي علم بهذا النبأ من بطرس إلى موت هيلين في حديثه، معتقداً أنه على علم بذلك منذ وقت طويل. كل ذلك بدا لبطرس غريباً أشد الغرابة. أحس بعجزه عن فهم معنى هذه الأنباء جميعاً. كان يتعجّل فقط ترك هذه الأماكن التي يقتتل فيها الناس إلى ملجأ هادئ يأوي إليه، وهناك يتمالك نفسه ويخلد إلى الراحة والتفكير في كل هذه الأشياء الغريبة وفي الأنباء التي اطلع عليها أثناء هذا الوقت. لكن المرض عاجله، منذ وصوله إلى أوريل. فلما صحا من مرضه، رأى حوله خادمين من خدمه وصلا من موسكو، وهما تيرنتي وفاسكا، وكذلك كبرى الأميرات التي كانت تعيش في إيليتز؛ في أملاك بطرس والتي جاءت للعناية به عندما علمت بتحرره ومرضه.

لم ينعتق بطرس، أثناء نقاهته، من انطباعات الأشهر الأخيرة التي غدت مألوفة عنده إلا ببطء، و لم يتعود إلا تدريجياً الفكرة التالية وهي أنه ما من أحد يمكن أن يمضي به غداً إلى أي مكان آخر، وأنه ما من أحد يمكن أن ينتزع منه فراشه الدافئ، وأنه متأكد من الحصول على غدائه وشايه وعشائه. لكنه ظل زمناً طويلاً، في الحلم يرى نفسه في ظروف الأسر ذاتها. و لم يدرك أيضاً الأخبار التي علم بها عند تحرره: موت الأمير آندريه، موت زوجته، إبادة الفرنسيين، إلا شيئاً فشيئاً وقليلاً قليلاً.

١

إن الإحساس المبتهج بالحرية، هذه الحرية الكلية التي لا يمكن التصرف بها، الخاصة بالإنسان، كان يملأ نفس بطرس، أثناء نقاهته، وكان قد شعر به، لأول مرة، في المرحلة الأولى بعد موسكو. كان يدهش من أن هذه الحرية الداخلية، المستقلة عن الظروف الخارجية تبدو كأنما قد تضاعفت الآن بفيض من الحرية الخارجية، أو بترف من هذه الحرية. كان وحيداً في مدينة غريبة لا يعرف فيها أحداً. لم يكن

يطالبه أحد بشيء؛ و لم يكن يرسله أحد إلى أي مكان آخر. كان عنده كل ما يشتهيه؛ أما فكرة امرأته التي كانت تلازمه أبداً فقد تركته لأن امرأته ماتت.

كان يقول في نفسه، عندما تُقدَّم له المائدة الشهية وعليها حساء ذكي الرائحة، أو عندما ينام في فراش وثير ونظيف، أو عندما يتذكر أنه قد انتهى من زوجته ومن الفرنسيين:

- آه! ما أبدع هذا! وما ألذه!

وكان يتساءل جرياً على عادته القديمة:

- والآن؟ ما الذي سأفعله؟

وسرعان ما يجيب:

- لن أفعل شيئاً. سأعيش. آه! ما ألذّ هذا!

أما ما أقض مضجعه قديماً، وما بحث عنه باستمرار، وهو الهدف من الحياة، فلم يعد موجوداً الآن. وليس من قبيل المصادفة أن يكون الهدف من الحياة الذي طالما بحث عنه غير موجود بالنسبة إليه، لا في هذه اللحظة ولا في غيرها. كان يُحس أنْ ليس هناك هدف ولا يمكن أن يكون هناك هدف. وغياب الهدف هذا هو الذي كان يمنحه ذلك الشعور بالحرية المليء والمبتهج، وهو الشعور الذي كان يصنع سعادته آنذاك.

لم يكن يمكن أن يكون هناك هدف لأنه قد آمن الآن، لا بالقواعد أو الأقوال أو الأفكار، بل بإله حي، حاضر أبداً.

كان يبحث قديماً عن الله في الأهداف التي يقصد إليها. و لم يكن

هذا البحث عن الهدف سوى بحث عن الله؛ وإذا به يدرك في الأسر، لا بالألفاظ أو المحاكمة، بل بالإدراك الحسي المباشر، ما كانت تقوله له مربيته العجوز، قبل ذلك بزمن طويل: إن الله هنا، وهناك، وفي كل مكان. لقد تعلّم في الأسر أن إله كاراتايف أكبر، وأعظم في لا نهائيته، وأعصى على الفهم من مهندس الكون لدى الماسونيين. لقد كان يحس بإحساس مَنْ يعثر عند قدميه على ما كان يبحث عنه، في حين كان يُجهد بصره في النظر بعيداً. لقد ظل، طوال حياته، ينظر إلى مكان بعيد، من فوق رؤوس الذين يحيطون به، في حين كان ينبغي له أن ينظر أمامه، دون أن يجهد بصره.

لم يكن يحسن أن يرى، قديماً، أينما نظر، العظيمَ، الذي لا تبلغه المعرفة، اللامتناهي. كان يحس فقط أنه ينبغي أن يكون في مكان ما وكان يبحث عنه. أما ما كان قريباً ومفهوماً فلم يكن يرى فيه إلا ما هو محدود وحقير ومبتذل ومناف للعقل. كان يتسلح بنظر عقلي بعيد فلا ينظر إلا إلى الأمكنة البعيدة، حيث كان ذلك المبتذل الحقير يبدو، وهو يغيب في الآفاق البعيدة الضبابية، عظيماً ولا متناهياً، لهذا السبب الوحيد وهو أنه لم يتمكن من تمييزه بجلاء. كذلك كان يرى حياة أوروبا، والسياسة، والماسونية، والفلسفة، ومحبة البشر. لكن فكره كان يتغلغل أيضاً آنذاك، في هذه الفترات التي كان يعتبرها ضعفاً، إلى هذه الآفاق البعيدة، وكان يرى فيها نفسَ الأشياء الحقيرة المبتذلة والمنافية للعقل. أما الآن فقد تعلّم أن يرى العظيم، الأزلي، اللامتناهي في كل شيء، ولكي يراه، لكي يستمتع بتأمله، هجر، بطبيعة الحال، منظاره البعيد المدى الذي ظل ينظر به حتى هذه اللحظة من فوق رؤوس الناس، وأخذ يتأمل حوله بفرح الحياة المتبدلة أبداً، العظيمة أبداً، التي لا تبلغها المعرفة، والتي لا نهاية لها. وكلما كان ينظر عن كثب كان يزداد هدوءاً وسعادة. وأما السؤال الرهيب: لماذا؟ الذي كان يدمّر قديماً كل

ما يشيده فكرهُ فلم يعد يطرح نفسه عليه. كان الجواب الوحيد عن ذلك السؤال: «لماذا؟» جاهزاً في نفسه الآن: لأن الله موجود، الله الذي لا تسقط شعرةٌ من رأس الإنسان دون مشيئته.

***

الفصل الرابع عشر

لم يكن بطرس يغير شيئاً من طرائقه أبداً. كان في الظاهر، كما كان من قبل. كان، كسابق عهده، شارد اللب، كأنما كان مشغولاً لا بما هو أمام عينيه، بل بشيء شخصي، خاص. والفرق بين حالته الماضية وحالته الحاضرة هو أنه عندما كان يغفل، في الماضي، عما هو أمام عينيه، وعما يُقال له، فقد كان كأنما يبذل جهده –وإن كان جهداً ضائعاً– وهو يغضن جبهته بألم، لكي يميز شيئاً بعيداً جداً عنه. أما الآن فكان يغفل عما يقال له وعما هو أمام عينيه. إلا أنه صار يتفحّص الآن ما أمامه ويصغي إلى ما يقال له، بابتسامة خفية وكأنها ابتسامة ساخرة، وإن كان من الجلي أنه يرى ويسمع شيئاً آخر، مختلفاً كل الاختلاف. كان يبدو، في الماضي تعساً وإن كان عظيم الحمية والمروءة. ولذلك كان المرء يبتعد عنه، على الرغم منه. أما الآن فكانت تتراقص على أطراف شفتيه ابتسامة ملأى بفرحة الحياة، وكان يشع في عينيه اهتمامه بالآخرين، وكذلك السؤالُ التالي: هل هم مسرورون مثله؟ وكان الناس يسعدون برفقته.

كان، في الماضي، يتكلم كثيراً، ويحتدّ في كلامه، ويصغي قليلاً؟ أما الآن، فقلما كان يُشغف بالحديث وصار يحسن الاصغاء بحيث أخذ الناس يبوحون له بأخلص أسرارهم المكنونة.

وأما الأميرة التي لم تحب بطرس قط، والتي كانت تضمر له مشاعر معادية جداً منذ أن أحست بعد موت الكونت الشيخ، أنها مدينة له، والتي جاءت إلى أوريل وبنيّتها أن تثبت له، بالرغم من عقوقه، أنها ترى من واجبها العناية به، فلم تلبث أن شعرت، بعد إقامة قصيرة في أوريل، بما غاظها أعظم غيظ وبما أدهشها أشد دهشة، شعرت بأنها تحبه. لم يفعل بطرس شيئاً لكسب عطفها ورعايتها. وكان يكتفي بأن يتفحّصها بفضول. كانت تحس قديماً، بشيء من اللامبالاة والسخرية في نظرته، فتتشنّج نفسياً، بحضرته وحضرة الآخرين، ولا تُبدي إلا عن الجانب القتالي من حياتها؛ أما الآن فكانت تحس على العكس، أنه يسعى للتغلغل إلى أعماق كيانها؛ فأخذت تظهر له بحذر أول الأمر، ثم بامتنان بعد ذلك، الجوانب الخيّرة المخبوءة في طباعها.

لم يكن بميسور أمكر الناس أن يتوصل بمثل هذه المهارة إلى ثقة الأميرة موقظاً فيها ذكريات أجمل فترة في شبابها، مبدياً عطفه إزاءها. ومع ذلك، فكل مكر بطرس يكمن في أنه توخى سروره الشخصي وهو يوقظ المشاعر الإنسانية في نفس الأميرة المتسخّطة، الجافة، المتكبرة على طريقتها.

كانت تقول في نفسها:

– نعم، إنه يغدو صالحاً جداً حين يخضع لتأثير أشخاص مثلي، لا لتأثير أشخاص فاسدين.

لاحظ الخادمان، تيرنتي وفاسكا، على طريقتهما، التبدلَ الذي طرأ على نفس بطرس. صارا يجدانه أكثر بساطة من ذي قبل. وكان خادمه تيرنتي، بعد أن يساعده على خلع ملابسه وبعد أن يتمنّى له ليلة سعيدة، كثيراً ما يتأخر في الانصراف، وفي يده حذاؤه وثيابه، أملاً في أن يبدأ

بالحديث. وكان بطرس، في الأغلب، يستوقف تيرنتي حين يرى رغبته في الكلام. ويسأله:

– مهلاً، قلْ لي... كيف تفعل لتوفير الطعام.

ويبدأ تيرنتي قصة عن الضائقة التي تعانيها موسكو، وعن المرحوم الكونت، ويظل وقتاً طويلاً يقص قصته أو يصغي لبطرس أحياناً، والثياب على يده وعندما يخرج إلى البهو فإنما يخرج بشعور مبهج من الألفة الحميمة بينه وبين سيّده ومن المودة نحوه.

ومع أن الطبيب الذي كان يعالج بطرس ويعوده كل يوم، كان يظن نفسه مكرهاً، ككل طبيب، أن يظهر بمظهر الرجل الذي يعدّ كل لحظة من لحظاته نفيسة بالنسبة إلى الإنسانية المتألمة، إلا أنه كان يتأخر ساعات عنده، وهو يقص عليه قصصه المفضلة ويُطلعه على ملاحظاته حول أخلاق المرضى عامة والنساء خاصة.

وكان يقول:

– نعم هذا شخص يستمتع المرء بالحديث معه، لا كما هو الأمر عندنا في المقاطعة.

كان في أوريل بعض الضباط الفرنسيين الأسرى، وجاء الطبيب بواحد منهم، وهو إيطالي شاب.

تعوّد هذا الضابط أن يأتي لزيارة بطرس، وكانت الأميرة تهزأ بالعواطف الرقيقة التي يُبديها الإيطالي لبطرس.

لم يكن الإيطالي يُرى سعيداً إلا عندما كان يستطيع أن يزور بطرس، ويتحدث معه، ويروي له ماضيه، وحياته العائلية، وحبه، ويصب سخطه على الفرنسيين وعلى نابليون خاصة.

كان يقول لبطرس:

– لو أن جميع الروس يشبهونك أقل شبه لكان شنُ الحرب على شعب مثل شعبكم منكراً من المنكرات. فمع أنك تألمت كثيراً من جرّاء الفرنسيين، إلا أنك لا تحقد عليهم.

وهذه المحبة المتوقّدة من الإيطالي لم يكسبها بطرس أيضاً إلا بإيقاظ أجمل جوانب نفسه وبإعجابه بها.

في الآونة الأخيرة من إقامة بطرس في اوريل، زاره أحد معارفه القدماء، الماسوني الكونت ويلارسكي، وهو نفسه الذي استقبله في المحفل الماسوني في عام ١٨٠٧. وكان ويلارسكي قد تزوج روسية ثريّة تملك أملاكاً ضخمة في مقاطعة اوريل، وكان يشغل منصباً مؤقتاً في تموين المدينة.

عندما علم ويلارسكي بوجود بيزوخوف في اوريل، جاء ليراه، مع أنه لم يعرفه قط معرفة وثيقة، مبدياً دلائل الصداقة والمودة الحميمة التي يبديها الناس عادة حين يتلاقون في الصحراء. لقد كان شديد الضجر في اوريل فسعد بلقاء رجل من وسطه يهتم، كما كان يقدّر، بالأشياء التي يهتم بها هو نفسه.

لكن ويلارسكي سرعان ما تبيّن، وهو مدهوش، أن بطرس كان متخلفاً عن مسايرة الأحداث، وأنه سقط –بحسب تعريفه– في الخمول والأنانية.

كان بقول له:

– إنك تتحجّر، يا عزيزي.

وبالرغم من ذلك فإنه كان يُسَرّ أكثر من ذي قبل برفقة بطرس، وكان يأتي كل يوم ليراه. أما بطرس فكان إذا ما فكر، وهو ينظر ويصغي إليه، بأنه كان حتى عهد قريب مثله، بدت له هذه الفكرة غريبة لا تُصدّق.

كان ويلارسكي متزوجاً، ورباً لأسرة، مهتماً بأملاك زوجته، وبمهام وظيفته، وبأسرته. وكان يعتبر أن جميع هذه المشاغل تشكّل عقبة في الحياة وأنها جديرة بالاحتقار، لأن هدفها رفاهه الشخصي ورفاه عائلته. وكانت المسائل العسكرية والإدارية والسياسية والماسونية تستحوذ على انتباهه باستمرار. وكان بطرس يتأمل هذه الحالة الغريبة التي يعرفها حق المعرفة، بسخريته الرفيقة الفرحة أبداً، دون أن يحاول صرفه عن وجهه نظره، ودون أن يلومه.

بدت لدى بطرس، في علاقاته مع ويلارسكي، ومع الأميرة، ومع الطبيب، سمةٌ جديدة أكسبته ودَّ الجميع: كان يُقرّ لكل واحد بقدرته على التفكير والإحساس والنظر إلى الأشياء على طريقته؛ وكان يُقر باستحالة إقناع الآخرين بالكلمات. إن تلك الخصوصية المشروعة في كل إنسان، التي كانت تكدّر بطرس وتثيره، من قبل، غدت الآن الأساس الذي يقوم عليه وده للآخرين واهتمامه بهم. وكان الفرق، أو التناقض المطلق أحياناً، بين آراء الناس وحياتهم، أو فيما بينهم، يبهج بطرس ويثير لديه تلك الابتسامة الساخرة الرفيقة.

أما في الشؤون العملية فقد بات بطرس يحس، مع شيء من الدهشة، أنه يملك المرتكز الذي كان ينقصه من قبل. كانت المسائل المالية، في الماضي، ولاسيما طلبات المال التي كان عُرضة لها في الأغلب، باعتباره رجلاً ثرياً، تُغرقه في الاضطراب والارتباك الذي لا مخرج له، كان يتساءل: «هل ينبغي أن أعطي أم لا؟ إنني أملك المال، وهو محتاج إليه. لكن الآخر أحوج إليه. من منهما أحوج إلى المال؟ ولعلهما كليهما

نصّابان؟» لم يكن ليجد، فيما مضى، مخرجاً أمام كل هذه الافتراضات، فكان يعطي الجميع ما وجد إلى العطاء سبيلاً. كان يُلقي نفسه، قديماً، في الورطة نفسها كلما عُرِضتُ له مسألة متعلقة بمصالحه، عندما كان يرى أحدهم أن من الواجب فعل هذا الشيء ويرى غيره أن من الواجب فعل غيره.

أما الآن فمما أثار دهشته أنه لم يعد يجد، في هذه المسائل، شكاً ولا حرجاً، بل لقد قام في نفسه قاض يقضي بما يجب وبما لا يجب أن يفعله، بموجب قوانين يجهلها هو نفسه. ظل، كما كان قديماً، لا يبالي بالمسائل المالية، أما الآن فكان يعلم علم اليقين ما ينبغي وما لا ينبغي أن يفعله. كان أول حكم صدر عن هذا القاضي الجديد حكمٌ صدر بمناسبة زيارة عقيد فرنسي أسير أسهب في الحديث عن مآثره، وطلب إليه، في النهاية، طلباً يقرب من المطالبة، طلب أربعة آلاف فرنك ليرسلها إلى زوجته وأولاده. فرفض بطرس دون أدنى مشقة أو جهد، وكله دهشة من أنه استطاع أن يقدم بهذه البساطة والسهولة على هذا الأمر الذي كان يبدو له فيما سلف، على درجة من الصعوبة لا سبيل إلى قهرها. وفي الوقت نفسه الذي رفض فيه طلب العقيد، قرر أنه ينبغي عليه أن يستخدم الحيلة، وهو يغادر اوريل، لكي يحمل الضابط الإيطالي على قبول المال الذي كان بادي الحاجة إليه. وكان الدليل الجديد على حزمه في المسائل العملية قراره بشأن ديون امرأته والترميم المحتمل لبيته في موسكو وبيوته الريفية.

لقد جاء وكيله الرئيسي ليراه في اوريل فوضع بطرس معه قائمة بعائداته المتغيّرة. لقد كلفّه حريق موسكو، حسب تقديرات الوكيل، نحو مليونين من الروبلات.

وفي مقابل هذه الخسائر، بيّن له الوكيل، بالاستناد إلى الأرقام، أن

عائداته، بالرغم من هذه الخسائر لن تنقص أبداً، بل إنها ستزداد إذا رفض تسوية الديون التي خلّفتها الكونتيسة، وهي ديون لا يمكن أن يُجبر على دفعها، وإذا عزف عن إصلاح بيوته في موسكو وأملاكه في الضواحي، الذي يكلّف ثمانين ألف روبل سنوياً دون أن يعود عليه بشيء.

قال بطرس وهو يبتسم جذلاً:

– نعم، نعم، هذا صحيح. نعم، نعم، لست بحاجة إلى شيء من ذلك كله. لقد زاد دماري من غناي.

لكن سافيلتش وصل من موسكو، في كانون الثاني، وتحدث عن الوضع في المدينة، وعن التصميم الذي وضعه المهندس لإصلاح بيوت موسكو والضواحي، تحدّث عن ذلك باعتباره أمراً مبتوتاً به. وفي الوقت نفسه، تلقّى بطرس رسائل من الأمير فاسيلي ومن أصدقاء آخرين في بطرسبرج. وكانت هذه الرسائل تدور حول ديون زوجته. فقرّر بطرس أن مشروع الوكيل الذي فتنه كثيراً غيرُ مقبول، وأن عليه أن يذهب إلى موسكو لتصفية ديون امرأته، وأن يعيد بناء بيته هناك. لَمَ كان ذلك ضرورياً؟ إنه لم يكن يعلم؛ لكنه كان على يقين من أن ذلك واجب عليه. وعلى أثر هذا القرار، تناقصت وارداته بمعدل ثلاثة أرباعها لكن ذلك كان ضرورياً؛ لقد كان يحس بذلك.

كان ويلارسكي ينوي الذهاب إلى موسكو فاتفقا على أن يسافرا معاً.

لقد أحس بطرس، أثناء مدة نقاهته في اوريل، بإحساس الفرح والحرية والحياة؛ لكن هذا الإحساس تعاظم أيضاً، عندما ألفى نفسه، أثناء سفره، في الهواء الطلق، وعندما رأى مئات الوجوه الجديدة.

وأثناء الطريق كله، أحس بالفرح الذي يحسه التلميذ في عطلته. لقد اكتسى الناس جميعاً في نظره: الحوذي، ومدير البريد، والفلاحون على الطريق أو في القرى، اكتسى هؤلاء جميعاً معنى جديداً. وكان وجود ويلارسكي وخواطره -وهو لم يكفَّ عن الشكوى من فقر روسيا وتأخرها عن أوروبا، وجهلها- كان ذلك لا يني يزيد من فرحه. فحيث لم يكن ويلارسكي يرى سوى الركود، كان بطرس يرى قوة حيوية ذات قدرة عجيبة، هي تلك القوة التي تتعهّد، في هذه الرحاب المغطاة بالثلج، حياة هذا الشعب بأسره، هذا الشعب المتفرد والمتحد. لم يكن يناقض ويلارسكي، وكان يصغي إليه وهو يبتسم بفرح، وكأنه متفق معه (لأن تصنّع الموافقة كان أبسط السبل لتفادي النقاش الذي لا يفضي إلى شيء).

***

الفصل الخامس عشر

كما أن من العسير أن نشرح لماذ يُسرع النمل الذي خُرِّبت قريتُه، وإلى أين يُسرع، إذ يبتعد بعضه جاراً العساليج والبيوض والجثث، ويعود بعضه الآخر -لماذا يتصادم ويطارد بعضه بعضاً ويقتتل- كذلك من العسير أن نشرح الأسباب التي حدت الروس، بعد رحيل الفرنسيين، على أن يتجمعوا في الموضع الذي كان يدعى موسكو، فيما مضى. لكن كما أننا نرى، حين نلاحظ النمل المنتشر حول قريته المخرّبة، بالرغم من خرابها الكامل، من خلال تشبث هذه الحشرات التي لا عدَّ لها بقريتها، ومن خلال طاقتها ونشاطها، أن كل شيء قد خُرِّب إلا شيئاً واحداً لا سبيل إلى تخريبه، شيئاً غير مادي تقوم عليه كل قوة قرية النمل، كذلك كانت موسكو، في تشرين الأول هي نفس موسكو في آب، بالرغم من أنه لم يكن فيها سلطات ولا كنائس ولا مقدّسات ولا ثروات ولا بيوت. كان كل شيء مهدّماً، ما عدا شيئاً غير مادي، شيئاً قوياً لا يمكن تدميره.

كانت دوافع الناس الذين أخذوا يفدون إلى موسكو من كل صوب بعد جلاء العدو عنها دوافع شتى، شخصيّة، ومعظمها وحشي وبدائي في الآونة الأولى. كان هناك دافع وحيد مشترك بين الجميع هو رغبتهم في العودة إلى هذا المكان الذي كان يُدعى موسكو، فيما مضى، ليستخدموا نشاطهم فيه.

في ظرف أسبوع، بلغ عدد سكان موسكو خمسة عشر ألفاً. وفي ظرف أسبوعين خمسة وعشرين ألفاً، وهكذا دواليك. كان عدد السكان يتزايد باستمرار، فتجاوز هذا العددُ في خريف ١٨١٣ عددهم في ١٨١٢.

كان أول الروس الذين دخلوا موسكو قوزاق مفرزة ونتزنجيرود، وفلاحي القرى المجاورة والسكان الذين اختبؤوا في الضواحي عندما فرّوا من المدينة. فلما دخلوا موسكو المخرّبة وألفوها منهوبة، أخذوا هم أنفسهم ينهبون. لقد كمّلوا ما بدأه الفرنسيون. كانت تجيء إلى موسكو قوافل من الفلاحين لتحمل إلى قراها ما خلّفه الفرنسيون في البيوت والشوارع. وحمل القوزاق إلى معسكراتهم كل ما أمكنهم حمله. وأخذ مالكو البيوت كل ما عثروا عليه في بيوت أخرى ونقلوه إلى بيوتهم بحجة أنه ملكهم.

وتبعَ الناهبين الأول ناهبون آخرون، وآخرون أيضاً، ثم غدا النهب، يوماً بعد يوم، ومع تزايد عددهم، أصعب، واتخذ أشكالاً أدق وأوضح.

وجد الفرنسيون موسكو خالية، لكنها كانت تحتوي على جميع الأشكال العضوية لحياة طبيعية منظمّة، بمختلف وظائفها التجارية والمهنية والكمالية والإدارية والدينية. كانت هذه الأشكال فاقدة للحياة لكنها كانت ماتزال موجودة. كان في موسكو أسواق ودكاكين وحوانيت ومستودعات وأسواق للخضار. معظمها مملوء بالسلع؛ وكان فيها مصانع ومشاغل حرفية؛ وكان فيها قصور، وبيوت خاصة ثرية ملأى بالتحف؛ وكان فيها مستشفيات وسجون ودوائر عامة وكنائس وكاتدرائيات. وكانت هذه الأشكال من حياة المدينة تتفكك كلما طالت إقامة الفرنسيين، وفي النهاية تحول كل شيء إلى ميدان واحد من الخراب والنهب.

كان نهب الفرنسيين، كلما امتدّ استنزف ثروات موسكو وقوى الناهبين. أما نهب الروس الذي بدأت به عودتُهم إلى العاصمة فكان، كلما طال ازداد عددُ المشتركين فيه، وعجّل في استرجاع ثروات موسكو وحياة المدينة الطبيعية.

فضلاً عن الناهبين، أخذ يفد إلى موسكو ناسٌ من مختلف المشارب كما يفد الدم إلى القلب. منهم من دفعه الفضول، ومنهم من دفعته واجبات الخدمة، ومنهم مَنْ دفعته المصلحة، من ملاكين ورجال دين وموظفين كبار وصغار، وتجار، وحرفيين وفلاحين.

وفي مدى ثمانية أيام، صادرت السلطات الفلاحين الذين جاؤوا بعرباتهم كي يحملوا عليها الأشياء المسروقة، لنقل الجثث خارج المدينة. وجاء فلاحون آخرون عرفوا ما أصاب رفاقهم من سوء الحظ، بالقمح والشوفان والتبن إلى المدينة، وتنافسوا في تنزيل الأسعار حتى انخفضت إلى ما دون معدّلها في السابق. وأخذت تصل كل يوم إلى موسكو، فرقٌ من النّجارين. أملاً بالأرباح الباهظة. وبدأت تبني وتصلح البيوت المحترقة. في جميع أرجاء المدينة. وراح التجار يفتحون الدكاكين في الخصاص. وقامت الحاناتُ والنزل في البيوت المحترقة. وأدى رجال الدين الخدمة الدينية في كثير من الكنائس التي نجت من النيران. وأعاد بعضُ الواهبين تحفاً للعبادة كانت منهوبة. ووضع الموظفون مكاتبهم المغطاة بالقماش وخزائنهم مع أضابيرها، في غرف صغيرة. وشرعت السلطات العليا والشرطة بتوزيع الأرزاق التي تركها الفرنسيون. وراح أصحابُ البيوت التي وجدت فيها أشياء آتية من بيوت أخرى، يتظلمون من حشد جميع الأموال المنقولة في «القصر ذي الوجوه[1]»؛

---

١ – «في القصر ذي الوجوه»: أقدم جزء في قصر الكرملين بناه في ١٤٩١ المهندسان الايطاليان روفو وسولاري.

بينما ذهب آخرون إلى أن الفرنسيين نقلوا الأشياء من بيوت مختلفة إلى بيت واحد وأن من الظلم أن يُترك لمالك البيت ما وجده في بيته. وكان الناس يحملون على يحملون على رجال الشرطة، ويرشونهم، ويبالغون في تقدير أموال الخزينة المحروقة، ويطلبون النجدة. وكان الكونت روستوبتشين يحرّر بلاغاته.

***

الفصل السادس عشر

في أواخر كانون الثاني، وصل بطرس إلى موسكو وأقام في جناح ظل سليماً. وقد قام بزيارة الكونت روستوبتشين وبعض معارفه العائدين إلى موسكو، وفي اليوم الثالث تأهّب للسفر إلى بطرسبرج. كان الناس جميعاً يحتفلون بالنصر؛ وقد أخذ كل شيء يفور بالحياة، في العاصمة المخربة والمنبعثة. سعد كل الناس بلقاء بطرس؛ وكان كل واحد يرغب في رؤيته، وأخذ الجميع يسألونه عما رأى. وكان بطرس يحس في نفسه استعداداً لأخلص المودة تجاه كل الذين يلقاهم؛ لكنه كان يتحفّظ، بالرغم منه، إزاء الجميع حتى لا يكلف نفسه الالتزام بشيء. وكان يجيب عن كل الأسئلة التي تُطرح عليه، سواء أكانت مهمة أم تافهة، كأنْ يُسأل أين سيسكن، وهل ينوي إعادة البناء، ومتى سيذهب إلى بطرسبرج، وهل يقبل بحمل صندوق صغير معه، كان يجيب: نعم، ربما، أقدّر ذلك، الخ.

علم بصدد آل روستوف أنهم كانوا في كوستروما، وقلما كانت ناتاشا تخطر بباله، وحتى عندما كانت تمر بباله، فكالذكرى الحلوة لماض انقضى عهده منذ زمن طويل. وكان يحس بنفسه أنه انعتق لا من جميع احتمالات الحياة فحسب، بل وأيضاً من هذا الشعور الذي خُيِّل إليه أنه ابتعثه عن عمد.

في اليوم الثالث من وصوله، علم من آل دروبتزكوي أن الأميرة ماريا في موسكو. كان موت الأمير آندريه وآلامه وأيامه الأخيرة كثيراً ما تخطر على باله وقد جاءته الآن بشدة لم يعهدها من قبل. وعندما علم، أثناء الغداء، أن الأميرة ماريا في موسكو وأنها تسكن في فوزدفيجنكا الذي ظل سليماً، قصد إليها، في المساء نفسه.

لم يكفّ، خلال الطريق، عن التفكير في الأمير آندريه، في صداقتهما، في لقاءاتهما المختلفة ولاسيما في لقائهما الأخير ببورودينو.

وفكّر في نفسه:

«أمن الممكن أن يكون قد مات في تلك الحالة النفسية المتسخطة التي كان عليها آنذاك؟ أمن الممكن ألا يكون قد انكشف له تفسير الحياة؟».

وتذكّر كاراتايف، وموته، وأخذ يوازن، على الرغم منه، بين هذين الرجلين، المختلفين أشد اختلاف والمتشابهين، مع ذلك، أشد تشابه بما كان يحمل لهما من حب، وأيضاً لأنهما كليهما عاشا ولقيا الموت.

بلغ بطرس منزل الأمير العجوز، وهو في أعظم حالات الجد. وكان هذا البيت قد ظل سليماً. كانت تُرى فيه بعضُ آثار التلف، لكن طابعه لم يتبدل قال الخادم العجوز الذي استقبل بطرس بوجه صارم، وكأنما أراد أن يُشعر الزائر أن غياب الأمير لم يغيّر شيئاً من عادات البيت، إن الأميرة صعدت إلى شقتها وأنها تستقبل زائريها في نهار الأحد.

قال بطرس:

– أخبرها بوجودي، فربما استقبلتني.

أجاب الخادم:

- أنا رهن أوامرك، تفضل وادخل قاعة اللوحات.

بعد لحظات عاد الخادم يصحبه ديسال. قال ديسال لبطرس، على لسان الأميرة، أنها ستكون سعيدة برؤيته، وأنها ترجوه، إذا قبل بمعذرتها على تبذّلها، أن يصعد إلى حجرتها.

وجد الأميرة وامرأة أخرى، بثوب أسود، في غرفة صغيرة منخفضة السقف، تنيرها شمعة واحدة. تذكّر بطرس أن الأميرة كانت تستبقي بجنبها رفيقات لها، لكنه كان يجهل من هنّ ولم يكن يذكر ذلك.

فكّر وهو يلقي نظرة على السيدة ذات الثوب الأسود: «هذه إحدى رفيقاتها».

نهضت الأميرة بعجلة عند دخوله ومدت إليه. وقالت وهي تتفرس في وجهه المتغيّر، بعد أن قبّل يدها:

- نعم، أرأيتَ كيف نتلاقى.

ثم قالت وهي تنقل بصرها عن بطرس إلى رفيقتها باستحياء أدهش بطرس لحظة من الزمن:

- وكان يتحدث عنك كثيراً، في الآونة الأخيرة أيضاً. كنت سعيدة جداً حين علمت أنك نجوت. هذا هو الخبر المعزّي الوحيد الذي جاءنا منذ زمن بعيد.

ومرة أخرى، وبقدر أكبر من القلق، مدّت الأميرة بصرها إلى رفيقتها وأرادت أن تقول شيئاً؛ لكن بطرس قاطعها قائلاً:

- تصورّي أنني ما كنت أعرف شيئاً عنه. كنت أظنه مقتولاً. وكل ما علمته فقد علمته من الآخرين، من مصدر ثالث. عرفتُ فقط أنه كان في منزل آل روستوف. يا لأعاجيب القدر!

كان بطرس يتكلم بسرعة، واندفاع. رمى رفيقتها ببصره فآنس منها نظرة متنبهة، ودية، مستطلعة ترمقه، وكما يقع في الحديث غالباً، أحسّ دون أن يعرف لماذا، أن هذه السيدة ذات الثوب الأسود إنسان لطيف، طيب، لن يعكّر صفو الحديث الحميم مع الأميرة ماريا.

لكنه عندما نطق بالكلمات الأخيرة عن آل روستوف، تزايد الارتباك على وجه الأميرة ماريا. فانتقلت عيناها مرة أخرى من وجه بطرس إلى وجه السيدة ذات الثوب الأسود وقالت:

– ألم تعرفها؟

نظر بطرس من جديد إلى الوجه النحيف الشاحب، ذي العينين السوداوين والفم الغريب. كان شيء قريب، منسيّ منذ زمن طويل وأعزّ من عزيز ينظر إليه بهاتين العينين المتنبّهتين.

وفكّر: «كلا، هذا غير ممكن؟ هذا الوجه الصارم، الناحل، الشاحب، الشائخ؟ لا يمكن أن يكون إياها. هذا ظل لها». لكن الأميرة ماريا قالت في هذه اللحظة: «ناتاشا». وتبسم الوجه ذو العينين المتنبهتين بمشقة وجهد، كما ينفتح باب صدئ، ومن هذا الباب المفتوح، وافتْ بطرس نفحةٌ من تلك السعادة المنسيّة منذ زمن طويل والتي لم يكن يفكر فيها، في هذه اللحظة خاصة. وافته هذه النفحةُ ولفّته وغمرته غمراً. وعندما تبسمت انجلى الشك. لقد كانت ناتاشا؛ ناتاشا التي يحبها.

منذ اللحظة الأولى، فضح بطرس، بالرغم منه، أمامها وأمام الأميرة، وأمام نفسه خاصة، السرَّ الذي كان مايزال يجهله. فقد احمرّ من الفرح والألم وأراد أن يخفي انفعاله. لكنه كان كلما حاول إخفاءه، كشف على نحو أوضح، أوضح من أدق الكلمات، لنفسه ولها وللأميرة ماريا، أنه يحبها.

وفكّر بطرس: «لا، كل هذا من أثر المفاجأة». لكنه ما إن أراد استئناف الحديث مع الأميرة ماريا، حتى نظر إلى ناتاشا مرة أخرى، فغطت وجهه حمرةٌ أشد من ذي قبل، واجتاح نفسه انفعالٌ أشد أيضاً، انفعال من الفرح والخوف، وتخبط في أقواله، وتوقف في منتصف الجملة.

لم يلاحظ بطرس ناتاشا لأنه لم يكن يتوقع على الإطلاق أن يراها هنا، لكنه إن لم يكن قد عرفها فذلك لأن التغيّر الذي أصابها منذ آخر مرة رآها فيها، كان عظيماً. لقد هزلت وشحبت. لكن الذي جعلها لا تُعرف إلا بعد جهد شيءٌ غير هذا: لقد كان مستحيلاً أن يعرفها للوهلة الأولى، عند دخوله، لأنه لم يجد على ذلك الوجه، وفي هاتين العينين اللتين كانت تلتمع فيهما دائماً ابتسامة خفية من فرحة الحياة، لم يجد الآن، حين دخل ونظر إليها للمرة الأولى، ولو ظِلْ ابتسامة؛ لم يجد سوى هاتين العينين المتنبهتين، الطيبتين، المحمّلتين باستفهام حزين.

لم يُسفر اضطراب بطرس عن اضطراب لدى ناتاشا، لكنه أسفر عن ابتهاج أضاء وجهها على نحو لا يكاد يُلحظ تقريباً.

***

الفصل السابع عشر

قالت الأميرة ماريا:

- جاءت لتقضي بعض الوقت معي. وسيصل الكونت والكونتيسة في هذه الأيام. الكونتيسة في حالة فظيعة. لكن ناتاشا نفسها كانت بحاجة إلى أن ترى طبيباً، لقد أُجبرتْ على مرافقتي.

قال بطرس مخاطباً ناتاشا:

- نعم، وهل من أسرة خلتْ من الألم؟ أتعلمين أن ذلك وقع في يوم تحرري بالذات. لقد رأيته. أيّ فتى ساحرٍ كان!

كانت ناتاشا تنظر إليه، وجواباً عن أقواله اتسعت عيناها فقط ازداد بريقهما.

وأضاف بطرس:

- ما الذي يمكن أن يقوله المرء ليعزّي الآخرين؟ لا شيء. لَمَ قُدّر الموت على فتى في مثل لطفه وامتلائه بالحياة؟

قالت الأميرة ماريا: .

- نعم، من العسير أن يعيش الإنسان، في أيامنا هذه، بدون الإيمان...

فقاطعها بطرس بعجلة:

– نعم، نعم. هذه هي الحقيقة الخالصة.

سألت ناتاشا وهي تمعن النظر في عينيه:

– لماذا؟

قالت الأميرة ماريا:

– كيف لماذا؟ إن مجرد التفكير فيما ينتظرنا هناك...

لم تصغ إليها ناتاشا حتى النهاية، وألقت على بطرس، مرة أخرى، نظرة مستفهمة.

واستأنف بطرس كلامه:

– وأيضاً لأن الذي يؤمن بأن هناك إلهاً يرشدنا هو وحده القادر على احتمال خسارة كخسارتها و.... خسارتك.

كانت ناتاشا قد فتحت فاها لتقول شيئاً، لكنها توقفت فجأة. فبادر بطرس إلى الإشاحة بوجهه عنها وخاطب الأميرة ماريا مرة أخرى. سألها عن أيام صديقه الأخيرة. لقد اختفى اضطراب بطرس بأكمله تقريباً؛ لكنه كان يحسِ أن حريته القديمة قد اختفت في الوقت نفسه. كان يحس أن هناك حَكماً عليٍ كل قول من أقواله وكل فعل من أفعاله، وأنه يتمسّك بحُكْم هذا الحكم أكثر مما يتمسك بحكم العالم بأسره. كان يتكلم، ويزن، عند كل كلمة من كلماته، الأثر الذي كانت تُحدثه في ناتاشا. لم يكن يقول قصداً ما يمكن أن يرضيها؛ لكنه كان يحكم على نفسه من وجهة نظرها هي، أياً كان قوله.

بدأت الأميرة ماريا «على مضض، كما يقع لها دائماً، في الكلام

على الحالة التي وجدت فيها الأمير آندريه. لكن أسئلة بطرس ونظرته المتّقدة، القلقة، ووجهه المختلج من التأثر ساقاها شيئاً فشيئاً إلى الدخول في التفاصيل التي كانت تخشى على نفسها من إيقاظها في خيالها.

كان بطرس يردد وهو منحن بجسده كله نحو الأميرة ماريا مصغياً بنهم إلى روايتها:

-نعم، نعم، وهو كذلك، وهو كذلك.... نعم، نعم؛ وإذن فقد هدأت نفسه وسكنت؟ لقد كان يسعى دائماً، بكل ما في نفسه من قوة، وراء شيء واحد: أن يكون كامل الطيبة إلى الحد الذي لا يخشى معه الموت. أما عيوبه، إن كانت له عيوب، فلم تكن تأتي منه. وإذن فقد سكنت نفسه؟

ثم قال لناتاشا وهو يلتفت فجأة إليها وقد اغرورقت عيناه بالدموع:

- يا لها من سعادة أن يكون قد رآك.

اختلج وجه ناتاشا. قطبت حاجبيها وخفضت بصرها لحظة. وتردّدتْ ثانية قبل أن تتكلم، ثم قالت بصوت عذب، خافت:

- نعم، كان ذلك سعادة لي من غير شك. وصمتت لحظة. أما هو... هو... فكان يقول إنه كان يتمنى ذلك في اللحظة التي جئتُ فيها إليه...

وتهدّج صوت ناتاشا، واحمرت، وقبّضتْ يديها على ركبتيها، وبدا عليها أنها تتحامل على نفسها، ثم رفعت رأسها وأخذت تتكلم بسرعة:

- لم نكن نعلم شيئاً عند مغادرتنا لموسكو. ولم أكن أجرؤ على

الاستخبار عنه. وفجأة قالت لي صونيا إنه كان معنا. لم أكن أفكر في شيء، و لم أكن أستطيع تمثّل الحالة التي كان فيها.

وقالت وهي ترتجف وتلهث:

– كنت أرغب في رؤيته فقط، في أن أكون معه.

ثم روتْ، دون أن تتيح لأحد أن يقاطعها، ما لم تروه قبل الآن لأحد: روت كل ما مرّ بها أثناء الأسابيع الثلاثة من السفر والإقامة في إياروسلافل.

كان بطرس يصغي إليها فاغراً فاه، من غير أن يرفع عنها عينيه المغرورقتين بالدموع. لم يكن يفكّر، وهو يصغي إليها لا بالأمير آندريه، ولا بالموت، ولا بما ترويه. كان يُصغي إليها ويرثي لها فقط بسبب الألم الذي تعانيه في هذه اللحظة، وهي تروي روايتها.

كانت الأميرة جالسةً قرب ناتاشا، وقد تقبّض وجهها من جراء الجهد الذي كانت تبذله لكي تحبس دموعها، تصغي لأول مرة إلى قصة هذه الأيام الأخيرة من الحب بين أخيها وناتاشا.

كانت هذه القصة المؤلمة والمريحة حاجة ضرورية لناتاشا، كما هو واضح.

كانت تتحدث مازجة أتفه التفاصيل بأخلص الأسرار الحميمة، وتبدو كأنها لا تريد أن تنتهي. وقد كررت الشيء نفسه عدة مرات.

سُمع صوت ديسال خلف الباب، سائلاً إن كان نيقولا الصغير يستطيع الدخول للتحية.

قالت ناتاشا:

– هذا كل شيء، كل شيء...

ونهضت على عجل في اللحظة التي دخل فيها نيقولا الصغير، وهُرعت إلى المخرج، فاصطدم رأسها بالباب الذي كان يستره السِجفُ وولّت هاربة وهي تئن إما من الألم أو من الحزن.

نظر بطرس إلى الباب الذي خرجت منه ولم يفهم لم ظلّ فجأة وحيداً في العالم.

وضعت الأميرة ماريا حداً لهواجسه إذ استرعت انتباهه إلى ابن أخيها الذي دخل الغرفة.

أثّر وجهُ نيقولا الصغير الذي يشبه وجه أبيه تأثيراً قوياً في بطرس، في تلك اللحظة من الرقة التي غمرت نفسه حتى أنه بعد أن عانقه، نهض على عجل وأخرج منديله، ومضى إلى النافذة. أراد أن يستأذن الأميرة بالانصراف لكنها استبقته:

–كلا، فكثيراً ما يقع لنا: ناتاشا وأنا، ألا ننام قبل الساعة الثانية صباحاً؛ ابقَ، أرجوك. سأطلب إعداد العشاء. انزل؛ وسوف نلحق بك على الفور.

وقبل أن ينزل بطرس، قالت له الأميرة:

– هذه أول مرة تتحدث فيها عنه على هذا النحو.

***

الفصل الثامن عشر

قاد الخدمُ بطرس إلى صالة الطعام الكبيرة والمضاءة؛ وبعد لحظات سُمع وقعُ خطوات، ودخلت الأميرة ماريا الصالة ومعها ناتاشا. كانت ناتاشا هادئة، مع أن وجهها قد استعاد تعبيره الصارم، بدون ابتسام. وكانت الأميرة ماريا وناتاشا وبطرس يشعرون على السواء بذلك الإحساس من الضيق الذي يتلو في العادة حديثاً جاداً وحميماً. ذلك أن العودة إلى الحديث نفسه مستحيلة؛ وهناك تحرّج من التحدث بالأمور التافهة، كما أن السكوت كريه لأن في النفس شهوة للكلام، ولزومُ الصمت يبدو تكلّفاً. اقتربوا من الطاولة دون أن ينطقوا بكلمة. جذب الخدم الكراسي ثم قرّبوها. بسط بطرس فوطته الباردة ونظر إلى ناتاشا والأميرة ماريا وقد قرر أن يقطع الصمت. وكان ظاهراً عليهما أنهما قررتا الشيء نفسه؛ ففي عينيهما كلتيهما التمع السرورُ بالحياة والاعترافُ بأن هناك، وراء الحزن، أفراحاً أيضاً.

قالت الأميرة ماريا:

– هل تتناول الفودكا، يا كونت؟

فطردت هذه الكلمات فجأة ظلال الماضي.

ثم قالت:

– هات، حدثنا عن نفسك، فالناس يروون عنك أشياء غريبة.

أجاب بطرس وعلى شفتيه ابتسامة من السخرية الناعمة التي غدت عادية عنده:

–نعم، إن الناس يروون لي أنا نفسي أشياء غريبة ما كنت لأتخيّلها. لقد دعتني ماريا أبراموفنا إلى منزلها وروت لي بإسهاب ما وقع لي أو ما لابد أن يقع لي. كما أن ستيبان ستيبانيتش علمني ما الذي ينبغي أن أرويه. لاحظت، على العموم، أنّ من المريح أنْ يكون المرء مثيراً للاهتمام (وأنا حالياً كذلك)، والناس يَدْعونني ويروون لي كل شيء.

تبسّمت ناتاشا وأرادت أن تقول شيئاً.

قاطعته الأميرة ماريا قائلة:

– بلغنا أنك خسرت مليونين في موسكو، هل هذا صحيح؟

– وقد غدوتُ أغنى بثلاث مرات.

ظل بطرس يروي أنه أغنى بثلاث مرات، بالرغم من ديون زوجته ومن ضرورة إعادة البناء، الأمر الذي غيّر من وضعه.

ثم بدأ كلامه بلهجة رصينة:

– إن ما ربحته هو، بدون أدنى ريب، الحريةُ...

ثم عدل عن الكلام إذ وجد أن الحديث في مثل هذا الموضوع مفرطٌ في أنانيته.

– أنت عازم على إعادة البناء؟

– نعم، سافيلتش يريد ذلك.

وسألته الأميرة ماريا:

- قل لي، أما كنت تعلم بموت الكونتيسة عندما بقيت في موسكو؟

وسرعان ما احمرت إذ فطنت أنها بإلقائها هذا السؤال بعد أن قال عن نفسه: إنه حر، إنما تعطي أقواله معنى لعله لم يكن فيها.

أجاب بطرس الذي لم يبد عليه أنه تضايق من تأويل الأميرة ماريا لتلميحه إلى حريته.

- لا، وإنما علمتُ بذلك في اوريل، ولا تستطيعين أن تتصوري كم أذهلني النبأ.

وقال بحيوية وهو يرمي بنظرته ناتاشا قارئاً على وجهها فضولها في أن تعرف كيف سيتحدث عن زوجته:

- لم نكن زوجين نموذجيين. وعندما يتخاصم شخصان فالأخطاء تقع على كلا الجانبين. وتغدو غلطتك فجأة ثقيلة ثقلاً فظيعاً نحو إنسان قضى نحبه. ثم إن ميتةً كهذه الميتة.... بلا أصدقاء، ولا عزاء.

وختم كلامه قائلاً:

إنني أرثي لها كثيراً، كثيراً.

ولاحظ بسرور استحساناً بهيجاً على وجه ناتاشا.

قالت الأميرة ماريا:

-نعم، ها إنك عزب مرة أخرى وصالح للزواج.

تضرّج وجه بطرس فجأة وجهد وقتاً طويلاً في ألا ينظر إلى ناتاشا. وعندما عزم على النظر بدا له وجهها بارداً، صارماً بل ومستخفاً.

وسألته الأميرة ماريا:

– لكنك رأيت نابليون بذاته، وتحدثت إليه، كما قيل لنا؟

فضحك بطرس.

– لم أره قط، ولا مرة واحدة. يُخيّل إلى الناس دائماً أن كون الإنسان أسيراً يعني أنه ضيف نابليون. إني لم أره، بل إني لم أسمع أحداً يتحدث عنه. كنت برفقة جماعة أسوأ بكثير.

كان العشاء يقارب نهايته، وانساق بطرس الذي أبى الكلام على أسره أول الأمر، انساق شيئاً فشيئاً إلى أن يروي قصة هذا الأسر.

سألته ناتاشا وهي تبتسم ابتسامة خفيفة:

– أصحيح أنك بقيت لتقتل نابليون؟ تنبأت بذلك عندما التقينا عند برج سوخاروف؛ أتذكرُ؟

اعترف بطرس بأن ذلك صحيح، وبدءاً من هذه الملاحظة، ساقته أسئلةُ الأميرة ماريا وأسئلة ناتاشا بخاصة، شيئاً فشيئاً، إلى روايةٍ مفصلة لمغامراته.

تحدث أول الأمر حديثاً عليه مسحة من تلك السخرية العذبة التي أخذ يصطنعها تجاه الآخرين وتجاه نفسه خاصة؛ لكنه عندما وصل في حديثه إلى رواية الأهوال والآلام التي رآها، انساق وراء عواطفه دون أن يفطن لذلك وتكلم بالانفعال المكظوم الذي يتكلم به مَنْ يعيش بالذكرى مرة أخرى إحساسات مؤلمة.

كانت الأميرة ماريا تنظر إلى بطرس تارة، وإلى ناتاشا تارة أخرى، وعلى شفتيها ابتسامة حلوة. ولم تكن ترى في هذه القصة كلها سوى

بطرس وطيبته. أما ناتاشا التي اتكأت على مرفقها وأخذ تعبير وجهها يتبدّل باستمرار مع القصة، فكانت لا ترفع عينيها عن بطرس، وبدا عليها أنها تعيش معه ما كان يرويه. كان تعجبّها وأسئلتها القصيرة، لا نظرتها وحدها، تبرهن لبطرس على أنها كانت تفهم بالضبط ما أراد أن يقوله. وكان جلياً أنها لا تفهم ما كان يرويه فحسب، بلى إنها كانت تفهم أيضاً ما يريد وما تعجز الكلمات عن التعبير عنه. وقد روى حادثة الطفل والمرأة اللذين كان دفاعه عنهما سبباً لتوقيفه، على النحو التالي:

– كان مشهداً فظيعاً، كان هناك أولاد متروكون، بعضهم في اللهب... لقد سُحب أحدهم أمام عيني... نساء كُن يُنهبن وتُنتزع أقراطهن....

احمر بطرس وارتبك.

– وحينئذ ظهرت دورية فجأة وساقت الناس جميعاً، الذين لم يكونوا ينهبون، جميع الناس. وأنا أيضاً.

قالت ناتاشا:

– من المؤكد أنك لا تروي كل شيء؛ لابد أنك فعلتَ شيئاً...

وأضافت بعد صمت:

– جميلاً.

تابع بطرس قصته. وعندما تحدّث عن الإعدام أراد أن يسكت عن بعض التفاصيل البشعة، لكن ناتاشا أصرت ألا يسكت عن شيء.

بدأ بطرس كلامه على كاراتايف (وكان قد نهض عن الطاولة وأخذ يمشي ذهاباً وإياباً، وناتاشا تتبعه ببصرها)، لكنه توقّف.

– لا، لا يمكنكما أن تفهما كل ما تعلمته من هذا الأمي، من هذا البسيط.

قالت ناتاشا:

– بلى، بلى، تكلّمْ. أين هو؟

– قتلوه أمام عينيّ تقريباً.

وروى بطرس قصة الآونة الأخيرة من تراجعهم، ومرض كاراتايف (كان صوته دائم التهدّج) وموته.

كان بطرس يروي مغامراته كأنه لم يستذكرها قط من قبل. لقد بات يرى الآن في كل ما عاشه ما يشبه المعنى الجديد. وبات يحسّ الآن، وهو يروي ذلك كله لناتاشا بتلك الفرحة النادرة التي توفّرها النساء حين يصغين إلى الرجل، لا النساء الذكيات اللواتي يبذلن جهدهن، وهن يصغين، في أن يحفظن ما يُقال لهن كي يُغنين ذكاءهن، وكي يُعدْنه، إذا اقتضت المناسبة، أو كي يُرتّبنه على طريقتهن ويُذعن بأسرع ما يمكن خواطرهن الذكية، وهي نتاج مطبخهن الفكري الصغير؛ بل الفرحة التي توفّرها النساء الحقيقيات اللواتي أوتين موهبة انتقاء أفضل بوادر الرجل واستيعابها. كانت ناتاشا كلها أذناً صاغية، وإن لم تعلم بذلك. لم تكن تُضيع أية كلمة من كلمات بطرس، ولا أية نبرة من نبرات صوته، ولا أي نظرة من نظراته، ولا أية اختلاجة من اختلاجات عضلة وجهه، ولا أية حركة من حركاته. كانت تتلقف، على عجل، الكلمة الطالعة وتحملها رأساً إلى قلبها المفتوح، مستشفّةً المعنى الخفي لما يعتمل في أعماق بطرس.

كانت الأميرة ماريا تفهم القصة، وتشارك فيها، لكنها كانت ترى

الآن شيئاً آخر يستغرق انتباهها؛ كانت ترى إمكانية الحب والسعادة بين ناتاشا وبطرس. وملأت هذه الفكرة التي خطرت لها لأول مرة قلبها بالفرح.

أوفت الساعة على الثالثة صباحاً. وكان الخدم يأتون لتغيير الشموع، ووجوههم حزينة، عابسة، من غير أن يلحظهم أحد.

أنهى بطرس قصته. وظلت ناتاشا شاخصة إليه، تمعن النظر فيه بعينين ملتمعتين، متوقدتين، كأنها تريد أن تفهم ما بقي عليه أن يقوله وما لعله لم يعبّر عنه. وكان بطرس ينظر إليها بين الحين والآخر، وقد امتلأت نفسه بضرب من الارتباك السعيد، ويبحث عن شيء يقوله ليغير الحديث. وأخلدت الأميرة ماريا إلى الصمت.

لم يخطر ببال أحد منهم أن الساعة هي الثالثة صباحاً وأن وقت النوم قد حان.

قال بطرس:

– يتحدث الناس عن الشقاء والآلام، لكن لو قيل لي الآن، في هذه اللحظة بالذات: أتريد أن تبقى كما كنت قبل الأسر أو أن تعيش ثانية ذلك كله منذ البداية؟ لقلتُ: فَلْيعدْ إليّ الأسرُ ولحم الحصان. نحن نعتقد أننا إذا ما أُلْقينا خارج نطاق حياتنا العادية، فقدنا كل شيء؛ بيد أنه منذ هذه اللحظة فقط إنما يبدأ شيء جديد، شيء خير. السعادة موجودة مادامت الحياة موجودة. وأمامنا الكثير الكثير من الأشياء.

وأضاف مخاطباً ناتاشا:

– إنما أقول هذا لك.

قالت، مجيبةً عن شيء آخر:

- نعم، نعم؛ وأنا أيضاً، لم أكن أرغب في شيء سوى أن أعيش ثانية حياتي منذ البداية.

نظر بطرس بإمعان. فأكّدت ناتاشا:

- نعم، لا شيء سوى ذلك.

فصاح بطرس:

- هذا غير صحيح، غير صحيح ليست غلطتي إن كنتُ حياً وإن أردتُ الحياة؛ ولا غلطتك أيضاً.

وفجأة ألقت ناتاشا رأسها بين يديها وبكت.

سألتها الأميرة ماريا:

- ناتاشا، ما بك؟

- لا شيء، لا شيء، إلى اللقاء. لقد حان وقت النوم.

وابتسمت لبطرس من خلال دموعها.

نهض بطرس واستأذن بالانصراف.

التقت الأميرة ماريا وناتاشا كعادتهما في غرفة النوم. تحدثتا عما رواه بطرس. لم تقل الأميرة ماريا رأيها ببطرس. وكذلك لم تتحدث عنه ناتاشا.

قالت ناتاشا:

- طيب! ليلة سعيدة، يا ماريا. أتعلمين، أخشى كثيراً، لفرط ما

نتغاضى عن ذكره (ذكر الأمير آندريه) وكأننا نخاف أن نغضّ من عاطفتنا، أخشى أن ننساه.

تنهدّت الأميرة ماريا تنهداً عميقاً، ودلّتْ بتنهدها أن ناتاشا تقول الحقيقة؛ لكن لسانها لم يسلّم بذلك فقالت:

– وهل يمكننا أن ننسى؟

قالت ناتاشا:

– لقد خفّف من همي كثيراً أننا روينا كل شيء، كان ذلك شاقاً ومؤلماً وحلواً. خفّف ذلك من همي كثيراً؛ أنا متأكدة من أنه كان يحبه حقاً. ولذلك رويتُ له....

وسألتها فجأة وهي تحمرّ:

– هل أخطأت حين رويتُ له ذلك؟

قالت الأميرة ماريا:

– لبطرس؟ أوه! لا! ما أكرم نفسه!

قالت ناتاشا فجأة وهي تبتسم ابتسامة ماكرة لم ترها الأميرة ماريا على وجهها منذ زمن طويل:

– أتعلمين، يا ماريا، أنه غدا عظيم النظافة والرونق والنضارة؛ فكأنما هو خارج من الحمّام؛ أتفهمين؟ من حمّام معنوي. أليس كذلك؟

قالت الأميرة ماريا: .

– نعم لقد اغتنى كثيراً.

– ومعطفه الأسود القصير، وشعره المقصوص، تماماً، نعم، تماماً كأنه خارج من الحمام... مثل أبي قديماً...

قالت الأميرة ماريا:

– إنني أفهم لَمَ لَمْ يحب (الأمير آندريه) أحداً كما أحبه.

– نعم، وهو مختلفٌ عنه. يقال إن الرجال يغدون أصدقاء إذا كانوا مختلفين كل الاختلاف. لابدّ أن ذلك صحيح. أليس كذلك، إنه لا يشبهه في شيء؟

– لا، وهو رائع.

أجابت ناتاشا:

– طيب! ليلة سعيدة.

وظلت الابتسامة الماكرة زمناً طويلاً على وجهها، وكأنها نسيتها عليه.

***

الفصل التاسع عشر

ظل بطرس زمناً طويلاً دون أن يتمكن من النوم في هذا اليوم؛ كان يتمشى في غرفته جيئة وذهاباً، مقطّب الحاجبين، مفكراً في أمر عسير، هازاً كتفيه فجأة ومرتعشاً، تارة، وتارةً أخرى، مبتسماً وقد بدت عليه أمارات السعادة.

كان يفكر في الأمير آندريه، وفي ناتاشا، وفي حبهما، فتنهشه الغيرة حيناً، من ناتاشا ومن ماضيها، ويلوم نفسه، حيناً آخر، على هذه الغيرة، ويغتفرها لنفسه في بعض الأحيان. كانت الساعة السادسة صباحاً وهو مايزال يتمشى في غرفته.

وقال في نفسه وهو يخلع ملابسه على عجل:

ما العمل إذا كنا نعجز عن تدارك مافات؟ ما العمل؟ معنى ذلك إذن أن الأمور يجبُ أن تكون كذلك.

واضطجع وهو سعيدٌ ومنفعلٌ، لكنه خال من الشك والتردد.

قال في نفسه: «مهما تكن هذه السعادة غريبة ومستحيلة، يجب أن أفعل كل شيء لنغدو زوجاً وزوجة».

قبل ذلك ببضعة أيام، كان بطرس قد حدّد يوم الجمعة موعداً لسفره

إلى بطرسبرج. ولدى استيقاظه، في يوم الخميس، جاء سافيلتش يسأله عن أوامره لتهيئة المتاع.

تساءل بطرس بالرغم منه، بينه وبين نفسه:

«لماذا بطرسبرج؟ وما بطرسبرج؟ وماذا في بطرسبرج؟» وتذكر: «نعم، لقد فكرت، قبلِ أن يقع لي ذلك بزمن طويل، في أن أذهب إلى بطرسبرج، لأمر ما. ولمَ لا؟ ربما ذهبت وفكر وهو ينظر إلى ذلك الوجه العجوز، وجه سافيلتش: «ما أطيبه، وما أعظم تنبّهه! إنه ليتذكر كل شيء! وما ألطف ابتسامته!»».

وسأله:

– ما قولك، يا سافيلتش، أما زلت ترفض أن تتحرر؟

– ما حاجتي إلى الحرية، يا صاحب السعادة؟ لقد عشتُ في عهد المرحوم الكونت، رحمه الله، كما عشتُ معك فلم أجد ما أشكو منه.

– وأولادك؟

– سيفعل الأولاد مثلنا، يا صاحب السعادة. فالعيش ممكن مع مثل هؤلاء الأسياد.

قال بطرس:

وورثتي؟

وأضاف وعلى شفتيه ابتسامة لا إرادية:

– إذا ما تزوجت فلربما حدث ذلك.

– إني أسمح لنفسي أن أقول: سيكون ذلك عملاً صالحاً، يا صاحب السعادة.

وفكر بطرس: «كم يبدو له الأمر بسيطاً. إنه لا يعلم إلى أي مدى هو مخوف وخطر. عاجلاً أم آجلاً... إن ذلك لرهيب!».

وسأله سافيليتش:

– إذن ما هي أوامرك؟ هل يسافر سيدي الكونت غداً؟

قال بطرس:

– لا، سوف أؤجل سفري إلى وقت آخر. وسأخبرك. اعذرني على أنني سببت لك هذه المتاعب.

وفكر عندما رأى ابتسامة سافيلتش:

– ما أغرب ذلك، على كل حال. ألا يعلم أن بطرسبرج لم تعد موضوعاً للبحث، وأنه ينبغي البتّ في الأمر، قبل كل شيء. لا ريب أنه يعلم ذلك ويتظاهر بأنه لا يعلم. هل أكلّمه في ذلك؟ هل أسأله رأيه؟ لا، سأسأله مرة أخرى، فيما بعد».

قال بطرس للأميرة، أثناء الغداء، أنه ذهب أمس إلى منزل الأميرة ماريا وأنه وجد، أتستطيعين أن تتصوري مَنْ؟ ناتاشا روستوف.

بدا على الأميرة أنها لا ترى في هذا الخبر غرابة أكبر مما لو قال لها بطرس: إنه رأى آنا سيمونوفنا.

سألها: بطرس:

– أتعرفينها؟

أجابت:

– لقيت الأميرة. وسمعتُ أنها ستتزوج الشاب روستوف. سيكون ذلك مناسباً جداً لآل روستوف؛ إذ يبدو أنهم قد أفلسوا تماماً.

– كلا. أتعرفين الآنسة روستوف؟

– سمعت فقط هذه القصة في وقتها، إن ذلك لمؤسف حقاً.

فكّر بطرس:

«إنها لا تفهم أو تتظاهر بأنها لا تفهم. الأولى ألا أقول لها شيئاً أيضاً».

وكانت الأميرة قد أعدّت هي أيضاً مؤناً لرحلة بطرس.

قال بطرس في نفسه:

– ما أكرمهم جميعاً، إذ يهتمون بذلك كله في حين أن لا مصلحة لهم فيه، بكل تأكيد. وكل ذلك من أجلي؛ إن هذا لمدهش».

في اليوم نفسه، تلقى بطرس زيارة قائد الشرطة الذي جاء يسأله أن يرسل رجلاً ثقة إلى «القصر ذي الوجوه» ليأخذ على عاتقه الأشياء التي كانت تُعاد إلى أصحابها.

ففكّر بطرس وهو ينظر إلى وجه قائد الشرطة:

– وهذا أيضاً، ما أروعه ضابطاً وما أكرم نفسه! أن يهتم «حالياً» بهذه السفاسف! وكيف يُصدَّق بعد هذا ما يُزعَم من أنه غيرُ شريف وأنه يتموَّل بوظائفه. يا للحماقة! على كل حال، لم لا يفعل ذلك؟ لقد رُبيّ هذه التربية. كل الناس يفعلون ذلك. لكنْ ما أطيب هذا الوجه وما أحسنه! لقد تبسم وهو ينظر إليّ.

ذهب بطرس إلى العشاء في منزل الأميرة ماريا.

دهش، وهو يمرّ في الشوارع، وسط أنقاض البيوت، من جمال هذه

الخرائب لقد انتشرت أنابيب المدافئ، وبقايا الجدران المتهدّمة، مختبئةً بعضها فوق بعض في الأحياء المحروقة، مذكٍّرة على نحو مثير بالرين وبالكوليزيه. كانت العربات وركابها، والنجارون الذين يقطعون الجسور الخشبية، والبائعات وأصحاب الدكاكين، كان هؤلاء جميعاً ينظرون إلى بطرس نظرة جذلى، مشرقة، وكأنهم يقولون:

«آه! ها هو ذا! سوف نرى ما الذي يطلع من ذلك كله».

عندما دخل بطرس منزل الأميرة ماريا، ساورته الشكوك، وتساءل إن كان قد جاء حقاً إلى هنا أمس، وإن كان قد رأى ناتاشا وكلّمها. «لعلي تصورت ذلك تصوراً. لعلي سأدخل فلا أجد أحداً». لكنه لم يكد يلج الصالون حتى أحس وجودها بكل كيانه، من فقدان إرادته الفوري. كانت ترتدي فستانها الأسود نفسه ذي الثنيات الليّنة، وتصطنع تسريحة البارحة نفسها، لكنها كانت مختلفة كل الاختلاف. ولو كانت كذلك البارحة عندما دخل الغرفة، لما توانى لحظة واحدة عن معرفتها.

كانت كما عرفها وهي طفلة، ثم وهي مخطوبة إلى الأمير آندريه. كان يلتمع في عينيها بريقُ الفرح والتساؤل؛ واكتسى وجهُها تعبيراً ودياً ماكراً على نحو غريب.

تناول بطرس طعام العشاء، وكان يود لو قضى السهرة كلها، إلا أن الأميرة ماريا أرادت أن تذهب إلى قدّاس المساء، فانصرف في الوقت الذي ذهبتا فيه.

في اليوم التالي، وصل بطرس مبكراً، وتناول العشاء وقضى السهرة كلها. ومع أن الأميرة ماريا وناتاشا بدتا سعيدتين برؤيته؛ ومع أن اهتمامات حياته تركزت الآن في هذا البيت، إلا أن جميع الموضوعات

نضبت حوالي المساء، وانتقل الحديث باستمرار من موضوع مبتذل إلى آخر وكثيراً ما خبا. وقد تأخر بطرس هذا المساء كثيراً حتى إن الأميرة ماريا وناتاشا تبادلتا النظرات، وكأنهما تتساءلان عما إذا كان سينصرف. رأى بطرس ذلك، لكنه لم يكن يستطيع الانصراف. بدأ يحس بالانزعاج والضيق، لكنه مكث لأنه لم يكن يستطيع النهوض والانصراف.

لم تجد الأمـيرة ماريا نهاية لذلك فنهضت قبل غيرها وتذرعت بصداع أصابها، واستأذنت بالانصراف. وقالت:

– إذن ستسافر غداً إلى بطرسبرج؟

قال بطرس بعجلة وبدهشة وكأنه خُدش:

– لا، لن أسافر. بلى، إلى بطرسبرج؟ غداً؛ لكنني لن أودعكم.

وأضاف، وهو واقف أمام الأميرة ماريا وقد احمرّ وأبى الانصراف:

– وسوف أمر لآخذ حاجاتكم.

مدت ناتاشا إليه يدها وخرجت. أما الأميرة ماريا فبدلاً من أن تنصرف، تهالكت على مقعد ونظرت إلى بطرس بعينيها المضيئتين العميقتين نظرة الجد والتمعن. واختفى الآن تماماً التعبُ الذي أبدته قبل حين. تنهدت تنهداً عميقاً وطويلاً، كأنها تتهيأ لحديث طويل.

وفور ذهاب ناتاشا، زال كل اضطراب بطرس وارتباكه وحلت محله حيوية عظيمة. قرب على عجل مقعده من مقعد الأميرة ماريا، وقال راداً على نظرتها كما يرد على السؤال:

–نعم، كنت أريد أن أقول لك، يا أميرة. ساعديني. ماذا ينبغي أن

أفعل؟ أيمكن أن أعلل نفسي بالأمل؟ يا أميرة، يا صديقتي، اصغي إلي. إنني أعلم كل شيء. أعلم أنني لستُ جديراً بها؛ وأعلم أن من المستحيل التطرق إلى ذلك في هذه اللحظة. لكنني أريد أن أكون أخاً لها، كلا، ليس الأمر كذلك... لا أريد، لا أستطيع..

توقف وفرك وجهه وعينيه. ثم استأنف كلامه وهو يبذل جهداً واضحاً لكي يتحدث على نحو متماسك.

– حسناً! إليك الحقيقة. لست أدري متى أحببتها. لكنني لا أحب غيرها، ولم أحبّ غيرها طوال حياتي، وأنا أحبها حباً لا أستطيع أن أتصور الحياة بدونه. لست أجرؤ أن أطلب يدها الآن؛ لكن التفكير في أنها يمكن أن تكون لي وأنني يمكن أن أدع هذه الفرصة تفلت... هذه الفرصة... رهيب. قولي لي، أيمكن أن أعلل نفسي بالأمل؟

وقال بعد لحظة من الصمت وهو يلمس يدها حين رآها لا تجيب:

– قولي لي، ماذا ينبغي أن أفعل، أيتها الأميرة العزيزة.

أجابت الأميرة ماريا:

– إنني أفكر فيما تقوله. اصغ إلى ما سأقوله لك. الحق معك، فمكاشفتها بالحب الآن....

توقفت الأميرة. كانت تريد أن تقول: إن مكاشفتها بالحب الآن مستحيلة؛ لكنها توقفت لأنها رأت منذ يومين، من التغير المفاجئ الذي طرأ على ناتاشا، أن ناتاشا لن تتأذى إذا باح لها بطرس بحبه، بل إنها لا تتمنى سوى ذلك.

ومع ذلك قالت الأميرة ماريا:

– إن مكاشفتها بذلك الآن... مستحيلة.

– لكنْ ماذا ينبغي أن أفعل إذن؟

قالت الأميرة ماريا

– اتكلْ علي فأنا أعلم.

نظر إليها بطرس في عينيها، وقال:

– ماذا تعلمين! ماذا تعلمين!.

فاستدركت الأميرة ماريا قائلة

– أعلم أنها تحبك... وأنها ستحبك.

لم تكد تنطق بهذه الكلمات حتى وثب بطرس على قدميه وأمسك بيدها، وهو مرتاع الوجه.

– ما الذي يحملك على هذا الاعتقاد؟ أتعتقدين أنني أستطيع أن أعلل نفسي بالأمل؟ أتعتقدين ذلك؟

قالت الأميرة ماريا وهي تبتسم:

–نعم، أعتقدُ ذلك. اكتب إلى ذويها. واتكلْ علي. سأحدثها عندما يصبح الحديث ممكناً أتمنى ذلك. وقلبي يقول لي إن ذلك سيتم.

فأخذ بطرس يقول وهو يقبل يدي الأميرة ماريا:

– لا، هذا غير ممكن! ما أسعدني! لكن هذا غير ممكن... ما أسعدني! لا، هذا غير ممكن!

قالت:

– اذهبْ إلى بطرسبرج، فهذا أفضل. وسأكتب إليك.

– أذهبُ إلى بطرسبرج؟ نعم، طيب، سأذهب. لكن، هل يمكنني أن آتي غداً لرؤيتكما؟

في اليوم التالي، جاء بطرس لوداعهما. كانت ناتاشا أقل حيوية من الأيام السابقة لكنه عندما نظر في عينيها، هذا اليوم، أحسّ أنه اختفى، أنه غاب وغابت ولم يبق سوى الإحساس بالسعادة. وكان يقول في نفسه لدى كل نظرة من نظرات ناتاشا، وكل حركة من حركاتها، وكل قول من أقوالها، ممّا كان يملأ نفسه بالفرح: «أممكنٌ هذا؟ لا، هذا غير ممكن».

وعندما استأذنها بالانصراف، وأمسك بيدها النحيفة والهزيلة، استبقاها في يده، على الرغم منه، زمناً أطول مما ينبغي.

«أمن الممكن أن يغدو هذا الوجهُ، وهاتان العينان، وكل هذا الكنز من السحر الأنثوي الغريب عني، أمن الممكن أن يغدو ذلك كله لي إلى الأبد وأن آلفه كما آلف نفسي؟ لا، هذا مستحيل!.».

قالت له:

– إلى اللقاء، كونت.

وأضافت بصوت خافت:

– سأنتظرك بفارغ الصبر.

كانت هذه الكلمات البسيطة، وما رافقها من نظرة ومن تعبير في الوجه، بالنسبة إلى بطرس، على مدى شهرين، معيناً لا ينضب، من الذكريات والتأويلات والأحلام السعيدة. «سأنتظرك بفارغ

الصبر»... نعم، نعم، كيف قالت لي؟ نعم «سأنتظرك بفارغ الصبر».
آه! ما أسعدني! آه، ما أسعدني حقاً!».

هكذا كان يحدّث بطرس نفسه.

***

الفصل العشرون

لم يكن يجري هذه المرة، في نفس بطرس، شيء يُشبه ما أحسه في ظروف مماثلة، إبّان خطبته بهيلين.

لم يكن يردد على نفسه، كما كان يفعل آنذاك، بخجل كل الكلمات التي قالها. لم يكن يقول: «آه! لماذا لم أقل هذا الشيء، ولماذا، لماذا قلت لها حينئذ: أحبُك؟» بل إنه غدا يردد الآن، في خياله، كل كلمة من كلماته، وكل كلمة من كلماتها مع دقائق الوجه والابتسامة، من غير أن يرغب في حذف شيء أو إضافة شيء: لم يكن يرغب في شيء سوى ترديدها المتصل. لم يقم في نفسه، هذه المرة، ظلٌّ من الشك، و لم يكن يتساءل إن كان ما أقدم عليه خيراً أم شراً.. كان ينتابه أحياناً شك واحد، رهيب. ألم يكن كل ذلك حلماً؟ ألم تخطئ الأميرة ماريا؟ ألستُ مفرط الاعتداد بنفسي والثقة بها؟ إنني شديد الثقة؛ وماذا لو حدثتها الأميرةُ ماريا فجأة، وهو ما لابد أن يقع، فابتسمت وأجابت: «ما أغرب هذا! لقد خدعته نفسُه. أفلا يعلم أنه ليس سوى رجل، مجرّد رجل، بينما أنا؟... أنا شيءٌ آخر، أنا كائن أعلى».

هذا الشك وحده هو الذي كان يراود بطرس غالباً. ولقد أقلع عن كل مشروع. وبدت له السعادة التي تنتظره عجيبة لا تُصدَّق بحيث كان يكفيه أن تتمّ، وبعدها لا يمكن أن يكون شيء. بعدها ينتهي كلٌّ شيء.

استولى على بطرس فرح جنوني، مفاجئ، كان يظن نفسه غير قادر عليه. بدا له معنى الحياة كله، لا بالنسبة إليه فقط بل بالنسبة إلى العالم أجمع، كامناً في حبه وفي إمكان حبها له. وكان يبدو له أحياناً أن الناس لا همّ لهم إلا سعادته المقبلة. وكان يبدو له أحياناً أخرى أنهم يبتهجون جميعاً مثله وأنهم يسعون لإخفاء هذا الابتهاج متظاهرين بأنهم منهمكون في مشاغل أخرى. كان يرى في كل كلمة وكل حركة، تلميحاً إلى سعادته. وغالباً ما كان يدهش الذين يصادفونه بنظراته وابتساماته المليئة بالمعاني، الطافحة بالسعادة، والمعبرة عن اتفاق سري. لكنه عندما كان يدرك أن الآخرين يمكن أن يجهلوا سعادته، فإنه كان يرثي لهم من كل قلبه ويشعر بالرغبة في إفهامهم بوسيلة ما أن كل ما يشغلهم ليس سوى ترّهات خالصة وسفاسف لا تستحق عنايتهم.

وعندما كان الناس يعرضون عليه مركزاً ما أو يناقشون القضايا العامة المتصلة بالسياسة أو الحرب، معتقدين أن سعادة الجميع تتوقف على ما سيؤول إليه الحدث، فإنه كان يصغي وهو يبتسم ابتسامة رقيقةً ملؤها الإشفاق، وكان يُدهش محدّثيه بملاحظاته الغريبة. لكن الجميع، سواء منهم الذين خُيّل إليه أنهم يفهمون معنى الحياة الحقيقي، أي شعوره، أم المساكين الذين كان جلياً أنهم لا يفهمون ذلك المعنى، بَدوْا له، أثناء هذه الآونة، في الضوء الباهر للشعور الذي كان يشعّ منه، حتى أنه كان يرى، على الفور، فيمن يصادفه، أياً كان، وبدون أي عناء، كلّ ما هو خير وما هو جدير بالحب.

وعندما فحص متاع امرأته المتوفاة وأوراقها، لم يحسّ لفقدها بأية عاطفة إلا بالشفقة لكونها لم تعرف السعادة التي بدأ يعرفها الآن. وبدا له الأمير فاسيلي الذي كان شديد الاعتزاز بمنصبه الجديد وبالوسام الرفيع الذي ناله، شيخاً طيباً، مثيراً للعطف والشفقة.

كثيراً ما استرجع بطرس، فيما بعد، ذكرى هذه الفترة من جنونه السعيد. ولقد ظلت جميعُ الأحكام التي كوّنها آنذاك عن الناس والأحداث صحيحة أبداً في عينيه. فلم يُنكر فيما بعد طريقته تلك في النظر إلى الناس والأشياء. بل إنه لجأ، على العكس، إلى طريقته في النظر التي اصطنعها في تلك الحقبة من جنونه، وظهر له أن هذه الطريقة صحيحة دائماً.

وكان يفكّر: «لعلي كنتُ أبدو آنذاك غريباً حقاً ومضحكاً حقاً؛ لكنني لم أكن مجنوناً كما قد يبدو للناس. على العكس، كنتُ آنذاك أعظم ذكاء وأمضى بصيرة من أي وقت آخر، وكنت أفهم كل ما هو جدير بالفهم في الحياة لأنني كنتُ سعيداً».

كان جنون بطرس يكمن في أنه لم يكن ينتظر، كما كان يفعل في الماضي، أن يكتشف، لكي يحب الناس، أسباباً شخصية يسميها صفاتهم، بل إن قلبه كان يفيض بالحب، فكان، إذ يحب الناس، يكتشف أسباباً لا جدال فيها تجعلهم جديرين بأن يُحبّوا.

***

الفصل الواحد والعشرون

منذ المساء الأول الذي قالت فيه ناتاشا للأميرة ماريا، بعد انصراف بطرس، وهي تبتسم بفرح ابتسامة ساخرة: إنه كالخارج من الحمام تماماً، نعم تماماً، بمعطفه الرسمي القصير وشعره المقصوص، منذ هذه اللحظة، استيقظ في نفس ناتاشا شيء خفيّ، شيء تجهله هي نفسها ولا تستطيع مقاومته.

تبدّل كلُ ما فيها فجأة: وجهُها ومشيتها ونظرتها وصوتها. وصعدت إلى السطح قوةً حيوية وآمال بالسعادة تتطلب الإشباع، ولم تكن ناتاشا تتوهمها. منذ المساء الأول، بدا على ناتاشا أنها نسيت كل ما وقع لها. فمنذ ذلك الوقت، لم تشكُ مرة واحدة من وضعها، ولم تقل كلمة واحدة عن ماضيها، ولم تخش أن تتصور مشاريع سعيدة للمستقبل. كانت قليلة الكلام على بطرس. لكن عندما كانت الأميرة ماريا تلمّح إليه كان يتقد في عينيها بريق انطفأ منذ زمن بعيد، وتتغضن شفتاها في ابتسامة غريبة.

إن التبدل الذي أصاب ناتاشا أدهش الأميرة ماريا أول الأمر؛ لكنها عندما فهمت معناه غمّها ذلك التبدل. كانت تحدّث نفسها وهي تفكر وحدها بالتبدلِ الطارئ «أمن الممكن أن يكون حبها لأخي بمثل هذه الضحالة حتى تنساه بمثل هذه السرعة». لكنها لم

تكن تحقد على ناتاشا وهي معها، ولا تنحي عليها باللوم. لقد كانت القوة الحيوية المستيقظة التي استولت على ناتاشا، من دون شك، عاتية لا تُقاوم، مفاجئة لم تتوقعها ناتاشا نفسها، بحيث إن الأميرة ماريا كانت تحسّ بحضورها أنْ ليس لها الحق في لومها، حتى في أعماق نفسها.

لقد وهبت ناتاشا نفسها كاملة لعاطفتها الجديدة بكثير من السخاء وكثير من الصدق إلى الحد الذي لم تكن تحاول معه أن تخفي أنها لم تعد تشعر بالحزن وأنها فرحة، مبتهجة.

وعندما عادت الأميرة ماريا إلى غرفتها، بعد تفاهمها في الليل مع بطرس، كانت ناتاشا على عتبة الباب.

فكررت ناتاشا القول:

– هل تكلّم؟ نعم؟ هل تكلم؟

وعلا وجهَها تعبيرٌ فرح ومثيرٌ للشفقة في الوقت نفسه، تعبيرٌ كان يسأل العفو عن فرحه.

– كنت أريد أن أتنصّت على الباب؛ لكنني كنتُ أعلم أنك ستقولين لي كل شيء.

ومع أن النظرة التي ألقتها ناتاشا على الأميرة ماريا كانت مفهومة جداً مؤثرة جداً، بالنسبة إلى الأميرة ماريا؛ ومع أن الأميرة ماريا اغتمّت كثيراً حين رأت انفعالها، إلا أن كلمات ناتاشا آذتها، في مبتدأ الأمر. لقد فكّرت في أخيها، وفي حبّه.

قالت ناتاشا فجأة:

- لكن، لماذا إذن يسافر إلى بطرسبرج؟

وأجابت نفسها بعجلة:

- لا، لا، لابدّ من ذلك... أليس كذلك، يا ماري؟ لابدّ ذلك...

***

خاتمة

الجزء الأول

الفصل الأول

سبع سنوات مضت منذ ١٨١٢، عاد فيها محيطُ تاريخ أوروبا الهائجُ إلى شطآنه. كان يبدو ساكناً؛ لكن القوى الخفيّة التي تحرك الإنسانية (خفيّة لأن القوانين التي تحدّد حركتها خافيةٌ عنا) استمرت في عملها.

ومع أن سطح محيط التاريخ بدا ساكناً، فقد استمرت حركة الإنسانية، متصلة اتصال حركة الزمن، فتشكّلت وتفكّكت تجمّعات بشرية شتى؛ وتهيأت الأسباب لتشكل الدول وتفككها، ولهجرات الشعوب.

لم يكن محيط التاريخ يتدفّق من شاطئ إلى آخر بطفرات؛ وإنما كان يجيش في أعماقه. أما الشخصيات التاريخية فلم تعد الأمواج تحملها من شاطئ إلى آخر؛ وإنما بدت الآن وكأنها تدور في مكانها. إن الشخصيات التاريخية التي كانت تُترجم من قبل، على رأس جيوشها، حركةَ الجماهير، بأوامر الحرب والحملات والمعارك، غدت تترجم الآن تلك الحركة الجيّاشة، بالاعتبارات السياسية والدبلوماسية، وبالقوانين، وبالمعاهدات...

إن نشاط الشخصيات التاريخية هذا، يسميّه المؤرخون: الرِدّة.

والمؤرخون، في وصفهم لفعالية هذه الشخصيات التاريخية، وهي السبب، في رأيهم، لما يسمّونه الردة، يدينونها بشدّة. فجميع الشخصيات المعروفة في هذه الحقبة، من الكسندر ونابليون إلى السيدة

دي ستال وفوتيوس[1] وشيلنج[2] وفيخته[3] وشاتوبريان[4] وغيرهم، يمثلون أمام محكمتهم القاسية فيُبَرّؤون أو يُدانون بحسب عملهم من أجل التقدم أو من أجل الردّة.

وتبعاً لأوصاف المؤرخين، فإن الردة كانت تتمّ أيضاً في هذه الحقبة، في روسيا، وكان المسؤول الرئيسي عنها هو الكسندر الأول، وهو نفسه الذي كان، بشهادتهم أنفسهم، الصانع الرئيسي للمبادرات التحررية في عهده، ولخلاص روسيا.

وليس من أحد في الأدب الروسي اليوم، من طالب المدرسة إلى المؤرخ العالم، لا يرمي الكسندر الأول بحجره للأخطاء التي ارتكبت أثناء هذه الفترة من عهده.

«كان ينبغي له أن يتصرف على هذا النحو أو ذاك. لقد أحسن صنعاً في تلك الحالة وأساء في تلك. وسلك سلوكاً جديراً بالإعجاب في بداية

١- فوتيوس: الأرشمندريت فوتيوس (١٧٩٢-١٨٣٨)، راهب شاب متعصب ومفوه، عدو البروتستانتية والتقوية الغربية، أثر منذ ١٨٢٠ في الوزير غوليتزين للأخذ بالأرثوذكسية الضيقة. ومع ذلك، فإنه اقترح بعد ارتباطه بآراكتشيف، على الكسندر الأول إلغاء «جمعية الكتاب المقدس» ووزارة غوليتزين للشؤون الروحية. وقد تم له ذلك. فقد فوتيوس تأثيره في عهد نيقولا الأول.

٢- شيلنغ: فريدريك ويلهلم شيلنغ (١٧٧٥-١٨٥٤)، فيلسوف ألماني، مؤلف مذهب في المثالية الذاتية.

٣- فيخته: (١٧٦٢-١٨١٤)، فيلسوف ألماني، أستاذ شيلنغ ومؤلف «خطب إلى الأمة الألمانية».

٤- شاتوبريان: الفيكونت رينيه دي شاتوبريان (١٧٦٨-١٨٤٨)، كاتب فرنسي مشهور، مؤلف «عبقرية المسيحية».

عهده وفي ١٨١٢؛ لكنه أساء التصرف إذا منح بولونيا دستوراً[١]، وعمل الحلف المقدس، وسلم مقاليد الحكم إلى آراكتشيف، وشجّع غوليتزين[٢] والتصوف، ثم شيشكوف وفوتيوس. ولقد أساء صنعاً حين حلّ مفرزة سيمينوفسكي[٣]، الخ».

لابد من تسويد عشر صفحات لتعداد مطاعن المؤرخين عليه باسم معرفة خير الإنسانية، تلك المعرفة التي يملكونها.

ما معنى تلك المطاعن؟

إن الأفعال التي من أجلها يُشيد المؤرخون بالكسندر الأول، من مثل المبادرات التحررية في عهده، ونضاله ضد نابليون، والصمود الذي برهن عليه في ١٨١٢ وحملة ١٨١٣، ألا تنبع من المنابع نفسها التي جعلت شخصية الكسندر على ما كانت عليه -دواعي الدم والتربية، وشروط الحياة- والتي نبعت منها الأفعال التي يُنكرونها، من مثل الحلف المقدّس، وإعادة الملكية إلى بولونيا، وردة سنوات ١٨٢٠؟

١- إذ منح بولونيا دستوراً: عندما أصبح الكسندر الأول ملكاً على بولونيا في ١٨١٥، منح هذا البلد دستوراً واسعاً يعطيه مجلسين، ووزارات، ويعطيه جيشه البولوني.

٢- غوليتزين والتصوف: كان وزير الشؤون الروحية الأمير غوليتزين وقعاً في بداية الأمر تحت تأثير التقوية والتصوف الألمانيين.

شيشكوف: الأميرال شيشكوف الذي كان ذا فكر محافظ، وكان له تأثيره في الكسندر الأول أثناء هذه السنوات، أصبح وزيراً للتعليم العام في ١٨٢٤.

٣- مفرزة سيمينوفسكي: إن مفرزة الحرس هذه التي ألغى ضباطها التحرريون العقاب الجسدي قد كان قائدها في ١٨٢٠ العقيد تيودور شوارز صنيعة اواكتشيف، وقد أثار بوحشيته تمرداً في المفرزة قمع بقسوة.

علام تقوم بالضبط هذه المطاعن؟

إنها تقوم على أن شخصية تاريخية مثل الكسندر، شخصية وُضعت في قمة القدرة البشرية، وكأنها في مركز الضوء الباهر، حيث تلتقي جميع الأشعة التاريخية؛ شخصية خضعت لأقوى التأثيرات في العالم، من الدسائس والأكاذيب، وضروب التملق، والاغترار بالذات، وهي أمور لا تنفصل عن السلطة؛ شخصية كانت تستشعر، في كل لحظة من وجودها، أنها مسؤولة عن كل ما يجري في أوروبا، شخصية حية وليست خيالية، لها ككل إنسان عاداتها وأهواؤها وطموحها إلى الخير وإلى الجمال وإلى الحق، على أن هذه الشخصية كانت، منذ خمسين عاماً، لا أقول بدون فضيلة (فالمؤرخون لا يأخذون عليه ذلك) بل إنها كانت لا تملك عن خير الإنسانية المفهوم الذي يملكه أستاذ اليوم، أستاذ يهتم بالعلم، منذ شبابه، أي أنه يقرأ الكتب، ويقوم بالتدريس ويسجل هذه القراءات والدروس في دفتر.

لكن حتى لو افترضنا أن الكسندر الأول قد أخطأ، منذ خمسين عاماً، في الفكرة التي تصورها عن خير الشعوب، فإننا ملزمون أن نفترض أن المؤرخ الذي يحكم على الكسندر الأول سيبدو، في غضون بعض الوقت، كأنما أخطأ في فكرته عن خير الإنسانية، وهذا الافتراض طبيعي ومحتوم ولاسيما أننا حين نتتبع تطور التاريخ، نرى أن وجهة النظر عن خير البشرية تتبدل من عام إلى عام، ومع كل مؤلف جديد؛ بحيث أن ما كان يبدو خيراً يغدو بعد عشر سنوات شراً؛ وبالعكس. وأكثر من ذلك أننا نجد في التاريخ، في آن واحد، نظرات متعارضة كل التعارض عما هو خير وعما هو شر: فبعضهم يمدح الكسندر على الدستور الذي منحه بولونيا وعلى الحلف المقدس، وبعضهم الآخر يطعن عليه.

لا يمكن أن نقول عن فعالية الكسندر ونابليون إنها نافعة أو ضارة

لأننا لا نستطيع أن نحددّ فيم كذلك. وإذا كانت هذه الفعالية لا تُعجب أحد الناس فذلك لأنها لا تتفق مع مفهومه المحدود عن الخير. وكيفما بدا لي الخير، كأنْ يكون بقاء منزل أبي سليماً في موسكو، في سنة ١٨١٢، أو مجد الجيوش الروسية، أو ازدهار جامعة بطرسبرج أو غيرها من المدن، أو حرية بولونيا، أو قوة روسيا، أو توازن أوروبا، أو شكلاً من أشكال الحضارة الأوروبية هو التقدم، فينبغي لي الإقرار بأن لفعالية كل شخصية تاريخية، فضلاً عن هذه الأهداف، أهدافاً أخرى من نوع أعم، خافيةً عني.

لكن لنفرضْ أن ما يُدعى العلم يملك إمكانَ التوفيق بين جميع المتناقضات، كما يملك، بالنسبة إلى الشخصيات التاريخية وإلى الحوادث، معياراً لا يخطئ في التمييز بين الخير والشر.

ولنفرضْ أن الكسندر الأول استطاع أن يتصرف في كل شيء تصرفاً آخر. ولنفرض أنه استطاع، وفقاً لتعليمات الذين يتهمونه، والذين يدّعون معرفة الهدف النهائي لحركة الإنسانية، أن يطبّق منهاج المصلحة القومية، في الحرية والمساواة والتقدم، (إذ يبدو أنْ ليس هناك ما هو أحدث من ذلك) المنهاج الذي يمليه عليه ناقدو اليوم. ولنفرضْ أن هذا المنهاج كان ممكناً، مُعَدّاً، وأن الكسندر قد تابعه. فما الذي كان سيصيب، في هذه الحالة، فعالية جميع الذين كانوا يعارضون اتجاهات الحكومة آنذاك، وهي فعالية كانت، في رأي المؤرخين، حسنة ومفيدة؟ ما كان لهذه الفعالية أن توجد؛ ولما كان هناك حياة؛ ولما كان هناك شيء.

لو سلمنا بأن الحياة الإنسانية يمكن أن يقودها العقل، لتدمّرت إمكانية الحياة.

***

الفصل الثاني

إذا سلّمنا، كما يفعل المؤرخون، بأن عظماء الرجال يقودون الإنسانية نحو أهداف محدّدة، مثل عظمة روسيا أو عظمة فرنسا، أو توازن أوروبا، أو نشر أفكار الثورة، أو التقدم العام أو ما شئتَ من أهـداف، فمن المستحيل تفسير الظواهر التاريخية دون اللجوء إلى مفهوم المصادفة والعبقرية.

إذا كان هدف الحروب الأوروبية، في مطلع هذا القرن، هو عظمة روسيا، فقد كان يمكن بلوغ هذا الهدف دون جميع الحروب السابقة ودون الغزو. وإذا كان هذا الهدف عظمة فرنسا فقد كان يمكن بلوغه أيضاً دون الثورة والإمبراطورية. وإذا كان الهدف نشر الأفكار فالمطبعة تبلغه على نحو أفضل كثيراً من الجنود. وإذا كان هذا الهدف هو تقدّم الحضارة، فمن السهل التسليمُ بأن هناك وسائل لنشر الحضارة أنجع من إبادة البشر وتدمير ثرواتهم.

لَمَ إذنْ جرت الأمورُ على هذا النحو و لم تجر على نحو آخر؟ لأنها جرت كذلك. «المصادفةُ خلقت الوضع؛ والعبقرية استفادت منه». هذا ما يقوله التاريخ.

لكنْ ما المصادفة؟ وما العبقرية؟

إن كلمتي مصادفة وعبقرية لا تدلان على شيء موجود بالفعل،

ولذلك لا يمكن تعريفهما. إنهما تدلان فقط على درجة معينة في فهم الظواهر. إنني أجهل لمَ تحدثُ الظاهرة؛ وأرى أنني لا أستطيع معرفة ذلك؛ ومن ثمَّ، فأنا أعزفُ عن تلك المعرفة وأقول: هذه هي المصادفة. وأرى قوة تُحدث أثراً فوق مستوى القدرات المتداولة بين البشر؛ فلا أفهم لمَ حدث ذلك وأقول: هذه هي العبقرية.

إن الخروف الذي يسوقه الراعي، كل مساء، إلى زريبة خاصة ليعلفه، والذي يغدو أسمن مرتين من بقية الخراف، لابد أن يبدو، بالنسبة إلى القطيع، عبقريةً. وكون هذا الخروف بالذات هو الذي يدخل، في كل مساء، زريبة خاصة يُقدَّم له فيها الشوفان، بدلاً من حظيرة الخراف، وكون هذا الخروف الذي يكاد يرشح شحمه، قد ذُبح من أجل لحمه، إن ذلك ليبدو ضرباً من الالتقاء المدهش بين العبقرية وسلسلة طويلة من المصادفات الخارقة.

لكن يكفي أن تكف الخراف عن الاعتقاد بأن كل ما يقع لها لا يقع إلا لتبلغ أهدافها: أهداف الخراف، يكفي أن تُسلّم بأن الحوادث يمكن أن يكون لها أهداف أخرى تغيب عن إدراكها، حتى ترى، على الفور، الوحدة والتسلسل المنطقي في كل ما وقع للخروف المسمّن. وحتى لو لم تَعْرف الغايةَ التي سُمِّن من أجلها، فإنها ستعرف على الأقل أن كل ما وقع له لم يقع مصادفةً، ولن تحتاج بعد ذلك إلى الاستعانة بمفهوم المصادفة والعبقرية.

وعندما نتخلى عن معرفة الهدف القريب المفهوم، وعندما نعترف بأن الهدف النهائي خاف عنا، عند ذاك فقط سنشاهد التسلسل المنطقي في حياة الشخصيات التَّاريخية، وسنكشف سبب التفاوت بين فعلها وقدرات البشر المتوسطة، وسوف نستغني بعد ذلك عن كلمتي مصادفة وعبقرية.

يكفي أن نعترف بأن الهدف من اضطراب الشعوب الأوروبية خاف عنا وأننا لا نعرف إلا وقائعَ قوامُها المجازر في فرنسا أولاً، ثم في إيطاليا وفي أفريقيا، وفي بروسيا والنمسا، وفي اسبانيا، وفي روسيا، وأن حركة الغرب إلى الشرق والشرق إلى الغرب تشكل الجوهر العام لهذه الأحداث، يكفينا ذلك حتى لا تزول فقط حاجتنا إلى أن نرى في شخص نابليون وشخص الكسندر شيئاً استثنائياً وعبقرياً، بل إننا لن نستطيع تصور هاتين الشخصيتين إلا كرجلين شبيهين ببقية الناس؛ ولن نستغني فقط عن المصادفة لتفسير الأحداث الطفيفة التي جعلت هذين الرجلين على ما كانا عليه، بل سيغدو واضحاً أن هذه الأحداث الطفيفة كانت ضرورية.

وعندما نتخلى عن معرفة الهدف النهائي، فسوف نفهم بوضوح أنه كما أن من المستحيل أن نتصور لأية نبتة زهراً وبذاراً أكثر تطابقاً مع طبيعتها مما تنتجه هذه النبتة، فكذلك من المستحيل تصوّر رجلين آخرين، بكل ماضيهما، أشد تلاؤماً منهما، حتى في أدنى التفاصيل، مع المهمة التي كان عليهما أن يقوما بها.

***

الفصل الثالث

إن الواقعة الأساسية، الجوهرية في الأحداث الأوروبية، في مطلع هذا القرن، هي الحركة الحربية لجماهير شعوب أوروبا من الغرب إلى الشرق، ثم من الشرق إلى الغرب. وأسبق هاتين الحركتين حركة الغرب إلى الشرق. ولكي يُتاح لشعوب الغرب أن تمضي بحركتها حتى موسكو، كان لابد لها من: ١) أن تتحد في جماعة محاربة عظيمة الشأن تتيح لها أن تجابه صدمة جماعة الشرق المحاربة؛ ٢) أن تتحرر من جميع التقاليد والعادات القائمة، ٣) أن يكون على رأسها، وهي تقوم بحركتها الحربية، رجلٌ يستطيع أن يُسوِّغ، لنفسه ولها، ضروبَ الغش والنهب والذبح التي لابد لها من أن ترافق هذه الحركة.

وبدءاً من الثورة الفرنسية ينهار التجّمع القديم الذي لم يكن على درجة كافية من الأهمية، وتبطلُ العاداتُ والتقاليد القديمة؛ وينشأ شيئاً فشيئاً تجمّع جديد واسع النطاق، وعادات وتقاليد جديدة، ويتهيأ الرجلُ الذي سيكون على رأس الحركة المقبلة والذي سيحمل مسؤولية ما سوف يتم.

هذا الرجل الذي لا قناعات له، ولا عادات، ولا تقاليد، ولا اسم، بل الذي ليس بفرنسي، يتقدم، بمؤازرة المصادفات، كما يبدو، أغرب المصادفات، يتقدم بين جميع الأحزاب التي تحرّك فرنسا ويتبوأ المكانة المرموقة، دون أن ينضمّ إلى أيّ منها.

إن جهل رفاقه، وضعف خصومه وعجزهم، وإخلاص هذا الرجل في كذبه، وتفاهته البرّاقة والمغرورة، إن كل ذلك يضعه على رأس الجيش. كما أن بسالة جنود جيش ايطاليا، ونفور خصومه من القتال، وتهوّره واغتراره الصبيانيين، تضمن له المجد العسكري. ويؤاتيه أينما كان عددٌ لا يُحصى من المصادفات المزعومة. ففقدهُ الحظوة لدى الزعماء الفرنسيين يخدم مصلحته. ومحاولاته لتغيير الطريق التي رُسمت له تفشّل: إذ تُرفَض خدماتُه في روسيا ولا تُقبل أيضاً في تركيا. وأثناء حرب ايطاليا، يُشرف مرات على حافة الهلاك وينجو في كل مرة بشكل غير مُتوقّع. ولا تتغلغل الجيوش الروسية، وهي الجيوش القادرة على إبادة مجده، في أوروبا، بسبب اعتبارات دبلوماسية شتى، بقيت ما بقي هو فيها.

وعند عودته من ايطاليا، يجد الحكومة في مرحلة التفكك تحتّم كنس المشاركين فيها أو إبادتهم. فإذا بالمخرج من هذا الوضع المحفوف بالمخاطر يعرض من تلقاء ذاته، وهو تلك الحملة الخرقاء، المجنونة، على افريقيا. ومرة أخرى، تواكبه المصادفاتُ المزعومة نفسها فتستسلم مالطة المنيعة دون أية طلقة؛ وتتكلّل بالنجاح أشد تدابيره تهوّراً. فالأسطول العدو الذي لن يدع فيما بعد قارباً واحداً يمر، يفسح المجال لمرور جيش كامل. وفي افريقيا، تُرتكب سلسلةٌ طويلة من الجرائم بحق السكان العزّل تقريباً. والذين يرتكبون هذه الجرائم، ولاسيّما قائدهم، يعدّون ذلك جديراً بالإعجاب، مجيداً، خليقاً بقيصر وبالكسندر الأكبر.

إن هذا المثل الأعلى من المجد والعظمة الذي لا يقوم فقط على التعامي عن الشر فيما يُفعل، بل على الافتخار بكل جريمة من الجرائم التي تُرتكب إذ يُعزى إليها معنى عصيٌ على الإدراك، فوق الطبيعي، هذا المثل الأعلى الذي سيُوجّه هذا الرجل وجميع المتواطئين معه،

ينضج بكل حرية في افريقيا. ومهما يفعلْ يلق النجاح. فالطاعون لا يثنيه عن عزمه. ووحشية مذبحة[1] الأسرى لا تُعدّ عليه جرماً. ورحيلُه عن افريقيا، وهو رحيل يتصف بالطيش الصبياني ويخلو من العظمة بسبب تخليه عن رفاقه في غمرة الشقاء، يُعتبر مأثرة من مآثره، ومرة أخرى، يدعه الأسطولُ العدو يُفلت مرتين. وفي الحين الذي يصل فيه إلى باريس بدون هدف، مستعداً لأن يلعب دوره، وقد تغشى فكره كلياً بنجاح الجرائم المقترفة، يبلغ تفكك الحكومة الجمهورية الذي كان يمكن أن يُفضي به، قبل سنة، إلى الدمار، مرحلته الأخيرة، ويساعد وجودُه كرجل جديد، غريب عن الأحزاب، على إعلاء شأنه.

ويُقبل بدون خطة عمل؛ ويتخوفّ من كل شيء؛ لكن الأحزاب تتشبّث به وتطلب عونه.

هو وحده، بمثله الأعلى من المجد والعظمة الذي أُعِدّ في إيطاليا ومصر، وبعبادته المجنونة لذاته، وبجرأته في الجريمة، وبإخلاصه في الكذب، هو وحده يستطيع أن يُسوّغ ما لابد أن يتم.

إنه ضروري للمكان الذي ينتظره، ولذلك، وعلى نحو يكاد يكون مستقلاً عن إرادته، وبالرغم من تردده، ومن غياب خطة العمل، ومن جميع الأخطاء التي ارتكبها، يجد نفسه مجروراً إلى مؤامرة غايتها الاستيلاء على السلطة، وتتكلل المؤامرة بالنجاح.

ويُدفع دفعاً إلى جلسة لحكومة المديرين. فيخاف، ويعمد إلى الهرب، ظاناً أنه قد قُضي عليه، ويتصنّع الإغماء؛ ويتكلم كلاماً مُحالاً كفيلاً بأن يضيعه. لكن قادة فرنسا، الذين كانوا حتى عهد قريب من

١- «فالطاعون.... ووحشية مذبحة الأسرى»: إشارة إلى بونابرت في يافا، في ١٧٩٩

ذوي الفطنة والإباء، يحسوّن الآن أن دورهم قد انتهى، فيضطربون أكثر مما اضطرب، ويلقون كلاماً مختلفاً عمّا ينبغي أن يقولوه للمحافظة على السلطة وللإطاحة به.

إن المصادفة، إن ملايين المصادفات تمنحه السلطة، وجميع الناس يسهمون في توطيد هذه السلطة، وكأنهم قد تواطؤوا على ذلك. فالمصادفات هي التي تشكّل طباع قادة فرنسا آنذاك الذين يرضخون له؛ والمصادفات هي التي تشكّل طباع بولس الأول الذي يعترف بسلطته؛ والمصادفة هي التي تحيك ضده مؤامرة لا تؤذيه في شيء بل إنها ترسّخ سلطته. والمصادفة هي التي تسلمه دوق دانجيان وتدفعه بالرغم منه إلى أن يأمر بقتله، مقنعاً الجمهور بهذه الوسيلة قناعة أقوى مما تبلغه أية وسيلة أخرى، أن له الحق في قتله لأنه يملك القوة. والمصادفة هي التي تحمله على أن يوجّه قواه كلها للحملة على انكلترا، وهي حملة كانت ستؤدي، من غير شك، إلى دماره، فلا ينفذ مشروعه، لكنه ينقضّ بغتة على ماك والنمساويين. الذين يستسلمون دون قتال. والمصادفة والعبقرية تمنحانه النصر في اوسترلتس، ومن باب المصادقة، أن جميع الناس، لا الفرنسيين فحسب، بل في أوروبا بأسرها، باستثناء انكلترا التي لن تشارك في الأحداث التي ستتم، إن جميع الناس، بالرغم من استفظاعهم القديم لجرائمه واشمئزازهم الأوّلي منها، يعترفون الآن بسلطته، وباللقب الذي يختاره لنفسه، وبمثله الأعلى من العظمة والمجد الذي يبدو للجميع الآن شيئاً مُعجِباً ومعقولاً.

وتتجه قوى الغرب، وكأنما تحاول أن تستعدّ لحركتها المقبلة، عدة مرات في ١٨٠٥، ١٨٠٦، ١٨٠٧، ١٨٠٩، إلى الشرق، وكل مرة أقوى وأكثر عدداً من سابقتها. وفي ١٨١١، ينصهر تجمّع الرجال المتشكل في فرنسا، فينصهر في كتلة ضخمة مع شعوب وسط أوروبا،

وتتعاظم القوة المسوّغة لوجود ذلك الرجل على رأس الحركة مع تعاظم ذلك الحشد من الرجال. وأثناء فترة السنوات العشر التحضيرية التي سبقت الحركة االكبرى، يصل هذا الرجل بجميع الرؤوس المتوجة في أوروبـا. ويعجز سادة العالم عن معارضة المثل الأعلى النابليوني من المجد والعظمة، وهو مثل أعلى لا معنى له، بأي مثل أعلى معقول. ويبادرون، الواحد تلو الآخر، إلى أن يظهروا له تفاهتهم. فملك بروسيا يرسل زوجته التماساً لرعاية الرجل العظيم؛ وامبراطور النمسا يعتبر قبول هذا الرجل لابنة القياصرة في فراشه فضلاً عليه؛ ويسخّر البابا، وهو حارس كنوز الشعوب المقدسة، دينه لرفعة الرجل العظيم. فليس نابليون هو الذي يستعد ليؤدي دوره بقدر ما أن جميع المحيطين به يُعدّونه للاضطلاع بكل مسؤولية ما يتم وما ينبغي له أن يتم. فليس من منكر يأتيه، ولا جرم يرتكبه، ولا غش خسيس يقترفه، لا يتحول فوراً، على لسان المحيطين به إلى عميل رفيع. وأجمل مهرجان يمكن للألمان أن ينظموه هو احتفالهم بـ«ايينا» و«اويرستاد». وليس هو وحده العظيم، بل إن أجداده وإخوته وأصهاره عظماء أيضاً. كل شيء يتضافر ليسلبه آخر بقايا عقله وليُعدّه لدوره الرهيب. وعندما يغدو مستعداً، تكون القوى مستعدة أيضاً.

ويتدّفق الغزو إلى الشرق، ويبلغ هدفه النهائي موسكو. وتسقط العاصمة؛ ويُباد الجيش الروسي. على نحو أكبر مما أصيبت به الجيوش المعادية في الحروب السابقة، من اوسترلتس إلى واغرام. ولكن، بدلاً من هذه المصادفات وتلك العبقرية التي قادته حتى الآن إلى هدفه المحدد، بكثير من الإطراد والثبات، وعبر سلسلة متصلة من النجاحات، إذا بعدد لا يُحصى من المصادفات المضادة يتدخل فجأة، بدءاً من زكام بورودينو حتى البرد القارس حتى الشرارة التي أشعلت النار في موسكو؛ وإذا بحماقة وجبن لا مثيل لهما يظهران مكان العبقرية.

ويلوذ الغزو بالفرار، ويتراجع، ويُمعن في الفرار، ومن الآن فصاعداً، تعمل المصادفات ضد نابليون لا له.

وتتمّ حركةٌ عكسية من الشرق إلى الغرب، بينها وبين الحركة السابقة من الغرب إلى الشرق وجوهُ شبه بارزة. ففيها محاولات حركة الغرب نفسها الغرب إلى الشرق في ١٨٠٥، ١٨٠٧، ١٨٠٨، وهي المحاولات التي سبقت الحركة الكبرى؛ والحشد نفسه في كتلة ضخمة، والانضمام نفسه لشعوب أوروبا الوسطى إلى الحركة؛ والتردد نفسه في منتصف الطريق، والتسارع نفسه كلما ازداد الاقتراب من الهدف.

وتبلغ الحركة العكسية باريس، الهدف الأقصى. ويُدمّر جيشُ نابليون وحكومته. ولا يَبْقى من علة لوجود نابليون ذاته؛ وتغدو جميعُ أعماله جديرة بالرثاء والكره؛ لكن المصادفة التي لا تفسير لها تتدخّل مرة أخرى: فالحلفاء يكرهون نابليون الذي يرون فيه سبباً لمصائبهم؛ وكان ينبغي أن يبدو لهم، بعد أن حُرم قوتَه وسلطته، وثبت غدرُه وجرائمه، كما بدا قبل عشر سنوات وكما سيبدو بعد سنة، لصاً خارجاً على القانون. ولكن منْ غريب المصادفات أن أحداً لا يرى ذلك. فدوره لم ينته بعد. والرجلُ الذي اعتُبر قبل عشر سنوات والذي سيُعتبر بعد سنة لصاً خارجاً على القانون، يُرسل إلى جزيرة[1]، على سفر يومين من فرنسا، جزيرة يُمنح هو سيادتها، مع حرس وملايين تُدفع له لسبب لا يعلمه أحد.

***

١ – «يرسل إلى جزيرة»: الجزيرة هي جزيرة «الب" التي منحها نابليون في ١٨١٤ كدولة صغيرة.

الفصل الرابع

بدأت حركة الشّعوب بالعودة إلى شطآنها. وانحسرت موجات التدفق الكبير وتشكّلت فوق البحر الذي عاد إلى هدوئه دوائرُ طفا فوقها الدبلوماسيون الذين تصوروا أنهم صانعو هذه الهدأة.

لكن البحر الذي عاد إلى هدوئه يثور فجأة. ويظن الدبلوماسيون أنهم هم، وخلافاتهم، سبب هذا المد الجديد للقوى؛ فيتوقعون حرباً بين ملوكهم؛ ويبدو الوضع بلا مخرج. لكن الموجة التي أحسوا بارتفاعها لا تتدفق من حيث ينتظرون. إنها الموجة نفسها، والمنطلق نفسه: باريس. إنها آخر دوّامة للحركة المنطلقة من الغرب؛ دوّامة ستحل الصعوبات الدبلوماسية التي بدت مستعصية الحل، وستضع حلاً للحركة الحربية في هذه الفترة.

إن الرجل الذي خرّب فرنسا يعود وحده إلى فرنسا، من غير مؤامرة، ولا جنود. كان بوسع أي حارس أن يلقي القبض عليه؛ لكن المصادفة الغريبة تشاء لا أن يمتنع الناس من إلقاء القبض عليه فحسب، بل أن يخفّوا جميعاً بحماسة لاستقبال الرجل الذي كانوا يلعنونه البارحة والذي سيلعنونه بعد شهر.

مايزال هذا الرجل ضرورياً لتسويغ آخر فصل جماعي.

ويتم الفصلُ. ويمثل الدورُ الأخير. ويُدعى الممثلُ إلى خلع ثوبه التنكري وإزالة المساحيق عن وجهه؛ إذ لم تبق من حاجة إليه.

وتمر بضع سنوات يمثل أثناءها هذا الرجلُ، في عزلة جزيرته، أمام نفسه، ملهاة هزيلة، فيدسُ ويكذب ليسوّغ أفعاله، في حين غدا هذا التسويغ بلا فائدة، ويُري العالم أجمع حقيقة ما كان الناس يعدونه قوّة، في حين أن يداً خفية كانت تقوده.

وبعد أن تُمثّل المسرحية ويخلع الممثل ملابسه، يقدّمه المخرج إلينا:

– انظروا بم آمنتم! ها هوذا! هل وثقتم الآن من أنني أنا الذي كان يقودكم لا هو؟

لكن الناس الذين أعماهم عنفُ الحركة ظلوا طويلاً دون أن يفهموا ذلك.

وأعظم من ذلك أيضاً المنطق والضرورة اللذان تنطوي عليهما حياة الكسندر الأول، هذه الشخصية التي كانت على رأس الحركة العكسية من الشرق إلى الغرب.

ماذا كان يلزم الرجل الذي يحجب الآخرين ليكون على رأس الحركة العكسية من الشرق إلى الغرب؟

كان يلزمه الشعور بالعدل، الاهتمام بشؤون أوروبا، لكن من بعيد، دون أن تحجب المصالحُ الخسيسة هذا الاهتمام؛ كان يلزمه أن يهيمن معنوياً على شركائه، ملوك هذه الحقبة من الزمن؛ كانت تلزمه شخصية وادعة وجذّابة؛ كان يلزمه أن يكون قد أهين إهانة شخصية من قبل نابليون. وكل ذلك اجتمع في الكسندر الأول؛ كل ذلك قد هيّأته طائفةٌ من المصادفات المزعومة في حياته الماضية بأسرها: تربيتُه، ومبادراته المتحررة. والمستشارون الذين كانوا من حوله، واوسترلتس، وتيلسيت، وايرفورت.

ظلت هذه الشخصية، أثناء الحرب القومية، عاطلة عن العمل لأن الحاجة لم تدعُ إليها؛ لكن ما أن انكشفت ضرورة الحرب الأوروبية العامة حتى ظهرت هذه الشخصية في مكانها في الوقت المطلوب، فألّفتْ بين الشعوب الأوروبية، وقادتها إلى الهدف.

ويتم بلوغُ هذا الهدف. فبعد حرب ١٨١٥ الأخيرة، يصل الكسندر الأول إلى ذروة القدرة التي يمكن بلوغها بشرياً. فكيف يستخدم هذه القدرة؟

إن الكسندر الأول، صانع السلام في أوروبا، والرجل الذي لم يطمح، منذ مُستهلّ شبابه، إلا إلى خير الشعوب، والمحرّض على الإصلاحات المتحررة في وطنه، يعمد الآن، بعد أن استأثر، كما يبدو، بأوسع سلطة ومن ثم بإمكانية إسعاد شعوبه، وبعد أن أخذ نابليون في المنفى يرسم الخطط الصبيانية والكاذبة عن الطريقة التي سيُسعد بها الإنسانية لو تسلّم السلطة، يعمد، بعد أن قام بمهمته وآنس يدَ الله فوقه، إلى الاعتراف فجأة بتفاهة هذه السلطة المزعومة، فيُعرض عنها ويضعها بين أيدي رجال حقراء وهو يحتقرهم، ويقول فقط:

- «ليس لنا، ليس لنا، لكن لاسمك[1]!». أنا إنسان مثلكم؛ دعوني أعش كما يعيش الإنسان وأفكر في روحي وفي الله.

وكما أن الشمس، ككل ذرة منٍ الأثير، كوكبٌ تامٌ في ذاته، وهي في الوقت نفسه ذرة لا غير من كل لا يُدركه الإنسان في ضخامته، فكذلك كل فرد يحمل في ذاته أهدافه، ومع ذلك فهو يحملها ليخدم أهدافاً عامة لا يدركها الإنسان.

١- «ليس لنا، ليس لنا، لكن لأسمك»: هذا القول من المزامير ١١٥-١- وكان مكتوباً على الوسام الذي يمنحه الكسندر الأول أبطال حرب ١٨١٢.

تلسع النحلة التي حطّت على زهرة صبياً. فيخاف الصبيُّ من النحل ويقول إن هدفها أن تلسع الناس. ويتأمل الشاعرُ النحلة التي تجني من كأس الزهرة فيقول: إن هدف النحلة أن تجمع رحيق الزهور. ويقول مربيّ النحل وهو يشاهد النحلة تجمع غبار الطلع وماء الزهر وتحملها إلى خليتها: إن هدف النحلة أن تجمع العسل. ويقول مربٍّ آخر درس حياة جماعة النحل عن كثب: إن النحلة تجني غبار الطلع وماء الزهر لتغذي حضنتها ولتربي الملكة وإن هدفها استمرار الجنس. ويلاحظ عالِمُ النبات أن النحلة عندما تنتقل حاملةً غبار الطلع من الزهرة الثنائية المسكن إلى الزهرة الأنثى إنما تلقّحها، فيرى في ذلك هدفها. ويلاحظ عالم آخر هجرة النباتات، فيرى النحلة تسهم في ذلك، وقد يقول: إن هذا هو هدف النحلة. لكن هدف النحلة النهائي لا يرتدّ لا إلى الهدف الأول، ولا إلى الثاني، ولا إلى الثالث من هذه الأهداف التي يستطيع الفكر البشري أن يكتشفها. وكلما ارتقى الفكر البشري في اكتشاف هذه الأهداف تبيّن له بوضوح أعظم أن الهدف النهائي لا يمكنه إدراكه.

الشيء الوحيد الذي يمكن للإنسان إدراكه هو أن يلاحظ العلاقة المتبادلة بين حياة النحلة وظواهر أخرى من ظواهر الحياة. والأمر كذلك بالنسبة إلى أهداف الشخصيات التاريخية وأهداف الشعوب.

***

الفصل الخامس

كان زواج ناتاشا التي تزوجت بيزوخوف، في ١٨١٣، آخر حدث سعيد في هذه الأسرة القديمة. وفي السنة نفسها، مات الكونت ايليا اندرئتش، وبموته تشتّت شملُ الأسرة، كما هي الحال دائماً.

إن أحداث السنة الأخيرة: حريق موسكو والفرار من المدينة، موت الأمير آندريه وجزع ناتاشا، موت بيتيا وألم الكونتيسة، إن كل ذلك كان كأنما ينصبّ على رأس الكونت العجوز، ضربةً إثر ضربة. وبدا عليه أنه لا يفهم معنى هذه الأحداث، أو أنه يحس في نفسه عجزاً عن فهمها، فحنى رأسه العجوز معنوياً، وكأنه كان ينتظر أو يلتمس ضربات جديدة تقضي عليه. وكان يبدو مروّعاً مضطرباً تارة، وتارة أخرى مليئاً بالحيوية والنشاط المصطنعين.

لقد شغلَه زواجُ ناتاشا مدة من الزمن بجانبه الخارجي، فأقام الأغدية والأعشية وكأنما أراد أن يُظهر ابتهاجه؛ لكن هذا الابتهاج لم يكن مُعدياً، بل إنه كان يثير الإشفاق عند من يعرفونه ويحبونه.

وبعد رحيل بطرس وزوجته، فقد كل حيويته وأخذ يشكو حزنه. ثم ما لبث أن مرض ولزم الفراش. وأدرك، منذ الأيام الأولى من مرضه، وبالرغم من طمأنة الأطباء، أنه لن يقوم من مرضه. وقد قضت الكونتيسة خمسة عشر يوماً على مقعد، فوق رأسه، دون أن تخلع ثيابها وكان،

كلما ناولته دواء، يقبّل يدها من غير أن يقول شيئاً، وهو يخنق نحيبه. وفي اليوم الأخير، سأل زوجته الصفحَ وهو ينتحب، وسأل ابنةَ الصفح، في فكره، لأنه بدّد ثروتهما، وهو الذنب الرئيسي الذي أحس أنه أذنبه. وبعد أن تناول وتلقّى المسحة الأخيرة، مات بهدوء، وفي اليوم التالي،، ملأ جمهور المعارف الذين جاؤوا لأداء واجبات الإكرام، الشقةَ التي كان يستأجرها آل روستوف. كان جميع هؤلاء المعارف الذين طالما تناولوا الطعام على مائدته، وطالما رقصوا في بيته، وطالما سخروا منه، يقولون الآن، وهم يشعرون شعوراً واحداً مكتوماً من اللوم والتحنّن، وكأنهم يريدون أن يبّرروا أنفسهم تجاه الآخرين: «عبثٌ ما يُقال، لقد كان رجلاً ممتازاً. ولسنا نجد أمثاله، في أيامنا... ثم من الذي ليست له عيوبه؟...

في اللحظة التي بلغت فيها شؤون الكونت حداً كبيراً من التشوّش بحيث غدا من المستحيل أن يتصوّر كيف سينتهي ذلك كله لو استمرت الحال سنة أخرى، في هذه اللحظة بالذات مات فجأة.

كان نيقولا مع الجيش الروسي في باريس عندما بلغه نبأ موت أبيه. فقدّم استقالته على الفور، وقبل أن ينتظر الجواب نال إجازةً وسافر إلى موسكو. اتّضح وضع الأسرة المادي نهائياً بعد شهر من موت الكونت، وأدهش جميعَ الناس بضخامة المبلغ الذي بلغته مختلف الديون الزهيدة التي ما كان أحد يتوهم وجودها. لقد بلغت الديون ضعف ثمن الأملاك.

كان الأهل والأصدقاء يُشيرون على نيقولا برفض التركة. لكن نيقولا رأى في هذا التخلي تعبيراً عن لومه لذكرى والده المقدّسة؛ ولذلك أبى الخوض في هذا الحديث وقبل التركة مع الالتزام بتسديد الديون.

أما الدائنون الذين صمتوا طويلاً، والذين قيّدهم في حياة الكونت ذلك التأثيرُ المبهم والقوي لطيبته الخالية من النظام، فقد أخذوا يطالبون بحقوقهم فجأة. وقامت بينهم منافسة، كما هي الحال دائماً، في من يستوفي دَينه أولاً، والذين كانوا يملكون، سندات تلقّوْها على سبيل الهدية، لا على سبيل الإقرار بالدين، مثل ميتنكا وغيره، بدوا أكثر الدائنين تشدّداً. لم يكونوا يتركون لنيقولا مهلة ولا راحة، والذين كانوا يظهرون الرثاء لحال الشيخ المسؤول عن خسائرهم (إن كان هناك خسارة) انقلبوا الآن على الوارث الشاب البريء من غير شك والذي تعهد أن يسدد ديونهم بملء إرادته.

لم ينجح أيّ من التسويات التي ارتآها نيقولا؛ بيعت الأملاك بأسعار بخسة في المزاد ومع ذلك ظل نصف الديون بدون وفاء. وقبل نيقولا الثلاثين ألف روبل التي قدمها لها صهره بيزوخوف لتسديد تلك الديون التي اعتبرها ديوناً نقدية، ديوناً حقيقية. ولكي لا يدخل السجنَ بسبب بقية الذين كما كان يهدّده دائنون، فقد استأنف الخدمة.

لم يكن بوسعه أن يلتحق بالجيش حيث كان سيُعيّن آمر مفرزة في أول عطلة، لأن الأم غدت تتشبث به الآن باعتباره العلة الأخيرة لوجودها، فقد قبل بالوظيفة، رغم نفوره من البقاء في موسكو، في وسط الذين عرفوه منذ عهد قريب، ورغم كرهه للوظائف المدنية، وخلع بزته العسكرية التي أحبها، وأقام مع أمه وصونيا في شقة صغيرة في سيفتزيف فراجك[1].

كان بطرس وناتاشا يقطنان آنذاك في بطرسبرج، وليس عندهما إلا فكرة غامضة عن وضع نيقولا. ذلك أن نيقولا، كان يبذل وسعه، بعد

١ – «سفيتزيف فراجك»: شارع بيوته متواضعة، غربي الكرملين.

أن اقترض المال من صهره، ليخفي عنه رقة حاله. كان وضعه في غاية السوء، إذ كان عليه أن يسدّ حاجاته الخاصة وحاجات صونيا وأمه، بمرتّب مقداره ألف ومئتا روبل سنوياً، وكان عليه أيضاً أن يجعل أمه تحيا حياة كريمة لا تفطن معها إلى فقرهم. لم تكن الكونتيسة تتصوّر أن العيش ممكن إذا خلا من الترف الذي تعوّدته منذ طفولتها. فكانت لا تني تطلب إلى ابنها أن يأتيها حيناً بالعربة التي فقدوها لكي تُحضر صديقة لها وحيناً آخر بطعام لها باهظ الثمن وبالخمر لابنها، كما كانت تطلب المال، في أحيان أخرى، لتقدم الهدايا إلى ناتاشا، وصونيا، ونيقولا ذاته.

كانت صونيا تهتم بشؤون المنزل، وتُعنى بعمتها، وتقرأ لها، وتحتمل نزواتها وكراهيتها الدفينة، وتساعد نيقولا على أن يخفي عن الكونتيسة العجوز ما هم فيه من ضيقة. وكان نيقولا يُحس إزاء صونيا، بدين من الإعتراف بالجميل يستحيل عليه الوفاء به، لقاء كل ما كانت تفعله لأمه، وكان معجباً بصبرها وإخلاصها، لكنه كان حريصاً على ما تحفّظ معها.

كان، في أعماق نفسه، كمن يأخذ عليها فرط كمال استقامتها. كانت تملك كل ما يحمل على التقدير؛ لكنها لم تكن تملك إلا القليل مما يلزم لكي تحمله على حبها. وكان يشعر أنه كلما زاد تقديره لها نقص حبّه. وكان قد قَبلَ على الفور اقتراحها، في الرسالة التي تعيد إليه فيها حريته، وهو الآن يتصرف معها كأن ما كان بينهما أصبح منسياً منذ زمن بعيد ولا يمكن أن يعود بأية حال من الأحوال.

كان وضع نيقولا يزداد سوءاً. أما فكرة التوفير من مرتبّه فتبيّن أنها حلم من الأحلام. إذ لم يقتصر الأمر على أنه لم يدخّر شيئاً، بل إنه اضطر إلى استدانة مبالغ طفيفة لكي يلبي طلبات أمه. ولم يكن يرى لهذا الوضع من مخرج. وكان يشمئز من فكرة الزواج بوارثة غنية كما كانت تقترح قريباته. ولم يمرّ بباله قط المخرجُ الآخر، أي موت أمه. كان

لا يشتهي شيئاً، ولا يرجو شيئاً؛ وكان يستشعر في أعماق نفسه لذة قاتمة متقشّفة باحتماله وضعه دون تأفّف. وكان يبذل جهده في تجنب معارفه القدامى، بشفقتهم وعرضهم الجارح للمساعدة، ويتحاشى اللهو والمتع، ولا يهتم بشيء، حتى في بيته، إلا بأن يكتشف البختَ بالورق مع أمه، وبأن يتمشى جيئة وذهاباً وهو صامت يدخن غليوناً في إثر غليون. فكأنما كان يتعهد برعايته ذلك المزاجَ الكالح في نفسه، وهو المزاج الذي كان يشعر أنه يستطيع فيه وحده احتمال وضعه.

***

الفصل السادس

وصلت الأميرة ماريا إلى موسكو، في بداية الشتاء. وعلمت من الشائعات العامة بوضع آل روستوف وبالطريقة التي بها «كان الولد يضحي بنفسه في سبيل أمه»: هكذا كانوا يقولون في المدينة. فقالت الأميرة ماريا في نفسها وقد أحست بفرح لأنها وجدت ما يؤكد حبها له: «ما كنتُ أتوقع منه شيئاً آخر». ونظراً لعلاقات الصداقة بل والقرابة مع الأسرة كلها، فقد رأت من واجبها أن تقوم بزيارة هذه الأسرة لكنها تتخوّف من هذه الزيارة حين تتذكّر علاقاتها بنيقولا في فورونيج. إلا أنها تحاملت على نفسها، وقصدت إلى منزل آل روستوف بعد عدة أسابيع من وصولها إلى المدينة.

كان نيقولا أول من استقبلها لأنه لم يكن يمكن الذهاب إلى غرفة الكونتيسة إلا بعد المرور من غرفته. ومن أول نظرة ألقاها نيقولا عليها، علت وجهه أماراتُ البرودة والجفاف والتعالي التي لم ترها قط عليه، بدلاً من أن يُعبّر هذا الوجه عن الفرح الذي كانت تتوقع أن تراه. استفهم نيقولا عن صحتها، وقادها إلى أمه وترك الغرفة بعد خمس دقائق.

عندما خرجت الأميرة من غرفة الكونتيسة، التقت نيقولا مرة أخرى فاصطحبها، بجفاف خاص متكلّف، إلى البهو، ولم يردّ بكلمة

واحدة على الملاحظات التي أبدتها عن صحة الكونتيسة. كانت نظرته تقول: «مالكِ ولهذا؟ دعيني وشأني».

قال بصوت مرتفع أمام صونيا، وكأنه كان عاجزاً عن كظم غيظه، بعد أن نأت عربة الأميرة عن البيت:

- لم جاءت تتسكع هنا؟ ما الذي تبغيه؟ لا أستطيع أن أطيق هؤلاء النساء المتصنعات ولا هذه الملاطفات!

قالت صونيا، وهي تخفي سرورها بمشقة:

- آه! كيف يمكن أن تقول مثل هذا الكلام، يا نيقولا. إنها طيبة جداً، و«ماما» تحبها كثيراً.

لم يجب نيقولا وكان بوده ألا يتحدث بعد الآن عن الأميرة. لكن الكونتيسة العجوز كانت تتحدث عنها مرات في اليوم، منذ زيارتها.

أخذت الكونتيسة تثني عليها، وتطلب إلى ابنها أن يذهب لرؤيتها، وتفصح عن رغبتها في أن تراها هي نفسها كثيراً، ومع ذلك فقد كانت تنتهي دائماً بالتبّرم وهي تتحدث عنها.

كان نيقولا يجهد في أن يلزم الصمت في هذه المناسبات، لكن صمته كان يثير حفيظة الكونتيسة.

كانت تقول:

- إنها فتاة فاضلة جداً وفاتنة، وعليك أن ترد لها الزيارة. على الأقل، سترى بعض الناس. وإلاّ فلابد أن تصاب بالضجر معنا، على ما أتصوّر.

- لكني لا أرغب في ذلك، يا أمي.

– كنتَ قديماً تحب أن تراها، وأنت الآن لا ترغب في ذلك. في الحقيقة، إني لا أفهمك، يا عزيزي. فأنت تُصاب بالضجر حيناً، وحيناً آخر تأبى فجأة أن ترى أحداً.

– لكنني لم أقل إنني كنتُ أصاب بالضجر.

– مهلاً، لقد قلتَ الآن أنت نفسك إنك لا تريد أن تراها. إنها فتاة فاضلة جداً أعجبتك دائماً؛ وها أنت ذا تحتج بالأعذار. صرتَ تخفي عني كل شيء.

– لكني لا أخفي عنك شيئاً، يا أمي.

– لو كنت أطلب إليك أن تفعل فعلاً كريهاً لسكتُّ، لكني لا أطلب إليك إلا أن ترد لها الزيارة. ويخيل إلي أن اللياقة تقتضي ذلك. لقد طلبت إليك ذلك أما الآن فلن أتدخل في شيء لأنك تخفي أسراراً عن أمك.

– إذا كنت تصرين على ذلك فسوف أذهب.

– سيان عندي؛ وإنما رغبتُ في ذلك من أجلك.

تنهّد نيقولا، وعض شاربه ثم نشر ورق اللعب ليجذب انتباه أمه إلى موضوع آخر.

تجدّد هذا الحديث نفسه في اليوم التالي، وفي اليوم الذي تلاه، وفي اليوم الذي بعده.

اعترفت الأميرة ماريا بينها وبين نفسها بعد ذلك اللقاء الفاتر الذي لم تكن تتوقعه من نيقولا، أنها كانت على صواب حين لم تكن ترغب في الذهاب إلى منزل آل روستوف أولاً.

كانت تقول في نفسها وهي تستنجد بكبريائها:

«ما كنت أتوقع شيئاً آخر. إنه لا يهمني في شيء. كنتُ أود فقط أن أرى الكونتيسة العجوز الذي كانت كريمة النفس معي والذي أدينُ لها بالكثير.»

لكن هذه المحاكمات عجزت عن أن ترد إليها هدوءها: لقد كان يعذّبها شعور شبيه بتبكيت الضمير عندما تفكر بهذه الزيارة. ومع أنها وطّدت العزم على ألا تعود إلى زيارة آل روستوف وعلى أن تنسى كل ذلك، فقد كانت تشعر أنها في وضع خاطئ. وعندما كانت تتساءل عمّا يؤرقها بالضبط، كانت تُضطر إلى الاعتراف بأن ما يؤرقها هو علاقاتها بآل روستوف. فاللهجة الباردة، المهذبة التي خاطبها بها لم تكن تصدر عن عاطفته حيالها (كانت تعلم ذلك)، بل إنه كان يخفي شيئاً. هذا الشيء، كان يجب أن توضّحه؛ وكانت تحس أنها لن تجد الراحة قبل أن يتم ذلك.

وذات يوم، في وسط الشتاء، كانت جالسة في غرفة دراسة ابن أخيها تراقب وظائفه، فجاءَ مَنْ يُعلن قدوم روستوف. وبما أنها وطدت العزم على ألا تكشف عن سرها وألا تُظهر اضطرابها. فقد استدعت الآنسة بوريين ودخلت بصحبتها غرفة الاستقبال.

رأتْ، من النظرة الأولى التي ألقتها على وجه نيقولا، أنه ما جاء إلا ليقوم بواجب من واجبات اللياقة، فاعتزمت أن تلتزم اللهجة التي يتخذها حيالها.

تحدّثا عن صحة الكونتيسة، وعن أصدقائهما المشتركين، وعن آخر أنباء الحرب، وعندما انقضت الدقائق العشر التي تتطلبها اللياقة لكي يحق للزائر أن ينهض، نهض نيقولا ليستأذن بالانصراف.

أحسنت الأميرة، بمساعدة الآنسة بورين، تصريف الحديث؛ لكنها سئمت سأماً شديداً، في آخر لحظة، عندما كان ينهض، من الكلام على ما لا يعنيها في شيء، واستأثر بلبها تساؤلها عن السبب الذي من أجله بخلت الحياة عليها وحدها بالمباهج، حتى أنها ظلت، في لحظة من لحظات الشرود، جالسةً بلا حراك، وعيناها المضيئتان شاخصتان إلى الأمام، دون أن تلحظ أنه نهض.

نظر نيقولا إليها وأراد أن يتظاهر بأنه لم يفطن إلى شرودها، فقال بضع كلمات للآنسة بورين، ثم نظر إلى الأميرة مرة أخرى، ظلت بلا حراك وكان وجهها الرقيق يعبر عن الألم فانتابه الإشفاق عليها فجأة وأحس إحساساً غامضاً بأنه ربما كان هو سبب حزنها الذي انعكس على وجهها. فاشتهى أن يساعدها، وأن يقول لها ما يُدخل السرور إلى نفسها؛ لكنه لم يجد ما يقوله لها.

قال:

- الوداع، يا أميرة.

فصحتْ من شرودها واحمرت وتنهدت تنهداً عميقاً.

قالت وكأنها تستيقظ من نومها:

- آه! عفواً. أتنوي الذهاب، يا كونت؛ إلى اللقاء إذن! ووسادة الكونتيسة؟

قالت الآنسة بورين وهي تخرج من الغرفة:

- انتظرْ، سآتيك بها.

صمت الإثنان وكلاهما ينظر إلى الآخر بين الحين والحين:

قال نيقولا أخيراً وهو يبتسم بحزن:

– نعم، يا أميرة، إن ذلك ليبدو قريب العهد، لكنْ ما أكثر. ما أصابنا من صروف الدهر منذ أن التقينا لأول مرة في بوغاتشاروفو. كنا جميعاً آنذاك كالغارقين في الشقاء، لكني مستعد لأن أدفع الكثير لكي يعود ذلك الزمن... ولا يمكن لأحد أن يُعيده.

حدقت الأميرة في عينيه بنظرتها المضيئة، أثناء كلامه. كانت كأنها تسعى لفهم ما في أقواله من معنى دفين يوضّح العاطفة التي يُكنّها لها.

قالت:

– نعم، نعم، لكن ليس لك أن تأسف على الماضي، يا كونت. وفي حدود فهمي لحياتك الراهنة، فإنك سوف تتذكر دائماً ذلك الماضي بفرح. لأن إنكار الذات الذي تعيش به الآن...

فقاطعها بحدّة:

– لستُ أَقْبل ثناءك على العكس، أنا دائم اللوم لنفسي؛ لكن ذلك موضوعٌ لحديث لا هو بالشائق ولا بالبهيج.

وعاد إلى نظرته تعبيرها الجاف البارد. لكن الأميرة عثرت فيه على الرجل الذي كانت تعرفه وتحبه، فراحت الآن تخاطب ذلك الرجل وحده قالت:

– كنتُ أظن أنك ستسمح لي بأن أقول لك ذلك. لقد كنتُ وثيقة الصلة بك.... وبأسرتك حتى لقد اعتقدت أنك لن ترى مودتي في غير موضعها؛ لكنني كنتُ مخطئة.

وتهدج صوتها فجأة. ثم استأنفت كلامها وهي تتمالك نفسها:

- لستُ أدري لماذا، لقد كنت مختلفاً في الماضي.

- هناك ألف سبب للجواب عن «لماذا»، (وشدّد على هذه الكلمة بخاصة).

وأضاف بصوت خافت:

- أشكرك، يا أميرة. إن ذلك لقاسٍ أحياناً...

فهتف صوت داخلي في نفس الأميرة ماريا: «لقد عرفتُ لماذا! عرفتُ لماذا!»

وقالت في نفسها: «لا، لم أحب فيه هذه النظرة المرحة والصريحة فحسب، لم أحب جماله الجسدي فحسب، بل لقد استشففتُ هذه النفس النبيلة، الصامدة، القادرة على التضحية. نعم، إنه الآن فقير وأنا غنية... نعم، هذا هو السبب الوحيد... نعم، لو لم يكن ذلك....»

وتذكرتْ حنانه القديم فنظرت إلى وجهه الجميل الحزين، وفهمت فجأة سبب برودته.

وقالت كالصارخة، بالرغم منها، وهي تدنو منه:

- لماذا إذن، يا كونت، لماذا؟ لماذا، قل لي لماذا. ينبغي أن تقول لي.

أخلد إلى الصمت. فتابعت:

- إنني أجهل، يا كونت، لماذا. لكنني متألمة، وأنا... أنا أعترف لك بذلك. أتريد أن تحرمني صداقتك القديمة، من أجل سبب أجهله. وهذا يؤلمني.

كان في عينيها دموعٌ وفي صوتها:

- لقد نلتُ القليل مِن السعادة في حياتي حتى إن أية خسارة تشقّ عليّ.... اعذرني، وداعاً.

وأخذت تبكي فجأة واتجهت إلى الباب:

فهتف نيقولا وهو يحاول استيقافها:

- يا أميرة! انتظري، بحق الله، يا أميرة!

التفتت إليه. نظر كل منهما إلى عيني الآخر بصمت، خلال بضع ثوان، وفجأة غدا البعيدُ، المستحيلُ قريباً، ممكناً ومحتوماً....

***

الفصل السابع

في خريف ١٨١٣، تزوج نيقولا الأميرة ماريا وذهب مع زوجته وصونيا وأمه ليقيم في ليسييه خوري.

وفى نيقولا بقية ديونه، في ثلاث سنوات، دون أن يبيع شيئاً من أملاك زوجته، كما دفع لبطرس المبلغ الذي استدانه، بعد أن جاءه إرثٌ صغير من ابنة عم له.

وبعد ثلاث سنوات، كان نيقولا قد أصلح أحواله المادية حتى أنه اشترى عقاراً صغيراً بالقرب من ليسييه خوري، وكان يفاوض لاسترداد أملاك العائلة في اوترادنوي، وهو أعزّ أحلامه عليه.

وبعد أن أخذ يدير أراضيه بسبب الضرورة، إلا أنه مالبث أن شغف باستثمارها حتى إن ذلك غدا شغله المفضل والشاغل تقريباً.

كان نيقولا ملاكاً بسيطاً. فلم يكن يحب التجديدات، ولاسيما التجديدات الإنكليزية التي شاعت آنذاك. وكان يهزأ من المؤلفات الزراعية النظرية، ولا يحب مرابط الخيل، ولا المنتجات الباهظة الثمن، ولا بذار الحبوب الغالية، و لم يكن يهتم، على العموم، اهتماماً مستقلاً بأي جانب متميز من استثماره. كان يضع نصبَ عينيهِ أملاكه، لا هذا الجزء أو ذاك من أجزائها. إذ أن الجوهري، في هذه الأملاك لم يكن آزوت أو أكسجين الأرض والهواء، لم يكن المحراث أو الأسمدة

الخاصة، لكنه تلك الأداة الرئيسية التي تستخدم الآزوت والأكسجين والأسمدة والمحراث، أي الشغيّل، الفلاح. وعندما تولى نيقولا استثمار أراضيه بنفسه، وتعلّق بدراسة عناصرها، استرعى الفلاحُ انتباهه بشكل خاص؛ لم يكن يبدو له كأداة فحسب بل وأيضاً كهدف وكحكم. بدأ بدراسة الفلاح، باذلاً وسعه لفهم حاجاته، ومعرفة ما يعتبره حسناً وما يعتبره سيئاً، وكان يتظاهر بأنه يتخذ التدابير ويُصدر الأوامر لا غير، بينما كان همُه، في الحقيقة، أن يطّلع من الفلاحين على طرائق عملهم ولهجاتهم وأحكامهم على ما هو خير وما هو شر. حتى إذا فهم ميول الفلاح ومطامحه، وتعلّم الكلام بلهجته وفهم معناها الدفين، وشعر أنه تآلف معه، حينذاك فقط يُقدم على قيادته، أي على أن يؤدي، حيال الفلاح، المهمة نفسها التي تقع على عاتقه. وكانت إدارة نيقولا تعطي نتائج باهرة.

عندما تولى نيقولا إدارة أراضيه، عيّن دفعة واحدة، من غير أن يخطئ، وبضربٍ من الحدس، عيّن المشرف والقيّم والمساعد من الرجال الذين كان يمكن للفلاحين أن ينتخبوهم لو تُرك لهم الخيار، ولم يكن يغيّر هؤلاء الرؤساء قط. وقبل أن يعمد نيقولا إلى تحليل خصائص السماد الكيمياوية، وقبل أن يتصدى لبحث ما له وما عليه (كما كان يحب أن يقول متهكماً)، كان يستعلم عن كمية الماشية التي يملكها الفلاحون ويزيد هذه الكمية بكل ما في حوزته من وسائل. كان يحافظ على وحدة عائلات الفلاحين، ولا يسمح لهم بالتقسيم. وكان يلاحق الكسالى والفاسقين والضعفاء، بالطريقة نفسها، ويسعى لإبعادهم عن الجماعة.

وأثناء البذار وحصاد الكلأ والزرع، كان يراقب حقول الفلاحين بالعناية التي يراقب بها حقوله الخاصة. وقليل من المالكين كانت تُبذر

حقولهم وتحصد بمثل الجودة والسرعة اللتين تبذر وتحصد بهما حقول نيقولا، وقليل منهم كان يجني من المحاصيل مثله.

لم يكن يحب أن يتعامل مع الخدم، وكان ينعتهم بالطفيليين، وقد أطلق لهم العنان، على رأي الجميع، وأفسدهم؛ وكان يتردد ويشاور أهل البيت عندما يدور الأمر على اتخاذ قرار بشأن أحد الخدم، ولاسيما عندما تجب معاقبته؛ لكن عندما كان ممكناً أن يقدم للجندية خادماً بدلاً من أحد الفلاحين فإنه كان يفعل ذلك دون أدنى تردد، وبالمقابل، فلم يكن يساوره أي شك في التدابير التي ينبغي أن يتخّذها بصدد الفلاحين. وكان يعلم أن كل قرار يتخذه سيوافق عليه الجميع، ما عدا واحداً أو قلة قليلة من الفلاحين.

و لم يكن يجيز لنفسه أن يُرهق أحد الفلاحين بالعمل أو أن يعاقبه، على هواه، كما لم يكن يجيز لنفسه أن يُخفف نصيبه من العمل أو أن يكافئه لأن تلك كانت رغبته الشخصية؛ ما كان بوسعه أن يقول علامَ يقوم المعيارُ فيما ينبغي وفيما لا ينبغي فعله؛ لكن هذا المعيار كان ثابتاً لا يتزعزع في نفسه.

وكثيراً ما كان يقول بغيظ وهو يتحدث عما يصادفه من فشل أو فوضى: «مع شعبنا الروسي»، وكان يتصور أنه يكره الفلاح الروسي.

لكنه كان يحب هذا الشعب الروسي ونمط حياته بكل ما أوتي من قوة، ومن أجل ذلك وحده أدرك واختار لنفسه نوع الاستثمار وطريقته الصالحين وحدهما لإعطاء أحسن النتائج.

كانت الكونتيسة ماريا تغار من حب زوجها هذا وتأسف على أنها لا تستطيع مشاركته هذا الحب؛ لكنها لم تكن تستطيع أن تدرك المباهج والمتاعب التي يوفّرها له هذا العالم القائم بذاته والغريب عنها. لم تكن

تستطيع أن تدرك لماذا يعود مليئاً بالحياة والسعادة، من البذار أو حصاد الكلأ أو حصاد الزرع، ليتناول الشاي معها، بعد أن يكون قد نهض مع الفجر وقضى الصباح كله في الحقول أو البيدر. لم تكن تدرك ما يثير فيه كل هذا التعجب عندما يتكلم بحماسة عن الفلاح الغني «متى ايرميشين» الذي قضى الليل كله مع أسرته في نقل حزم الزرع حتى غدت أكداسه جاهزةً في حين لم يحصد أحد زرعه بعد. لم تكن تدرك، وهي تروح وتجيء من النافذة إلى الشرفة، لماذا كان يبتسم بفرحٍ بين شاربيه، ولماذا كان يطرف بعينه عندما ينهمر المطر دافئاً مدراراً، على عروق الشوفان التي أشرفت على الجفاف، ولماذا كان يقول، وهو يعود من البيدر محمرّاً، ملوحاً، ناضحاً بالعرق، وشعره يفوح بما يشبه رائحة الافسنتين والخردل، وقد رأى الريح، أثناء حصاد الكلأ أو الزرع، تسوقُ سحابة مُنذرة بالمطر، لماذا كان يقول وهو يفرك يديه بفرح: «حسناً! يلزمنا يوم آخر أيضاً، ونلمّ بعده غلتنا وغلة الفلاحين».

وكانت أعجز عن أن تدرك لماذا كان يغتمّ، مع طيبة قلبه، ومبادرته المستمرة لتلبية رغباتها، عندما تنقل إليه طلبات الفلاّحات والفلاحين الذين قصدوها لإعفائهم من العمل، ولماذا كان نيقولا الطيب يقابلها بالرفض القاطع ويرجوها متبرّماً ألا تتدخل فيما لا يعنيها. كانت تحس أن له عالماً خاصاً شُغف به وأن لهذا العالم قوانينه التي لم تكن تفهمها.

فإذا اتفق لها، وهي تسعى لفهمه، أن تحدثه عمّا في إحسانه إلى فلاحيه من فضل، غضب وأجاب: «هذا غيرُ وارد على الإطلاق؛ فذلك لا يخطر لي ببال؛ لن أفعل ذلك لخيرهم. إن خير القريب ذاك أقرب إلى الشعر وقصص العجائز. ما يلزمني هو ألا تلحق الفاقة بأبنائي؛ وعليّ أن أوطّد ثروتي ما دمتُ حياً؛ هذا كل ما في الأمر. ومن أجل ذلك، لابدّ من النظام، لابد من الشدّة... هذا رأيي»! كان يقول ذلك وهو يضغط

على قبضته القوية. ويضيف: «ولابدّ أيضاً من العدالة، بكل تأكيد، لأن الفلاح عارٍ وجائع، لا يملك إلا جواداً هزيلاً، وهو لا يستطيع أن يعمل لا من أجل نفسه ولا من أجلي».

ولأن نيقولا كان يأبى التفكير في أنه يصنع شيئاً للآخرين، باسم الفضيلة، فقد كان كل ما يفعله يؤتي ثماره: كانت ثروته تنمو بسرعة: وصار فلاحو القرى المجاورة يأتون ليطلبوا إليه أن يشتريهم، وحفظ الشعب، بعد موته بزمن طويلٍ، ذكرى إدارته بإجلال: «كان سيّداً حقيقياً... مصلحة الفلاح أولاً، ومصلحته بعد ذلك. لكنه كان أيضاً خالياً من الضعف. ليس عليه ما يُقال، كان سيداً حقيقياً!»

***

الفصل الثامن

الشيء الوحيد الذي كان يعذّب نيقولا في إدارته هو نزقه، وهو نزق ترافق وعادته القديمة كفارس من حيث أنه سريع الغضب. لم يكن يرى في ذلك ما يستحق اللوم، أول الأمر، لكن رأيه بصدد هذا اللون من العدالة المبّسطة تغيّر فجأة، في السنة الثانية من زواجه.

وذات يوم، في الصيف، استقدمَ من بوغوتشاروفو القيمّ الذي خلف المرحوم درون والذي كان متهماً باختلاسات ومخالفات شتى. ذهب نيقولا ليحدّثه على درج المدخل، ومنذ أجوبة القيمّ الأولى، سُمعت في البهو صيحاتٌ وضربات. وعندما رجع نيقولا لتناول الغداء، دنا من زوجته، وكانت تجلس خافضة الرأس أمام نول الوشي، وأخذ يروي لها، على عادته، كل ما فعله في الصباح، فحدثها، فيما حدّث، عن قيمّ بوغوتشاروفو. ظلت الأميرة ماريا خافضة الرأس، وقد احمرت وشحبت وأخذت تزم شفتيها، و لم تجب زوجها بشيء.

قال وهو يحتدّ لهذه الذكرى وحدها:

– يا له من لئيم، نذل! لو قال لي على الأقل إنه كان سكران، أو أنه لم ير شيئاً....

وسأل ماريا فجأة:

- مالك، يا ماريا؟

رفعت الكونتيسة ماريا رأسها، وأرادت أن تقول شيئاً، لكنها عادت فخفضت عينيها على عجل وضمّت شفتيها.

- مالكِ؟ مالك، يا صديقتي؟...

كانت الأميرة البشعة ماريا تزداد حسناً، عندما تبكي. ولم تكن تبكي قط من الألم الجسدي أو الغيظ، بل من الحزن والشفقة وحدهما. فإذ بكت انبعث من عينيها المضيئتين سحرٌ لا يُقاوم.

ومنذ أن أمسك نيقولا بيدها لم تستطع أن تتمالك نفسها أكثر من ذلك فانفجرت باكية.

- نيقولا، رأيتُ... إنه مذنب؛ لكنك أنت لماذا...؟ يا نيقولا!

وغطت وجهها بيديها.

صمت نيقولا، وتضرّج وجهه، وابتعد عنها فأخذ يذرع الغرفة بصمت. أدرك لماذا كانت تبكي؛ لكنه لم يكن بوسعه أن يوافقها في نفسه من أول مرة ليسلّم بأن ما ألفه منذ طفولته، وأن ما اعتبره شيئاً عادياً جداً إنما هو شر.

تساءل: «أهي حساسية زائفة، وضربٌ من قصص العجائز، أم أنها على حق؟». ودون أن يبتّ هذه المسألة في نفسه، عاد فألقى نظرة على وجهها الذي كان يعكس الألم والحب، وأدرك فجأة أنها هي التي كانت على حق وأنه كان مذنباً تجاه نفسه منذ زمن بعيد.

قال برفق وهو يدنو منها:

- ماريا، لن يقع ذلك أبداً بعد الآن؛ أعدك بذلك. أبداً.

وكرّر هذه الكلمة بصوت متهدج، كصبي يسأل الصفح.

سالت الدموع غزاراً من عيني الكونتيسة. ثم أخذت يد زوجها وقبلتها.

قالت وهي تنتوي تغيير الحديث وتنظر إلى يده التي كان يحمل فيها خاتماً عليه رأس «اللاووكون».

– نيقولا، متى كسرتَ عقيقةَ الخاتم؟

قال وهو يشير إلى الخاتم الذي كُسرت عقيقتُه:

– اليوم، إنها القصة نفسها أيضاً. آه! لا تذكريني بذلك، يا ماريا.

واحمرّ. وتابع:

– أعدك بشرفي أن ذلك لن يقع بعد الآن، وليذكّرْني هذا الخاتم بذلك أبداً.

ومنذ ذلك الحين، كان نيقولا إذا ثارت ثائرته عند استفساره القيمين والوكلاء عن العمل، دوّر في إصبعه خاتمه المكسور وغضّ عينيه أمام الذي أثار غضبه. إلا أنه كان ينسى نفسه مرة أو مرتين في السنة، فيعترف بذلك حين يعود إلى امرأته، ويعدها مرة أخرى أن هذه المرة ستكون المرة الأخيرة.

وكان يقول لها:

– ماريا، لابد أنك تحتقرينني؟ أنا جدير بذلك.

فتقول الأميرة ماريا بحزن محاولة أن تعزي زوجها:

– انصرفْ، انصرف عندما تحس أنك لا تقوى على تمالك نفسك.

كان نيقولا محترماً، بين نبلاء المقاطعة، لكنه لم يكن محبوباً. كان لا يبالي بمصالحهم، فاعتبره بعضهم متكبراً، واعتبره الآخرون غبياً. وكان وقته كله، خلال الربيع والصيف، من زمن البذار إلى الحصاد، وقفاً على العناية بأملاكه. أما في الخريف، فكان يزاول الصيد بالجد العملي نفسه الذي كان يزاول به إدارة أراضيه. ويخرج شهراً أو شهرين بعدة الصيد. وأما في الشتاء، فكان يزور القرى الأخرى وينصرف إلى المطالعة. وكانت مطالعاته تقوم بشكل رئيسي على قراءة المؤلفات التاريخية التي يطلبها كل سنة لقاء مبلغ من المال. كان يصنع لنفسه، على حد قوله، مكتبة غنية، ويأخذ نفسه بقراءة جميع الكتب التي يشتريها. كان يجلس في مكتبه برزانة ووقار وينصرف إلى هذه المطالعات التي فَرضَها على نفسه أولاً كواجب ثم لم تلبث أن غدت عنده عادة توفّر له لذةً من نوع خاص وتخلق لديه الشعور بأنه يشغل نفسه بشيء جدي. وفيما عدا أسفاره للعمل، فإنه كان يقضي معظم وقته في البيت، ملاصقاً عائلته وداخلاً في تفاصيل العلاقات بين أولاده وأمهم. وكانت ألفته الحميمة لزوجته لاتني تتزايد فيكتشف فيها يوماً بعد يوم كنوزاً روحية جديدة.

وكانت صونيا تعيش في بيت نيقولا، منذ زواجه. وقد قص نيقولا على زوجته، قبيل زواجه، كل ما كان بينهما، متهماً نفسه، ومادحاً مزايا صونيا. وطلب إلى الأميرة ماريا أن تعامل قريبته بطيبة ومودة. كانت الكونتيسة ماريا تحس بجميع أخطاء زوجها، كما كانت تحس بأخطائها هي تجاه صونيا؛ وقدّرت أن ثروتها رجّحتْ اختيار نيقولا. لم تجد ما تأخذه على صونيا، وتمنت أن تحبها؛ إلا أنها لم تحبها؛ ولم يقف الأمر عند ذلك بل إنها أخذت تكتشف في نفسها عواطف شريرة حيالها، عواطف لم تستطع التغلب عليها.

تحدّثتْ، ذات يوم، مع صديقتها ناتاشا عن صونيا وعن ظلمها لها.

قالت ناتاشا:

– أتعلمين، أنت قرأت الإنجيل كثيراً؛ وفيه مقطع ينطبق تماماً على صونيا.

سألتها الكونتيسة ماريا بدهشة:

– وكيف ذلك؟

– أتذكرين ماجاء في الإنجيل: «لأن كل مَنْ له يُعطى فيزداد ومَنْ ليس له فالذي عنده يُؤخذ منه»[1]؟ إنها هي التي ليس لها: لماذا؟ لست أدري؛ لعلها لا تُخفي شيئاً في الأنانية، لست أدري، لكنها هي التي يُؤخذ منها ما عندها، وقد أُخذ منها كلُ شيء. إنني أرثي لحالها رثاءً عظيماً؛ أحببتُ كثيراً في الماضي أن يتزوجها نيقولا؛ لكنني كنتُ أقدّر بما يشبه الحدس أن ذلك لن يحدث. إنها الزهرة العقيم، كالذي قد يكون على شجر الفريز، وأنا أرثي لها أحياناً، وأقول في نفسي أحياناً أخرى إنها لا تحس بذلك كما نحس به.

ومع أن الكونتيسة ماريا أوضحت لناتاشا أنه ينبغي فهم كلمات الإنجيل على نحو آخر، لكنها وافقت على تفسير ناتاشا فيما يخصّ صونيا.

والواقع أن صونيا كانت كأنها لا تتألم من وضعها وكأنها أذعنت إذعاناً تاماً لقدرها كزهرة عقيم. وكانت أقل تعلقاً بالأشخاص منها بالعائلة في مجموعها. كانت، كالهررة، لا تتعلق بالناس بل بالبيت.

١– من كلام السيد المسيح عندما ضرب مثل الوزنات. انجيل متى (٢٥–٢٩).

كانت تُعنى بالكونتيسة العجوز، وتداعب الأطفال وتدللهم، وتظهر أبداً استعدادها للقيام بأصغر الخدمات التي تقدر عليها؛ لكن الجميع كانوا، على الرغم منهم، يقبلون منها ذلك كله بالقليل القليل من الاعتراف بالجميل....

رُمّمت مباني ليسييه خوري، لكنها لم تُعد إلى مستواها في عهد الأمير الراحل.

كان البناءُ الذي بُدئ به أيامَ الضيق شديد البساطة. وكان المنزل الضخم ذو الأسس الحجرية العتيقة من الخشب المطلي بالملاط من الداخل فقط. وكانت الحجرات الواسعة التي أرضيتها من الخشب الأبيض مؤثثة بأرائك بسيطة ومقاعد خشنة، وكراسي وطاولات من خشب البتولة الذي جيء به من غابة القرية وصنعه نجارون محليون. كان البيت واسعاً يحتوي على غرف للخدم وأجنحة للمدعوين. وكان أقرباء آل روستوف وآل بوكلونسكي يجتمعون مع عائلاتهم في ليسييه خوري، ومع ستة عشر جواداً، وعشرات الخدم، ويقيمون فيها أشهراً. وفضلاً عن ذلك، فقد كان يفد إلى البيت نحو مئة مدعو ليوم أو يومين، أربع مرات سنوياً في العيد وفي عيد ميلاد أصحاب المنزل. أما بقية العام، فكانت الحياة تجري فيه منتظمة، مطردة لا تتغير، بمشاغلها العادية، ساعات الشاي، ووجبات الإفطار والغداء والعشاء المحضّرة من منتجات الأملاك المحلية.

***

الفصل التاسع

كان ذلك في عشية العيد الشتوي للقديس نيقولا، في الخامس من كانون الأول ١٨٢٠. في هذه السنة، كانت ناتاشا تقيم مع أولادها وزوجها في منزل أخيها منذ بداية الخريف. كان بطرس في بطرسبرج، ومضى عليه فيها حتى الآن أكثر من ستة أسابيع. وكان وصوله متوقعاً بين لحظة وأخرى.

في الخامس من كانون الأول كان، في منزل آل روستوف، فضلاً عن أسرة بيزوخوف، ضيفٌ آخر هو صديق نيقولا القديم، الجنرال المتقاعد فاسيلي فيدوروفتش دينيسوف.

وكان نيقولا يعلم أن عليه، في السادس منه، وهو يوم الاحتفال الذي يتوافذ فيه الناس، أنْ يخلع سترته الفضفاضة، ويرتدي معطفه الرسمي، وينتعل حذاءه الدقيق الرأس، ويذهب إلى الكنيسة التي بناها منذ عهد قريب، ويتقبل التهاني، ويقدّم المرطبات، ويتحدث عن انتخابات النبلاء وعن الموسم؛ لكن نيقولا ظل في عشية هذا اليوم، يقدّر أن من حقه أيضاً الاستمرار في حياته العادية. فدقق، قبل العشاء، حسابات وكيل قرية من مقاطعة ريازان تابعة لأملاك ابن أخي زوجته، وكتب رسالتين من رسائل العمل؛ وقام بجولة في البيدر والإسطبلات والمزارب. وبعد أن اتخذ التدابير ضد السُكر العام المتوقع حدوثه في اليوم التالي بمناسبة

العيد الرعوي، رجع للغداء، وجلس إلى المائدة الطويلة التي اجتمع حولها عشرون مدعواً، دون أن يُتاح له مبادلة زوجته كلمة واحدة بينه وبينها... كان بين الحاضرين أمه، والسيدة العجوز بيلوف التي كانت ترافقها، وزوجته وأولادها الثلاثة، وابن أخيها مع مربيّه، وصونيا، ودينيسوف، وناتاشا، وأولادها الثلاثة ومربيتهم، والشيخ ميشيل ايفانيتش، مهندس الأمير، الذي كان يعيش عيشة هادئة في ليسييه خوري.

كانت الكونتيسة ماريا في الطرف الآخر من الطاولة. وما إن استقر زوجها في كرسيه حتى استنتجت، من الحركة التي نقل بها بسرعة الأقداح المصفوفة أمامه، بعد أن أخذ فوطته، أنه متكدّرٌ، كما يقع له ذلك، ولاسيما قبل الحساء، عندما يجلس إلى الطاولة، بعد عودته رأساً من العمل. كانت تعرف تماماً هذا المزاج، فإذا كانت حسنة المزاج انتظرته بهدوء حتى ينتهي من تناول حسائه وحينذاك فقط تشرع في الحديث وتحمله على الاعتراف بأنه كان مخطئاً في تكدّره؛ لكنها نسيت اليوم كلياً هذه الملاحظة؛ تألمت حين رأته غاضباً عليها بدون سبب وأحسّت أنها تعسة. سألته أين ذهب، فأجاب. ثم سألته إن كانت الأمور على مايرام في الأملاك. فساقتْه لهجته التي حمل نفسه عليها حملاً إلى التكشير وأجاب على عجل.

فكّرت الكونتيسة ماريا: «وإذنْ فلم أكن مخطئة. لكن ما الذي أغضبه علي؟» ولقد آنست الكونتيسة، في اللهجة التي أجابها بها، شيئاً من العداء نحوها ورغبةً في إنهاء الحديث. أحست أن كلامه يخلو من العفوية؛ لكنها لم تستطع أن تمتنع من طرح أسئلة أخرى.

ما لبث الحديث أن غدا، أثناء الطعام، وبفضل دينيسوف عاماً وحامياً، فكفت الكونتيسة ماريا عن مخاطبة زوجها. ولما انتهى الطعام

دنا الجميع من الكونتيسة العجوز ليشكروها، فقبّلت الكونتيسة ماريا زوجها ومدّت يدها ليقبلها وسألته لم كان غاضباً عليها. فقال:

- أفكارك غريبة دائماً؛ لستُ غاضباً، على الإطلاق.

لكن كلمة «دائماً» في جوابه كانت تعني، عند الكونتيسة: «نعم، أنا غاضب ولا أريد أن أقول لماذا».

كان نيقولا على وفاق مع زوجته حتى أن صونيا والكونتيسة اللتين كانتا تتمنّيان، بدافع الغيرة، شيئاً من الخلاف بينهما، لم تكونا تجدان ذريعةً للنقد؛ على أنه كان تقوم بينهما لحظاتٌ من المغاضبة. كان ينتابهما أحياناً، بعد فتراتهما السعيدة، شعور بالتنافر والعداء؛ وكان هذا الشعور يتضح على الأغلب بعد حمل الكونتيسة ماريا. وكانت في هذه الفترة حاملاً.

قال نيقولا بصوت عالٍ وبلهجة بدتْ مرحة (خُيّل إلى الكونتيسة ماريا أنه يفعل ذلك عن عمد ليسيء إليها):

- حسناً! سادتي سيداتي، إنني أقف منذ السادسة صباحاً. سيكون من واجبي أن أذعن غداً، أما اليوم فسوف أُخلد إلى الراحة.

وانصرف إلى غرفة التدخين، دون أن يقول شيئاً للكونتيسة ماريا، واستلقى على الأريكة.

فكرت الكونتيسة ماريا: «هذا دأبه دائماً. إنه يخاطب الناس جميعاً ما عداي. إني أرى، إني أرى جيداً أنه ينفر مني. ولاسيما في حالتي هذه». ونظرت إلى بطنها الضخم، في المرآة، وإلى وجهها الذي دبّ فيه الهزال والشحوب المائل إلى الصفرة، وإلى عينيها اللتين غدتا أكبر من ذي قبل.

وغدا كل شيء كريهاً في نظرها: صياح الأصوات، وضحك دينيسوف، وأحاديث ناتاشا، ولاسيما النظرة العجلى التي رمتْها بها صونيا.

كانت صونيا دائماً أول ذريعة تختارها الكونتيسة ماريا لحنقها.

بعد أن قضت فترة في صحبة ضيوفها دون أن تفهم شيئاً مما كانوا يقولونه، خرجت برفق ومرت بغرفة الأولاد.

كان الأولاد يسافرون على كراسيهم إلى موسكو فدعوها لكي ترافقهم. جلست، ولعبت معهم. لكن التفكير بزوجها وبتكدّر مزاجه بلا سبب ظلّ يؤرقها. فنهضت ومشت بارتباك على رؤوس أصابعها واتجهت إلى غرفة التدخين. قالت في نفسها:

«لعله لم ينم؛ سأتفاهم وإياه».

لحقها آندريه الصغير، أكبر أولادها، وهو يمشي على رؤوس أصابعه مقلداً مشيتها. فلم تلحظه الكونتيسة ماريا.

في غرفة الاستقبال الكبرى، قالت صونيا التي كانت الكونتيسة ماريا تلقاها حيثما اتجهت (هكذا كان يلوح للكونتيسة ماريا):

– إنه نائم، يا عزيزتي ماريا، فيما أظن، وهو متعب. ويجوز أن يوقظه آندريه.

التفتت الكونتيسة ماريا، ورأت آندريه الصغير يلحقها، فأحست أن صونيا محقّة، ومن أجل ذلك بالضبط احمرت وبذلت جهداً واضحاً لتحبس لسانها عن كلمة قاسية كادت تقولها. فلم تقل شيئاً، ولكي تخالف صونيا أشارت إلى آندريه الصغير أن يمشي دون ضجة وأن يتبعها، ثم دنت من الباب. وخرجت صونيا من باب آخر. ومن الغرفة

التي ينام فيها نيقولا، سمعتْ تنفسه المنتظم الذي كانت تعرفه جيداً في أدق تفاصيله. رأت أمامها، وهي تسمع هذا التنفس، جبينه الجميل البهيّ وشاربيه، وكل هذا الوجه الذي طالما تأملته مليّاً أثناء نومه، في سكون الليل. تحرك نيقولا فجأة وتـأوه. وفي اللحظة نفسها صاح آندريه الصغير من خلف الباب:

– بابا، ماما هنا.

امتْقع وجهُ الكونتيسة ماريا من الذعر، وأشارت إلى ابنها أن يسكت فسكت. وخلال لحظة من الزمن، خيمّ صمتٌ ثقيلٌ على الكونتيسة ماريا. كانت تعلم إلى أي حد يكره نيقولا أن يوقظه أحدٌ من نومه. وفجأة، سمعت خلف الباب تأوهاً جديداً، وحركةً، وصوتَ نيقولا المتعضَ يقول:

– لا سبيل إلى الراحة لحظة واحدة. أهذا أنتِ، يا ماريا؟ لماذا جئت به إلى هنا؟

– اقتربتُ فقط لأرى، و لم ألاحظ... اعذرْني.

سعل نيقولا وصمت. وابتعدت الكونتيسة ماريا عن الباب وقادت ابنها إلى غرفة الأطفال. وبعد خمس دقائق، هُرعت الصغيرةُ ناتاشا ذات العينين السوداوين، والسنوات الثلاث، المفضّلة عند أبيها، بعد أن علمت من أخيها أن أباها ينام وأن أمها في غرفة التدخين، هُرعت إلى أبيها دون علم أمها. دفعت الطفلةُ ذات العينين السوداوين الباب بجرأة فصرّ الباب، واقتربت من الأريكة بخطى نشيطة على قدمين غير ثابتتين، وعرفت وضع أبيها الذي كان ينام وهو يدير لها ظهره، فانتصبت على رؤوس أصابعها وطبعت قبلة على اليد التي سند بها رأسه. التفت نيقولا وعلى ثغره ابتسامة رقيقة.

كانت الكونتيسة ماريا تهمس من وراء الباب مرتعبة:

- ناتاشا، ناتاشا! أبوك راغب في النوم.

فردت ناتاشا الصغيرة باقتناع:

- لا، يا أمي، إنه غير راغب في النوم. إنه يضحك.

وضع نيقولا قدميه على الأرض، ونهض وأخذ الطفلة بين ذراعيه. وقال لزوجته.

- ادخلي، يا ماشا.

دخلت الكونتيسة ماريا وجلست قرب زوجها.

قالت بوجل:

- لم أر أنها كانت تتبعني. وقد جئتُ هكذا.

نظر نيقولا الذي كان يمسك ابنته بذراعه إلى زوجته وشاهد الارتباك على وجهها، فطوقها بذراعه الأخرى وقبّلها على شعرها. وقال لناتاشا:

- أيمكن تقبيل الماما.

فابتسمت ناتاشا ابتسامة خجلى. وقالت وهي تشير بحركة آمرة إلى الموضع الذي قبّل فيه نيقولا زوجته:

- «أيضاً».

قال نيقولا مجيباً عن السؤال الذي كان يعلم أنه يدور في نفس زوجته:

- لا أدري لماذا تعتقدين أنني متكدر المزاج.

- لا تستطيع أن تعلم مقدار تعاستي ووحدتي، عندما تكون هكذا. يبدو لي دائماً أن...

فقال بمرح:

- هدئي من روعك، يا ماريا، فتلك حماقات. كيف لا تخجلين.

- يبدو لي أنك لا تستطيع أن تحبني؛ وأنني بشعة جداً... دائماً... ولاسيّما الآن... في هذه الحا....

- آه! ما أسخفك! ليس الجمال هو الذي يصنع الحب، بل الحب هو الذي يصنع الجمال. بنات الهوى وغيرهن هن اللواتي نحبهن لأنهن حسان؛ لكنْ، هل أحب زوجتي؟ ليست القضية قضية حب، بل الأمر هكذا، ولا أعلم كيف أشرحه لك. فبدونك وعندما يمر بيننا ظلّ، كما هي الحال في هذه اللحظة، أشعر أنني ضائع وأنني غيرُ قادر على شيء. انظري، هل أحبُ إصبعي؟ لستُ أحبّها، لكن حاولي أن تقطيعها...

- لا، أنا لستُ كذلك. لكنني أفهمك. إذنْ لستَ حاقداً علي؟

قال وهو يبتسم:

- أنا حاقد عليك بشكل مخيف.

ثم نهض ومسد شعره وأخذ يمشي في الغرفة طولاً وعرضاً.

وبدأ كلامه قائلاً:

- أتعلمين، يا ماريا، فيم كنتُ أفكر؟

وأخذ من فوره يفكر بصوت عالٍ أمام امرأته، الآن بعد أن حلّ الوئام بينهما، لم يسأل إن كانت مستعدةً للاستماع إليه، فذلك لا يهمه

كثيراً. أتخطر الفكرة بباله، إذن فهي تخطر ببالها. وحدثها عن نيته في إقناع بطرس بالبقاء معهم حتى الربيع.

أصغت إليه الكونتيسة ماريا، وأبدتْ بعضِ الملاحظات، وأخذت بدورها تفكّر بصوت عال. كانت أفكارها تتعلّق بالأولاد.

قالت بالفرنسية وهي تشير إلى الصغيرة ناتاشا:

- إننا لنرى المرأة فيها منذ الآن. أنتم تلوموننا، نحن النساء، على تهافت منطقنا. انظرْ، ها هو ذا منطقنا، أقول لها: يريد أن ينام، فتجيب: لا، إنه يضحك.

وأضافت الكونتيسة ماريا وعلى ثغرها ابتسامة سعيدة:

- الحق معها.

- نعم، نعم!

وأخذ نيقولا طفلته بين ذارعيه القويتين، ورفعها عالياً، وأجلسها على كتفه، ممسكاً بساقيها الصغيرتين، وجعل يتمشّى بها في الغرفة. كان وجه الأب يفيضُ غبطة كوجه ابنته.

همست الكونتيسة ماريا بالفرنسية:

- أتدري، لعلك غيرُ منصف. فأنت تحبّ هذه أكثر من غيرها بكثير.

- نعم، لكنْ ما العمل؟.... إنني أبذل وسعي لكي لا أُظهر ذلك...

في هذه اللحظة، سُمِع في غرفة الانتظار وفي البهو صريرُ باب يدور على مفصلاته، وخطى تُعلن عن مقدم زائر جديد.

- ثمة شخصٌ قادم.

قالت الكونتيسة ماريا التي خرجت من الغرفة:

– أنا واثقة أنه بطرس. سأذهب لأرى.

وأثناء غيابها، أجاز نيقولا لنفسه أن يدور بها في الغرفة عدواً. ثم توقف وهو يلهث وأنزل بسرعة الصغيرة التي كانت تضحك وضمّها إلى صدره. ذكّرته قفزاتها بالرقص، وتساءَل وهو ينظر إلى وجه الطفلة الصغير المدوّر، كيف ستكون حين يصطحبها إلى المجتمع، وهو شيخ، ويرقص معها المازوركا كما كان المرحوم والده يرقص أحياناً مع ابنته الدانيلو كوبر.

قالت الكونتيسة ماريا وهي تعود بعد ذلك بلحظات:

– إنه هو، هو بعينه. الآن عادت حبيبتنا ناتاشا إلى الحياة. ليتك رأيتَ فرحها وما ناله منها على الفور بسبب تأخره. هيا، أسرعْ، تعال!

ثم أضافت وهي تبتسم وتنظر إلى الصغيرة التي التصقت بأبيها:

– افترقا، أخيراً.

وخرج نيقولا ممسكاً ابنته من يدها.

مكثت الكونتيسة ماريا في غرفة التدخين. وهمست لنفسها: «ما كنت أتصور قط أنني يمكن أن أكون سعيدة إلى هذا الحد». واستنار وجهها بابتسامة؛ لكنها تنهدّت في اللحظة نفسها ونمّت نظرتُها العميقة على حزن عذب. وكأن وراء السعادة التي كانت تشعر بها، سعادة، لا يمكن بلوغُها في هذه الحياة، وقد تذكّرتها في هذه اللحظة بالرغم منها.

***

الفصل العاشر

تزوجت ناتاشا في مطلع ربيع ١٨١٣، وفي ١٨٢٠ كان لها ثلاث بنات وصبيّ طالما تمنته نفسها، وكانت ترضعه من حليبها في هذه اللحظة. ولقد سمنتْ وتفتّحت حتى غدا من الصعب أن يكتشف المرءُ في هذه الأم القوية، ناتاشا الماضي الرقيقة والحركة. اتضحت قسماتُ وجهها وعبّرت عن ضرب من العذوبة الهادئة ومن السكينة النفسية. وغابت عن وجهها تلك الشعلةُ المتّقدة التي كانت تصنع جمالها في الماضي. كان الناظر إليها الآن لا يرى منها، في الأغلب، سوى وجهها وجسدها، أما نفسها فلا. كان لا يرى سوى أنثى قوية، جميلة وخصبة. ولم تكن شعلةُ الماضي تضيء فيها إلا فيما ندر. لم يكن ذلك ليقع إلا عندما يعود زوجها من السفر، كما هي الحال في هذه اللحظة، وعندما يقوم أحد أولادها من مرضه، أو عندما كانت تتحدث هي والكونتيسة ماريا عن الأمير آندريه (لم تكن تتحدث البتة عنه مع زوجها، معتقدة أنه يغار من ذكرى الأمير آندريه)، وعندما يدفعها دافع إلى الغناء الذي هجرته كلياً منذ زواجها، وذلك نادراً جداً. في هذه اللحظات النادرة التي تتّقد فيها تلك الشعلة القديمة في جسدها الجميل، المتفتح، كانت ناتاشا تغدو أعظم فتنة من ذي قبل.

كانت ناتاشا، منذ زواجها، تعيش مع زوجها في موسكو، وفي بطرسبرج، وفي ملكها الواقع في ضواحي موسكو، أو عند أمها أي

عند نيقولا. وقلما كان الناس يرون الكونتيسة بيزوخوف في المجتمع، والذين رأوها لم يسرّوا منها. لم تكن لطيفة ولا أنيسة. لا لأنها تحب العزلة (لم تكن تعلم إن كانت تحبّها أم لا، وكان يلوح لها أنها لا تحبّها)، لكنّ حملَها، وولادتها، وإرضاعها أولادها، ومشاطرتها زوجها حياته، كل ذلك لم تتمكن من القيام به إلا بتخلّيها عن المجتمع، والذين عرفوا ناتاشا قبل زواجها دهشوا للتغيّر الذي طرأ عليها دَهْشَتهم لأمر غير عادي. الكونتيسة العجوز وحدها التي أدركت، بغريزة الأمومة، أن اندفاعات ناتاشا ناشئة عن رغبتها في أن يكون لها أسرة، في أن يكون لها زوج (كما كانت تصرّح بذلك في اوترادنوي، على سبيل الجد لا المزاح)، الأم وحدها هي التي كانت تتعجّب من دهشة الناس الذين لم يكونوا يفهمون ناتاشا، وتردد أنها كانت تعلم دائماً أن ناتاشا ستكون زوجة صالحة وأمّاً مثالية.

كانت الكونتيسة تقول:

- إلا أنها تبالغ في حبها لزوجها وأولادها إلى حد السخف.

لم تعبأ ناتاشا بتلك القاعدة الذهبية التي يوصي بها الناسُ الأذكياء، ولاسيما الفرنسيين، والتي تقضي ألا تُهمل الفتاةُ نفسها عندما تتزوج وألا تتهاون بمواهبها، بل أن تُعنى بشخصها أكثر من ذي قبل، وتسعى لإغراء زوجها كما كانت تسعى لإغراء خطيبها. لكن ناتاشا هجرتْ دفعة واحدة مفاتنها جميعاً ومنها الغناء الذي كان أقواها. هجرته بالتحديد لأنه كان أعظم مفاتنها. لم تكن تبالي بالأناقة فيما تفعل وما تقول، ولا بالأوضاع التي تزيدها جمالاً في نظر زوجها، ولا بزينتها، ولا بعدم مضايقة زوجها بطلباتها. كان تفعل عكس هذه القواعد تماماً. كانت تحس أن المفاتن التي علمتها غريزتها أن تنشرها قديماً ستبدو الآن مسرفة السخف في عيني زوجها الذي وهبته ذاتها كاملة منذ أول لحظة،

أي أنها وهبت نفسها كلها دون أن تترك في هذه النفس زاوية واحدة مخفيّة عنه. كانت تحس أن اتحادها بزوجها لا يرجع إلى هذه العواطف الشعرية التي جذبته إليها، بل إلى شيء آخر، لا سبيل إلى تحديده، لكنه مكين مثل اتحاد روحها بجسدها.

إما أن تجدل شعرها، وتحمل السلال، وتغني أغاني الغرام لتجتذب زوجها فقد كان ذلك كله خليقاً أن يبدو لها غريباً كما لو أنها تزينت إرضاءً لنفسها. وإما أن تتزين لتعجب الآخرين فربما كان ذلك خليقاً بأن يسرّها، —وإن لم تكن تعلم ذلك– لكنها لم تكن تجد الوقت إطلاقاً. فالسبب الأساسي الذي من أجله كانت تهمل غناءها وزينتها والتأنق في لغتها هو أنها لم تكن تجد البتة الوقت الكافي للاهتمام بذلك.

نحن نعلم أن الإنسان أوتي القدرة على أن يستغرق كلياً في أي موضوع مهما بدا ذلك الموضوع تافهاً. ونحن نعلم أيضاً أن ليس من موضوع تافه لا يمكن لأهميته أن تعظم إلى ما لا نهاية، إذا انصبَّ عليه الانتباه.

والموضوع الذي استغرقت فيه ناتاشا كلياً كان أسرتها، أي زوجها الذي كان يجب أن تمسكه بيده ليكون لها دون تحفّظ، لها وللبيت، وأولادها الذين كان يجب أن تحملهم، وتلدهم، وترضعهم وتربيّهم.

وكانت كلما تغلغلت إلى الموضوع الذي يشغلها، لا بعقلها، بل بكل نفسها، بكل كيانها، ازداد ذلك الموضوع اتساعاً، في نظرها وبدت لها قواها ضعيفة وضحلة، حتى أنها كانت تركّزها كلها على شيء واحد فلا تفلح مع ذلك في القيام بما كانت تراه ضرورياً.

أما الأحاديث والمناقشات حول حقوق المرأة، والعلاقات بين الزوجين، وحريتهما وحقوقهما، فكانت آنذاك على ما هي عليه اليوم

بالضبط، وإن لم يطلق عليها آنذاك اسم «مشكلات»؛ لكن هذه المسائل لم تكن تهم ناتاشا، بل إنها لم تكن تفهمها مجرّد فهم.

هذه المسائل لم تكن موجودة آنذاك كما هي اليوم إلا عند من لا يرى في الزواج غير اللذة التي يجنيها الزوجان كلاهما في الآخر، أي أحد عناصر الزواج فقط، لا كل مدلوله الذي هو الأسرة.

إن مناقشات اليوم ومشكلاته، وهي شبيهة بمسألة معرفة كيف نجني أكبر لذة من وجبة طعام، لم تكن تُثار آنذاك كما أنها لا تُثار اليوم عند من يعتقدون أن هدف الوجبة هو تغذية الجسم وهدف الزواج هو الأسرة.

إذا كان هدف الوجبة تغذية الجسم فإن من يأكل وجبتين دفعة واحدة قد يجني لذة أكبر. لكنه لن يبلغ الهدف المنشود، لأنه لا يستطيع أن يهضم وجبتين هضماً كاملاً.

وإذا كان هدف الزواج هو الأسرة فالذي يريد أن يكون له كثير من الزوجات والتي تريد أن يكون لها كثير من الأزواج قد يجد أن لذة أكثر، لكنهما لن ينشئا أسرة في أي حال من الأحوال.

وإذا كان هدف الوجبة هو التغذية وإذا كن هدف الزواج هو تأسيس الأسرة، فالمسألة كلها تنحصر فقط في ألا نأكل أكثر مما تستطيع المعدة هضمه، وألا يكون للرجل من النساء أو للمرأة من الرجال أكثر مما يلزم للأسرة، أي أكثر من واحدة أو واحد.

كانت ناتاشا بحاجة إلى زوج. فوُهبتْ هذا الزواج. ووهبها الزوجُ أسرة. و لم تكن تنكر ضرورة أن يكون لها زوج آخر، زوج أفضل فحسب، بل لمّا كانت جميع قوى نفسها تتجهُ إلى خدمة هذا الزوج والأسرة، فإنها لم تكن تستطيع أيضاً أن تتصور أو تجد فائدة في أن تتصور ما كان سيحدث لو كانت الأمور على نحو آخر.

لم تكن ناتاشا تحب المجتمع على العموم، لكنها كانت شديدة الحرص على مخالطة ذويها، الكونتيسة ماريا، أخيها، أمها وصونيا. كانت تحرص على مخالطة الذين تستطيع أن تأتيهم بخطى حثيثة وهي شعثاء، في مبذلها، من غرفة الأطفال، وأن تريهم، وهي مستبشرة، لفافة ملطخة بالصفرة بدل الخضرة، ولتسمع طمأنتهم بأن حال الصبي الآن قد تحسنت كثيراً.

أهملت ناتاشا نفسها حتى أن فساتينها، وزينة شعرها، وأقوالها التي لا تناسب المقام، وغيرتها، إذ أنها كانت تغار من صونيا، ومن المربية، ومن كل امرأة جميلة أو قبيحة، كل ذلك غدا موضوعاً لتنادر أقربائها. وكان بطرس، في نظر الرأي العام، خاضعاً لزوجته؛ وكذلك كان. فمنذ الأيام الأولى لزواجهما أعلنت ناتاشا عن طلباتها. ودهش بطرس من وجهة نظر زوجته، وهي وجهةٌ جديدة عليه، لأنها كانت تذهب إلى أن كل لحظة من حياته هي ملكها وملك الأسرة. لقد فوجئ بطرس بطلبات زوجته لكنه أُعجب بها ورضخ لها.

كان خضوع بطرس ينحصر في أنه لم يكن يملك الحق في مغازلة امرأة أخرى بل حتى في الحديث معها وهو يبتسم، وأنه لم يكن يملك الحق في الذهاب إلى النوادي أو حفلات العشاء، «هكذا، لقضاء الوقت، وأنه لم يكن يملك الحق في إنفاق المال على نزواته وفي السفر طويلاً إلا من أجل أعماله، وفي عدادها ما كانت تعدّه زوجته أعمالاً فكرية تعلّق عليها أهمية كبرى دون أن تفهم منها شيئاً. وبالمقابل، كان لبطرس في بيته ملء الحق في أن يتصرف على هواه لا بنفسه فحسب بل بالعائلة كلها. كانت ناتاشا، في حياتهما الخاصة، تجعل من نفسها أمةً لزوجها، وكان البيت كله يمشي على رؤوس الأصابع عندما يعمل بطرس، أي عندما يقرأ أو يكتب في مكتبه. وكان يكفي بطرس أن يظهر ميلاً ما

حتى تفعل ما يحبه. كان يكفيه أن يُعرب عن رغبته لتثب ناتاشا على قدميها وتبادر إلى تنفيذها.

كان البيت كله محكوماً بأوامر الزوج المزعومة، أي برغبات بطرس التي كانت ناتاشا تسعى للتكهن بها. كان نمطُ الحياة، ومكان الإقامة، والأصدقاء، والعلاقات، ومشاغل ناتاشا، وتربية الأطفال، كان كل ذلك لا يُدار بمشيئة بطرس المُعلنة صراحةً فحسب، لكن ناتاشا كانت تبذل وسعها للتكهن بما يمكن استنتاجه من خلال الأفكار التي يُفصح عنها في الحديث. كانت تتكهن تكهناً صائباً بأعمق رغبات بطرس، فإذا فعلت ذلك اقتصرت على ما اختاره. وإذا بدا له أن يتراجع عن رغبته حاربته بأسلحته نفسها.

وهكذا، ففي تلك الحقبة العسيرة التي لن ينسى بطرس ذكراها، بعد ولادة ابنهما البكر ضعيف البنية، وعندما اضطر إلى تغيير المرضع ثلاث مرات ومرضت ناتاشا من الأسى، حدّثها بطرس ذات يوم عن أفكار روسو، التي كان بطرس يشاطره إياها كلها، وعما في اللجوء إلى المرضعات من انحراف عن الطبيعة، وعما يشكّله ذلك من خطر. وعندما وُلد الطفل الثاني، أصرّت على رأيها، بالرغم من معارضة أمها والأطباء، وحتى زوجها، الذين استنكروا قرارها إرضاع الطفل من حليبها، استنكارهم لشيء بالغ الضرر، لم يسمع به أحد، فأرضعته كما أرضعت جميع أولادها.

وكثيراً ما كان يقع للزوجين أن يتجادلا، في لحظات الغضب، لكن بطرس كان يكتشف بعد ذلك بزمن طويل ما يملؤه فرحاً ودهشة، يكتشف فكرته الخاصة التي قاومتها زوجته، لا في أقوالها فحسب بل وفي أفعالها أيضاً. ولم يكن يعثر على الفكرة نفسها فحسب، بل إنه كان يعثر عليها وقد تعرّت من أية مبالغة شابتها في غمرة النقاش.

بعد سبع سنوات من الزواج، شعر بطرس شعوراً وطيداً وفرحاً أنه ليس رجلاً سيئاً، أحسّ بذلك لأنه رأى نفسه منعكساً في زوجته. كان يحس في نفسه الخير والشر ممتزجين، يلطّف أحدهما الآخر. لكن زوجته لم تكن تعكس إلا ما هو خير حقاً، أما ما لم يكن خيراً كله فقد كانت تنبذه. وهذا الانعكاس لم يكن يتم بطريق التفكير المنطقي، بل بطريق أخرى خفية ومباشرة.

***

الفصل الحادي عشر

قبل شهرين، تلقى بطرس، وكان مقيماً في منزل آل روستوف، رسالة من الأمير فيدور يدعوه فيها إلى بطرسبرج لمناقشة بعض المسائل الهامة التي كانت تشغل بال أعضاء الجمعية هناك، وهي جمعيةٌ كان بطرس أحد مؤسسيها الكبار.

بعد أن قرأت ناتاشا هذه الرسالة كما كانت تقرأ رسائله جميعاً، اقترحت عليه هي نفسها أن يذهب إلى بطرسبرج، بالرغم من الألم الذي يسبّبه غيابه. فقد كانت تعزو إلى مشاغل زوجها الفكرية المجردة، أهمية عظيمة، دون أن تفهمها، وكانت تخشى أبداً أن تغدو عقبةً في وجه هذا النشاط. ورداً على نظرة بطرس الوجلة المستفهمة بعد قراءة الرسالة، رجته ناتاشا أن يذهب، على أن يحدّد موعداً لعودته. ومُنح فرصة أربعة أسابيع.

ومنذ انتهاء الفرصة، أي منذ خمسة عشر يوماً، كانت ناتاشا في حالة دائمة من الخوف والحزن والهياج.

أخذ دينيسوف، وهو جنرال متقاعد مستاء من الوضع الراهن وصل أثناء الأسبوعين الفائتين، ينظر إلى ناتاشا باستغراب وحزن كما ينظر المرءُ إلى صورة ضعيفة الشبه بالكائن العزيز قديماً. فكل ما رآه وما سمعه من ساحرة الأمس كان النظرة الكابية، المليئة بالضجر، والأجوبة التي لا تناسب المقام، والأحاديث عن الأطفال.

ظلت ناتاشا، طوال هذا الوقت، حزينة ومهتاجةً، ولاسيّما عندما يُحاول أخوها وأمها وصونيا والكونتيسة ماريا أن يلتمسوا الأعذار لبطرس والأسباب لغيابه، لكي يشدوّا من عزيمتها.

كانت ناتاشا تقول عن هذه الأشياء التي كانت تؤمن إيماناً راسخاً بأهميتها الكبيرة:

– حماقات وترّهات كل هذه الأفكار التي لا جدوى منها، وكل هذه الجمعيات السخيفة.

ثم تنصرف إلى غرفة الأطفال لتمنح ثديَها ابنَها الوحيد بيتيا.

لم يكن بوسع أحد أن يقول لها ما يُدخل السكينة إلى نفسها وما يستصوبه عقلها كما يقول هذا الكائن الصغير ذو الأشهر الثلاثة، وهو يستريح إلى صدرها فتحس بحركة شفتيه وبنفس أنفه الصغير. كان هذا الكائن يقول: «أنت غضبي، أنت غيري، تريدين الانتقام منه، أنت خائفة، لكنني هنا، أنا هنا..». فلا ترد جواباً كان هذا هو الحقيقة بعينها.

وكثيراً ما لجأت ناتاشا، طوال هذه الخمسة عشر يوماً من القلق، إلى الطفل، ليهدّئها، وعنيت به عناية شديدة حتى إنها أسرفت في إرضاعه فوقع مريضاً. وروّعها مرضه، إلا أن هذا هو ما كان يلزمها بالضبط، فحين انصرفت إليه، قل شعورها بالقلق على زوجها.

كانت ترضع الصغير عندما سمعت عربة بطرس تصل إلى مطلع الدرج، ودخلت المربية التي كانت تعرف كيف تسرّ سيدتها، بدون ضجة، ولكن بعجلة، ووجهها متهلّل:

سألتها ناتاشا في همس سريع، وهي تخشى أن تأتي حركة توقظ بها الصغير الذي نام:

- هذا هو؟

فهمست المربية:

- نعم، يا عزيزتي، إنه هو بعينه.

صعد الدم إلى وجه ناتاشا وتحركت قدماها بحركة تلقائية؛ لكنه كان من المستحيل عليها أن تثب وتركض. وفتح الطفلُ عينيه، ونظر إليها، كأنما أراد أن يقول وهو يعودِ إلى الرضاعة بتكاسل: «أنتِ هنا».

سحبت ناتاشا منه ثديها برفق، وهدهدته وسلّمته إلى المربية واتجهت بخطى سريعة إلى الباب. لكنها توقفت عند العتبة، وكأن ضميرها يبكّتها لأنها، في فرحها، عجّلت بترك الصبي، فاستدارت. كانت المربية تمرّر الطفل، ومرفقاها مرفوعان، من فوق حافة السرير.

همست المربية وهي تبتسم، بتلك الألفة التي تقوم بين المربية وسيدتها:

- اذهبي، اذهبي، يا عزيزتي، اطمئني واذهبي.

وجرت ناتاشا، بخطى خفيفة، في البهو.

فلما رآها دينيسوف الذي كان يمر من مكتب العمل إلى قاعة الاستقبال الكبرى، وغليونه في فمه، عرف فيها ناتاشا لأول مرة. كان ضربٌ من النور الوهّاج، الساطع، البهيج، يغمر بفيضه وجهها الذي تبدلت هيئته.

قالت له وهي تجري:

- لقد وصل!

وأحس دينيسوف أنه سعيد بعودة بطرس الذي لم يكن يحبه كثيراً. وعندما دخلت ناتاشا البهو شاهدت شخصاً مديد القامة، يرتدي معطفاً من الفرو ويعكف على نزع وشاحه.

قالت في نفسها: «هذا هو! هو! هو حقاً! هو ذا بعينه!»

واندفعت إليه، وضمته، وشدته إليها، ورأسه إلى صدرها، ثم أبعدته وتأملت وجهه المتورّد، السعيد، المغطى بالجليد. «نعم، ها هوذا، سعيداً، مسروراً...»

وفجأة تذكرتْ أهوالَ الانتظار التي مرت بها أثناء الخمسة عشر يوماً الأخيرة: فاختفى الفرح الذي أضاء وجهها؛ ثم اربدّت، وانصبّ على بطرس سيلٌ من الملامة والكلام اللاذع.

- نعم، أنت في أحسن حال، أنت مسرور، لقد لهوتَ... وأنا؟ ليتك فكّرت في الأولاد على الأقل. إنني مرضع، وقد فسد حليبي.... وأوشك بيتيا أن يموت. وأنت تلهو. نعم تلهو...

كان بطرس يعلم أنه غير مذنب إذ تعذّر عليه أن يعود قبل هذا الوقت؛ وكان يعلم أن هذا الانفجار من ناتاشا في غير موضعه وأنه سيزول بعد دقيقتين، ويعلم هو أنه مبتهج وسعيد. وكان بوده أن يبتسم لكنه لم يجرؤ حتى على التفكير في ذلك. وبدا الحزن على سحنته وأطرق رأسه.

- لم أستطع، أقسم لك. لكن كيف حال بيتيا؟

- حاله الآن حسنة، تعال. كيف لم تخجل! ليتك كنت تستطيع أن ترى كيف كنتُ بدونك، وكم كنتُ أتعذب...

- وصحتك جيدة؟

قالت له دون أن ترخي يده:

- تعال، تعال.

ومضيا إلى شقتهما.

عندما جاء نيقولا وزوجته للبحث عن بطرس، كان في غرفة الأطفال يحمل على راحة يمناه الضخمة ولده الذي استيقظ، ويهدهده. وعلى وجه الرضيع العريض بفمه المفتوح الخالي من الأسنان حطّتْ ابتسامةُ الفرح. وكانت العاصفة قد مرت منذ زمن طويل، ولمعت على وجه ناتاشا شمسٌ بهيجة ساطعة، وهي تنظر إلى زوجها وابنها بحنان.

سألته:

- هل ناقشت الأمير فيدور جيداً في كل شيء.

- نعم، أحسن نقاش.

- أرأيتَ، إنه يمسك به (أرادت ناتاشا أن تقول إنه يمسك برأسه) لكنْ، كمْ خوّفني. والأميرة، هل رأيتها؟ أصحيح أنها مُغرمة بهذا....؟

- نعم، تصوّري...

في هذه اللحظة دخل نيقولا والكونتيسة ماريا. انحنى بطرس عليهما ليقبّلهما، دون أن يرخي ابنه، وأجاب عن أسئلتهما. ومع أن ثمة كثيراً من الأشياء المهمة كانت تستحق الكلام فقد كان من الواضح أن الرضيع بقبعته ورأسه المهتز شغل انتباه بطرس كله.

قالت الكونتيسة ماريا وهي تنظر إلى الصبي وتلاعبه:

– ما ألطفه!

وأضافتْ مخاطبة زوجها:

– هناك شيء لا أفهمه يا نيقولا. كيف يجوز لك ألا تتحسّس سحر هذه العجائب الصغيرة...

قال نيقولا وهو يتأمل الطفل بنظرة باردة:

– إني لا أحسّ بهذا السحر، ولا حيلة لي بذلك. إنه قطعة من اللحم. تعال، يا بطرس.

قالت الكونتيسة ماريا ملتمسة العذر لزوجها:

– ومع ذلك فهو أب عظيم الحنان؛ لكن عندما يبلغ الأطفال سنة أو قريباً من السنة فقط...

قالت ناتاشا:

– أما بطرس فهو يحسن الاهتمام بهم؛ وهو يزعم أن يده مفصّلة على قدّ قفا الصغير، انظري.

قال بطرس فجأة وهو يسلم الصغير إلى المربية:

– فعلاً، لكنها ليست لهذا الشيء وحده.

***

الفصل الثاني عشر

كانت تعيش في ليسييه خوري عوالِمُ كثيرة مختلفة أشد اختلاف، عوالم يحتفظ كل واحد منها بطابعه الخاص ويُظهر تسامحه حيال العوالم الأخرى. فتنصهر جميعها في مجموعة منسجمة. فإذا ألم بالبيت حادثٌ كان ذلك الحادث مهماً أو مفرحاً أو محزناً بالنسبة إلى جميع هذه العوالم على السواء؛ على أن كلاً منها كانت له دواعيه، المستقلة كل الاستقلال عن العوالم الأخرى، لأن يبتهج بهذا الحادث أو ذاك أو يحزن لهذا أو ذاك.

وهكذا كانت عودة بطرس حادثاً مهماً ومفرحاً، ورحّب بها الجميعُ على هذا الأساس.

كان الخدم، وهم أوثق حَكَم على سادتهم لأنهم لا يحكمون عليهم تبعاً لأقوالهم وتعبيرهم عن عواطفهم بل تبعاً لأفعالهم وطريقة حياتهم، مغتبطين بعودة بطرس، لعلمهم أنه عندما يكون هنا، فإن الكونت سيكّف عن الذهاب يومياً إلى أعماله، وسيغدو أكثر مرحاً وألطف مزاجاً، وأيضاً لأنهم سيتلقون هدايا ثمينة في العيد.

وكان الأولاد والمربيات مغتبطين بقدوم بيزوخوف لأنه ليس من أحد مثله يُحسن إشراكهم في الحياة المشتركة. كان وحده يحسن عزف تلك المقطوعة الإيكوسية (مقطوعته الوحيدة) على البيان القيثاري،

وهي مقطوعة يمكن أن ترافق، على حد قوله، أية رقصة؛ دَعْكَ من الهدايا التي كان يحملها للجميع من دون شك.

أما نيقولا الصغير الذي غدا فتى ذكياً في الخامسة عشرة، نحيلاً، سقيماً، ذا شعر أشقر، أجعد، وعينين بديعتين، فقد اغتبط لأن العم بطرس، كما كان يسميّه، كان عنده موضوعاً للإعجاب والحب الشديدين. ولم يحاول أحد أن يوحي إليه بهذا الحب الخاص الذي يكنّه لبطرس ولم يكن يراه إلا نادراً. وكانت الكونتيسة ماريا التي ربّته تبذل قصارى جهدها لكي تحمل نيقولا الصغير على حب زوجها كما يحبها، وكان نيقولا يحب زوج عمته؛ لكنه كان يحبه حباً يشوبه ظلّ من الازدراء لا يُلحظ. أما بطرس فكان يعبده. لم يكن يتمنى أن يصبح خيّالاً أو فارساً حائزاً على وسام القديس جورج مثل زوج عمته نيقولا، بل كان يتمنى أن يصبح عالماً، ذكياً، خيّراً مثل بطرس. كان وجهه يشع بالفرح، في حضور بطرس، فإذا وجّه إليه بطرس الكلام احمرّ واحتبست أنفاسه. وكان لا يُفوّت كلمةً مما يقوله بطرس، حتى إذا خلا إلى ديسال أو إلى نفسه تذكّر كل كلمة من كلماته وحاول أن يكتشف معناها.

ذلك أن حياة بطرس الماضية، والمصائب التي حلّت به قبل ١٨١٢ (والتي كوّن عنها من خلال الروايات التي سمعها، صورة شعرية غامضة)، ومغامراته في موسكو، وأسره، وأفلاطون كاراتايف (الذي عرفه من قصص بطرس). وحبه لناتاشا (التي أحبّها الفتى أيضاً حباً خاصاً)، ولاسيما صداقته لوالده الذي لا يتذكّره نيقولا، كل ذلك جعل من بطرس في نظره بطلاً ومعبوداً.

ولقد استنتج هذا الفتى الذي بدأ يستشعر الحب. من نُتف الأحاديث عن أبيه وناتاشا، ومن الانفعال الذي به يتكلم بطرس على المرحوم،

ومن الحنان المحترس والحار الذي يمازج حديث ناتاشا عنه، استنتج أن والده أحب ناتاشا وأنه عهد بها وهو يموت إلى صديقه. وكان يرى في هذا الأب الذي لا يتذكره إلهاً لا يمكن تصوّرُه ولا يستطيع أن يفكر فيه دون أن يلتاع قلبه وأن يذرف دموع الحزن والإعظام. ولذلك كان الفتى سعيداً بمقْدم بطرس.

وسُرَّ المدعوون بعودة بطرس لأنه كان يحمل الحيوية دائماً إلى المجتمع أياً كان هذا المجتمع، ويوثّق الروابط بين أفراده.

وسُرّ الكبارُ في المنزل، إضافةً إلى امرأته، لأنهم يلتقون الصديق الذي كانت الحياة معه أيسرَ وأهنأ.

وسُرّت العجائز بسبب الهدايا التي يحملها وبخاصة لأن ناتاشا ستعود إليها الحياة.

كان بطرس يحس بمختلف وجهات النظر هذه حياله، تصدر عن مختلف هذه العوالم فيبادر إلى إعطاء كل واحد ما يتوقعه.

في هذه المرة، اشترى بطرس، وهو أكثر الناس سهواً ونسياناً، كل ما في القائمة التي سلمتها إليه زوجته، دون أن ينسى مشتريات أمها وأخيها، ولا قماش فستان السيدة بيلوف، ولا لعب أولاد أخيها.

كان يستغرب، في الأوقات الأولى من زواجه، حرص امرأته على ألا ينسى شيئاً مما كُلِّف شراءه، ولقد أصيب بالذهول عندما رآها تتألم بحق حين نسي كلَّ شيء في سفرته الأولى. ثم تعوّد ذلك فيما بعد. ولما كان يعلم أن ناتاشا لا تطلب لنفسها ولا لغيرها خدمة إلا إذا تطوّع هو نفسه بتأديتها، فقد صار يجد لذة غير منتظرة كلذة الصبي في شراء الهدايا للبيت كله، دون أن ينسى شيئاً أبداً. فإذا استحق لوم ناتاشا فلأنه

يُسرف في الشراء ويدفع أثماناً باهظة. لقد غدت ناتاشا تجمع إلى عيوبها في رأي معظم الناس، أو إلى حسناتها في رأي زوجها، أي إهمالها لنفسها وتهاونها بهندامها، خصلة ثالثة هي البخل.

منذ أن بدأ بطرس يعيش في عائلة تتطلب نفقات كبيرة، تبيّن بدهشة أنه ينفق الآن نصف ما كان ينفقه من قبل وأن أعماله التي تدهورت في الآونة الأخيرة (ولاسيما بسبب ديون زوجته الأولى) بدأت تتحسن.

كانت نفقاته أقل لأن حياته أصبحت مستقرّة: إن ذلك الترف، وهو أكثر الأشياء كلفة، وقوامُه طرازٌ من الحياة يمكن تبديله في كل لحظة، قد تخلّى عنه بطرس ولم يعد يرغب فيه، على كل حال. كان يحسّ أن طراز حياته استقرّ الآن نهائياً حتى موته، وأنه ليس بمقدوره تغييره، ومن ثم فإن طراز الحياة هذا كان قليل الكلفة.

كان بطرس يفرز مشترياته وهو مستبشر متهلل الأسارير. قال وهو ينشر كالحانوتي قطعة قماش:

– تطلعي لي على هذه!

كانت ناتاشا تجلس أمامه، ممسكة بطفلتها البكر على ركبتيها، ومنقّلة عينيها المشعتين من زوجها إلى ما يريها إياه.

– هذا للسيدة بيلوف؟ ممتاز.

وجسّت القماش لتختبر جودته وقالت:

– لابد أن المتر منه يساوي روبلاً.

فأخبرها بطرس بسعره.

قالت ناتاشا:

– إنه غالٍ. لكن فرحة الأطفال ستكون عظيمة وكذلك «ماما».

وأضافت وهي لا تستطيع أن تمتنع من الابتسام حين تأملت مشطاً من هذه الأمشاط المزخرفة باللآلئ التي أخذت بدعتُها تنتشر:

– لكن ما كان ينبغي لك أن تشتري لي هذا.

قال بطرس:

– آديل[1] هي التي أقنعتني. وقد ألحّتْ كثيراً لكي أشتريه.

– لكن متى أضعُه؟

ووضعته ناتاشا في شعرها وأردفت:

– سأضعه عندما أصطحب ناتاشا إلى المجتمع؛ ربما عادت النساء إلى وضعه آنذاك. هيّا، تعال.

ذهبا، وهما يحملان الهدايا، إلى غرفة الأطفال أولاً، ثم إلى غرفة الكونتيسة.

كانت الكونتيسة جالسة كعادتها مع السيدة بيلوف تلعبان بالورق لعبة الصبر، عندما دخل بطرس وناتاشا، غرفة الاستقبال، وهما يتأبطان الرزم.

بدأت الكونتيسة الآن تتجاوز الستين. وقد شاب شعرها ووضعت على رأسها قبعة تحيط وجهها بكشكشها وتغضّن وجهها، وانحسرت شفتها العليا وبهتت عيناها.

كانت تحس، بعد موت ابنها وموت زوجها الذي لحق بابنه بعد

١– آديل: فرنسية كانت تدير محلاً للأزياء الحديثة في بطرسبرج.

وقت قصير، أنها منسية في هذا العالم عرضاً، من دون هدف أو مبرر للحياة. كانت تأكل وتشرب، وتنام وتسهر، لكنها لم تكن تحيا. وكانت لا تجد للحياة أثراً ولا تطلب إلا الراحة، وهذه الراحة لن تلقاها إلا في الموت. ومادام الموتُ لم يأت فلا بد لها من أن تحيا، أي أن تستخدم قواها الحيوية. وقد لوحظ عليها شيء يلاحظ على الصغار وعلى الشيوخ المسنين، وقد بلغ ذلك الشيء أقصاه. فلم يكن يُشاهدُ في حياتها أيُ هدف خارجي وكل ما كان يظهر في هذه الحياة هو الحاجة إلى أن تزاول ميولها وملكاتها. كانت بحاجة إلى الأكل والنوم والتفكير والكلام والبكاء والعمل والغضب... الخ لمجرد أن لها معدة ودماغاً وعضلات وأعصاباً وكبداً. وكانت تفعل ذلك كله دون أي تحريض خارجي، لا كالذين هم في عنفوان الشباب والذين يحجب هدفهم المنشود الهدفَ الآخر، أي استخدام قواهم. لم تكن تتكلم إلا لأنها تحتاج جسدياً إلى تشغيل رئتيها ولسانها. وكانت تبكي كالطفل لأنها تحتاج إلى التمخّط الخ. إن ما يبدو لدى الأقوياء من الرجال هدفاً كان يبدو عندها ذريعة.

وهكذا فقد كانت تشعر، في الصباح على وجه الخصوص، بالحاجة إلى الغضب، إذا كانت قد أكلت في العشية شيئاً دسماً، وتختار حينئذ أسهل ذريعة، وهي صمم السيدة بيلوف.

كانت تشرع في مخاطبتها بصوت خافت، من الطرف الآخر للغرفة. فتقول لها همساً:

– أظن أن الجو أكثر حرارة اليوم، يا عزيزتي.

وعندما تجيب السيدة بيلوف: «أجـل، لقد وصلوا»؛ تدمدم الكونتيسة متبرمّة:

- يا إلهي، ما أشد صممها وغباءها!

والذريعة الأخرى كانت التبغ الذي تستنشقه والذي كانت تجده مفرط الجفاف حيناً، وحيناً آخر مفرط الرطوبة، وفي بعض الأحيان سيء الفرم. وبعد نوبات السخط هذه، كانت الصفراء تصعد إلى وجهها، وكانت الخادمات يعلمن بدلائل أكيدة متى تصبح السيدة بيلوف صماء من جديد، ومتى يغدو التبغ رطباً من جديد، ومتى تصير سحنتها صفراء. وكما أنها كانت بحاجة إلى أن تشغّل صفراءها، كذلك كانت بحاجة أحياناً إلى أن تُعمل ملكات التفكير المتبقيّة لديها، وكانت الذريعة لهذا الإعمال لعبة الصبر. فإذا احتاجت إلى البكاء، كان المرحوم الكونت هو الذريعة. وإذا احتاجت إلى القلق كانت الذريعة نيقولا وصحته؛ وإذا احتاجت إلى أن تقول كلاماً يسيء ويلذع كانت الأميرة ماريا هي الذريعة. وإذا احتاجت أن تدرب عضلاتها الصوتية، وكان ذلك يقع على الأغلب في نحو السابعة، بعد استراحتها في غرفتها المظلمة، كانت الذريعة أن تردد دائماً القصص نفسها للمستمعين أنفسهم.

كان أهل المنزل جميعاً يدركون حالة السيدة العجوز، مع أن أحداً لم يتعرض قط لذلك، ومع أن الجميع كانوا يبذلون وسعهم لإرضائها. النظرات النادرة والابتسامة الحزينة التي كان يتبادلها نيقولا وبطرس وناتاشا والكونتيسة ماريا، هي وحدها التي كانت تدلّ على أنهم يدركون وضعها.

لكن هذه النظرات كانتْ تقول شيئاً آخر أيضاً؛ كانت تقول إنها قد أنهت مهمتها في الحياة، وأنها لم تكن كلها فيما ظهر منها اليوم، وأننا سنصير جميعاً إلى ما صارت إليه، وأن من دواعي الفرح الرضوخَ والخضوعَ لهذا الكائن الذي كان فيما مضى عزيزاً، مليئاً

بالحياة، وغدا الآن جديراً بالشفقة. كانت هذه النظرات تقول: «تذكّرُ الموتَ».

الخبثاء والأغبياء والصغار هم وحدهم الذين لم يكونوا يفهمون ذلك وكانوا يتحاشونها.

***

الفصل الثالث عشر

عندما دخل بطرس وامرأته غرفة الاستقبال، كانت الكونتيسة في هذه الحالة العادية التي تشعر فيها بالحاجة إلى أن تزاول عملاً فكرياً في لعبة «الصبر» الطويلة؛ ولذلك، فمع أنها قالت بحكم العادة الكلمات التي تقولها كلما عاد بطرس أو ابنها: «آن لك أن تعود، آن لك أن تعود، يا عزيزي؛ بدأنا نفقد صبرنا، الحمد لله»، وكلما تلقت شيئاً من الهدايا: «ليست الهدية هي المهمة، يا صديقي، شكراً لأنك فكرتَ في عجوز مثلي...»، إلا أنه كان واضحاً أن وصول بطرس ضايقها في هذه اللحظة إذ صرَفَها عن لعبة الصبر التي لم تفرغ من ترتيبها بعد. فلما انتهت منها، حينذاك فقط التفتت إلى الهدايا. كانت تتألف من علبة لورق اللعب بديعة الصنع، ومن قدح صنع في «سيفر»، قدح أزرق لمّاع له غطاء رُسمت عليه راعيات، ومن منشفة ذهبية مزدانة بصورة الكونت، وقد أوصى بها بطرس رسّاماً منمنماً في بطرسبرج. (كانت الكونتيسة تتوق إليها من زمان طويل). لم تكن تشتهي البكاءَ في هذه الحظة، ولذلك نظرت إلى الصورة بلا اكتراث لتهتم بالعلبة خاصة.

قالت على عادتها:

- شكراً، يا صديقي، لقد سررتَني. لكن أفضل الأشياء جميعاً هو أنك أنت نفسك هنا. وإلا فأية قيمة لذلك كله؛ أولى بك أن توبخ

امرأتك. فما معنى هذا؟ إنها كالمجنونة بدونك. وهي لا ترى شيئاً، ولا تتذكّر شيئاً.

وأضافت:

- انظري، يا آنا تيموفيفتا، إلى العلبة التي حملها ابنُنا إلينا.

تأملت السيدة بيلوف الهدايا وشُدهتْ بهديتها.

كان بطرس وناتاشا ونيقولا والكونتيسة ماريا ودينيسوف ينتوون أن يتبادلوا الحديث في كثير من الأشياء التي لا يصح الكلام عليها أمام الكونتيسة، لا لأنهم كانوا يخفون عنها شيئاً بل لأنها كانت قليلة الاطلاع على ما يجري، بحيث أنهم لو تطرقوا إلى موضوع من الموضوعات أمامها لوجب أن يجيبوا عن أسئلتها التي تطرحها في غير مكانها وأن يكرروا لها ما سبق أن كرّروه عدة مرات: من مثل موت فلان، وزواج فلان، وهي أشياء لا يمكن أن تحفظها في ذاكرتها؛ على أنهم اجتمعوا، كعادتهم، في الصالة حول السماور وأخذ بطرس يجيب عن أسئلة الكونتيسة، التي لا فائدة منها لا لها ولا للآخرين، بقوله، إن الأمير فاسيلي قد شاخ، وأن الكونتيسة ماريا اليكسيفنا تسلّم عليها وترجوها ألا تنساها، وهلم جرّاً.

استمر هذا الحديث الذي لا غناء فيه لأحد، وإن كان ضرورياً، أثناء تناول الشاي. وحول الطاولة المستديرة والسماور الذي جلست قربه صونيا، اجتمع كبار العائلة. أما الأولاد والمربّون والمربّيات فقد انتهوا من تناول الشاي، وها إن أصواتهم تعلو في غرفة التدخين المجاورة. كان كل واحد يشغل مكانه المألوف؛ فنيقولا يجلس قرب المدفأة، أمام طاولة صغيرة قُدّم عليها الشاي. وعلى مقعد قربه، اضطجعت كلبته السلوقية المسنّة ميلكا، وهي من

كلبته الأولى ميلكا، وقد ابيض رأسها كله فبرزت بروزاً أشد عيناها السوداوان. وجلس دينيسوف بشعره الجعد وبشاربيه وسالفيه التي وخطها الشيب، وبسترة الجنرال المفكوكة الأزرار قرب الكونتيسة ماريا. وكان بطرس بين زوجته والكونتيسة العجوز. وكان يروي ما يعلم أنه يمكن أن يثير اهتمام السيدة العجوز وما يمكن أن تفهمه. كان يتحدث عن الأحداث الاجتماعية وعن الذين كانوا يشكلون قديماً حلقة معاصري الكونتيسة العجوز، حلقة حية حقيقية، متميّزة كل التميز، لكن معظمهم تفرق الآن في البلاد، فهم ينهون أيامهم بالتقاط السنابل الأخيرة ممّا بذروه أثناء حياتهم. ومع ذلك، كان هؤلاء المعاصرون هم الذين يمثلون، في نظر الكونتيسة، العالم الوحيد الجدي والحقيقي. ولقد رأت ناتاشا، من حيوية بطرس، أن رحلته كانت شائقة، وأن عنده الكثير من الأشياء التي يجب أن يرويها لكنه لا يجرؤ على الكلام أمام الكونتيسة.

ولأن دينيسوف، لم يكن عضواً من العائلة، و لم يفهم، من ثم، تحفّظ بطرس، ولأنه كان، فوق ذلك، شديد العناية بما يجري في بطرسبرج، بسبب من استيائه، فقد أخذ يحث بطرس على الحديث تارة عن قضية فوج سيمينوفسكي الحديثة العهد، وعن اراكتشيف تارة أخرى، وتارة أخرى عن جمعية الكتاب المقدس[1]. وكان بطرس ينساق أحياناً ويبدأ الكلام، لكن نيقولا وناتاشا كانا يردّانه في كل مرة إلى الحديث عن صحة الأمير إيفان والكونتيسة ماريا انتونوفنا.

سأل دينيسوف:

١- «جمعية الكتاب المقدس»: جمعية لنشر الكتاب المقدس باللغة الروسية، أسست في ١٨١٦ في بطرسبرج على نمط النموذج الإنكليزي، وقد حماها الوزير الأمير غوليتزين، لكنها حلت في ١٨٢٢ من جراء مكائد الأرشمندريت فوتيوس.

- لكن أيمكن لهذا الجنون كله، وغوسنر[1]، والسيدة تاتارينوف[2]، أيمكن لذلك أن يستمر؟

فهتف بطرس:

- كيف «أيمكن لذلك أن يستمر». إنه يستمر أكثر من ذي قبل. جمعية الكتاب المقدّس هي الحكومة كلها الآن.

سألت الكونتيسة التي أنهت فنجانها فأرادت، كما يبدو، أن تبحث عن ذريعة للغضب بعد وجبتها الخفيفة تلك:

- عمّ تتحدّث، يا صديقي العزيز؟ ماذا قلتَ عن الحكومة، إني لم أفهم.

تدخّل نيقولا الذي كان يعلم كيف يترجم كل هذا إلى لغة أمه:

- نعم، تعلمين، يا أمي، أن الأمير ألكسندر نيكولا يفتش غوليتزين هو الذي نظّم جمعيةً، ولذلك فهو قوي.

قال بطرس بشيء من الغفلة:

- آراكتشيف وغوليتزين، هما الآن الحكومة كلها. وأية حكومة! إنهما لا يريان سوى المؤامرات، وهما يخافان كل شيء.

١- «غوستر» (١٧٧٣-١٨٥٨) قس ألماني، أصبح في ١٨٢٠ مديراً لجمعية الكتاب المقدس في بطرسبرج.

٢- «السيدة تاتارينوف» (١٧٨٣-١٨٥٦) البارونة بوكسهوفدن، امرأة زاولت التصوف والتنبؤ وأنكرت البروتستانتية في ١٨١٧ من أجل الأرثوذكسية، لكنها أسست «الأخوية في المسيح القريبة من الشيع الروسية. وقد شجعها الكسندر الأول في البداية لكنها أوقفت في عهد نيقولا الأول سنة ١٨٣٧ ونقلت إلى دير، وقضت فيه عشر سنوات و لم تخرج منه إلا بعد أن تبرأت من أخطائها.

قالت الكونتيسة كمن جرحها هذا الكلام:

– لكنْ فيم أذنبَ الأمير ألكسندر نيكولا يفتش؟ إنه رجل جدير بعظيم الاحترام. وقد كنت ألقاه قديماً في منزل ماريا انتونوفنا.

ولما رأت الجميع يسكتون ازداد غيظها فتابعت حديثها:

– كل الناس يُنتقَدون اليوم. الجمعية الإنجيلية، ما بها؟ أين الشر في ذلك؟

ثم نهضت (ونهض الجميع معها) وذهبت، وهي متجهمة الوجه، إلى غرفة التدخين لتجلس إلى طاولتها.

في وسط هذا الصمت الحزين الذي خيّم، سُمعتْ في الغرفة المجاورة ضحكاتُ الأطفال وأصواتهم. فالظاهر أن انفعالاً مفرحاً قد أثارهم.

هتفت ناتاشا الصغيرة في صياح فرح طغى على سائر الأصوات:

– جاهزة، جاهزة!

تبادل بطرس مع الكونتيسة ماريا ونيقولا نظرة (كان لا يرى إلا ناتاشا) وابتسم ابتسامة السعادة. وقال:

– يا لها من موسيقا رائعة!

قالت الكونتيسة ماريا:

– هذه آنا مكاروفنا التي أنهت الجوربين.

قال بطرس وهو يثب على قدميه:

– أوه! سأذهب لأرى.

وأضاف وهو يقف عند الباب.

- أتعلمين لماذا أحب هذه الموسيقا حباً خاصاً: ذلك لأنهم أول من ينبئني أن الأمور بخير. لقد كنت اليوم، في الطريق، كلما اقتربت من البيت ازددتُ خوفاً. فلما دخلت البهو سمعتُ آندريه الصغير يقهقه؛ قلت في نفسي: كل شيء بخير إذن...

فأكد نيقولا:

- أعرف هذا الشعور. لكنني لا أستطيع أن أذهب إليهم. فهذان الجوربان مفاجأة يخبئونها لي.

دخل بطرس غرفة الأطفال فتضاعفت الضحكات والصيحات وسُمع صوتُه يقول:

- هيا! تعاليْ إلى هنا، إلى وسط الغرفة، يا آنا ماكاروفنا، وسوف أعدّ: واحد، اثنان، فإذا قلت: ثلاثة... أنت تقف هنا وأنت بين ذراعي. هيا، واحد، اثنان... وران صمتٌ، ثلاثة!

وعلت في الغرفة ضوضاء النشوة بالفرح.

وصرخ الأطفال:

- اثنان، هناك اثنان!

كان هناك جوربان تحيكهما آنا ماكاروفنا معاً، بسرّ لا يعرفه غيرها، فإذا انتهت منهما أخرجتهما أحدهما من الآخر أمام الأطفال بحركة رسمية احتفالية.

***

الفصل الرابع عشر

بعد وقت قصير، جاء الأولاد يتمنون لأهليهم ليلة سعيدة. فقبّلوا الجميع، وانحنى المربّون والمربّيات وانصرفوا، ما عدا ديسال وتلميذه. فقد دعـاه مربّيه بصوت خافت إلى النزول، فأجابه الفتى نيقولا بولكونسكي:

– لا، يا سيد ديسال، سأستأذن عمتي بالبقاء.

وقال وهو يقترب منها:

– اسمحي لي، يا عمتي، بالبقاء.

وكان وجهه يعبّر عن التوسّل والتأثر والحماسة. نظرت الكونتيسة ماريا إليه ثم التفتت إلى بطرس وقالت له:

– عندما تكون هنا، فهو لا يستطيع الانصراف...

قال بطرس وهو يمد يده إلى السويسري ديسال:

– سآتيك به بعد حين، يا سيد ديسال: طاب مساؤك.

وخاطب نيقولا الفتى قائلاً:

– لم نلتق بعد، أنا وأنت.

وأضاف مخاطباً الكونتيسة:

– ما أعظم الشبه الذي أخذ يظهر بينهما، يا ماريا.

سأل الفتى الذي تضرّج وجهُه والذي صعّد نظره في بطرس بعينين ملتمعتين، تفيضان بالإعجاب.

– الشبه بأبي؟

فهزّ بطرس رأسه موافقاً واستأنف الحديث الذي قطعه الأولاد. كانت الكونتيسة ماريا تشتغل بالتطريز. ولم ترفع ناتاشا نظرها عن زوجها. ونهض نيقولا ودينيسوف وطلبا غليونيهما، وأخذا يدخّنان، ويتناولان شايهما من يدي صونيا، التي جلست مكتئبة قرب السماور لا تفارقه، وشرعا يطرحان الأسئلة على بطرس. واستقرّ الفتى السقيمُ ذو الشعر الجعد، والعينين الملتمعتين، في زاوية لا يراه فيها أحد، ملتفتاً نحو بطرس فقط برأسه الجعد، النحيف العنق الذي برز من ياقته المنخفضة، وكان يرتعش بين الحين والحين، ويهمس شيئاً بينه وبين نفسه، وكأنه كان نهباً لشعور جديد وقوي.

كان الحديث يدور على شائعات اليوم الصادرة عن الإدارة العليا التي يرى فيها معظم الناس الأهمية الأساسية للسياسة الداخلية. وتلقّى دينيسوف، وكان مستاءً من الحكومة من جراء فشله في عمله، بفرح أنباءَ الحماقات التي كانت تُرتكب، برأيه، في بطرسبرج، في الوقت الحاضر، وعلّق على ما كان يقوله بطرس بعبارات قوية وحاسمة:

– كان يجب أن يكون المرء ألمانياً، في الماضي، أما الآن فيجب

أن يرقص عند السيدة تاتارينوف والسيدة كرودنر[1]، وأن يقرأ.... إيكهارتز هاوسن[2] وشركاءه. أوه! أتمنى أن يقعوا مرة أخرى بين يدي هذا المقدام بونابرت إذن لعرف كيف يخلصهم من حماقاتهم.

وأضاف صائحاً:

- قولوا لي، ما معنى أن يُعطى فوج سيمينوفسكي إلى الجندي شوارز؟

أما نيقولا فمع أنه لم يكن يشعر مثل دينيسوف بالرغبة في استقباح كل شيء، إلا أنه كان يرى من اللائق والمهم انتقاد الحكومة، وكان يجد أن تعيين «آ» وزيراً لهذه الوزارة، و«ب» حاكماً لتلك المقاطعة، وكون الإمبراطور قد قال هذا الشيء والوزير قد قال ذاك، كان يجد أن ذلك كله قضايا عظيمة الأهمية. وكان يعتقد أن من الضروري الاهتمام بها وسؤال بطرس عنها. وكانت أسئلة هذين المتحدثين تُبقي الحديث في إطار هذا النوع المألوف من ثرثرة الدوائر الحكومية العليا.

لكن ناتاشا التي تعرف كل مواقف زوجها وأفكاره، رأت أن زوجها كان يحاول عبثاً منذ وقت طويل أن يسوق الحديثَ في وجهة جديدة

١- السيدة كرودنر: البارونة جوليادي كرودنر (١٧٦٤-١٨٢٤) مؤلفة رواية فاليري (١٨٠٣)، صديقة السيدة دي ستال وشاتوبريان، نظمت سنة ١٨١٤ في باريس اجتماعات صوفية، وكانت الرائدة لفكرة الحلف المقدس. بقيت منذ ١٨١٥ في سويسرا التي طردت منها في ١٨١٧ لأنها نظمت اجتماعات عامة تقوية، كما طردت من ألمانيا، فعادت إلى روسيا في ١٨١٨، حيث منعت من سكنى العاصمة.

٢- «ايكهارتز هاوسن»: كارل (١٧٥٢-١٨٠٣) كاتب صوفي ألماني، كان يقرؤه الماسونيون وقد ترجم إلى الروسية.

وأن يقول فكرته الحميمة، وهي الفكرة نفسها التي من أجلها ذهب إلى بطرسبرج ليتشاور مع صديقه الجديد، الأمير فيدور، وساعدته على ذلك حين سألته: أين وصلت قضيته مع الأمير فيدور.

سأل نيقولا:

– عمّ تتحدّثين؟

قال بطرس وهو يدير نظره حوله:

– عن الشيء نفسه. فكل الناس يرون أن الأمور قد ساءت جداً، وأن ذلك لا يمكن أن يستمر، وأن من واجب الجميع الشرفاء أن يردّوا على ذلك في نطاق وسائلهم.

قال نيقولا وهو يقطب حاجبيه تقطيباً خفيفاً:

– وماذا يستطيع أن يفعل الشرفاء؟ ما الذي يمكن فعلَه؟

– إليكم ما ينبغي...

قال نيقولا:

– لننتقلْ إلى مكتبي.

كانت ناتاشا تُحس أنها لن تلبث طويلاً حتى تُدعى لإرضاع صغيرها، فسمعت صوت المربية وانصرفت إلى غرفة الأولاد. وتبعتها الكونتيسة ماريا. وانتقل الرجال إلى مكتب العمل، كما دخل الفتى نيقولا بولكونسكي، خفيةً عن زوج عمته، وجلس في الظل، قرب النافذة، بحذاء طاولة العمل.

قال دينيسوف:

– ما الذي ستفعله إذن؟

قال نيقولا:

– أوهامٌ بأوهام.

بدأ بطرس كلامه دون أن يجلس، وهو يذرع الغرفة تارة، ويقف تارة أخرى، مزأزئاً ومحركاً يديه بحركات سريعة أثناء كلامه:

– إليكم ما ينبغي فعله. إن الوضع في بطرسبرج هو التالي: الإمبراطور لا يهتم بشيء. إنه يُخلد كلياً إلى هذا التصوّف (لم يكن بطرس ليغفر الآن التصوف لأحد) إنه يفتّش عن الهدوء والهدوء لا يمكن أن يمنحه إياه سوى هؤلاء الناس الذين لا دين لهم ولا خلق والذين يَفصلون في كل شيء ويخنقون كل شيء، مثل ماغنيتزكي وآراكتشيف ومن لفَّ لفّهم...

وقال مخاطباً نيقولا:

– وأنت توافقني على أنك إن لم تُدر أراضيك بنفسك وإن لم تطلبْ غير الهدوء فكلما كان وكيلك أشد قسوة بلغتَ هدفك على نحو أسرع.

قال نيقولا:

– لكن ما قصدك؟

– حسناً! إن كل شيء آخذٌ في الانهيار، ففي المحاكم تشيع السرقة،

وليس في الجيش سوى العصا والتدريب والمستعمرات العسكرية[1]؛ الشعبُ يُضْطَهد؛ والتعليم يُخنق. وما هو فتيّ وشريفٌ يُدمّر. الجميع يرون أن ذلك لا يمكن أن يدوم لقد شُدّ الحبل شدّاً مفرطاً ولابدّ أن ينقطع (وكلام بطرس هذا لا يختلف عن كلام الناس عندما يفحصون أعمال أية حكومة من الحكومات، منذ أن وجدت الحكومات). ما كنتُ أقول لهم سوى شيء واحد في بطرسبرج.

فسأله دينيسوف:

– تقول لمَنْ؟

قال بطرس وهو ينظر إليه خفية نظرة العارف:

– أنت تعلم لِمَنْ، للأمير فيدور وللآخرين. كنت أقول لهم: إن تشجيع التعليم وأعمال البر شيء حسن بالطبع. وهو هدفٌ ممتاز وهو المطلوب. لكنْ لابدّ من شيء آخر في الظروف الراهنة.

في هذه اللحظة، فطن نيقولا إلى وجود.... الفتى نيقولا بولكونسكي فاكفهرّ وجهه ودنا منه:

– ماذا تفعل هنا؟

قال بطرس:

١– المستعمرات العسكرية: نظام فرضه آراكتشيف منذ ١٨١٧، وكان يقوم على إسكان الجنود لدى الفلاحين. كانت القرية تتألف إذن من ١– من المستعمرين العسكريين أي الجنود. ٢– من الفلاحين المستعمرين أي أهل القرية. وكان الجندي يساعد الفلاح في أعمال الحقل، وكان أولادهما مطلوبين للخدمة العسكرية، وكان النظام الصارم يثير سخط الجنود والفلاحين على السواء.

- لماذا؟ دعْه.

وتابع:

-قلتُ لهم: هذا لا يكفي، ولابدّ من شيء آخر. إذا كان الناس ينتظرون أن ينقطع الحبلُ المشدود بين لحظة وأخرى؛ وإذا كانوا جميعاً ينتظرون انقلاباً محتمّاً، فينبغي أن نتعاون وأن نتحد أوثق اتحاد وبأكبر عدد ممكن، لنجابه الكارثةَ العامة. كلُ ما هو فتيّ وقوي منجذبٌ إلى تلك الجهة، وهو آخذ في الفساد. فهذا تفتنه النساء، وذاك تفتنه المناصب، وثالثٌ يفتنه الغرور والمال، وهكذا ينتقلون إلى المعسكر الآخر. أما الناس المستقلون والأحرار مثلك ومثلي، فلم يبق منهم أحد. قلتُ: وسّعوا إطار المجتمع؛ وليكنْ شعارنا لا الفضيلة وحدها بل أيضاً الاستقلال والعمل.

ترك نيقولا الفتى بولكونسكي، وقدّم كرسياً بتبرّم، وجلس عليها. كان يسعل، وهو يُصغي إلى بطرس، وقد ظهر عليه الاستياء وازداد وجهُه تجهّماً.

ثم هتف قائلاً:

- لكنْ ما هدفُ العمل؟ وكيف ستكون علاقاتكم بالحكومة؟

- ستكون العلاقات علاقات تعاون. ويمكن للجمعية ألا تكون سرية إذا سمحت الحكومة بذلك. إنها ليست معادية للحكومة بل إنها جمعية من المحافظين الحقيقيين. جمعية من الأسياد الماجدين بكل معنى الكلمة فمن أجل ألاّ يعمد بوغاتشوف إلى ذبح أولادي وأولادك، ومن أجل ألا يرسلني آراكتشيفُ إلى مستعمرة عسكرية، من أجل هذا فقط نتعاون، بهدف وحيد هو الخير العام والأمن العام.

– نعم، لكنها جمعية سرية، وإذن فهي معادية ومضرة، ولا يمكن أن تخلق غير الشر.

– لماذا؟ وهل تركتْ التوغنبند[1] التي أنقذت أوروبا (لم يكن يجرؤ أحد حتى ذلك الحين أن يقول إن روسيا قد أنقذت أوروبا) آثاراً مضرّة؟ التوغنبند عصبةُ فضيلة: إنها الحب والتعاون؛ وهذا هو ما بشّر به المسيح على الصليب....

كانت ناتاشا التي دخلت إلى الغرفة في غمرة الحديث تنظر إلى زوجها بفرح. لم تفرح مما يقول. فذلك ما لم يكن يهمها. لقد كان يخيل إليها أن ذلك كله في غاية البساطة وأنها تعرفه منذ زمن طويل (كانت تحس أنها تعرف مصدره، أي: نفس بطرس)؛ بل إنها فرحت عندما رأت الحيوية والحماسة في شخصه كله.

وأعظم من ذلك وأشد حماسة كان الفرح الذي نظر به إلى بطرس ذلك الفتى ذو العنق الدقيق البارز من ياقته المردودة والذي نسيه الجميع. فكل كلمة من بطرس كانت تُلهب فؤاده، وكان يكسر بحركة عصبية من أصابعه، ودون أن يشعر بما يفعل، الشمع الأحمر والأقلام التي في متناول يده على طاولة زوج عمته.

– ليس الأمر كما تعتقد، وهاك ما كانت عليه «التوغنيند» والجمعية التي اقترحها.

فارتفع صوت دينيسوف القوي والحاسم:

–دعنا، يا صديقي؛ إن «التوغنبند» صالحةٌ لأكلة النقانق، أما أنا فلست أفهم شيئاً منها، بل إنني لا أحسن لفظ اسمها. أن يكون كل

١– توغنبند: جمعية سرية متحررة، من الطلاّب الألمان أنشئت في ١٨١٧.

شيء سيئاً، وكل شيء كريهاً، فهذا ما أوافقك عليه، لكن التوغنبند شيء لا أفهمه، وإذا لم أرتح إليها فإني لا أجد بأساً في الثورة، وهذا ما يروق لي! أنا رهن أوامرك!

تبسّم بطرس، وانفجرت ناتاشا ضاحكة، لكن نيقولا زاد من تقطيب حاجبيه وأخذ يبرهن لبطرس على أن الثورة شيء غير متوقّع وأن كل الخطر الذي تحدّث عنه لا يوجد إلا في مخيلته. وأخذ بطرس يبرهن على العكس، وبما أنه كان أوسع فكراً وأثقب ذكاء فقد أحسّ نيقولا أنه في مأزق فزاد ذلك من غيظه، لأنه كان يعلم في أعماق نفسه، وبغير محاكمة بل بشيء أقوى والمحاكمة، إن وجهة نظره صحيحة، لا مراء فيها. وقال وهو ينهض ويضع بحركة عصبية غليونه جانباً، ثم لا يلبث أن يرمي به

- إليكَ ما سأقوله لك، وإن كنت لا أستطيع أن أبرهن لك عليه. أنت تقول: إن الحال سيئة عندنا وأن الثورة وشيكة الوقوع؛ ولست أرى رأيك. لكنك تقول إن القسمَ عهدٌ وأنا أجيبك على ذلك بما يلي: إنك خير أصدقائي، وأنت تعلم ذلك، أما أن تشكّل جمعية سريّة، وأن تثور على الحكومة، أياً كانت تلك الحكومة، فإني أعلم أن من واجبي طاعة تلك الحكومة. وإذا ما أمرني آراكتشيف، في هذه اللحظة، أن أسير ضدكم بكوكبة من الفرسانِ وأن أقتلكم بالسيف فلن أتردد ثانية واحدة، وسوف أسير. والآن، فكرْ في ذلك كما يحلو لك.

بعد هذه الكلمات، خيّم صمتٌ حرجٌ. وتكلمت ناتاشا قبل غيرها لتدافع عن زوجها وتهاجم أخاها. كان دفاعها ضعيفاً، متهافتاً، لكنها بلغت هدفها وذلك أن الحديث رجع إلى مجراه عارياً من تلك اللهجة العدائية الكريهة التي خالطت كلمات نيقولا الأخيرة.

وعندما نهض الجميع ليذهبوا إلى العشاء، اقترب الفتى نيقولا

بولكونسكي من بطرس، وهو شاحبٌ، وقد التمعت عيناه وأضاءتا، وسأله:

– يا عمّ بطرس.... أنت... لا.... لو كان أبي حياً... أيكون من رأيك؟

أدرك بطرس مدى اعتمال العواطف والأفكار، ذلك الاعتمال الخاص، المستقل، المعقد والقوي الذي لابد أنه تمّ في هذا الفتى أثناء الحديث، وحين تذكرَ كل ما قاله، أسف أن يكون الفتى قد سمعه.

قال بطرس على مضض:

– أظن ذلك.

وخرج من المكتب.

أطرق الفتى رأسه، وكأنما شاهد لأول مرة ما جنت يداه على الطاولة فاحمرّ ودنا من نيقولا، وقال له وهو يشير إلى ما كسر من الأقلام والشمع الأحمر:

– اعذرني، يا عمّ، أنا فعلت ذلك سهواً.

فندّت عن نيقولا حركة تبرّم، وقال وهو يرمي تحت الطاولة قطع الشمع والأقلام:

– طيّب، طيّب.

والتفت إلى الصبي، وهو يكظم غضبه الفائر بمشقة ظاهرة، وقال:

– ما كان ينبغي لك أن تكون هنا، على كل حال.

***

الفصل الخامس عشر

لم يتطرق أحدٌ، أثناء العشاء، إلى السياسة والجمعيات، لكن الحديث تناول أحب الموضوعات إلى قلب نيقولا، وهو ذكريات ١٨١٢؛ وقد ساقهم دينيسوف إلى هذا الحديث وكان فيه بطرس ساحراً وممتعاً، على نحو خاص. وافترق الجميع وهم في أحسن حال من الصداقة والود.

وبعد أن خلع نيقولا ملابسه في مكتب العمل، وأصدر أوامره لوكيله الذي كان ينتظره منذ وقت طويل، دخل بمبذله إلى غرفة النوم، فوجد امرأته ماتزال جالسة إلى مكتبها تكتب.

سألها نيقولا:

– ماذا تكتبين، يا ماري؟

احمرت الكونتيسة ماريا. كانت تخشى ألا يفهم زوجها ما تكتب وألا يوافق عليه.

كان بودها أن تخفي ذلك عنه، لكنها سُرَّتْ في الوقت نفسه إذ انكشف أمرها ورأت نفسها مضطرة إلى أن تخبره بما تفعل.

قالت له وهي تناوله دفتراً أزرق مملوءاً بخطها الكبير الثابت:

– هذه مذكراتي.

قال نيقولا بلون من السخرية:

– مذكرات؟...

وأخذ الدفتر، ووجد مايلي مكتوباً بالفرنسية:

٤ كانون الأول. رفض آندريوشا (ابنها البكر) اليوم أن يلبس ثيابه حين استيقظ، فأرسلتُ الآنسة لويز مَنْ يدعوني. لقد اتبع نزوته وركب رأسه. حاولتُ أن أهدده فزاد ذلك في غضبه. حينذاك عزمت على تركه، وأخذت بإنهاض الأطفال الآخرين مع المربية، قائلةً له إنني لن أحبه بعد الآن. ظل صامتاً زمناً طويلاً، كالذاهل؛ ثم ارتمى علي وهو بقميصه وأخذ ينتحب حتى إنني لبثتُ وقتاً طويلاً دون أن أتمكن من تهدئته. وكان واضحاً أن أكثر ما آلمه هو أنه عذّبني؛ وعندما أعطيته، في المساء، ورقة علاماته، عاد إلى البكاء بدموع ساخنة وهو يعانقني. يمكن أن نحصل منه على كل شيء بالحنان.

سألها نيقولا:

– ما ورقة العلامات هذه؟

– إنني أضع الآن، للكبار، علامات على السلوك كل مساء.

حدّق نيقولا في عينيها المضيئتين، الشاخصتين إليه واستمر في تصفح دفتر المذكرات وقراءته. وكانت المذكرات تدوّن كل ما بدا للأم جديراً بالملاحظة من حياة الأطفال، كل ما يكشف عن طباعهم أو يوحي بأفكار عامة عن طرائق التربية. كانت التفاصيل في معظمها تافهة؛ لكنها لم تبدُ كذلك لا بالنسبة إلى الأم ولا بالنسبة إلى الأب عندما قرأ لأول مرة هذه المذكرات عن الأطفال:

وعن ٥ كانون الأول دُوِّن مايلي:

لم يكن ميتيا هادئاً على المائدة. وقد منع أبوه الحلوى عنه. فلم يُعْطَها. لكن بأية نظرة محزنة وشرهة كان يرمي الآخرين، وهم يأكلون! أظن أن عقاب الطفل بحرمانه من الحلوى لا ينمّي غير شراهته. سأقول هذا لنيقولا.

وضع نيقولا الدفتر ونظر إلى امرأته. كانت العينان المضيئتان تسائلانه (أيوافق أم لا يوافق على المذكرات)؟ لم يكن هناك مجال للشك لا في موافقته فحسب بل وأيضاً في الإعجاب الذي يشعر به نحو زوجته.

وفكّر في نفسه: «ربما كان من الواجب ألا تكتبها بهذه الطريقة المتحذلقة، وربما كان من الواجب ألا تكتبها على الإطلاق»؛ لكن هذا التوتر الروحي الذي لا يكلّ والذي يهدف إلى خير الأطفال الخلقي، قد أدهشه. ولو استطاع نيقولا أن يدرك عاطفته لتبيّن أن حبه لزوجه، ذلك الحب المتين والحنون والفخور إنما يقوم قبل كل شيء على هذه الدهشة التي كان يستشعرها دائماً أمام قوة حياتها الروحية، أمام هذا العالم الأخلاقي الشاهق الذي كانت تحيا فيه دائماً، والذي لا يكاد يبلغه.

كان فخوراً بأن تبلغ هذا الحدّ من الذكاء، وكان يحسّ إحساساً قوياً بدونيّته أمامها في هذا المجال الروحي، فيزداد فرحاً لا لأنها له هي وروحها فحسب، بل لأنها جزء منه نفسه.

قال لها بلهجة واثقة:

- أوافقك تماماً، يا صديقتي، تماماً.

وأضاف بعد صمت قصير.

– لقد أسأتُ التصرف اليوم. لم تكوني في مكتبي. جرى بيني وبين بطرس نقاش. فاحتددتُ. وغير ذلك مستحيل. إنه لطفل. لا أدري ماذا سيكون لو لم تمسك ناتاشا بعنانه. أيمكنك أن تتصوري لماذا ذهب إلى بطرسبرج؟... لقد نظّموا هناك....

قالت الكونتيسة ماريا:

– نعم، أعلم. لقد حدثتني ناتاشا عن ذلك.

واستأنف نيقولا كلامه، وقد احتدّ لمجرد تذكّره النقاش:

– حسناً! أتعلمين أنه أراد أن يوهمني بأن واجب كل رجل شريف هو أن يثور على الحكومة، في حين أن القسم والواجب.. إني آسف لأنك لم تحضري النقاش. كانوا جميعاً يداً واحدة عليّ، هو ودينيسوف وناتاشا...

وأضاف نيقولا منساقاً وراء هذا النازع العاتي الذي يدفعنا إلى انتقاد أعز الناس علينا وأقربهم منا:

– ناتاشا مضحكة. فمع أنها متسلّطة عليه، إلا أنها عندما تجادل لا تقول شيئاً من عند نفسها، بل تستعير منه لغتها.

ونسي نيقولا أن ما قاله عن ناتاشا يمكن أن ينطبق عليه، كلمةً كلمة، بالنسبة إلى امرأته.

قالت الكونتيسة ماريا:

– نعم، لاحظتُ ذلك.

– وعندما قلت له إن الواجب والقسم فوق كل شيء، أخذ يبرهن على ما لا يعلمه إلا الله. من المؤسف أنك لم تكوني حاضرة؛ ماذا كنتِ ستقولين؟

قالت الكونتيسة ماريا:

– في رأيي أنك على حق تماماً. وهذا ما قلتُه لناتاشا. إن بطرس يزعم أن جميع الناس يتألمون ويتعذبون ويفسدون وأن واجبنا مساعدة قريبنا. وهو محقّ، من غير شك. لكنه ينسى أن علينا واجبات مباشرة قبل غيرها عيّنها الله لنا، وأن من الجائز لنا تعريض حياتنا للخطر، لا حياة أبنائنا.

واستأنف نيقولا كلامه ظاناً أنه قد قال ما قالته:

– هو ذاك، هو ذاك، هذا بالضبط ما قلته له. وهم لا يحسنون إلا ترديد شيء واحد هو محبة القريب والمسيحية، وكل هذا أمام نيقولا الفتى الذي انسلّ إلى المكتب وكسر كل ما وقع بين يديه.

قالت الكونتيسة ماريا:

– أتعلم، يا نيقولا، أن هذا الصغير يؤرقني كثيراً. إنه فتى غير عادي. وأخشى أن أهمله وأن أنصرف عنه إلى أولادي. نحن جميعاً لنا أولاد وعائلة؛ أما هو فليس له أحد، إنه وحيد دائماً مع أفكاره.

– الواقع أنه ليس هناك ما يستحق أن تلومي نفسك عليه. بهذا الصدد. فكل ما تستطيع أن تفعله أرأف الأمهات لابنها، فعلته أنتِ ومازلتِ تفعلينه. وأنا سعيد بذلك، من دون شك. فهو فتى طيب جداً. وقبل هنيهة، كان يصغي إلى بطرس بضربٍ من النشوة. تصوري أننا عندما نهضنا لنذهب إلى العشاء، رأيت أنه فتّت كل ما كان على طاولتي، واعترف لي بذلك على الفور. لم أجده يفتري الكذب قط.

وردد نيقولا:

- إنه فتى لطيف.

مع أنه لم يكن يستسيغه في أعماق نفسه، وإنْ حرص دائماً أن يشهد بلطفه.

قالت الكونتيسة ماريا:

- ومع ذلك فالأمر مختلف لو كان له أم، أحسّ أن الأمر مختلف، وهذا يؤرقني. إنه فتى رائع؛ لكنني شديدة الخوف عليه. ستكون الحياة بين الناس مفيدة له.

قال نيقولا:

- حسناً! فلن يبقى طويلاً هنا؛ وسآخذه في هذا الصيف إلى بطرسبرج.

وتابع كلامه عائداً إلى الحديث الذي دار في المكتب والذي أثاره، كما يظهر:

-نعم، كان بطرس وسيظل حالماً أبداً. اسمعي، ماذا يهمني من كل ما يجري هناك، من أن آراكتشيف ليس في المستوى اللائق ومن كل ذلك، ماذا كان يهمني من ذلك حين تزوجتُ وأثقلتني الديون وتعرضتُ للسجن، وأنا مع أم لا تستطيع أن ترى ذلك أو تدركه. ثم كنت أنت والأولاد والأعمال. أيسرني أن أظل في الصباح إلى المساء عاكفاً على أعمالي وفي المكتب[1]؟ كلا، وإنما أعلم أنّ علي أن أعمل لكي أؤمن حياة هادئة لأمي، وأن أدفع ما أنا مدين به لك وألاّ أدع أولادي يحيون في العازة كما كنتُ أنا.

١- في المكتب: أي في مكتبه كملاك عقاري.

أرادت الكونتيسة ماريا أن تقول له: إن الإنسان لا يحيا بالخبز وحده، وأنه يعلّق أهمية مسرفة على هذه «الأعمال»؛ لكنها كانت تعلم أنها لا ينبغي أن تقوله، وأن ذلك لا جدوى منه. فاكتفت بأن أخذت يده وقبلتها. وقد أوّل حركة زوجته هذه على أنها موافقة على أفكاره وتأييد لها، وبعد أن تفكّر بعض الوقت في صمت، تابع تفكيره بصوت عال. قال:

– أتعلمين، يا ماريا، أن ايليا ميتروفاينتش (الوكيل) وصل من قرية تامبوف، وهو يقول: إنه قد عُرض مبلغ ثمانين ألف روبل عن الغابة.

وتحدث نيقولا، ووجهه منتعشٌ، عن إمكانية استرداد «اوترادنوي» في أقرب وقت:

– لأعشْ بعد ذلك عشر سنوات، وسأترك الأطفال... في وضع ممتاز.

كانت الكونتيسة ماريا تصغي إلى زوجها وتفهم كل ما يقوله. كانت تعلم أنه عندما يفكّر هكذا بصوت عالٍ، فقد يسألها عما قاله ويغضب إن تبيّن أنها تفكّر في شيء آخر. لكن ذلك يكلّفها جهداً كبيراً لأن ما يقوله لا يعنيها في شيء. كانت تنظر إليه وتحسّ بشيء آخر وإن لم تفكر في شيء آخر. وكانت تشعر بحب يمتزج فيه الحنان والخضوع لهذا الرجل الذي لم يكن يفهم كل ما تفهمه، ولعلها من أجل ذلك كانت تحبه حباً أقوى، مع لون من الحنان المشبوب. وفضلاً عن هذه العاطفة التي كانت تستغرقها كلياً وتمنعها من التدخّل في تفاصيل مشاريع زوجها، فقد كانت تمرّ ببالها أفكار لا جامع بينها وبين ما يقوله. كانت تفكّر في ابن أخيها (ما قاله زوجها عن انفعاله أثناء حديث بطرس قد أذهلها) واستعادت ذاكراتُها سماتٍ شتى من طبعه الرقيق، السريع

التأثر؛ وفكرت في أبنائها وهي تفكّر فيه. لم تكن توازن بين ابن أخيها وأولادها، وإنما كانت توازن بين عاطفتها نحوهم ونحوه، فتلاحظ بشيء من الحزن أن في عاطفتها نحو نيقولا الصغير شيئاً ناقصاً.

وكان يخطر لها أحياناً أن هذا الفرق يرجع إلى السن؛ لكنها كانت تحسّ أنها مذنبة حياله، فتأخذ على نفسها أن تصلح خطأها وأن تفعل المستحيل، أي أن تحب في هذه الحياة زوجها وأولادها ونيقولا الصغير وجميع الناس كما أحب المسيح الإنسانية. كانت روح الكونتيسة ماريا تتوق دائماً إلى اللانهاية، والخلود، والكمال، ولذلك لم تكن تجد إلى السكينة سبيلاً. واتخذ وجهها ذلك التعبير الرصين عن الألم العميق، المخبوء، ألم النفس التي قيّدها الجسد.

نظر إليها نيقولا وفكّر: «يا إلهي! ماذا سيصيبنا إذا ماتت، وهو ما يبدو لي دائماً عندما يكون وجهها كما هو الآن، وتلا صلوات المساء، وهو واقف أمام الإيقونات».

***

الفصل السادس عشر

عندما بقيت ناتاشا وحدها مع زوجها، أخذت هي الأخرى أيضاً تتحدث كما تتحدث الزوجة وزوجها، أي أنهما كانا يتفاهمان بوضوح وسرعة خارقتين، ويوصل كل منهما أفكاره إلى الآخر بطريق مناقضة لكل قواعد المنطق، ودون تدخّل المحاكمات والاستقراءات والاستنتاجات، لكن بوسيلة خاصة تماماً. وقد تعودت ناتاشا الحديث مع زوجها على هذا النحو حتى أن أوثق علامة عندها على الخلاف بينهما كان التسلسل المنطقي لتفكير بطرس. فعندما يشرع بالبرهنة، وعندما يتكلم بتعقّل وهدوء، فتنساق هي وراءه وتصنع صنيعه، عند ذاك تعلم أن ذلك سيؤدي حتماً إلى الخصام.

ما إن بقيا وحدهما، ودنتْ ناتاشا برفق، وقد اتسعت عيناها من السعادة، وأخذت رأسه بغتة وشدّته إلى صدرها قائلة: «أنت الآن كلك لي، كلّك لي! ولن تفلت مني بعد الآن!، منذ هذه اللحظة، دار ذلك الحديث المناقض لكل قواعد المنطق، مناقض للمنطق لأنهما كانا، على الأقل، يتحدثان في موضوعات مختلفة كل الاختلاف. إن هذه الطريقة في التصدي لعدة موضوعات في وقت واحد لم تكن تجور على الوضوح والفهم، بل إنها على العكس كانت العلامة الأكيدة على التفاهم التام بينهما.

وكما أن كل شيء في الأحلام مصطنع، مناف للعقل ومتناقض ما عدا العاطفة التي تأمر بها، فكذلك ما هو منطقي وواضح، في هذا التبادل للأفكار المناقض لكل قوانين العقل، ليست الكلمات ذاتها وإنما هي العاطفة التي تمليها.

كانت ناتاشا تروي لبطرس كيف كان يعيش أخوها، وكم كانت تتألم، وأنها لم تكن تحيا في غياب زوجها، وأنها أخذت تزداد حباً لماريا، وأن ماريا أفضل منها، في كل النواحي. وحين تصرّح ناتاشا بذلك فإنها تعترف صادقة بتفوق ماريا، ولكنها تطلب، في الوقت نفسه، من بطرس ألا يتوانى عن تفضيلها على ماري وعلى سائر النساء، وهي تردد الآن بخاصة على مسامعه ذلك الشيء، بعد أن رأى الكثير من النساء في بطرسبرج.

رد بطرس على ناتاشا بأن روى لها كم كان حضور السهرات والأغدية التي يجتمع فيها الكثير من نساء المجتمع الراقي، في بطرسبرج شيئاً لا يُطاق بالنسبة إليه. وقال:

- فقدتُ تماماً عادة التحدث إلى النساء، إن هذا يثير ضجري، بكل بساطة ولا سيّما أنني كنت مشغولاً.

حدّقت فيه ناتاشا وتابعت القول:

- ماريا منقطعة النظير. ما أقدرها على فهم الأولاد. فكأنها ترى أنفسهم. البارحة مثلاً، اتبع ميتيا الصغير نزوته...

فقاطعها بطرس:

آه! ما أعظم شبهه بأبيه.

أدركت ناتاشا لماذا أبدى هذه الملاحظة عن الشبه بين ميتيا ونيقولا؛ ذلك أن ذكرى نقاشه لصهره كانت مزعجة وأراد أن يعرف رأي ناتاشا بهذا الصدد. فقالت:

– عيبُ نيقولا أنه لا يقبل بشيء إلا إذا قبل به الجميع. أما أنت فإني أفهمك، أنت حريص على أن تفتح الطريق.

وكررت العبارة الأخيرة التي استعملها بطرس.

قال بطرس:

– لا، الجوهري هو أن الأفكار والمحاكمات وسيلة للهو والعبث تقريباً عند نيقولا. إنه ينشئ مكتبة ويأخذ على نفسه ألا يشتري كتاباً جديداً دون أن يقرأ الكتاب السابق.

وأضاف مبتسماً:

– من سيسموندي إلى روسو إلى مونتسكيو.

وتابع ليلطف من كلماته:

– تعلمين كم...

فقاطعته ناتاشا لتشعره أن ذلك لا غناء فيه:

– أنت تقول إذن أن الأفكار وسيلة للهو والعبث.

– نعم، أما بالنسبة إلي فكل ما سواها لهوٌ وعبث. في بطرسبرج، كنتُ أرى الناس جميعاً وكأنني في حلم. فعندما تشغلني فكرة يغدو كل ما سواها لهواً وعبثاً.

قالت ناتاشا:

- آه! من المؤسف أني لم أرك وأنت تسلّم على الأولاد. من منهم كان أكثر سروراً بك؟ «ليز» بالتأكيد؟

قال بطرس:

- نعم.

وتابع كلامه عمّا كان يشغله:

-نيقولا يقول: إنه لا ينبغي لنا أن نفكّر. لكنني لا أستطيع ذلك. دَعك من أنني كنت أحسّ، في بطرسبرج، (يمكنني أن أقول ذلك لكِ وحدك) أن كل شيء كان يتفكك لولاي، وأن كل واحد كان يشد من جهته. لكنني تمكنت من توحيدهم جميعاً. ثم إن فكرتي بسيطة وواضحة. لم أقل: إن علينا أن نقوم على فلان أو فلان، إذ يجوز أن نخطئ. لكني أقول: تعاونوا، يا من تحبّون الخير، ولتكنْ رايتنا هي الفضيلة الفاعلة. والأمير سيرج رجل ممتاز وذكي.

لم تشك ناتاشا في أن فكرة بطرس كانت فكرة عظيمة. لكن شيئاً واحداً كان يقلقها. هو أنه زوجها. «أمن الممكن أن يكون مثل هذا الرجل الخطير، مثل هذا الرجل الضروري للمجتمع زوجاً لها في الوقت نفسه؟ وكيف أمكن وقوع ذلك؟» كانت ترغب في أن تعبّر له عن هذا الشك.

وتساءلت وهي تستعرض في فكرها الرجال الذين كان بطرس يخصهم بتقديره الكبير.

من هم الذين يمكنهم أن يقرروا إن كان حقاً أذكى بكثير من الآخرين جميعاً؟ ما كان يحترم أحداً منهم، بناءً على أقواله، بقدر ما احترم أفلاطون كاراتايف.

قالت:

– أتعلم فيم أفكر. في أفلاطون كاراتايف. ما الذي كان سيقوله أكان سيوافقك في هذه اللحظة؟

لم يُفاجأ بطرس البتة بهذا السؤال. وأدرك تسلسل أفكار زوجته.

قال:

– أفلاطون كاراتايف؟

وأخذ يفكّر، باذلاً بكل صدق جهداً ظاهراً ليتصوّر الرأي الذي كان سيبديه كاراتايف في هذا الموضوع:

– ما كان سيفهم، مع أنه ربما فهم.

قالت ناتاشا بغتة:

– رهيبٌ مدى حبي لك! رهيب! رهيب!

قال بطرس بعد أن فكر:

– لا، لن يوافق. أما ما كان سيوافق عليه فهو حياتنا العائلية. كان يريد أن يرى الانسجام والسعادة والسلام، في كل مكان، وكنتُ سأكون فخوراً لو رآنا. انظري، أنتِ تتحدثين عن الفراق. ليتك تعلمين العاطفة الخاصة التي تعتلج في نفسي لك بعد الفراق....

بدأت ناتاشا ردها

– كفى...

– لا، ليس الأمر كما تصورت. إني دائم الحب لك، ولا يمكن لإنسان أن يحبّ فوق هذا الحب؛ لكن هذا شيء آخر... وإنما....

ولم يُنه كلامه لأن نظريتهما تلاقتا وقالتا ما لم يقولاه.

قالت ناتاشا فجأة:

– حماقاتٌ ما يُقال عن شهر العسل، وعن أن السعادة الحقيقية هي الأوقات الأولى. على العكس، نحن أسعد حالاً الآن. ليتك تكفّ عن السفر فقط. أتذكرُ كم كنا نتخاصم. وكانت الغلطة دائماً غلطتي، دائماً غلطتي. ولماذا كنا نتخاصم، لست أذكر شيئاً من ذلك.

قال بطرس وهو يبتسم:

– للسبب نفسه، الغيرة...

فهتفت ناتاشا:

– لا تقلْها، إني أمقت ذلك.

واتّقد في عينيها بريقٌ باردٌ، فظ. وأضافت بعد صمت:

– أرأيتَها؟

– لا، وحتى لو رأيتها فلن أعرفها.

وصَمَتا.

واستأنفت ناتاشا كلامها وكأنها تحاول أن تطرد الغمامة التي تهددهما:

– آه! أتعلم؟ كنت أنظر إليك وأنت تتكلم في المكتب. الحقيقة أنك تشبه الصغير (هكذا كانت تدعو ابنها) كما تتشابه قطرتا الماء. آه! حان الوقت للقائه... حان الموعد... إنما يشقّ علي أن أنصرف.

لبثا بضع ثوان صامتين. وفجأة التفت كلاهما إلى الآخر، في الوقت نفسه، وأخذا يتكلمان. بطرس، بلطف وحرارة؛ وناتاشا، بابتسامة رقيقة سعيدة. وإذ اصطدما توقفا كلاهما، وحاول كل منهما أن يترك الكلام للآخر.

– لا، أنت، ماذا أردت أن تقولي؟ تكلّمي، تكلّمي.

قالت ناتاشا:

– لا، الكلام لك أنت، أما أنا فليس عندي شيء ذو بال، ليس عندي سوى الحماقات.

أتمّ بطرس الكلام الذي بدأه فتطرق إلى بقية الاعتبارات التي تدل على رضاه عمّا لقيه من نجاح في بطرسبرج. كان يُخيّل إليه في هذه اللحظة أنه مدعو لتوجيه المجتمع الروسي كله والعالم بأسره وجهةً جديدة.

– كنتُ أريد أن أقول فقط أن جميع الأفكار التي تحدث نتائج عظيمة هي دائماً بسيطةٌ. وفكرتي كلها تنحصر في أن الأشرار متحدون فيما بينهم. وهم يمثلون قوة، وليس على الشرفاء إلا أن يصنعوا صنيعهم. الأمر في الحقيقة شديد البساطة.

– نعم.

– وأنتِ ماذا أردتِ أن تقولي؟

– لا شيء، حماقات.

– أردتِ مع ذلك، أن تقولي شيئاً ما.

قالت ناتاشا وقد أشرق وجهها بابتسامة أكثر افتراراً:

– قلتُ لك لا شيء، تفاهات، أحببتُ فقط أن أتحدث عن بيتيا، فقد اقتربتْ المربيةُ اليوم لتأخذه مني، لكنه ضحك، وأغمض عينيه، وشدّ نفسه إليّ ظناً منه أنه اختبأ. إنه في غاية اللطف. ها هو يصرخ. طيب! إلى اللقاء.

وخرجت من الغرفة.

في الوقت نفسه. كان السراج الليلي مضيئاً كعادته في غرفة الفتى نيقولا بولكونسكي، في الطابق السفلي (كان الفتى يخاف الظلمة و لم يفلح أحد في إصلاح عيبه هذا). وكان ديسال ينام مستنداً إلى وسائد أربع، وأنفه الأشمّ يشخر شخيراً منتظماً. وكان الفتى نيقولا الذي استيقظ قبل حين مبلّلاً بالعرق البارد، جالساً في سريره، شاخص العينين، ناظراً أمامه. لقد أيقظه كابوس. رأى في الحلم عمّه بطرس ورأى نفسه يعتمران بخوذتين كما في طبعة بلوتارك عنده. وكانا يسيران على رأس جيش عظيم يتألف من خطوط بيض، منحرفة تملأ الهواء على نمط بيوت العنكبوت التي تتطاير في الخريف والتي يسميها ديسال خيوط العذراء. وأمامهما المجدُ، وكان مصنوعاً من الخيوط نفسها، وإن كانت أثخن وكانا، العم بطرس وهو نفسه، يندفعان كلاهما خفيفين، فرحين ويزدادان قرباً من الهدف. وإذا بالخيوط التي كانت تجرهما، تأخذ في الارتخاء والتداخل؛ ويغدو الأمر شاقاً، وإذا بزوج عمته نيقولا ايليتش يقف أمامهما وقفةً متوعدة وقاسية، فيقول وهو يشير إلى الشمع والأقلام المتكسّرة.

– أنتما فعلتما هذا؟ كنتُ أحبكما، لكن آراكتشيف قد أمرني بذلك، وسأقتل أول من يتقدم خطوة واحدة. فالتفت نيقولا الفتى نحو بطرس؛ لكن بطرس لم يكن هناك، كان بطرس قد غدا أباه، الأميرَ آندريه. و لم يكن لأبيه حواشٍ ولا شكل، لكنه كان موجوداً. وعندما رآه الفتى نيقولا شعر أن قواه خارت من الحب: شعر أنه بغير قوة. بغير

هيكل عظمي، وأنه مانع. كان أبوه يداعبه ويرأف به. لكن زوج عمته نيقولا ايليتش كان يتقدم شيئاً فشيئاً نحوهما. فخنق الرعبُ الفتى نيقولا واستيقظ من نومه.

وكان يفكّر: إن أبي، (بالرغم من وجود صورتين في البيت شديدتي الشبه بالأمير آندريه. إلا أن الفتى نيقولا لم يتصوره في شكل بشري) إن أبي كان معي وداعبني. وقد وافقني، ووافق العم بطرس. ومهما يقل فإني سأفعله. لقد أحرق موميوس سكيفولا يده، فلمّ لا يقع الشيء نفسه في حياتي؟ أعلم أنهم يريدون أن أتعلم. وسوف أتعلم. لكني سأنتهي من الدراسة. ذات يوم؛ وسأفعل ذلك الشيء، لست أسأل الله إلا شيئاً واحداً أنْ يقع لي ما وقع لرجال بلوتارك، وسأفعل مثلهم، سأفعل خيراً منهم. وسيعلم الناس جميعاً بذلك، وسيجني الناس جميعاً، وسيُعجب بي الناسُ جميعاً». وفجأة، شعر نيقولا بالنحيب يعتصر صدره فبكى.

سأله صوت ديسال:

- أأنت منحرف الصحة؟

أجاب نيقولا:

- لا.

واضطجع على وسادته.

وقال في نفسه وهو يفكر في ديسال: «إنه طيّب ولطيف، وأنا أحبه. والعم بطرس! أوه! يا له من رجل رائع! وأبي! أبي! أبي! سأفعل أشياء كان سيمتلئ «هو» سروراً بها.».

***

الجزء الثاني

الفصل الأول

إن موضوع التاريخ هو حياة الشعوب والإنسانية. ويبدو أن من المستحيل الإدراك المباشر لا لحياة الإنسانية فحسب بل لحياة شعب واحد، والإحاطة بهذه الحياة عن طريق الكلمات، ووصفها.

كان المؤرخون فيما مضى يستخدمون في الغالب طريقة شديدة البساطة ليصفوا وليدركوا ما يبدو عصياً على الإدراك، أي حياة الشعب. كانوا يصفون نشاط الأفراد الذين يقودون الشعب؛ وهذا النشاط كان يعبر عندهم عن نشاط الشعب بأسره.

وعن هذين السؤالين: كيف يفعل الأفراد ليحركوا الشعوب وفقاً لمشيئتهم، وما الذي كان يوجه مشيئة هؤلاء الرجال أنفسهم، كان المؤرخون يجيبون عن الأول بأن يعزوا إلى مشيئة الألوهية خضوع الشعوب لمشيئة مختار واحد، وعن الثاني بأن يفترضوا أن هذه الألوهية نفسها كانت توجه المختار نحو الهدف المقرّر.

وهكذا حُلّت هاتان المسألتان بالإيمان بتدخل الألوهية المباشر في شؤون الإنسانية.

وينبذ علم التاريخ الحديثُ، في نظريته، هاتين الفرضيتين.

وقد يبدو إن العلم الحديث حين ينبذ إيمان القدماء بخضوع البشر

للألوهية ولهدف محدّد تُقاد الشعوب إليه، فسوف يعمد إلى دراسة الأسباب التي تشكل السلطة لا مظاهر هذه السلطة. لكنه لم يفعل شيئاً من ذلك. لقد نبذ في النظرية مفاهيم مؤرخي الماضي، وسار عليها في التطبيق.

إن التاريخ الحديث استبدل من الرجال الرجال الذين أُعطوا سلطاناً إلهياً وقادتهم مباشرة مشيئةُ الألوهية، إما أبطالاً مُنحوا خصالاً فذّةً، تفوق ما ألفه البشر، وإما مجرد رجال لهم ميزات شتى، من الملوك إلى الصحفيين، ممّن يقودون الجماهير. وبدلاً من الأهداف القديمة التي كانت ترضي الألوهية وتُفرضُ على الشعوب، كالشعب اليوناني والشعب الروماني، وهي أهداف كان القدماء يعتقدون أنها أهداف حركة الإنسانية، أحلَّ التاريخُ الحديثُ أهدافه الخاصة، وهي خير الشعوب الفرنسية والألمانية والإنكليزية، وخيرٌ آخر يبلغ ذروة التجريد، هو خير الحضارة والإنسانية بأسرها، وهي إنسانية يُفهم منها على العموم الشعوب التي تشغل هذا الركن الصغير الشمالي الشرقي من الكرة الأرضية.

لقد طرح التاريخُ الحديث العقائد القديمة دون أن يُحلّ محلّها مفهوماً جديداً، وأجبر المنطقُ المناسب للمقام المؤرخين الذين زعموا أنهم يرفضون سلطانَ الملوك الإلهي وقدرَ القدماء، على أن يعودوا إلى النقطة نفسها بطريق أخرى: أي إلى التسليم ١) بأن الشعوب يقودها الأفراد ٢) بأن ثمة هدفاً محدداً تسير الشعوب والإنسانية نحوه.

وكل مؤلفات أحدث المؤرخين من جيبون[1] إلى بوكل[2] تستند

١- جيبون: ادوار جيبون (١٧٣٧-١٧٩٤) مؤرخ انكليزي، مؤلف تاريخ انحطاط الإمبراطورية الرومانية وسقوطها.

٢- بوكل: هنري توماس بوكل (١٨٢١-١٨٦٢) مؤرخ انكليزي، مؤلف تاريخ الحضارة في انكلترا.

إلى هاتين المسلمتين المحتومتين، بالرغم من تباينها الظاهر ومن الجدة الظاهرة في مفاهيمها.

فالمؤرخ، أولاً، يصف نشاط الأفراد الذين يقودون الإنسانية في رأيه: فهذا المؤرخ لا يعتدّ بغير الملوك والقادة العظام والوزراء، وذاك يُدخل في عداد هؤلاء الأفراد، فضلاً عن الملوك، الخطباءَ والعلماء والمصلحين والفلاسفة والشعراء. وثانياً، إن الهدف الذي تُقاد الإنسانية نحوه هدف يعرفه المؤرخ: فهو بالنسبة إلى هذا المؤرخ، عظمة الدولة الرومانية أو الإسبانية أو الفرنسية؛ وهو بالنسبة إلى ذاك، الحرية والمساواة والحضارة من نمط معين في ذلك الركن الصغير من الكون المسمّى أوروبا.

في سنة ١٧٨٩، يحدث غليان في باريس، ثم يعظم ويمتدّ ويتمخض عن حركة شعوب الغرب إلى الشرق. وتتجه هذه الحركة عدة مرات نحو الشرق، وتصطدم بحركة معاكسة من الشرق إلى الغرب؛ وفي ١٨١٢، تبلغ حدها الأقصى، موسكو، وتتم، بضرب من التناظر الجدير بالملاحظة، حركةٌ معاكسة من الشرق إلى الغرب، تجر وراءها كالحركة الأولى، شعوب وسط أوروبا. وتبلغ الحركة المعاكسة نقطة انطلاق الحركة الأولى، باريس، وتقف.

أثناء فترة العشرين عاماً هذه، ظلت مساحات شاسعة من الحقول بوراً؛ وأحرقت البيوت؛ وغيّرت التجارة وجهتها؛ وافتقر وأثرى وانتقل ملايين الناس، واقتتل فيما بينهم ملايين المسيحيين الذين ينادون بمحبة القريب.

ما معنى ذلك كله؟ وما أصله؟ ما الذي كان يحث هؤلاء الناس على إحراق البيوت وقتل أمثالهم من البشر؟ وما أسباب هذه الأحداث؟ وأية قوة دفعت الناس إلى أن يتصرفوا على هذا النحو؟ هذه هي الأسئلة

التلقائية، الساذجة والمشروعة إلى أبعد الحدود، التي يثيرها المرء عندما يجد نفسه أمام آثار الحقبة المنصرمة لهذه الحركة، وتقاليدها.

ومن أجل حل هذه المسألة، فنحن نتجه إلى علم التاريخ الذي يهدف إلى أن يعلّم الشعوب والإنسانية أن تعرف ذاتها بذاتها.

ولو أن التاريخ احتفظ بمفاهيم الماضي لقال: إن الألوهية، من أجل أن تكافئ أو تعاقب شعبها، قد منحت نابليون السلطة وقادت مشيئته لإنجاز غاياتها الإلهية. ولسوف يكون هذا الجواب تاماً وواضحاً. يمكننا أن نؤمن أو لا نؤمن برسالة نابليون الإلهية. لكن تاريخ هذه الحقبة بأسره يغدو، بالنسبة إلى من يؤمن بهذه الرسالة، مفهوماً لا يتطرق إليه التناقض.

لكن علم التاريخ الحديثَ لا يمكنه أن يجيب على هذا النحو. فالعلم لا يقبل مفهوم القدماء فيما يتصل بتدخل الألوهية المباشر في شؤون الإنسانية، وعليه، من ثمّ، أن يعطي أجوبةً جديدة.

يقول علمُ التاريخ الحديثُ حين يجيب عن هذه الأسئلة: أتريدون أن تعرفوا ما معنى هذه الحركة، وما أصلها، وما القوة التي ولّدت هذه الأحداث؟ اصغوا:

«كان لويس الرابع عشر رجلاً شديد التكبر والغرور؛ اتخذ من العشيقات هذه وتلك ومن الوزراء هذا وذاك، وكان يحكم فرنسا حكماً سيئاً. وكذلك كان خلفاؤه من بعده رجالاً ضعفاء وحكموا فرنسا حكماً سيئاً أيضاً. وكان لهم هؤلاء وأولئك من المقربين والعشيقات. ومن جهة أخرى، كتب بعضُ الناس في هذه الفترة كتباً. وفي أواخر القرن الثامن عشر، اجتمع نحو عشرين رجلاً في باريس، وجعلوا يقولون إن جميع الناس متساوون وأحرار. وعلى أثر ذلك،

أخذ الناس في جميع أرجاء فرنسا يقتتلون ويُغرق بعضهم بعضاً. وقتل هؤلاء الناسُ الملكَ وكثيرين غيره. وفي هذا الوقت، كان في فرنسا رجل عبقري هو نابليون. وكان ينتصر على جميع الناس أينما ذهب، أي إنه كان يقتل كثيراً من الناس لأنه كان عبقرياً عظيماً. وقد ذهب لقتل الإفريقيين، لسبب لا نعلمه، فأكثر فيهم القتل، وكان شديد الدهاء وعظيم الذكاء حتى أنه أمر جميع الناس، بعد عودته إلى فرنسا، أن يطيعوه. وأطاعه الجميع. فلما صار امبراطوراً ذهب ليقتل الناس مرة أخرى في ايطاليا والنمسا وبروسيا. وهناك أيضاً قتل الكثيرين. وكان في روسيا الإمبراطور الكسندر الذي قرّر أن يعيد النظام إلى أوروبا، وكان، من ثمّ، في حرب مع نابليون. لكنه غدا بغتةً، في ١٨٠٧، صديقاً له. ثم اختلفا، في ١٨١١، مرة أخرى، وقتلا كثيراً من الناس مرةً أخرى. وجاء نابليون بستمئة ألف رجل إلى روسيا، واحتل موسكو؛ ثم هرب فجأة من موسكو، عند ذاك عمد الإمبراطور الكسندر، مستعيناً بنصائح ستين وغيره، إلى توحيد أوروبا ضد الذي كان يعكّر هدوءها. وانقلب حلفاء نابليون بغتةً إلى أعداء له. وزحف هذا التحالف على نابليون الذي جمّع قوى جديدة. وانتصر الحلفاء على نابليون، ودخلوا باريس، وأجبروا نابليون على التنازل عن العرش وبعثوا به إلى جزيرة «ألب» دون أن يحرموه من لقب الإمبراطور، مبدين له جميع صنوف الاحترام، مع أن الناس جميعاً اعتبروه قبل خمس سنوات وبعد سنة، لصاً خارجاً على القانون. وصار لويس الثامن عشر ملكاً، وكان الفرنسيون والحلفاء يسخرون منه حتى هذه اللحظة. أما نابليون الذي ذرف الدموع أمام الحرس القديم، فقد تنازل عن العرش وسافر إلى المنفى ثم إن السياسيين والدبلوماسيين الماهرين (وبخاصة تاليران الذي تمكّن من أن يشغل مقعداً قبل غيره ووسّع بذلك حدود فرنسا) تباحثوا في فيينا وجعلوا الشعوب عن طريق هذه المباحثات سعيدة أو بائسة.

وفجأة أوشك الدبلوماسيون والملوك أن يختلفوا؛ واستعدوا لإصدار أوامرهم إلى جيوشهم مرة أخرى بالاقتتال؛ لكن نابليون وصل في هذه اللحظة إلى فرنسا ومعه كتيبة، فخضع له على الفور الفرنسيون الذين كانوا يكرهونه. بيد أن الملوك المتحالفين غضبوا وشنوا الحرب مرة أخرى على الفرنسيين. وقهروا العبقري نابليون، ونقلوه إلى جزيرة القديسة هيلانة، واعتبروه فجأة لصاً. وهناك مات المنفيّ، على صخرة، موتاً بطيئاً، منفصلاً عن أحباء قلبه وعن وطنه الغالي فرنسا، وترك مآثره العظام للأجيال القادمة. حينذاك حدثت الردّة في أوروبا واضطهد جميعُ الملوك شعوبهم مرة أخرى».

من الخطأ أن نحمل هذا الكلام على محمل السخرية، وأن نعتبره صورة كاريكاتورية للروايات التاريخية. إنه، على العكس، ألطف تعبير عن هذه الأجوبة المتناقضة والتي لا تجيب عن الأسئلة التي يقدّمها لنا تاريخ هذه الحقبة بأسره، بدءاً من مؤلفي المذكرات وتواريخ دولة من الدول وحتى التواريخ العامة وتواريخ الحضارة، هذا النوع الجديد.

أما الغرابة والهزل في هذه الأجوبة فيأتيان من أن التاريخ الحديث شبيه بالأصم الذي يجيب عن أسئلة لم يلقها عليه أحد.

إذا كان هدفُ التاريخ وصفَ حركة الإنسانية والشعوب فإن السؤال الأول الذي إذا ظل بدون جواب جعل ما سواه غيرَ مفهوم، هو التالي: ما القوة التي تحرّك الشعوب؟ وجواباً عن هذا السؤال، يروي لنا التاريخ الحديث وهو بادي الهم إما أن نابليون كان عبقرية عظيمة وإما أن لويس الرابع عشر كان شديد التكبر، وإما أن هؤلاء أو أولئك، الكتاب قد كتبوا هذه الكتب أو تلك.

كل ذلك ممكن جداً والإنسانية مستعدة للموافقة عليه؛ لكن الذي

تطلبه غير هذا. كل ذلك يمكن أن يكون مهماً لو سلّمنا بأن سلطةً إلهية عليا، مساويةً لذاتها أبداً تحكم الشعوب على يد أمثال نابليون أو لويس أو الكتاب؛ لكننا لا نسلّم بهذه السلطة، ومن ثمّ، ينبغي أن نُظهر، قبل الكلام على نابليون ولويس والكتاب، الرابط بين هذه الشخصيات وحركة الشعوب.

وإذا حلّت قوة أخرى محل السلطة الإلهية، فيجب أن نشرح علام تقوم هذه القوة الجديدة، لأن أهمية التاريخ كلها تكمن في هذه القوة بالذات.

ويبدو التاريخ كأنه يؤكد أن هذه القوة مسلّم بها وأن الجميع يعرفونها. لكن، بالرغم من الرغبة الكاملة التي قد تحدونا إلى التسليم بأن هذه القوة معروفة، فإن من يقرأ عدداً كبيراً من المؤلفات التاريخية سيشك بالرغم منه في أن هذه القوة الجديدة، وهي قوة يفهمها المؤرخون أنفسهم فهماً مختلفاً، قد عرفها الجميع معرفة كاملة.

***

الفصل الثاني

ما القوة التي تحرّك الشعوب؟

إن مؤلفي التراجم ومؤلفي أمة من الأمم يَعنون بهذه القوة سلطة خاصة بالأبطال والقادة. فالأحداث، بحسب أوصافهم، إنما تُولد فقط بمشيئة أمثال نابليون والكسندر، أو على العموم بمشيئة الشخصيات التي يعالجها المؤرخ كاتب الترجمة. والأجوبة التي يعطيها هذا النوع من التواريخ عن السؤال حول القوة التي تولّد الأحداث أجوبة مُرْضيةٌ، لكنها مرضية فقط مادام هناك مؤرخٌ واحد لكل حدث. فما إن يبدأ المؤرخون المختلفو القوميات والآراء في وصف الحدث الواحد، حتى تفقد الأجوبةُ التي يعطونها كلَّ معنى لها، لأن كل واحد منهم لا يفهم هذه القوة فهماً مختلفاً فحسب، بل إنه يفهمها في الغالب على نحو مناقض كلياً للآخرين. فهذا مؤرخ يؤكد أن الحدث قد ولّدته سلطةُ الكسندر؛ ومؤرخ ثالث يؤكد أن شخصاً ثالثاً قد ولّد الحدث. وفضلاً عن ذلك، فالمؤرخون من هذا النوع يناقض كل منهم الآخر حتى في تفسيرهم للقوة التي تقوم عليها سلطةُ الشخص الواحد. فتيير[1] البونابرتي يقول إن سلطة نابليون قامت على فضيلته وعبقريته.

١- تيير: آدولف تيير (١٧٩٧-١٨٧٧)، رجل دولة ومؤرخ، مؤلف تاريخ الثورة الفرنسية وتاريخ القنصلية والإمبراطورية (١٨٤٥-١٨٦٢).

ولانفري[1] الجمهوري يُرجعها إلى احتياله وإلى غشه للشعب. حتى إن المؤرخين من هذا النوع يدمّر بعضهم مواقع بعض، ويدمرون بذلك مفهوم القوة المولّدة للأحداث ذاته ولا يعطون أي جواب عن قضية التاريخ الأساسية.

يبدو أن المؤرخين الذين يُعنون بالتاريخ العام، ويهتمون بكل الشعوب، إنما يسلّمون بخطأ نظرات المؤرخين الخاصين في القوة التي تولّد الأحداث. فهم لا يسلّمون بأن هذه القوة سلطة خاصة بالأبطال والقادة، لكنهم يعتبرونها محصلةً لقوى عديدة متّجهة اتجاهات شتى. وهم حين يصفون حرباً ما أو غزواً لشعب ما، يبحثون عن سببّ الحدث لا في سلطة شخص واحد بل في الفعل المتبادل بين شخصيات عديدة مرتبطة بالحدث.

وبما أن سلطة الشخصيات التاريخية، حسب هذا المفهوم، هي حاصل قوى عدة، فلا يمكن لها بعد الآن، كما يبدو، أن تُعتبر قوة مولّدة للأحداث تلقائياً. إلا أن مؤلفي التواريخ العامة لجؤوا مرة أخرى، في معظم الحالات، إلى مفهوم السلطة باعتبارها قوة تولّد الأحداثَ تلقائياً وتتصرّف حيالها على أنها السبب. فالشخصية التاريخية، حسب عرضهم، نتاج عصرها تارة وما سلطتها سوى نتاج قوى مختلفة؛ وسلطتها تارة أخرى هي القوة التي تولّد الأحداث. فجيرفينوس[2]

١- لانفري: بيير لانفري (١٨٢٨-١٨٧٧). نشر بين (١٨٦٧-١٨٧٤) تاريخ نابليون الأول حاول فيه أن يدمر الأسطورة النابوليونية.

٢- جيرفينوس: جورج جيرفينوس (١٨٠٥-١٨٧١)، أستاذ ألماني، مؤلف تاريخ أوروبا منذ معاهدات فيينا.

وشلوسر[1] مثلاً وغيرهما، يبرهنون حيناً على أن نابليون هو نتاج الثورة، وأفكار ١٧٨٩ الخ... ويؤكدون بصراحة حيناً آخر أن حملة ١٨١٢ وأحداثاً أخرى لا تعجبهم، ليست سوى نتيجة إرادة نابليون التي أسيءَ توجيهها، وأن أفكار ١٧٨٩ ذاتها قد أُوقفتْ أثناء نموها من جراء تعسّف نابليون. إن الأفكار الثورية، والحالة الفكرية العامة قد ولّدت سلطة نابليون. وسلطة نابليون قد خنقت الأفكار الثورية والحالة الفكرية العامة.

ليس هذا التناقضُ الغريب نتيجة المصادفة. ونحن لا نلقاه لدى كل خطوة فحسب، بل إن جميع أوصاف مؤلفي التواريخ العامة مكوّنة من تتالي تناقضات من هذا النوع. وهذا التناقض ناجم عن أن هؤلاء المؤلفين، ما إن يسيروا في ميدان التحليل حتى يقفوا في منتصف الطريق. ولكي تعطي القوى المركّبَة مركّباً ما أو محصّلة ما، فلابد أن يكون مجموع المركّبات مساوياً للمركّب. وهذا الشرط بالذات هو الذي لم يُراعه مؤلفو التواريخ العامة، ومن ثمّ فلكي يفسّروا القوة الحاصلة، ينبغي أن لهم بالضرورة أن يسلموا بوجود قوة لا تفسير لها، تفعل فعلها تبعاً للمركّب، إلى جانب المركّبات غير الكافية.

أما مؤلف التواريخ الخاصة، سواء أوصف حملة ١٨١٣ أم عودة آل بوربون إلى الملك، فهو يعلن جهاراً أن هذه الأحداث مردّها إلى مشيئة الكسندر. لكن المؤرخ جيرفينوس، وهو مؤلف تاريخ عام، دحض هذه الفرضية وحاول أن يبرهن على أن حملة ١٨١٣ وعودة آل بوربون يعود سببهما إلى تأثير ستين وماترنيخ والسيدة دي ستال وتاليران وفخته وشاتوبريان وغيرهم، فضلاً عن مشيئة الكسندر ومن

١- شلوسر: فريدريك كريستيان شلوسر (١٧٧٦-١٨٦١) أستاذ التاريخ في هيدلبرج، مؤلف التاريخ العام في ١٩ مجلداً (١٨٤٣-١٨٥٧).

الجلي أن هذا المؤرخ قد جزّأ سلطة الكسندر إلى عناصرها: تاليران، شاتوبريان، الخ... ومن الجلي أيضاً أن مجموع المركّبات، أي تأثير شاتوبريان وتاليران والسيدة دي ستال وغيرهم، لا يُساوي المحصّلة أي هذه الظاهرة: وهي أن ملايين الفرنسيين قد رضخوا لآل بوربون. وهكذا، فلكي يفسّر المؤرخ كيف نجَمَ عن هذه المركّبات خضوعُ ملايين الناس، أي كيف أنتجت المركّبات المساوية «أ» محصلةً تساوي ألف «أ»، نراه مضطراً إلى القبول مرة أخرى بقوة السلطة التي ينكرها، معترفاً بها على أنها محصّلة القوى، أي إن عليه أن يقبل بقوة لا تفسير لها تفعل فعلها بحسب المركّب. وهذا بالذات ما يفعله مؤلفو التواريخ العامة. وهم، من جرّاء ذلك، في تناقض لا مع مؤلفي التواريخ الخاصة فحسب، بل ومع أنفسهم أيضاً.

إن الريفيين الذين لا يملكون فكرة دقيقة عن أسباب المطر يقولون، حسبما يتمنون المطر أو الصحو: إن الريح طردت السحب، أو إن الريح جاءت بالسحب. والأمر كذلك تماماً بالنسبة إلى مؤلفي التواريخ العامة؛ فهم يقولون أحياناً، إذا شاؤوا وانسجم ذلك مع نظرياتهم، إن السلطة نتيجة الأحداث؛ ويقولون أحياناً أخرى، إذا احتاجوا إلى البرهنة على شيء آخر، إن السلطة تولّد الأحداث.

وهناك طائفة ثالثة من المؤرخين الذين يُدعون مؤرخي الحضارة، قد احتذوا حذو مؤلفي التواريخ العامة الذين ينظرون أحياناً إلى الكتّاب والنساء باعتبارهم قوى، ففهموا هذه القوة على نحو آخر أيضاً. إنهم يرونها فيما يُسمّى الحضارة، في الفعالية الفكرية.

إن مؤرخي الحضارة متفقون كلياً مع أئمتهم من مؤلفي التواريخ العامة، لأنه إذا أمكن تفسير الأحداث التاريخية يكون بعض الشخصيات قد أقامت هذه العلاقات أو تلك فيما بينها، فلماذا لا

تُفسّر بكون أولئك الأشخاص قد كتبوا تلك الكتب؟ هؤلاء المؤرخون يختارون، من مجموع الدلائل التي لا نهاية لها والمرافقة لكل ظاهرة حية، دليل الفعالية الفكرية ويقولون: إن هذا هو السبب. لكن بالرغم من جميع جهودهم ليظهروا أن سبب الحدث يكمن في الفعالية الفكرية، فلابد من كثير من التساهل لكي نسلّم بأن ثمة شيئاً مشتركاً بين الفعالية الفكرية وحركة الشعوب، لكننا لانستطيع أن نسلّم، في أي حال من الأحوال، بأن الفعالية الفكرية كانت تقود أفعال البشر، لأن ظاهرات من مثل المذابح البشرية الوحشية في الثورة الفرنسية نابعةً من الدعوة إلى المساواة بين البشر، وأفظع الحروب وأنواع الإعدام نابعةً من الدعوة إلى المحبة، إن ظاهرات كهذه تناقض تلك الفرضية.

لكن حتى لو سلّمنا بحقيقة هذه المحاكمات المموّهة التي تمتلئ بها تلك التواريخ؛ لو سلمنا بأن الشعوب تحكمها تلك القوة التي لا سبيل إلى تحديدها والتي تُسمّى «الفكرة»، فإن قضية التاريخ الأساسية تظل بدون جواب، أو إن قوة جديدة هي قوة الفكر، قوة تحتاج علاقتها بالجماهير إلى شرح، تأتي لتنضاف إلى ما سُلّم به قديماً من سلطة الملوك، ومن تأثير المستشارين والشخصيات الأخرى التي أدخلها مؤلفو التواريخ العامة. يمكننا أن نفهم أن ذلك الحدث أمكن أن يتم، حين كانت السلطة بين يدي نابليون؛ ويمكننا أن نفهم أيضاً، بشيء من التساهل، أن نابليون مع مؤثرات أخرى، كان سبباً للحدث؛ أما أن يكون «العقد الاجتماعي» قد دفع الفرنسيين إلى أن يُغرق بعضهم بعضاً، فذلك ما لا يمكن فهمه دون تفسير العلاقة السببية بين هذه القوة الجديدة والحدث.

لاشك أن هناك رابطاً بين كل ما يحيا في زمن واحد، ومن ثمّ فمن الممكن أن نجد رابطاً ما بين فعالية البشر الفكرية وحركتهم التاريخية، كما أننا يمكن أن نجد مثل هذا الرابط بين حركة الإنسانية والتجارة، أو

المهن، أو البستنة، أو ما شئنا من غير ذلك. أما لماذا تبدو فعالية البشر الفكرية لمؤرخي الحضارة كأنها سبب مجموع الحركة التاريخية أو كأنها التعبير عن هذه الحركة، فمن الصعب فهمه. ومثل مفهوم المؤرخين هذا لا يمكن أن يُفسّر، في الأكثر، إلا على النحو التالي: ١) إن التاريخ يكتبه العلماء، ولذلك فمن الطبيعي ومن السائغ أن يعتقدوا أن فعالية طائفتهم أساس حركة الإنسانية، كما أن من الطبيعي والسائغ لدى الفلاحين والجنود أن يعتقدوا ذلك أيضاً (وإذا كانوا لا يعبّرون عن ذلك فلأن التجار والجنود لا يكتبون التاريخ)، و٢) إن الفعالية الفكرية والتعليم والحضارة والثقافة والفكرة، هذه كلها مفاهيم غامضة، غير محدّدة، وتحت لوائها يسهلُ استخدام ألفاظ أقل دقة في معناها، ألفاظ من اليسير التوفيق بينها وبين أية نظرية.

لكن إذا تركنا جانباً القيمة الجوهرية لهذا النوع من التاريخ (فلعله مع ذلك مفيد لبعض الناس أو مفيد لشيء ما)، وجدنا أن تواريخ الحضارة التي أخذت ترتد إليها شيئاً فشيئاً التواريخ العامة، تتّسم بالسمة البارزة التالية: وهي أنها حين تدرس دراسة جدية ومفصّلة المذاهبَ الدينية والفلسفية السياسية باعتبارها أسباباً للأحداث، فهي تعتمد، منذ اللحظة التي تأخذ على نفسها فيها أن تصف حدثاً تاريخياً حقيقياً، كحملة ١٨١٢ مثلاً، تعمد بالرغم منها إلى وصف هذا الحدث باعتباره ناتجاً عن السلطة، قائلة بصراحة إن هذه الحملة هي نتاج مشيئة نابليون. ومؤرخو الحضارة، حين يقولون مثل هذا الكلام، يناقضون أنفسهم بالرغم منهم، ويبرهنون على أن هذه القوة الجديدة التي ابتكروها لا تعبّر عن الأحداث التاريخية وأن الوسيلة الوحيدة لفهم التاريخ هي في إدخال هذه السلطة التي لا يقبلون بها في ظاهر الأمر.

***

الفصل الثالث

تسير القاطرة. والمطلوب أن نعلم لماذا تسير. يقول الفلاح: إن الشيطان هو الذي يُسيّرها. ويقول آخر إن القاطرة تسير لأن عجلاتها تدور. ويؤكد ثالث أن سبب الحركة هو في الدخان الذي تحمله الريح.

لسنا نستطيع أن نُخطّئَ الفلاح: لقد عثر على تفسير كامل. ولكي نُخطّئه يجب أن نبرهن له على أن الشيطان غير موجود أو أن يشرح له فلاح آخر أن الذي يُسير القاطرة ليس الشيطان بل الألماني. حينذاك يُظهر لهما التناقض وحده أنهما على خطأ كلاهما. لكن الذي يقول إن السبب هو حركة العجلات يُخطّئ نفسه بنفسه، لأنه إذا كان قد اعتمد التحليل فينبغي أن يمضي إلى أبعد من ذلك، ينبغي أن يشرح سبب حركة العجلات. ومادام لم يصل إلى السبب الأخير لحركة القاطرة، وهو ضغط البخار في المرجل، فلا يحق له أن يتوقّف عن تحرّي السبب. أما ذاك الذي فسّر حركة القاطرة بالدخان الذي تسوقه الريح، فمن الجلي أنه توصل إلى هذه النتيجة بالطريقة التالية: حين تبيّن أن تفسير الحركة بالعجلات لا يعطي السبب، تعلّق بأول دليل رآه وجعله سبباً.

إن المفهوم الوحيد القادر على تفسير حركة القاطرة هو مفهوم قوة مساوية للحركة المرئية.

والمفهوم الوحيد الذي يسمح بتفسير حركة الشعوب هو مفهوم قوة مساوية لمجموع هذه الحركة.

على أن مختلف المؤرخين يفهمون من هذا المفهوم قوى مختلفة كل الاختلاف وليست مساوية في شيء للحركة المرئية. فبعضهم يرى فيه قوة ملازمة للأبطال، كما يرى الفلاح الشيطان في القاطرة؛ ويرى فيه آخرون قوة ناشئة عن بعض القوى الأخرى، مثل حركة العجلات؛ ويرى فيها غيرهم أيضاً تأثيراً فكرياً، كالدخان الذي تحمله الريح.

ومادام التاريخ الذي يُكتب هو تاريخ الأفراد، سواء أكان تاريخ قيصر والكسندر أم لوثر وفولتير، لا تاريخ «الكل» بدون استثناء، كل الناس الذين يشاركون في حدث من الأحداث، فسيكون من المستحيل ألاّ تُعزى إلى بعض الأفراد القوة التي تجبر الآخرين على أن يوجّهوا نشاطهم نحو هدف واحد. فالمفهوم الوحيد من هذا النوع، المفهوم الوحيد الذي يعرفه المؤرخون هو السلطة.

إن هذا المفهوم هو المقبض الوحيد الذي يتيح للمؤرخ أن يتحكم بالمادة التاريخية في حالتها الراهنة، ومن يحطّم هذا المقبض، كما فعل بوكل، دون أن يعثر على طريقة أخرى، سيحرم نفسه فقط من آخر إمكانية لمعالجة مادة التاريخ. إن اللجوء الحتمي إلى مفهوم السلطة عندما يعمد المؤرخ إلى تفسير الظواهر التاريخية، قد دلّل عليه أحسن تدليل مؤلفو التواريخ العامة أنفسهم ومؤرخو الحضارة الذين يتظاهرون بنبذ مفهوم السلطة، وهو يستخدمونه استخداماً لا مفرّ منه لدى كل خطوة.

إن العلم التاريخي، فيما يتصل بالمسائل التي تمسّ الإنسانية، ما يزال حتى الآن شبهاً بالنقد المتداول، سواء أكان أوراقاً نقدية أم نقوداً

معدنية. إن التراجم وتواريخ أمة من الأمم تشبه الأوراق النقدية. ويمكنها أن تدخل التداول والتبادل وأن تقوم بوظيفتها دون الإضرار بأحد، بل بكثير من الفائدة طالماً لم تُثَرْ مسألة الضمانة التي ترتكز عليها. ويكفي أن نتجاوز المسألة التالية وهي: كيف يمكن لمشيئة البطل أن تحرّك الأحداث، حتى يغدو التاريخ الذي كتبه «تيير» شائقاً، مفيداً، ومصطبغاً فوق ذلك بصبغة شعرية. لكنْ كما أن الشك في القيمة الحقيقية للأوراق النقدية يُولد إما من تكاثرها العائد إلى سهولة إنتاجها، وإما لأننا نريد تحويلها إلى ذهب، كذلك يراودنا الشكُ في المعنى الحقيقي للتواريخ التي من هذا النوع إما لأنها تتكاثر تكاثراً مفرطاً، وإما لأن أحدهم سأل بكل بساطة: ما القوة التي أتاحت لنابليون أن يفعل ذلك كله؟ أي عندما نرغب في تحويل الورقة النقدية المتبادلة إلى الذهب الخالص للمفهوم الحقيقي.

إن مؤلفي التواريخ العامة ومؤرخي الحضارة يشبهون أناساً رأوا ما في الأوراق النقدية من سيئات، فعزموا على أن يصكوا محلها نقداً معدنياً بمعدن ليس له كثافة الذهب. وسيكون هذا النقد رناناً بالفعل، لكنه سيكون رناناً فقط. لأن الورقة النقدية يمكنها أيضاً أن تخدع الجاهلين؛ أما النقد الرنان الذي لا قيمة له فلا يمكن أن يخدع أحداً. وكما أن الذهب لا يُعدّ ذهباً إلا إذا أمكن استخدامه لا للتبادل فقط بل ولذاته أيضاً، كذلك مؤلفو التواريخ العامة لن يُعدّوا ذهباً إلا إذا أصبح في مقدورهم الإجابة عن السؤال الجوهري للتاريخ: ما السلطة؟ إن مؤلفي التواريخ العامة يجيبون عن هذا السؤال أجوبة متناقضة، في حين أن مؤلفي الحضارة يستبعدونه بكل سذاجة، ويجيبون عن شيء آخر مختلف كل الاختلاف. وكما أن القطع المعدنية المشابهة للذهب لا يمكن استخدامها إلا بين الذين يعتبرونها ذهباً، والذين يجهلون خصائص الذهب، فكذلك يقوم مؤلفو التواريخ العامة ومؤرخو الحضارة، لمآرب

خاصة، حين لا يجيبون عن الأسئلة الجوهرية للإنسانية، يقومون مقام النقد الدارج في الجامعات وبين جمهور القراء، هواة الكتب الجادة، كما يدعونهم.

***

الفصل الرابع

إن التاريخ، إذ يرفض مفهومَ الخضوع القديمَ الذي تفرضه الألوهية: خضوع إرادة الشعب لفرد مختار وخضوع هذه الإرادة للألوهية، لا يستطيع أن يخطو خطوةً واحدة دون أن يتعثر بالتناقضات ما لم يخترْ أحد أمرين: إما أن يعود إلى عقيدته القديمة بتدخل الألوهية المباشر في شؤون البشر، وإما أن يشرح بدقةٍ طبيعيةَ هذه القوة التي تولّد الأحداث التاريخية والتي تُسمى السلطة.

والعودة إلى العقيدة القديمة غير ممكن: لقد انهار الايمان؛ ولذلك لابدّ من شرح طبيعة السلطة.

لقد أصدر نابليون أمره بجمع جيش والسير إلى الحرب. ولقد ألفنا هذه الطريقةَ في النظر وتعودناها إلى حد بعيد حتى ليبدو لنا هذا السؤال: «لماذا يسير ستمئة ألف رجل إلى الحرب بناءً على كلمة من نابليون» منافياً للعقل. كانت السلطة بين يديه، وإذن فقد كانت أوامره نافذة.

وهذا الجواب مرض تماماً لو آمنا بأنه يستمد سلطته من الله. ولكن حين نأبى التسليم بذلك، فلابد من تحديد ماهية سلطة إنسان على الآخرين.

وهذه السلطة لا يمكن أن تكون السلطة المباشرة التي ترجع إلى

التفوق الجسدي لكائن قوي على كائن ضعيف، تفوق قائم على اللجوء إلى القوة الجسدية، أو التهديد باللجوء إليها، مثل سلطة هرقل؛ ولا يمكن أن تقوم أيضاً على تفوق القوة الروحية، كما يعتقد ذلك بسذاجة بعضُ المؤرخين الذين يقولون إن صانعي التاريخ أبطال، أي رجال أوتوا قوة نفسية خارقة للعادة وذكاء يُدعى العبقرية. هذه السلطة لا يمكن أن تقوم على تفوق القوة الروحية لأن التاريخ يظهر لنا، بصرف النظر عن الرجال الأبطال مثل نابليون الذين تتضارب الآراء حول صفاتهم، أن أمثال لويس الخامس عشر ومترنيخ الذين كانوا يحكمون ملايين الناس، لم يكونوا يملكون أية قوة نفسية خاصة، بل إن معظمهم كان، على العكس أضعف روحياً من كل واحد من هذه الملايين التي كانوا يحكمونها.

وإذا لم يكن مصدر السلطة في القوة الجسدية أو في القوة الروحية لمن يستأثر بهذه السلطة، فمن الجلي أن ذلك المصدر ينبغي أن يوجد خارجاً عنه أي في الصلة القائمة بين الذي يستأثر بالسلطة والجماهير.

وهذا هو بالضبط فهم علم الحقوق للسلطة، وعلم الحقوق هو مكتب صَرْف التاريخ الذي يُعوَّل عليه لتحويل المفهوم التاريخي للسلطة إلى ذهب خالص.

إن السلطة هي مجموع إرادات الجماهير المنقولة، برضى مُعلن أو ضمني، إلى مُنتَخَبي هذه الجماهير.

وذلك كله واضح في ميدان علم الحقوق المبني على اعتبارات حول الطريقة التي يجب بها تنظيم الدولة والسلطة إن كان من الممكن تنظيمهما؛ لكن تعريف السلطة هذا يحتاج إلى إيضاح حين نطبقه على التاريخ.

إن علم الحقوق ينظر إلى الدولة والسلطة كما كان القدماء ينظرون إلى النار، أي كشيء موجود في ذاته. أما بالنسبة إلى التاريخ، فالدولة والسلطة ليستا سوى ظاهرتين. كما أن النار، بالنسبة إلى الفيزيائي في زمننا، ظاهرة وليست عنصراً.

هذا الفرق الأساسي في المفهوم بين التاريخ وعلم الحقوق هو الذي يبيح لعلم الحقوق أن يستفيض في الكلام على الطريقة التي ينبغي بها، في رأيه، أن تُنظّم السلطة، وفي الكلام على ماهية السلطة، باعتبارها موجوداً ثابتاً، قائماً خارج الزمان؛ لكن هذا العلم لا يستطيع أن يجيب عن أسئلة التاريخ حول طبيعة السلطة التي تتحوّل في الزمان.

إذا كانت السلطة هي مجموع الإرادات المنقولة إلى حاكم، فهل يُعتبر بوغاتشوف ممثلاً لإرادة الجماهير؟ وفي الحالة العكسية، لماذا كان نابليون كذلك؟ ولماذا كان نابليون الثالث الذي أُوقف في «بولوني» مجرماً» ثم أصبح الذين أوقفوه مجرمين؟

وفي ثورات البلاط التي يشارك فيها شخصان أو ثلاثة، هل تنتقل إرادة الجماهير إلى الشخص الجديد؟ وفي العلاقات الدولية، هل تنتقل إرادة الشعب إلى الغازي المحتل؟ وهل انتقلت إرادة عصبة الرين[1]، في ١٨٠٨، إلى نابليون؟ وهل انتقلت إرادة مجموع الشعب الروسي إلى نابليون في ١٨٠٩، عندما انضمت جيوشنا إلى الفرنسيين لنقاتل النمساويين؟

يمكن أن نجيب عن هذه الأسئلة بطرق ثلاثة: إما ١) أن نسلم بأن إرادة الجماهير تنتقل دائماً بلا قيد ولا شرط إلى الحاكم او إلى الحكام

١- «عصبة الرين»: هي اتحاد أسسه نابليون في ١٨٠٦، وكان يضم نحو ثلاثين مملكة ودوقية ألمانية، في حماية الإمبراطورية، وقد زالت العصبة من الوجود في ١٨١٣.

الذين اختارتهم هذه الجماهير، وأن نسلّم، من ثمّ، بأن ظهور أية سلطة جديدة، أو النضال ضد السلطة التي انتقلت إليها إرادةُ الجماهير، ينبغي أن يُعتبرا انتهاكاً للسلطة الحقيقية.

وإمّا ٢) أن نسلّم بأن إرادة الجماهير تنتقل إلى الحكام بشروط، معروفة ومحـدّدة، وأن ندلّل على أن تحديد السلطة وصراعاتها بل وانهيارها إنما ترجع إلى عدم مراعاة الحكام للشروط التي بموجبها انتقلت السلطة إليهم.

وإمّا ٣) أن نسلم بأن إرادة الجماهير تنتقل إلى الحكام بشروط، لكنها شروط غير معروفة ولا محددة، وبأن تشكيل سلطات أخرى وصراعها وسقوطها لا تأتي إلا من مراعاة الحكام أو عدم مراعاتهم للشروط التي بموجبها تنتقل إرادة الجماهير من شخصية إلى أخرى.

بهذه الطريقة الثلاثية إنما يفسّر المؤرخون علاقة الجماهير بالحكام. والمؤرخون الذين لم يفهموا، في سذاجتهم، مشكلة طبيعة السلطة. هؤلاء المؤلفون للتواريخ الخاصة وللتراجم، ممن أشرنا إليهم آنفاً، هم وحدهم الذين يُقرّون، فيما يبدو، بأن مجموع إرادات الجماهير تنتقل إلى الشخصيات التاريخية بلا قيد ولا شرط؛ ولذلك فعندما يصف هؤلاء المؤرخون سلطةً ما، نراهم يؤكدون أن هذه السلطة هي وحدها المطلقة والحقيقية، وأن أية سلطة أخرى تعارض هذه السلطة الحقيقية ليست سلطة، وإنما هي اعتداء على السلطة وانتهاك لها.

إن نظريتهم، وهي صحيحة بالنسبة إلى العهود البدائية والسلمية في التاريخ، لتكشف حين تُطبّق على العهود المعقّدة والعاصفة في حياة الشعوب، العهود التي تبرز فيها في آن معاً عدةُ سلطات تتصارع، لتكشف عن السيئة التالية وهي أن المؤرخ الملكي سيبرهن على أن

الجمعية التأسيسية وحكومة الإدارة وبونابرت لا يمثلون إلا انتهاكاً للسلطة، بينما يبرهن المؤرخ الجمهوري أو البونابرتي أن الجمعية التأسيسية أو الإمبراطورية هي السلطات الحقيقية وأن ما سواها انتهاك للسلطة. ومن الواضح أن تفسيرات هؤلاء المؤرخين للسلطة، حين يدحض بعضُها بعضاً على هذا النحو، لا يمكن أن تصلح إلا للأطفال الصغار.

وهناك طائفة أخرى من المؤرخين تعترف بخطأ هذا التصور للتاريخ وتذهب إلى أن السلطة مبنيةٌ على الانتقال المشروط لمجموع إرادات الجماهير إلى الحكام، وأن الشخصيات التاريخية لا تستأثر بالسلطة إلا بشرط أن تحقق البرنامج الذي فرضته إرادةُ الشعب برضى ضمني. أما ما قوام هذه الشروط، فلا يقول لنا المؤرخون شيئاً عنها، أو إن قالوا شيئاً فلكي يناقض أبداً بعضُهم بعضاً.

كل مؤرخ يرى هذه الشروط، بحسب تصوره لهدف حركة الشعب، يراها في العظمة، أو الثروة، أو الحرية، أو تعليم مواطني فرنسا أو أية دولة أخرى. لكن، لو أنَّا صرفنا النظر عن تناقض المؤرخين حول طبيعة هذه الشروط، ولو أنا قبلنا بوجود برنامج مشترك بين الجميع، لوجدنا أن الوقائع التاريخية تكاد تناقض النظرية دائماً. وإذا كانت شروط الانتقال تكمن في الثروة، أوالحرية، أو تعليم الشعب، فلماذا إذن ينهي لويس الرابع عشر وإيفان الرابع[1] ملكهما بسلام، بينما يُعدَم لويس السادس عشر وشارل الأول[2] على يدي شعبيهما؟ وعن هذا

١- ايفان الرابع: هو حنا الرابع (١٥٣٣-١٥٨٤) الملقب بالرهيب. قيصر روسيا، أوتوقراطي ذو طبع استبدادي.

٢- شارل الأول: ملك انكلترا، أعدم في ١٦٤٩.

السؤال يجيب المؤرخون قائلين: إن فعالية لويس الرابع عشر المناقضة للبرنامج، قد انعكست آثارها على لويس السادس عشر. لكن لماذا لم تنعكس آثارها على لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر، ولماذا انعكست على لويس السادس عشر بالذات؟ وما مدة هذا الانعكاس؟ ليس لهذه الأسئلة جواب ولا يمكن أن يكون لها جواب. وكذلك، فإن المؤرخين يعجزون، استناداً إلى هذا المفهوم، عن إيضاح السبب الذي من أجله تظل مجموع الإرادات قروناً عدة بين أيدي الحكام وخلفائهم، ثم إذا بها تنتقل على حين غرة، في مدى خمسين عاماً، إلى الجمعية التأسيسية، وحكومة الإدارة، ونابليون، والكسندر، ولويس الثامن عشر، ومرة أخرى إلى نابليون، وشارل العاشر، ولويس فيليب، والحكومة الجمهورية ونابليون الثالث. ولكي يشرح المؤرخون هذه النقلات السريعة للإرادات من شخصية إلى أخرى، ولاسيما في العلاقات الدولية، والفتوحات، والتحالفات، فعليهم أن يعترفوا مكرهين بأن شطراً عظيماً من هذه الظواهر لا يُعتبر نقلات نظامية للإرادات، لكنها مصادفات متوقّفة حيناً على الحيلة وحيناً آخر على الخطأ، أو الغدر، أو الضعف لدى الدبلوماسي، والملك أو زعيم الحزب. حتى أن معظم الظاهرات التاريخية، كالفتن الداخلية، والثورات، والغزوات لا تبدو لهؤلاء المؤرخين كأنها نتائج نقل الإرادة الحرة، ولكن كأنها نتاج إرادة فرد أو عدد من الأفراد أُسيء توجيهُها، أي كأنها، مرة أخرى، انتهاكٌ للسلطة. وبالتالي فإن الأحداث التاريخية إنما يعرضها مؤرخو هذه الطائفة وكأنها خَرْق للنظرية.

يذكّرنا هؤلاء المؤرخون بذلك العالم النباتي الذي لاحظ أن بعض النباتات تنبت من بذور ذات فلقتين، فأكد أن كل ما ينبت فهو لا ينبت إلا إذا خرج من فلقتين؛ وأن شجرة النخيل، والفطور، بل والسنديان، وهي تتفرّع أثناء نموها ولا تظهر بهيئة الفلقتين، إنما هي خرق للنظرية.

ويعلن مؤرخو الطائفة الثالثة أن إرادة الجماهير تنتقل إلى الشخصيات التاريخية، لكن هذه الشروط خافيةٌ علينا. ويقولون إن الشخصيات التاريخية لا تملك السلطة إلا لأنها تحقق إرادة الجماهير المنقولة إليها.

وفي هذه الحالة، إذا كانت القوة التي تحرك الشعوب تكمن في الشعوب نفسها لا في الشخصيات التاريخية، فما معنى هذه الشخصيات التاريخية؟

يقول هؤلاء المؤرخون: إن الشخصيات التاريخية تعبّر عن إرادة الجماهير؛ إنَّ فعالية الشخصيات التاريخية تصلح لتمثيل فعالية الجماهير.

لكن سؤالاً يواجهنا في هذه الحالة: أتصلح كل فعالية الشخصيات التاريخية للتعبير عن إرادة الجماهير، أو عن جانب من هذه الإرادة فقط. إذا كانت كل فعالية الشخصيات التاريخية تصلح للتعبير عن إرادة الجماهير، كما يعتقد بعضهم، فإن سيرة نابليون وسيرة كاترين بكل ما فيهما من تفاصيل عن هذر البلاط، تصلحان حينئذ للتعبير عن حياة الشعوب، وهذا مُحال واضح؛ أما إذا كان ما يعبّر عن حياة الشعوب جانبٌ واحد من فعالية الشخصية التاريخية، كما يعتقد بعض المؤرخين الذين يُزْعَم أنهم فلاسفة، فلكي نحدد حينئذ أي جانب من فعاليته يعبّر عن حياة الشعب، لابد لنا قبل كل شيء من أن نعرف: ما قِوامُ حياة الشعب.

إزاءَ هذه الصعوبة، يتصور مؤرخو هذه الفئة أشد المجردات إبهاماً وأبعدها عن المحسوس وأكثرها عموماً، ممّا يمكن لأكبر عدد من الأحداث أن يتوافق معه، ثم يقولون إن هدف حركة الإنسانية في هذا المجرّد. وأعظم المجردات شيوعاً، تلك التي يقبل بها جميع المؤرخين هي: الحرية، المساواة، التعليم، التقدم، الحضارة، الثقافة. وحين يُعين

المؤرخون واحداً من هذه المجردات هدفاً لحركة الإنسانية، فإنهم يدرسون الرجال الذين خلّفوا أكبر قدر من الآثار - وهم الملوك والوزراء والجنرالات والمؤلفون والمصلحون والبابوات والصحفيون -.بمقدار ما عملتْ، برأيهم، هذه الشخصيات من أجل ذلك المجرد أو ضده. ولكن بما أنه لا شيء يُثبت أن هدف الإنسانية هو الحرية أو المساواة أو التعليم أو الحضارة، وبما أن علاقة الجماهير بالحكومة وبمصلحي الإنسانية لا تستند إلا على هذه الفرضية الاغتباطية التي تذهب إلى أن مجموع إرادات الجماهير تنتقل دائماً إلى الشخصيات التي تبدو مرموقة، فإن فعالية ملايين الناس الذين يرتحلون، ويحرقون المنازل، ويهجرون عمل الأرض، ويبيد بعضُهم بعضاً، لا يجد تعبيراً عنه البتة في وصف فعالية نحو عشر شخصيات لا يحرقون المنازل، ولا يعملون في الأرض، ولا يقتلون أمثالهم.

والتاريخ يعطينا الدليل على ذلك، لدى كل خطوة. فهل يمكن تفسير غليان شعوب الغرب في أواخر القرن الماضي واندفاعهم إلى الشرق، بفعالية لويس الرابع عشر، ولويس الخامس عشر، ولويس السادس عشر، وعشيقاتهم، ووزرائهم، وبحياة نابليون، وروسو، وديدرو، وبومارشيه وغيرهم؟

وحركة الشعب الروسي نحو الشرق، نحو قازان وسيبيريا، هل تُعبّر عنها تفاصيلُ طباع ايفان الرابع المَرَضيَة ومراسلاته مع كوربسكي[1]؟

---

١ – «مراسلاته مع كوربسكي»: إن الأمير آندريه كوربسكي الذي كان يخشى غضب جان الرابع، قد هرب في ١٥٦٢ إلى ليتوانيا التي كتب منها ثلاث رسائل إلى القيصر يتهمه فيها بالوحشية، فأجابه هذا برسائل يعرض فيها نظريته في الحكم المطلق.

وهل يمكن تفسير حركة الشعوب في عهد الحملات الصليبية بدراسة حياة أمثال غوديفروا[١] ولويس ونسائهم؟ إن هذه الحركة لشعوب الغرب نحو الشرق، بدون هدف، ولا قادة، وبجماعة من المتشردين، مع بطرس الناسك، تظل غير مفهومة، بالنسبة إلينا. وأشدُّ خفاء منها توقفُ هذه الحركة بعد ما حدد قادتها الهدف الذي رأوه معقولاً ومقدساً. كان البابوات والملوك والفرسان يحثون الشعوب على إنقاذ الأرض المقدّسة، لكن الشعب لم يتحرك لأن القضية التي حركته من قبل لم تعد موجودة. ومن المؤكد أن تاريخ غوديفروا والشعراء الجوالين لا يمكن أن يحتوي على حياة الشعوب. وتاريخ غوديفروا والشعراء الجوالين يظل تاريخ غوديفروا والشعراء الجوالين، في حين أن حياة الشعوب ودوافعها تظل مجهولة. كما أن تاريخ الكتاب والمصلحين أعجزُ عن تفسير حياة الشعوب.

إن تاريخ الحضارة يفسر لنا دوافع الكاتب أو المصلح وشروط حياتهما وأفكارهما. فنحن نعلم أن لوثر كان نزقَ الطبع، وأنه ألقى هذه الأحاديث أو تلك؛ ونعلم أن روسو كان شديد الريبة وأنه كتب كذا كتباً؛ لكننا لا نعلم لماذا ذبّحت الشعوب بعضها بعضاً. بعد الإصلاح، ولماذا أعدم الناس بعضهم بعضاً، أثناء الثورة الفرنسية.

ولو أنا جمعنا هذين النوعين من التاريخ. كما يفعل المؤرخون الحديثون، لحصلنا على تاريخ الملوك والكتاب، لا على تاريخ حياة الشعوب.

***

١ـ غوديفروا: هو غوديفروا دي بويون: أحد قادة الصليبية الأولى.

الفصل الخامس

إن حياة الشعوب لا تحتوي عليها حياةُ بعض الرِجال؛ ذلك أن الصلة بين هذه القلة من الشخصيات وبين الشعوب لم تُحدد بعد. والنظرية التي تذهب إلى أن هذه الصلة تستند إلى تحويل مجموع الإرادات إلى الشخصيات التاريخية فرضية لم تثبتها التجربةُ التاريخية.

ربما فسّرتْ هذه النظرية كثيراً من الأشياء في ميدان علم الحقوق، وربما كانت ضرورية لغاياته الخاصة؛ لكنها لا تفسر شيئاً عندما نطبّقها على التاريخ، منذ اللحظة التي تعترضه فيها الثورات والفتوحات والحروب الأهلية، أي منذ أن يبدأ التاريخ.

وتبدو هذه النظرية غير قابلة للدحض لأن نقل إرادة الشعب بالذات عمل لا يمكن التحقّق منه.

ويمكن للنظرية أن تقول دائماً، مهما يكن الحدث، ومهما تكن الشخصية الموجودة على رأس هذا الحدث، إن هذه الشخصية قد وُضعت على رأس الحدث لأن مجموع الإرادات قد حُوِّلت إليه.

والأجوبة التي تجيب بها هذه النظرية عن المشكلات التاريخية شبيهة بأجوبة من رأى قطيعاً سائراً فحكم على الوجهة التي يسير فيها هذا القطيع تبعاً للحيوان الذي يسير على رأسه، دون أن يحسب حساباً لاختلاف الكلأ باختلاف جهات المرعى، ولا لتدخل الراعي.

«إن القطيع يسير في هذه الوجهة لأن الحيوان الموجود على رأسه يقوده، وقد حُوِّلت مجموع إرادات الحيوانات الأخرى إلى قائد القطيع هذا».

هكذا تجيب الطائفة الأولى من المؤرخين الذين يسلّمون بنقل السلطة غير المشروط.

«إذا تغيرت الحيوانات التي تسير على رأس القطيع، فلأن مجموع إرادات جميع الحيوانات تحوّلت من قائد إلى آخر، حسبما يقودها أو لا يقودها هذا الحيوان في الوجهة التي اختارها مجموع القطيع». هكذا يجيب المؤرخون الذين يذهبون إلى أن مجموع إرادات الجماهير تتحوّل إلى الحكام بشروط يظنونها معروفة. (وتبعاً لمنهج الملاحظة هذا، قد يقع كثيراً للملاحظ، حسب الاتجاه الذي اختاره، أن يحسب القادة أولئك الذين لم يعودوا في المقدمة، بسبب تغيّر الوجهة التي تسلكها الجماهير. وإنما صاروا بحذاء الجماهير أو خلفها أحياناً).

«إذا تغيرت باستمرار الحيوانات التي في المقدمة وتغيرت كذلك الوجهة التي يسلكها مجموع القطيع، فلأن الحيوانات قد حوّلت إرادتها إلى الحيوانات التي نميّزها عن غيرها، وذلك لكي تبلغ الوجهة المعروفة؛ وإذن، فلكي ندرس حركةَ القطيع، ينبغي أن نلاحظ الحيوانات التي نميّزها والتي تسير على جوانب القطيع». هكذا يتكلم مؤرخو الفئة الثالثة الذين يعتبرون جميع الشخصيات التاريخية، من الملوك إلى الصحفيين تعبيراً عن زمنهم.

إن نظرية نقل إرادات الجماهير إلى الشخصيات التاريخية ليست سوى تورية، سوى التعبير عن كلمات المشكلة بكلمات أخرى.

ما سبب الأحداث التاريخية؟ السلطة. ما السلطة؟ –السلطة هي

مجموع الإرادات المنقولة إلى شخصية واحدة، وبأي الشروط تنتقل إرادةُ الجماهير إلى شخصية واحدة؟- بشرط أن تعبّر هذه الشخصية عن إرادة الجميع. أي أن السلطة هي السلطة. أي أن السلطة كلمة يفلت منا معناها.

لو اقتصر ميدانُ المعرفة الإنساني على التفكير المجرد وحده، لتوصلت الإنسانية، بعد أن تُخضع للنقد التفسيرَ الذي يعطيه العلم عن السلطة، إلى أن السلطة ليست سوى كلمة وأنها غير موجودة في الواقع. لكن الإنسان يملك، لمعرفة هذه الظواهر، إلى جانب التفكير المجرد، أداةً هي التجربة، وبفضلها يراقب نتائج التفكير. والتجربةُ تقول: إن السلطة ليست كلمة، لكنها ظاهرة موجودة بالفعل.

وإذا ضربنا صفحاً عن أن وصفَ فعالية الناس الجماعية لا يمكن أن يستغني عن مفهوم السلطة، فإن وجود السلطة يُبرهن عليه التاريخُ كما تبرهن عليه ملاحظةُ الأحداث المعاصرة.

كلما وقع حدثٌ، ظهر رجلٌ أو رجال كأنما بإرادتهم تمّ الحدث. إن نابليون الثالث يأمر[1]، فيسير الفرنسيون إلى المكسيك. ويأمر ملك بروسيا وبسمارك[2]، فتزحف جيوشهما إلى بوهيميا. ويأمر نابليون الأول، فيزحف جيشه إلى روسيا. إن التجربة تدلنا على أن الحدث، أياً كان ذلك الحدث، مرتبط دائماً بإرادة شخص أو أشخاص يأمرون به. ويزعم المؤرخون، جرياً على عادة قديمة تدفعهم إلى الاعتقاد بالتدخل

١- «نابليون الثالث.. إلى المكسيك»: نظم نابليون الثالث في ١٨٦٤ حملة من الفرنسيين إلى المكسيك، مسمياً الدوق الأكبر ماكيميليان امبراطوراً لها.

٢- «بسمارك... إلى بوهيميا»: في ١٨٦٦، أعلنت بروسيا التي كان يحكمها الكونت بسمارك، الحرب على النمسا، وتوغل جيشها في بوهيميا.

الإلهي في شؤون الإنسانية، أنهم يرون سبب الحدث في التعبير عن إرادة شخصية تقلّدت السلطة. لكن هذا التصور لا تؤكده المحاكمة ولا التجربة.

فمن جهة، تُظهر المحاكمة أن التعبير عن إرادة إنسان ما، أي أقواله، ليس سوى جزء من الفعالية العامة التي تتجلى في حدث ما، في حرب أو في ثورة مثلاً؛ ومن ثمّ، إذا لم نعترف بوجود قوة لا يُدرَك كنهُها، قوة متعالية على الطبيعة، المعجزة، فلا يمكننا التسليم بأن الكلمات يمكن أن تكون السبب المباشر لحركة ملايين البشر؛ وحتى لو سلمنا، من جهة أخرى بأن الكلمات يمكنها أن تكون سبباً للحادث، فإن التاريخ يدل على أن التعبير عن إرادة الشخصيات التاريخية يظل، في كثير من الحالات، عديم الأثر، أي أن أوامرها لا تظل بدون تنفيذ فحسب، بل إن عكس ما أمرت به هو الذي يحدث، في الغالب.

لا نستطيع أن نعتبر السلطة سبباً للأحداث، دون التسليم بالتدخل الإلهي في شؤون البشر.

ليست السلطة، من وجهة نظر التجربة، إلا التبعية القائمة بين التعبير عن إرادة شخصية ما وتنفيذ الناس الآخرين لهذه الإرادة.

ولكي نفهم شروط هذه التبعية، ينبغي لنا أن نحدّد قبل كل شيء مفهومَ التعبير عن الإرادة برده إلى الإنسان، لا إلى الألوهية.

إذا كانت الألوهية تصدر أوامرها، وتعبّر عن إرادتها كما يرينا ذلك تاريخ القدماء، فإن التعبير عن هذه الإرادة لا يتبع الزمان ولا يبتعثه شيءٌ، لأن الألوهية غير مرتبطة بالحدث في شيء. لكنْ عند الكلام على الأوامر، على التعبير عن إرادة الناس الذين يعملون في الزمان ويرتبط بعضهم ببعض، ينبغي لنا، لكي نفهم الصلة بين الأوامر والأحداث، أن نحدد:

١) الشرط اللازم لكل ما يتم: اتصال الحركة في الزمان، حركة الأحداث وحركة الشخصيات التي تأمر، و٢) شرط الصلة الضرورية بين الذي يأمر والذين ينفّذون أوامره.

***

الفصل السادس

إن التعبير عن إرادة الألوهية، وهو تعبير مستقل عن الزمان، يمكنه وحده أن يتناول سلسلةً كاملة من الأحداث التي لن تتم إلا في مدى سنين أو في مدى قرون، وتستطيع هذه الألوهية وحدها، دون أي تحريض، وبإرادتها وحدها، أن تحدد اتجاه حركة الإنسانية؛ أما الإنسان فإنه يعمل في الزمان ويشارك هو نفسه في الحدث.

وعندما نعيد الشرط الأول المهمل، شرط الزمان، فسوف نرى أنه لا يمكن أن يُنفَّذ أمر من الأوامر دون أن يسبقه أمرٌ يجعل تنفيذه ممكناً.

ليس من أمر يرد تلقائياً ويحتوي سلسلة كاملة من الأحداث، كل أمر ينبع من أمر آخر ولا يتصل مطلقاً بسلسلة كاملة من الأحداث، وإنما يتصل دائماً بلحظة وحيدة من الحدث.

عندما نقول، مثلاً، إن نابليون أمرَ جنده بالسير إلى الحرب، فنحن نجمع في هذا الأمر الذي صيغَ في لحظة معينة سلسلةً من الأوامر المتتالية التي يرتبط بعضها ببعض، فلم يكن بوسع نابليون أن يأمر بالحملة على روسيا و لم يأمر بذلك قط. لقد أمر ذات يوم بتوجيه هذه الأوراق أو تلك إلى فيينا وبرلين وبطرسبرج؛ وفي اليوم التالي أمر بإيصال هذه المراسيم أو تلك الأوامر اليومية إلى الجيش والبحرية والمعتمدية الخ... الخ،؛ لقد أصدر ملايين الأوامر التي شكلت

سلسلةً من الأوامر المتوافقة مع سلسلة الأحداث التي جاءت بالجيش الفرنسي إلى روسيا.

وإذا كان نابليون قد ظل، أثناء مدة ملكه كله، يُصدر الأوامر بشأن الحملة على انكلترا؛ وإذا لم يخص أيّاً من مشاريعه بمثل ما خصّ به هذا المشروع من الجهد والوقت، وإذا لم يحاول مرة واحدة، أثناء ملكه كله، بالرغم من ذلك، أن ينفذ مشروعه، بل إنه شرع في حملته على روسيا التي كان التحالف معها يبدو له مفيداً، على حسب قناعته التي عبّر عنها مرات كثيرة، فذلك يأتي من أن أوامره الأولى لا تتوافق مع سلسلة الأحداث، بينما كانت الأوامر الثانية تتوافق معها.

لكي يُنفّذ الأمر بالتأكيد، يجب أن يكون الأمرُ الصادر ممكن التنفيذ. ومن المستحيل معرفة ما يمكن وما لا يمكن تنفيذه، لا بصدد الحملة على روسيا فحسب، وهي حملة يشارك فيها ملايين البشر، بل بصدد أقل الأحداث تعقيداً، لأن تنفيذ هذا المشروع أو ذاك يمكن أن يلاقي ملايين العقبات. وفي مقابل الأمر المنفّذ، هناك دائماً كمية من الأوامر الأخرى التي لم تُنفّذ. والأوامر المستحيلة لا ترتبط بالحدث ولا تُنفّذ. والأوامر الممكنة وحدها تتجمّع في سلاسل متتالية من الأوامر المتوافقة مع سلاسل الأحداث، وهي تُنفّذ.

إن الفكرة الخاطئة التي نكوّنها عن الأمر الذي يسبق الحدث باعتباره السبب تأتي من أنه إذا ما تم الحدث و لم تُنفّذ بين آلاف الأوامر الصادرة سوى الأوامر المرتبطة بالأحداث، نسينا الأوامر التي لم تُنفّذ لأنه لم يكن من الممكن تنفيذها. وفضلاً عن ذلك، فالمصدرُ الرئيسي لخطئنا يكمن في أن سلسلة لا حصر لها من الأحداث المتنوعة، الصغيرة، كالأحداث التي ساقت الجيش الفرنسي إلى روسيا، تُرد إلى حدث واحد، كما تُرد بطريق الاستتباع، سلسلةٌ كاملة من الأوامر إلى مجرد التعبير عن الإرادة.

نحن نقول: إن نابليون أراد الحملة على روسيا وقام بها. والواقع أننا لا نجد أينما نظرنا في فعالية نابليون، ما يُشبه التعبير عن هذه الإرادة، بينما نرى سلسلة من الأوامر أو من ضروب التعبير عن إرادته موجهة بشكل من أشد الأشكال تنوّعاً وغموضاً. ولقد تكوّنتْ من سلسلة أوامر نابليون التي لا حصر لها سلسلةٌ محدّدة من الأوامر المنفّذة، المتصلة بحملة ١٨١٢، لا لأن هذه الأوامر كانت تتميّز بشيء عن الأوامر التي لم تُنفّذ، بل لأن هذه السلسلة من الأوامر قد تلاقت مع سلسلة الأحداث التي ساقت الجيش الفرنسي إلى روسيا؛ وكذلك الحال عندما نستخدم المرسام فنحصل على صورة، لا لأننا وضعنا الألوان في هذا الموضع أو بتلك الطريقة، بل لأننا غطينا سطح المرسام بها.

وهكذا، فلو تأملنا العلاقة بين الأوامر والأحداث في الزمان، لوجدنا أن الأمر لا يمكن أن يكون سبباً للحدث بأي حال من الأحوال وأن بينهما نوعاً من التبعية المحدّدة.

ولكي نفهم قوامَ هذه التبعية، لابد من تحديد الشرط الآخر المهمل لكل أمر صادر عن الإنسان لا عن الألوهية، ومفادُ هذا الشرط هو أن من يُصدر الأمر يُشارك هو نفسه في الحدث.

وهذه الصلة بين من يأمر ومن ينّفذون الأمر هي بالضبط ما نسميه السلطة. وقوام هذه الصلة فيما يلي:

إن الناس يتجمعون دائماً في تجمعات، من أجل عمل مشترك، وبالرغم من اختلاف الأهداف المحدّدة في العمل المشترك، فإن الصلة بين الذين يُسهمون بالعمل في هذه الجماعات ثابتة أبداً.

والناسُ، عندما يتّحدون على هذا النحو، تقوم بينهم الصلة التالية

وهي أن العدد الأكبر يُسهم بالقسط الأعظم المباشر في العمل المشترك الذي اجتمعوا من أجله وأن الأقلية تسهم بالقسط الأصغر فيه.

وبين التجمعات التي يشكّلها البشر من أجل الأعمال المشتركة، تجمّعٌ من أشدها تميّزاً ووضوحاً هو الجيش.

ويتألف كل جيش من الأعضاء الذين هم في أدنى سلّم المراتب العسكرية، أي الجنود، وهم دائماً العدد الأكبر، ومن الذين يأتون فوقهم في سلّم المراتب، وهم العرفاء، وضباط الصف، وعددهم أقل من عدد الجنود، ثم تأتي الرتب العليا، وعدد أفرادها أقل أيضاً، وهكذا دواليك إلى القيادة العليا التي تتجمّع بين يدي شخصية واحدة.

ويمكن للتنظيم العسكري أن يُمثّل تماماً بمخروط تتكوّن قاعدتُه من الجنود؛ وتتكون الأقسام التي فوق القاعدة من رتب الجيش في تسلسلها الصاعد، حتى قمة المخروط الذي يمثّل رأسُه القائد العام.

ويشكل الجنود، وهم الأكثرية، المناطق الدنيا من المخروط، وقاعدتَه. والجندي نفسه يضرب، ويبتر بسيفه، ويحرق وينهب، وهو في ذلك يتلقى الأمرَ دائماً من رؤسائه، بينما هو لا يصدر الأوامر مطلقاً. ويعمل ضابط الصف شخصياً (وعدد ضباط الصف أقل) أقل مما يعمل الجندي؛ لكنه صار يأمر. ومشاركةُ الضابط في العمل المباشر أندر وحظه من الأمر أكبر كثيراً. أما الجنرال فيأمر بحركة الجند فقط معيناً لهم الهدف، وهو لا يستخدم السلاح أبداً. وأما القائد العام فلا يمكنه أبداً أن يشارك مباشرة في العمل، وهو يقتصر على إعطاء التوجيهات العامة بصدد حركة الجماهير. إن هذه الصلة نفسها بين الأفراد نعثر عليها في كل تجمّع بشري متّحد من أجل عمل مشترك، في الزراعة وفي التجارة وفي أي مشروع آخر.

وهكذا إذن نرى، بدون أن نكثر اصطناعياً قطاعات المخروط، ورتب الجيش والألقابَ والأوضاع في أية إدارة أو منظمة اجتماعية من تحت إلى فوق، نرى أن هناك قانوناً ينبعث مما تقدم، قانوناً بموجبه يقيم الناس بينهم صلةً مفادها أنها كلما ازدادت مشاركتهم المباشرة في العمل تناقصت قدرتُهم على القيادة وكبر عددهم؛ وكلما قلت مشاركتهم المباشرة في العمل ازداد حظهم من القيادة وتقلّص عددهم؛ هكذا إلى أن نصل، مرتفعين من الطبقات الدنيا إلى العليا، حتى الرجل الوحيد والأخير الذي يشارك أدنى مشاركة في الحدث والذي يوجه نشاطه، أكثر من الآخرين إلى القيادة.

فهذه الصلة بين الذين يأمرون والذين يُؤمرون هي التي تُكوّن جوهر المفهوم الذي ندعوه السلطة.

لقد لاحظنا حين حددنا شروط الزمن التي تتمّ فيها جميع الأحداث أن الأمر لا يُنفّذ إلا إذا توافق مع سلسلة مقابلة من الأحداث. ولاحظنا، حين حددنا، الشرط الضروري، للعلاقة بين الذي يأمر والذي ينفّذ، أن الذين يأمرون يشاركون، بحكم طبيعتهم ذاتها، أدنى مشاركة في الحدث بمعناه الخالص وأن فعاليتهم موجهة إلى القيادة وحدها دون غيرها.

***

الفصل السابع

عندما يتم الحدثُ، يعبّر الناسُ عن آرائهم أو أمنياتهم بشأنه، وبما أن الحدث ينبع من العمل المشترك بين أفراد كثيرين، فلابد أن يصحّ أحدُ الآراء أو إحدى الأمنيات التي أُبديتْ ولو تقريباً. وعندما يصح أحدُ الآراء التي أُبديتْ، فإن هذا الرأي يرتبط في ذهننا بالحدث وكأنه الأمر الذي سبقه.

يجرّ بعض الرجال جسراً، ويعطي كل منهم رأيه في طريقة جره وفي المكان الذي ينبغي أن يوضع فيه. فإذا انتهى العمل تبيّن أنه تمّ كما قال أحدهم. لقد قاد العمل. هذا هو الأمر وهذه هي السلطة في شكلهما البدائي.

إن من اشتغل بيديه أكثر من غيره كان أقل الناس قدرةً على التفكير فيما فعل، وعلى توقّع ما يمكن أن ينتج عن العمل المشترك، وعلى القيادة. أما من تولى القيادة أكثر من غيره، من عمل بالكلام، فقد كان اشتغاله بيديه أقلّ، بطبيعة الحال. وكلما كبر تجمّع الناس الذين يتجّهون بعملهم نحو هدف وحيد، اتضحت طائفةُ الذين يقل إسهامهم المباشر في العمل المشترك بمقدار ما يزداد توجهُ فعاليتهم نحو القيادة.

عندما يعمل الإنسان وحده فهو يحمل دائماً في نفسه عدداً من الاعتبارات التي قادتْ، في اعتقاده، نشاطه السابق، والتي تصلح لتبرير نشاطه الحالي والتي تقوده في اختيار أعماله المقبلة.

والأمـر كذلك تماماً بالنسبة إلى الجماعات، فهي تـترك لمن لا يشاركون في العمل أمر تصور الاعتبارات، والتبريرات، والفرضيات المتعلقة بالعمل المشترك.

أخذ الفرنسيون يغرق بعضهم بعضاً ويذبّح بعضهم بعضاً لأسباب نعرفها أو نجهلها. ويترافق هذا الحدث وتبريره، وهو هذه الإرادات الصريحة للناس الذين كانوا يرون ذلك ضرورياً لخير فرنسا، وللحرية، والمساواة. ويكفّ الناس عن التذابح، ويترافق هذا الحدث وتبريره، وهو ضرورة وحدة السلطة، ومقاومة أوروبا إلخ. ويسير الناس من الغرب إلى الشرق وهم يقتلون أمثالهم، ويترافق هذا الحدث والجمل الرنانة عن مجد فرنسا، ودناءة انكلترا، الخ. ويُرينا التاريخ أن تبريرات الحدث هذه ليس لها معنى موضوعي، وأنها تتناقض، مثل قتل الإنسان بعد الاعتراف بحقوقه، وتذبيح ملايين البشر في روسيا لإذلال انكلترا. لكن لهذه التبريرات في نظر المعاصرين معنى ضرورياً.

إن هذه التبريرات تُبرّئ من المسؤولية أولئك الذين هم أصل الأحداث. فهذه الأهداف المؤقتة شبيهة بالمكانس الموضوعة في مقدمة القطارات لتنظيف طريق الخط الحديدي: إنها تُخلي طريق مسؤولية البشر الأخلاقية. وبدون هذه التبريرات لا يمكن إيضاح أبسط مسألة تُثار أثناء فحص أي حدث، وهي: لم يرتكبُ ملايينُ البشر الجرائم الجماعية، والحروب والقتل الخ».

ونظراً للأشكال المعقدة، أشكال الحياة السياسية والاجتماعية الراهنة، أمن الممكن أن نتصور حدثاً، أياً كان ذلك الحدث، لم يفرضْه، أو يُشرْ به، أو يأمر به الملوك، والوزراء، والبرلمانات والصحف؟ وهل هناك عمل جماعي لا يجد تبريره في وحدة الدولة، والمصلحة القومية، والتوازن الأوروبـي؟ بحيث أن كل حدث منجز يتطابق

حتماً مع رغبة مُعْلَنة ويُعطى تبريره فيبدو كأنه نتيجة إرادة رجل واحد أو عدة رجال.

مهما تكن وجهة السفينة، فنحن نرى دائماً في مقدمتها جيشان الأمواج التي تشقها. إن حركة هذا الجيشان بالنسبة إلى من هم على سطحها، هي الحركة المرئية، الوحيدة.

وعندما نلاحظ عن كثب، ولحظة بعد لحظة، حركة هذا الجيشان ونوازن بينه وبين حركة السفينة، عند ذاك فقط نتبين أن كل لحظة من حركة الجيشان تحدّدها حركةُ السفينة، وأن ما حملنا على الخطأ هو أننا أنفسنا نتقدم دون أن نفطن لذلك.

ونحن نصل إلى الملاحظة نفسها حين نتتبّع، لحظةً بعد لحظة، حركةَ الشخصيات التاريخية (أي حين نحدد الشرط الذي لابدّ منه لكل ما يجري، اتصال الحركة في الزمان) ودون أن تغيب عن نظرنا العلاقةُ التي لابد منها بين الشخصيات التاريخية والجماهير.

عندما تتابع السفينة وجهتها، يظل الجيشانُ نفسه أمامها؛ وعندما تُغيّر السفينة وجهتها، فإن الجيشان الذي يهدر أمامها، يغيّر وجهته أيضاً. وحيثما اتجهت السفينةُ، فسوف يكون هناك أبداً جيشانٌ يسبق حركتها.

ومهما يقع فإن ذلك بعينه هو ما يبدو دائماً أنه كان متوقعاً ومقرّراً. فحيثما توجهت السفينة جاش الموج أمامها دون أن يغير وجهة حركته أو يقويّها، وبدا لنا ذلك الجيشان من بعيد لا كأنما تحركه حركةٌ مستقلة فحسب، بل وأيضاً كأنما هو يقود حركة السفينة.

لقد اعتقد المؤرخون، وهم يتحروّن بين ضروب التعبير عن إرادة

الشخصيات التاريخية تلك التي ترتبط بالأحداث فقط بصفتها أوامر، أن الأحداث منوطةٌ بالأوامر. لكننا تبيّنا، ونحن نفحص الأحداث نفسها والصلة القائمة بين الشخصيات التاريخية والجماهير، أن الشخصيات التاريخية وأوامرها منوطة بالأحداث. والدليل القاطع على هذه النتيجة هو أن الحدث، مهما تكن الأوامر، لا يحصل أبداً إذا لم يكن هناك أسبابٌ أخرى؛ لكن ما إن يقع الحدث، أياً كان ذلك الحدث، حتى نجد بين ضروب الإرادة التي تُعبّر عنها مختلف الشخصيات باستمرار، وبحسب معناها واللحظة التي وقعت فيها، ما يمكن أن يرتبط منها بالحدث على أساس أنها أوامر.

ونحن نستطيع، بعد أن وصلنا إلى هذه النتيجة، أن نعطي جواباً واضحاً ودقيقاً عن مشكلتي التاريخ الجوهريتين:

١) ما السلطةُ؟

٢) ما القوة التي تحدد حركة الشعوب؟

١) السلطة هي هذه الصلة بين شخصية محدّدة وشخصيات أخرى، صلةٌ مدارُها أن الشخصية تتضاءل مشاركتها في العمل كلما عبّرت عن قدر أكبر من الآراء والفرضيات والتبريرات فيما يتعلق بالعمل المشترك الجاري.

٢) إن حركة الشعوب لا تحدّدها السلطة، ولا الفعالية الفكرية، ولا يحدّدها اجتماع هذا وذاك، كما تصوّر المؤرخون، وإنما تحدّدها فعاليةُ «جميع» الذين يشاركون في الحدث والذين يتجمعون دائماً على نحو يكون فيه الذين يشاركون مباشرة في الحدث أعظم مشاركة هم أقلّ اضطلاعاً بالمسؤوليات؛ والعكس صحيح.

إن سبب الحدث، من وجهة النظر المعنوية، يبدو كأنه السلطة؛ أما من وجهة النظر المادية فكأنما هو الخاضعون للسلطة. لكن بما أن الفعالية المعنوية لا يمكن تصورها بدون الفعالية المادية، فإن سبب الأحداث لا يكمن في هذه ولا في تلك، بل في اجتماعهما معاً.

وبعبارة أخرى، إن مفهوم السبب لا يمكن تطبيقه على الظاهرة التي نفحصها.

إننا نصل، في نهاية المطاف، إلى الدائرة الأبدية، إلى هذا الحد الأخير الذي يبلغه الفكر الإنساني، في جميع ميادين التفكير، إن لم يتلاعب بموضوعه. الكهرباء تولّد الحرارة، والحرارة تولد الكهرباء. الذرات تتجاذب، والذرات تتنافر.

ونحن لا نستطيع أن نقول، في كلامنا على النتائج الأولية للحرارة والكهرباء أو الذرات، ما سبب هذه الظواهر، ونقول إن هذه هي طبيعتها، وهذا هو قانونها. وكذلك شأن الظواهر التاريخية. لم تحدثُ الحرب أو الثورة؟ إننا نجهل ذلك؛ ونحن نعلم فقط أن الناس، لكي ينجزوا هذا العمل أو ذاك، يتجمعون في تجمّع معين ويشاركون فيه جميعاً؛ ونقول: إن هذه هي طبيعة البشر، وهذا هو قانونهم.

***

الفصل الثامن

لو أن التاريخ لم يتعلق إلا بالظواهر الخارجية، لكفانا أن نقرر هذا القانون البسيط والجليّ، ولانتهت محاكمتنا، لكن قانون التاريخ يتعلق بالإنسان. إن جُزيئةً من المادة لا تستطيع أن تقول لنا إنها لا تشعر بأية حاجة للجذب أو للنبذ، وأن هذا القانون خطأ؛ أما الإنسان الذي هو موضوع التاريخ فيقول بكل صراحة: أنا حر ولست بالتالي خاضعاً للقوانين.

إن وجود مشكلة الحرية، حرية اختيار الإنسان، وإن كانت ضمنية غير معلنة، ليبرز لدى كل خطوة يخطوها التاريخ.

ولقد أفضى جميعُ المؤرخين الجديين إلى هذه المشكلة، بالرغم منهم. فجميع تناقضات التاريخ وشبهاته، والطريق الخاطئة التي يسلكها هذا العلمُ، لا تأتي إلا من هذه المشكلة التي لم تُحلّ.

لو كانت إرادة كل إنسان حرة، أي لو استطاع كل إنسان أن يفعل ما يشاء، لما كان التاريخ سوى سلسلة من المصادفات التي لا ترابط بينها.

ولو كان بوسع إنسان واحد بين ملايين الناس، وفي مدى ألف عام، أن يتصرف بحرية، أي على هواه، لكان من الواضح أن فعلاً واحداً حراً من هذا الإنسان، فعلاً مناقضاً للقوانين، يُلغي إمكان وجود أي قانون بالنسبة إلى الإنسانية بأسرها.

ولو وُجد قانون واحد فقط يقود الأعمال الإنسانية، لما كان هناك حريةُ اختيار. لأن إرادة الناس يجب أن تخضع حينذاك لهذا القانون.

في هذا التناقض تكمن مشكلةُ حرية الاختيار، وهي مشكلة شغلت. منذ أقدم الأزمنة، أعظم أدمغة الإنسانية، وما تزال تُطرح، منذ أقدم الأزمنة، بكل ما فيها من عظيم الأهمية.

ولبُ المشكلة هو أننا حين ننظر إلى الإنسان كموضوع للملاحظة، مهما تكن الزاوية التي ننظر منها - الدينية أو التاريخية أو الأخلاقية أو الفلسفية - نعثر على قانون الضرورة العام الذي يخضع له الإنسان ككل ما هو موجود. وأننا حين ننظر إليه من خلال أنفسنا، كشيء نشعر به بأنفسنا، فنحن نحس أننا أحرار.

إن هذا الشعور مصدر لمعرفة الذات متميّز كل التميّز ومستقلّ كل الاستقلال عن العقل. فبفضل العقل يُلاحظ الإنسان نفسه، لكنه لا يعرف ذاته إلا من خلال الشعور.

والملاحظة وتطبيق العقل غير ممكنين بدون الشعور بالذات.

فلكي يفهم الإنسان، ويلاحظ، ويستنتج، ينبغي له قبل كل شيء أن يشعر بذاته كموجود، والإنسان لا يتصور نفسه موجوداً إلا إذا كان مُريداً، أي شاعراً بإرادته. وهذه الإرادة التي تكّون جوهر الحياة، ولا يتصورها الإنسان ولا يستطيع أن يتصوّرها إلا حرة.

وإذا رأى الإنسان، حين يُخضع نفسه بنفسه للملاحظة، أن إرادته يوجّهها دائماً قانونٌ وحيد (سواء أتناولت الملاحظةُ ضرورةَ تناول الطعام، أو عمل الدماغ، أم أي شيء آخر)، فهو لا يستطيع أن يُؤوّل هذا التوجيه الدائم لإرادته إلا على أنه حدّ لهذه الإرادة، إن ما ليس حراً

لا يمكن أن يُحدّ. وإرادة الإنسان تبدو له محدودة لأنه لا يستطيع أن يتصورها إلا حرّة.

أنت تقول: إنني غير حر. ولقد رفعتُ يدي وأنزلتُها. ويدرك كل واحد أن هذا الجواب غير المنطقي دليلٌ قاطعٌ على الحرية.

إن هذا الجواب هو التعبير عن الشعور الذي لم يخضع للعقل.

إذا لم يكن الشعور بالحرية مصدراً لمعرفة الذات متميزاً ومستقلاً عن العقل، فسوف يكون خاضعاً للمحاكمة والتجربة؛ لكن هذا الخضوع غيرُ موجود في الواقع أبداً وغير معقول.

إن سلسلة من التجارب والمحاكمات تظهر لكل إنسان أنه خاضع، من حيث هو موضوع للملاحظة، لبعض القوانين، وهو يخضع لها ولا يثور أبداً على قانون الجاذبية أو الكتامة إذا ما اعترف بذلك القانون. لكن سلسلة التجارب والمحاكمات نفسها تُريه أن الحرية المطلقة التي يشعر بها في ذاته غيرُ ممكنة، وأن كلاً من أفعاله منوطٌ ببنيته وطباعه والدوافع التي تؤثر فيه؛ لكن الإنسان لا يخضع أبداً للنتائج المستخلصة من هذه التجارب والمحاكمات.

فحين يعلم الإنسان بالتجربة والمحاكمة أن الحجر يسقط، نراه يعتقد ذلك ضمناً، وينتظر، في كل الأحوال، أن يتحقق القانون الذي اعترف به.

لكنه حين يعلم أيضاً علمَ اليقين أن إرادته خاضعة لبعض القوانين، فإنه لا يؤمن بها ولا يستطيع أن يؤمن بها.

وعبثاً تظهر له التجربةُ والمحاكمة أنه سيتصرف إذا توافرت الشروط نفسها، والطباع نفسها، كما تصرف من قبل بدقة، وإذا كان، في المرة الألف، على وشك أن ينجز، في الشروط نفسها، والطباع نفسها،

عملاً يعطي النتيجة نفسها دائماً، فهو لا ينفك يؤمن بقدرته على أن يفعل ما يشاء كما كان يؤمن قبل التجربة. إن كل إنسان، سواء أكان متوحشاً أم مفكراً، يُحسّ، وإنْ برهنت له التجربةُ والمحاكمة بشكل لا سبيل إلى دحضه أنه من المستحيل تصور عملين مختلفين في الشروط نفسها، يُحس أنه لا يستطيع أن يدرك الحياة بدون ذلك التصوّر المنافي للعقل (الذي يشكلِ جوهر الحرية). إنه يحس أن ذلك موجودٌ، مهما يكن ذلك مستحيلاً؛ لأنه لا يعجز بدون هذا التصور للحرية أن يفهم الحياة فحسب، بل إنه لا يستطيع الحياة لحظة واحدة.

إنه لا يستطيع الحياة لأن جميع مطامح البشر، جميع دوافعهم في الحياة، ليست سوى مطامح لتنمية حريتهم. فالغنى والفقر - والمجد والخمول - والسلطة والخضوع - والقوة والضعف - والصحة والمرض - والثقافة والجهل - والعمل والفراغ - والشبع والجوع - والفضيلة والرذيلة - كل ذلك ليس سوى درجات للحرية متفاوتة الارتفاع.

وإذا بدا مفهوم الحرية للعقل كأنه تناقض مناف للعقل، كإمكان إنجاز عملين مختلفين في الشروط نفسها أو كالنتيجة بدون سبب، فإن ذلك يدل فقط على أن الشعور غير خاضع للعقل.

إن هذا الشعور بالحرية، وهو شعور لا يتزعزع، ولا يُدحض، ولا يخضع للتجربة والمحاكمة، شعور يعترف به جميعُ المفكرين ويحس به جميع الناس بدون استثناء، إن هذا الشعور الذي لا يصح بدونه مفهوم الإنسان هو الذي يشكّل الوجه الآخر للمشكلة.

الإنسان مخلوق الإله القادر على كل شيء، العالم بكل شيء، الذي لا نهاية لرحمته. فما الخطيئة التي ينشأ مفهومها عن الشعور بالحرية إذن؟ تلك هي مشكلة اللاهوت.

إن أفعال البشر تحكمها قوانين عامة لا تتغيّر، يعبّر عنها الإحصاء. فعلام تقوم مسؤولية الإنسان أمام المجتمع، وهي مسؤولية ينشأ مفهومها عن الشعور بالحرية؟ تلك هي مشكلة الحقوق. وأفعال إنسان ما تابعة لطبعه الوراثي وللدوافع التي تؤثّر فيه. فما الشعور بالخير والشر وما مفهومهما في الأفعال التي تنشأ عن الشعور بالحرية؟ تلك هي مشكلة الأخلاق.

والإنسان، في ارتباطه بالحياة العامة للإنسانية، يبدو خاضعاً لقوانين تحكم هذه الحياة. لكن الإنسان نفسه، بغض النظر عن هذا الرابط، يبدو حراً. فكيف ينبغي أن يُنظرَ إلى الحياة الغابرة للشعوب والإنسانية، أيُنظرَ إليها على أنها نتاج فعالية البشر الحرة أم فعاليتهم الموجهة؟ تلك هي مشكلة التاريخ.

وإنما دُفعتْ مشكلةُ حرية الاختيار إلى ميدان لا يجوز أن تُطرح فيه، في عصرنا المغرور وحده، عصر تعميم المعارف، بفضل أقوى أدوات الجهل التي هي نمو المطبعة. فمعظم الناس الذين يُسمون، في أيامنا هذه، الطليعة، أي جمهرة الجهلة، قد حسبوا أعمالَ علماء الطبيعة الذين يُعنون بجانب من المشكلة، حلاً لمجموع المشكلة.

«ليس هناك نفسٌ ولا حرية لأن حياة الإنسان تتجلّى في حركة الأعضاء وأن حركة الأعضاء يأمر بها الجهازُ العصبي؛ ليس هناك نفس ولا حرية لأننا انحدرنا من القرد، في زمن لا نعرفه». هكذا يكتبون وينشرون، دون أن يخطر ببالهم أن جميع الأديان وجميع المفكرين، منذ آلاف السنين، لم يعترفوا بقانون الضرورة هذا فحسب، بل إنهم لم ينكروا قط هذا القانونَ الذي يبذل أولئك الذين يكتبون وينشرون وسعهم للبرهنة عليه اليوم بواسطة علم وظائف الأعضاء وعلم الحيوان المقارن، وهم لا يرون أن وظيفة العلوم الطبيعية في هذه المسألة تنحصر

في أن تكون أداة ترمي إلى إيضاح جانب من جوانبها فقط. فالقول، من وجهة نظر الملاحظة، بأن العقل والإرادة ليسا سوى مُفرزين من مفرزات الدماغ وأن الإنسان الخاضع للقانون العام استطاع أن يتطور، في مدة من الزمن مجهولة، من النوع الحيواني الإبتدائي، هذا القول يعني فقط تفسير هذه الحقيقة التي اعترفت بها الديانات والمذاهب الفلسفية منذ آلاف السنين، من زاوية جديدة، بقولنا: إن الإنسان، من وجهة نظر العقل، خاضع لقوانين الضرورة، لكن ذلك لا يُقدِّم قيد أنملة حل الموضوع الذي له وجه آخر مقابل قائم على الشعور بالحرية.

إذا كان الناس قد انحدروا من القرد في زمن مجهول، فهذا الكلام يُعادل في وضوحه قولنا: أنهم انحدروا من قبضة تراب في زمن معلوم (المجهول في الحالة الأولى هو الزمن، والمجهول في الحالة الثانية هو الأصل)، أما معرفة كيف يتفق شعور الإنسان بحريته مع قانون الضرورة الذي يخضع الإنسان له، فمسألة لا يمكن حلها بعلم وظائف الأعضاء وعلم الحيوان المقارن، لأننا لا نستطيع أن نلاحظ، لدى الضفدع والأرنب والقرد، سوى الفعالية العضوية والعصبية، بينما نلاحظ لدى الإنسان الفعالية العضوية والعصبية، والشعور.

إن العلماء الطبيعيين ومادحيهم الذين يعتقدون أنهم حلّوا هذه المشكلة شبيهون بالبنّائين الذين طُلب إليهم أن يبلّطوا جانباً من جوانب كنيسة. فاغتنموا غياب رئيس العمل، وأخذتهم الحميّة فجعلوا يطلون النوافذ والصور المقدّسة والصقالات والجدر التي لم تُدعّم بعد، وابتهجوا حين رأوا إلى أي حد غدا كل شيء، من وجهة نظرهم كبنّائين، متماثلاً وصقيلاً.

***

الفصل التاسع

إن حل مشكلة الحرية والضرورة يمنح التاريخ، بالنسبة إلى سائر فروع المعرفة التي حاولت حلّ هذه المشكلة، هذه المزية وهي أن المشكلة، بالنسبة إلى التاريخ، لا تتعلق بجوهر الإرادة البشرية، لكنها تتعلق بتصوره لتجلي هذه الإرادة في الماضي وفي شروط معينة.

ووضع التاريخ بالنسبة إلى بقية العلوم، بصدد حلّ هذه المشكلة، كوضع علم تجريبي بالنسبة إلى العلوم النظرية.

ليس موضوع التاريخ إرادة الإنسان نفسها وإنما موضوعه تصوّرنا لهذه الإرادة.

ولذلك فلا يوجد، بالنسبة إلى التاريخ، ذلك السر الذي لا يُسبر غورُه في اتحاد الحرية والضرورة، كما هي الحال بالنسبة إلى علم اللاهوت وعلم الأخلاق والفلسفة. إن التاريخ يدرس تصور حياة الإنسان حيث يكون اتحاد هذين النقيضين قد تمّ.

كل حدث تاريخي، وكل عمل إنساني يُفهم، في الحياة الواقعية، بكثير من الوضوح والجلاء، دون أن نحسّ فيه بأدنى تناقض، مع أن كل حدث يبدو حراً في شطر منه وضرورياً في شطر آخر.

إن فلسفة التاريخ، لكي تحل مشكلة اتحاد الحرية والضرورة وجوهر

هذين المفهومين، يمكنها وينبغي لها أن تسلك طريقاً مخالفة للطريق التي سلكتها العلوم الأخرى. فبدلاً من أن يبدأ التاريخ بتعريف مفهومي الحرية والضرورة في ذاتهما، ثم يطابق بين التعريفين الحاصلين وظواهر الحياة، ينبغي له أن يستخلص من كمية الظواهر الضخمة التي تعّرض له والتي تتبدْى دائماً في تبعيتها للحرية والضرورة، تعريفَ مفهومي الحرية والضرورة ذاتهما.

ومهما تكن الزاوية التي تفحص منها فعالية عدة أشخاص أو شخص واحد، فنحن لا نتصورها أبداً إلا نتاجاً للحرية في شطر منها، ولقوانين الضرورة في شطر آخر.

وسواء أتكلمنا على هجرات الشعوب وغزوات البرابرة أم على سياسة نابليون الثالث، أو على عمل قام به إنسان قبل ساعة واقتصر على اختيار وجهة لنزهته بين عدة وجهات عرضَتْ له، فنحن لا نجد في ذلك كله أدنى تناقض. إن مقدار الحرية والضرورة الذي حكم هذه الأفعال مُحدَّد بوضوح أمام أعيننا.

إن تقدير حظ الظاهرة من الحرية يختلف في الأغلب بحسب وجهة النظر التي نفحصها منها؛ لكن كل عمل إنساني يبدو لنا، دائماً، مزيجاً لا يتغيّر من الحرية والضرورة. ونحن نرى في كل عمل نتأمله مقداراً من الحرية ومقداراً من الضرورة. فإذا رأينا نصيب الحرية يكبر في أي عمل رأينا نصيب الضرورة يتناقص فيه؛ وإذا رأينا نصيب الضرورة يكبر فيه رأينا نصيب الحرية أقل ظهوراً.

والصلة بين الحرية والضرورة تنقص أو تزيد بحسب وجهة النظر التي نفحصها منها؛ لكن هذه الصلة تظل متناسبة عكسياً.

إن الرجل الذي يتشبث بآخر وهو يغرق، ويجرّه معه، أو المرأة

الجائعة التي أنهكها إرضاعها صغيرها فسرقت الطعام، أو الرجل الذي تعوّد الانضباط فقتل رجلاً أعزل بناء على أمر تلقاه وهو في الجيش، إن هؤلاء يبدون أقل ذنباً أي أقل حرية وأشد خضوعاً لقانون الضرورة، في عيني من يعرف الظروف التي كانوا فيها، ويبدون أكثر حرية في نظر من لا يعرف أن هذا الرجل كان مشرفاً على الغرق، وأن الأم كانت جائعة، وأن الجندي كان في الصف. إلخ. وكذلك الرجل الذي ارتكب جريمة قتل، منذ عشرين سنة، ثم عاش بعد ذلك بهدوء في المجتمع، دون أن يؤذي أحداً، فهو يبدو أقل ذنباً، وفعله أشد خضوعاً لقانون الضرورة، في نظر من يفحص عمله بعد عشرين سنة، ويبدو أكثر حرية في نظر من حكم على عمله غبَّ حدوثه. وكذلك أيضاً، عملُ المجنون، أو السكران أو الهائج، فهو يبدو أقل حرية وأشد خضوعاً للضرورة في نظر من يعرف حالة الرجل العقلية، وأكثر حرية وأقل خضوعاً للضرورة في نظر من يجهل ذلك. في جميع هذه الأحوال، يزيد مفهوم الحرية أو ينقص، وينقص أو يزيد معه مفهوم الضرورة، بحسب وجهة النظر التي ننظر منها لنحكم على العمل، بحيث أنه كلما بدت الضرورة كبيرة، كانت الحرية أصغر. والعكس صحيح.

إن الدين، وحسّ الإنسانية السليم، وعلم الحقوق والتاريخ ذاته تفهم، على هذا النحو؛ الصلةَ بين الضرورة والحرية.

إن جميع الحالات، بلا استثناء، التي تزيد أو تنقص فيها الفكرة التي نكوّنها عن الحرية والضرورة ليس لها إلا أسسٌ ثلاثة:

١- صلة الإنسان الذي ينجز العمل بالعالم الخارجي.

٢- صلته بالزمن.

٣- صلته بالأسباب التي سبّبت عمله.

١- وأول عناصر التقدير هذه هو الصلة المرئية قليلاً أو كثيراً بين الإنسان والعالم الخارجي، هو الفكرة المتفاوتة الوضوح عن المكانة المحدّدة التي يشغلها كل إنسان بالنسبة إلى كل ما يوجد معه في آن واحد. وانطلاقاً من وجهة النظر هذه يتّضح لنا أن الإنسان المشرف على الغرق أقلّ حرية وأشد خضوعاً للضرورة ممن هو على اليابسة؛ وانطلاقاً من وجهة النظر هذه تبدو لنا أعمال الإنسان الذي يعيش في علاقة وثيقة مع الآخرين في منطقة كثيفة السكان، وأعمالُ الإنسان المرتبط بأسرته، وبعمله ومشاريعه، تبدو لنا بلا نزاع، أقل حرية وأكثر خضوعاً للضرورة من أعمال الإنسان الوحيد والمنعزل.

إذا تأملنا الإنسان وحده، خارج صلاته بكل ما يحيط به، بدا لنا كل من أفعاله حراً. لكننا لو رأينا ولو صلةً من صلاته بما يحيط به، لو رأينا العلاقة التي تربطه بأي شيء، كالشخص الذي يحدّثه، أو الكتاب الذي يقرؤه، أو العمل الذي يشغله، وحتى الهواء الذي يكتنفه، والضوء الذي يسقط على الأشياء من حوله، لرأينا أن كلاً من هذه الشروط يمارس تأثيره فيه، ويحكم جانباً من فعاليته على الأقل. وكلما رأينا هذه التأثيرات تتكاثر تناقصت الفكرة التي تكونها عن حريته، وتزايدت فكرةُ الضرورة التي يخضع لها.

٢- ووجهة النظر الثانية هي الصلة المرئية قليلاً أو كثيراً بين الإنسان والعالم في الزمان، هي الفكرة المتفاوتة الوضوح عن المكانة التي يشغلها عمله في الزمان. وانطلاقاً من وجهة النظر هذه، يبدو سقوط الإنسان الأول الذي كانت ولادة النوع البشري من نتائجه، أقل حرية بدون ريب من زواج الإنسان اليوم. وانطلاقاً من وجهة النظر هذه، لا يمكن لحياة الناس وفعاليتهم، وقد عاشوا منذ قرون وارتبطوا في الزمان، لا يمكن أن تبدو لي على درجة من الحرية تضاهي الحياة المعاصرة التي ما تزال نتائجها خافية عني.

إن مقدار الحرية والضرورة الذي يتفاوت في كبره إنما يتبع بهذا الصدد المدة الزمنية المنصرمة التي تتفاوت في كبرها، المدة بين إنجاز الفعل والحكم الذي نطلقه عليه.

إذا فحصت عملاً أنجزته قبل دقيقة، في شروط مماثلة للشروط التي أنا فيها الآن، بدا لي عملي حراً بدون ريب. لكنني إذا حكمت على عملٍ أنجزته قبل شهر، وأنا في شروط مختلفة، فسوف أقرّ بالرغم مني أن كثيراً من الأشياء النافعة والمفرحة بل والضرورية التي نجمت عنه ما كانت لتقع لو أن العمل لم ينجز. ولو انتقلت بالذاكرة إلى عمل أبعد زمناً، عمل يرجع إلى عشر سنوات أو أكثر، فسوف تبدو نتائجه أشد وضوحاً؛ وسيكون من الصعب علي أن أتصوّر ما الذي كان سيحصل لو لم يقع. وكلما رجعتُ بذاكرتي إلى الوراء، أو كلما تقدمت بحكمي إلى الأمام -والنتيجة واحدة- كان تقديري لحرية عملي أقرب إلى الشك منه إلى اليقين.

إن هذا التدرج الصاعد في قناعتنا بشأن مشاركة حرية الاختيار في شؤون الإنسانية، نجده بعينه في التاريخ. فالحدث المعاصر الذي تمّ قبل قليل يبدو لنا بالتأكيد كأنه من صنع جميع الناس المعروفين؛ أما إذا كان الحدث أبعد، فنحن نرى نتائجه المحتومة التي لا نستطيع أن نتصور شيئاً خارجاً عنها. وكلما رجعنا إلى الماضي في فحص الأحداث، بدت لنا أقل خضوعاً للتعسف.

فالحرب النمساوية البروسية تبدو لنا كأنها النتيجة الأكيدة لمكائد بسمارك الخ.

وحروب نابليون تبدو كذلك، -وإن أخذ يراودنا شيءٌ من الشك- كأنها نتيجة إرادة البطل؛ أما الحروب الصليبية فصرنا نرى فيها حدثاً يحتلّ مكاناً معيناً بدونه يغدو التاريخ الحديث عارياً من المعنى، مع

أن مدّوني أخبار الحروب الصليبية لم يروا فيها إلا نتيجة لإرادة بعض الشخصيات. وعندما يجري البحث عن هجرات الشعوب فلن يمرّ ببال أحد، في أيامنا، أن يقول: إن تجديد أوروبا كان متوقفاً على تعسّف آتيلا. وكلما نقلنا موضوع ملاحظتنا إلى الماضي في التاريخ، غدت حرية الذين يولّدون الأحداث أقرب إلى الشك وأبعد عن اليقين، وغدا قانون الضرورة أكثر وضوحاً.

٣- أما عنصر التقدير الثالث فهو أكبر قدر أو أصغر قدر من السهولة نُدرك به تسلسلَ الأسباب الذي لا نهاية له؛ وهذا التسلسل مطلبٌ لا يستغني عنه العقل. ولابد فيه لكل حدث نفهمه، ومن ثم لكل فعل من أفعال الإنسان، أن يشغل مكانه المحدد من حيث هو نتيجة للأحداث التي سبقته ومن حيث هو سبب للأحداث التي تليه.

وانطلاقاً من وجهة النظر هذه تبدو لنا أفعالنا وأفعال الآخرين، من جهة، أكثر حرية وأقل خضوعاً للضرورة كلما ازدادت معرفتنا للقوانين الفيزيولوجية والبسيكولوجية والتاريخية المستنتجة من الملاحظة والتي يخضع لها الإنسان، وكلما استقصينا السبب الفيزيولوجي والبسيكولوجي والتاريخي لفعل من الأفعال؛ ومن جهة أخرى، كلما كان الفعل المُلاحَظ أبسط وكلما كان طبعُ الإنسان الذي ندرس فعله وكلما كان فكره أقل تعقيداً.

وعندما لا نفهم أبداً سبب عمل ما، سواء أكان جريمة، أو عملاً صالحاً، أو عملاً لا دخل له في الخير والشر، فإننا نرى فيه أكبر قدر من الحرية. فإذا كان العمل جريمةً طالبنا، قبل كل شيء بمعاقبة مثل هذا العمل؛ وإذا كان عملاً صالحاً استحسناه أكثر من غيره، وإذا كان عملاً لا دخل له في الخير والشر رأينا فيه منتهى قوة الشخصية ومنتهى الأصالة والحرية. لكننا لو عرفنا ولو سبباً واحداً من جملة الأسباب التي لا حصر لها،

لسلّمنا بوجود قدر من الضرورة، ولقلّتْ مطالبتُنا بمعاقبة الجريمة، وتضاءل استحسانُنا للعمل الفاضل، ولرأينا في العمل الذي كان يبدو لنا أصيلاً قدراً أدنى من الحرية. فكونُ المجرم قد نشأ في وسط من الأشرار يخفف من جرمه. وتفاني الأب أو الأم إن تضمن إمكان المكافأة، بدا أقرب إلى الفهم من التفاني الذي لا سبب له، وبدا، من ثمّ، أقل استحقاقاً لعطفنا، وأقل حريةً. ومؤسس الطائفة أو مؤسس الحزب أو المخترع تقل دهشتنا منهم إذا عرفنا كيف تمّ التحضير لفعاليتهم وبماذا تمّ. وإذا كنا نملك سلسلة طويلة من التجارب، وإذا كانت ملاحظتنا موجّهة أبداً إلى البحث عن العلاقات بين الأسباب والنتائج، في أفعالنا الإنسانية، فسوف تبدو هذه الأفعال أقرب إلى الضرورة وأبعد عن الحرية كلما ربطنا النتائج بالأسباب ربطاً وثيقاً. وإذا كانت الأفعال المُلاحَظة بسيطة، وإذا كنا نمتلك لملاحظتها كمية كبيرة من الأفعال المشابهة، فستكون الفكرة التي نكوّنها عن ضرورتها أكثر اكتمالاً. فالفعل الشرير لولد أبوه شرير، وفجور امرأة سقطت في وسط معيّن، وعودة السكير إلى الشراب، الخ؛ أفعالٌ تبدو أبعد عن الحرية كلما تحسّن فهمُنا للسبب. فإذا كان الإنسان الذي نفحص أعماله في أدنى درجات النموّ العقلي، كالصبي أو المجنون أو المعتوه، رأينا هذه المرة، بعد أن نقفَ على أسبابِ أفعاله وعلى قلة التعقيد في طبعه وفكره، قدراً كبيراً من الضرورة وقدراً ضئيلاً من الحرية بحيث أننا إذا عرفنا السبب الذي ينبغي أن يحدث النتيجة استطعنا أن نتنبّأ بالفعل.

وعلى هذه الأسس الثلاثة إنما ترتكز اللامسؤولية والظروف المخفّفة التي تعترف بها جميع التشريعات. والمسؤولية تكبر أو تصغر بحسب ما تكون معرفتنا للشروط التي وجد فيها الإنسان الذي نحكم على أعماله كبيرة أو صغيرة، وبحسب كبر أو صغر المدة الزمنية المنصرمة بين الفعل والحكم، وبحسب كمال أو نقص فهمنا لأسباب الفعل.

***

الفصل العاشر

وهكذا، فالفكرة التي نكوّنها عن الحرية والضرورة تنقص أو تزيد تدريجياً بحسب ما يشتدّ أو يضعف الرابط بين مظاهر حياة الإنسان والعالم الخارجي، وبحسب ما يطول أو يقصر بعدُ هذه المظاهر في الزمان، وبحسب ما تكبر أو تصغر تبعيتُها للأسباب التي نبحث بينها عن هذه المظاهر.

بحيث أننا لو فحصنا حالة إنسان يكون فيها الرابطُ الذي يربطه بالعالم الخارجي معروفاً أحسن معرفة، والمدة الزمنية بين الفعل والحكم أطول ما تكون، وأسباب الفعل أسهل ما تكون منالاً، لأحسسنا بأكبر قدر من الضرورة وأدنى قدر من الحرية. لكنا لو تأملنا إنساناً تضاءلت تبعيته للشروط الخارجية إلى أدنى الحدود، وتمّ فعله في أقرب لحظة إلى اللحظة الحاضرة، وكانت أسباب فعله سهلة المنال، إذن لأحسسنا بأدنى قدر من الضرورة وبأكبر قدر من الحرية.

وفي كلتا الحالتين، عبثاً نحاول تغيير وجهة نظرتنا، وتحديد الرابط الذي يربط الإنسان بالعالم الخارجي، أو اعتبار هذا الرابط عصياً على الفهم، وعبثاً نحاول زيادة الفاصل الزمني أو تقليصه، وفهم الأسباب أو عدم فهمها، فنحن لا نستطيع أبداً أن نتصور حريةً كاملة أو ضرورة كاملة.

١- عبثاً نحاول أن نتصور الإنسان مجرداً من تأثيرات العالم الخارجي، فلن نصل أبداً إلى مفهوم الحرية في المكان. إن كل فعل من أفعال الإنسان مشروطٌ حتماً بجسده نفسه وبما يحيط به. إنني أرفع ذراعي وأُنزلها. فيبدو لي فعلي حراً؛ لكنني حين أتساءل إن كنتُ أستطيع أن أرفع ذراعي في كل الاتجاهات، أرى أنني رفعتُها في الاتجاه الذي تلاقي فيه هذه الحركة أقل ما يمكن من العقبات، سواء أجاءت العقبات من الأجسام التي تحيط بي أم من جرّاء جسدي ذاته. وإذا كنت قد اخترت اتجاهاً من بين جميع الإتجاهات الممكنة، فإنما فعلتُ ذلك لأن في هذا الاتجاه أقل ما يمكن من العقبات. لكي تكون حركتي حرةً، من الضروري ألا تلاقي أية عقبة. ولكي نتصوّر الإنسان حراً، ينبغي لنا أن نتصوّره خارج المكان، وهو شيء مستحيل، بطبيعة الحال.

٢- عبثاً نحاول تقريب زمن الحكم من زمن الفعل، فلن نصل أبداً إلى مفهوم الحرية في الزمن. لأنني إذا تأملتُ فعلاً تمّ منذ هنيهة فلا أستطيع مع ذلك أن أعتبره حراً، لأنه مرتبط بالزمان الذي تمّ فيه. هل أستطيع أن أرفع ذراعي؟ إنني أرفعها؛ لكنني أتساءل أكنت أستطيع ألا أرفعها في تلك اللحظة التي انقضت الآن؟ ولكي أتأكد من ذلك فإني لا أرفعها في اللحظة التي تلي. لكنني لم أرفعها في اللحظة ذاتها التي طرحتُ فيها على نفسي ذلك السؤال عن حريتي. لقد مرّ الوقت ولم يكن بوسعي أن أستوقفه، والذراع التي رفعتها آنذاك والهواء الذي قمتُ فيه بتلك الحركة ليسا الهواء الذي يحيط بي الآن ولا الذراع التي لا أرفعها في هذه اللحظة. إن اللحظة التي تمّتْ فيها الحركةُ الأولى لا يمكن أن تعود، وفي تلك اللحظة لم يكن بوسعي أن أقوم إلا بحركة واحدة، ومهما تكن تلك الحركة التي قمت بها، فإنها لا يمكن أن تكون سوى حركة وحيدة. وكوني لم أرفع ذراعي في الدقيقة التي تلي لا يدّل على أني لم أكن أستطيع أن أرفعها. وبما أنني لم أكن أستطيع أن أقوم إلا

بحركة واحدة في لحظة معينة، فإن هذه الحركة لم يكن يمكن أن تكون حركة أخرى. ولكي نتصور، هذه الحركة حرة، يجب أن نتصورها على حدود الماضي والمستقبل، أي خارج الزمن، وهو شيء مستحيل.

٣- ومهما تزدْ صعوبةُ فهم السبب. فلن نصلِ إلى تصور الحرية المطلقة، أي إلى انعدام السبب. ومهما يكن عصياً على الفهم سببُ التعبير عن الإرادة في أيّ من أفعالنا أو أفعال الآخرين، فإن أول متطلبات فكرنا هو أن يفترض له سبباً وأن يبحث عن هذا السبب الذي لا يُعقل أيُّ حدث بدونه. إني أرفع ذراعي لأقوم بفعل مستقل عن أي سبب، لكن كوني أردتُ أن أقوم بفعل دون سبب إنما هو سببٌ لفعلي.

لكن حتى لو تصورنا إنساناً منعتقاً انعتاقاً مطلقاً من جميع التأثيرات، وتأملنا فعله الآني في الحاضر، مفترضين أنْ ليس من سبب ابتعث ذلك الفعل، ومسلّمين بوجود بقية متناهية الصغر من الضرورة تساوي الصفر، فلن نصل، حتى في هذه الحالة، إلى مفهوم حرية الإنسان المطلقة؛ لأن الكائن الذي لا تنفذ إليه تأثيرات العالم الخارجي، الموجودَ خارج الزمن، المستقلّ عن الأسباب، ليس إنساناً في شيء.

وكذلك، فنحن لا نستطيع أبداً أن نتصوّر فعلاً إنسانياً يتمّ دون تدخل الحرية، ويخضع للضرورة وحدها.

١- مهما تتسع معرفتنا لشروط المكان الذي يوجد فيه الإنسان، فهذه المعرفة لا يمكن أن تكون كاملة أبداً، لأن عدد هذه الشروط لا نهاية له، كما أن المكان لا نهاية له. ولذلك، فما دامت لم تُحدّد جميعُ الشروط، وجميعُ التأثيرات التي تصيب الإنسان، فلن يكون هناك ضرورة مطلقة، ويظل هناك مقدارٌ ما من الحرية.

٢- وعبثاً نمدّ الفترة الزمنية التي تفصل الظاهرة التي نفحصها عن

الحكم الذي نطلقه عليها، فستكون هذه الفترة محدودة ويظل الزمن غير محدود، وإذن فلا يمكن أن يكون هناك بهذا الاعتبار ضرورة مطلقة.

٣- مهما يكن مفهوماً تسلسلُ الأسباب في أي فعل، فلن نعرف أبداً هذا التسلسل بحذافيره لأنه لا نهاية له، ومرة أخرى لن نبلغ أبداً الضرورة المطلقة.

وحتى لو سلمنا، فضلاً عن ذلك، ببقية من الحرية مساوية للصفر، فتبيّنا، في أية حالة من الحالات، كحالة المشرف على الموت مثلاً، أو الجنين، أو الأبله، انعدامَ الحرية الكاملَ، فإننا ندمّر بذلك مفهوم الإنسان الذي ننظر إليه؛ فمنذ اللحظة التي تنعدم فيها الحرية، ينعدم فيها الإنسانُ أيضاً. ولذلك فإن تصور الفعل الإنساني خاضعاً لقانون الضرورة وحده، دون أية بقية باقية من الحرية، مستحيلٌ كتصور ذلك الفعل حراً بشكل مطلق.

وهكذا فلكي نتصور فعلاً إنساناً خاضعاً لقانون الضرورة وحده، خالياً من الحرية، ينبغي لنا أن نسلم بأننا نعرف عدد الشروط اللامتناهي في المكان، وفترة الزمن اللامتناهية، وسلسلة الأسباب اللامتناهية.

ولكي نتصور الإنسان حراً بشكل مطلق، غير خاضع لقانون الضرورة، ينبغي لنا أن نتصوره وحيداً، خارج المكان، خارج الزمان، وخارجاً عن التبعية للأسباب.

وفي الحالة الأولى، إذا كانت الضرورة ممكنة بدون الحرية، فسوف نصل إلى تعريف لقانون الضرورة بالضرورة ذاتها، أي إلى شكل دون محتوى.

وفي الحالة الثانية، إذا كانت الحرية ممكنة بدون الضرورة، فسوف

نصل إلى حرية غير مشروطة، خارج المكان، والزمان والأسباب، حرية تغدو لا شيء، لكونها غير مشروطة ولا محدودة بشيء، أو تغدو محتوى بدون شكل.

ونحن نصل على وجه العموم إلى هذين المبدأين اللذين يشكلان كل التصوّر الإنساني للعالم: جوهر الحياة الخفيّ والقوانين التي تحدّد هذا الجوهر.

يقول العقل: ١- إن المكان بكل الأشكال التي يمنحه إياها ظاهره -المادة- لا متناهٍ وغيرُ معقول على نحو آخر. ٢- إن الزمان حركة لا متناهية دون أيةِ لحظة توقف وهو غير معقول على نحو آخر. ٣- إن ترابط الأسباب والنتائج لا بداية له ولا يمكن أن يكون له نهاية.

ويقول الشعور: ١- أنا وحدي موجود وكل ما هو موجود إنما هو أنا؛ وإذن فأنا أحتوي على المكان. ٢- إنني أقيس الزمن الذي يهرب بلحظة ثابتة من الحاضر الذي أشعر أنني أعيش فيه؛ وإذن فأنا خارج الزمن. ٣- وأنا خارج كل سبب لأنني أحس أنني سبب لكل تجليات حياتي.

العقل يعبّر عن قوانين الضرورة. والشعور يعبّر عن جوهر الحرية.

الحرية التي لا يحدّها شيء، هي جوهر الحياة في شعور الإنسان. والضرورة التي لا محتوى لها، هي العقل الإنساني بأشكاله الثلاثة.

الحرية هي ما نفحصه، والضرورة هي ما يُفحص. الحرية هي المحتوى، والضرورة هي الشكل.

وعندما نفصل بين هٰذين المصدرين للمعرفة، ونسبة أحدهما إلى الآخر كنسبة المُحتوى إلى المحتوي، عند ذاك فقط نتوصل إلى مفاهيم

منفصلة حول الحرية والضرورة، مفاهيم ينفي بعضها بعضاً ثم إنها غير مفهومة.

وإنما نتوصل إلى تصور لحياة الإنسان عندما نجمع بين هذين المصدرين.

وكل تصور للحياة، خارج هذين المفهومين اللذين يحدد أحدهما الآخر في اتحادهما، -كالمُحتوي والمحتوى- غيرُ ممكن.

إن كل ما نعرفه عن حياة الناس ليس سوى علاقة بين الحرية والضرورة، أي بين الشعور وقوانين العقل.

وكل ما نعلمه عن عالم الطبيعة الخارجي ليس سوى علاقة بين قوى الطبيعة والضرورة، أو بين جوهر الحياة وقوانين العقل.

وقوى الطبيعة الحيويةُ خارجة عنا وعن شعورنا، ونحن نسميّها جاذبية، وعطالة، وكهرباء، وقوى حيوانية، الخ... لكننا نشعر بقوة الإنسان الحيوية ونسميها الحرية.

لكن كما أن قوة الجاذبية، وهي غير مفهومة في ذاتها، عندما يحس بها الإنسان، لا تُفهم إلا بمقدار ما نعرف قوانين الضرورة التي تخضع لها (بدءاً من أول فكرة عن جاذبية الأجسام حتى قانون نيوتن)، فكذلك بالضبط قوةُ الحرية التي يحس بها كل أحد، لا نفهمها إلا بمقدار ما نعرف قوانين الضرورة التي تخضع لها (بدءاً من أن كل انسان يموت حتى أشد القوانين الاقتصادية أو التاريخية تعقيداً).

كل معرفة فهي تكييف جوهر الحياة لقوانين العقل.

تتميز حرية الإنسان من جميع القوى الأخرى بأن الإنسان يشعر

بهذه القوة؛ لكنها غير متميزة عن تلك القوى في شيء بالنسبة إلى العقل. إن قوى الجاذبية والكهرباء والألفة الكيماوية لا تتميز الواحدة منها عن غيرها إلا بأن العقل قد عرّفها تعريفات مختلفة. وكذلك قوة الحرية الإنسانية لا تتميز، بالنسبة إلى العقل، عن قوى الطبيعة الأخرى إلا بالتعريف الذي يعرّفها به العقل. إن الحرية بدون الضرورة، أي بدون قوانين العقل التي عرّفتها، لا تتميّز في شيء عن الجاذبية أو الحرارة أو عن قوة الإنبات؛ وهي ليست، بالنسبة إلى العقل، سوى إحساس آني بالحياة، إحساس لا سبيل إلى تحديده.

وكما أن الجوهر الذي لا سبيل إلى تحديده، جوهر القوة التي تحرك الأجـرام السماوية، وجوهر قوة الحـرارة، والكهرباء أو قوة الألفة الكيماوية، يشكّل محتوى علم الفلك، والفيزياء، والكيمياء، وعلم النبات وعلم الحيوان الخ.، فكذلك جوهر قوة الحرية يشكل محتوى التاريخ. وكما أن موضوع كل علم هو إظهار جوهر الحياة المجهول، في حين أن هذا الجوهر ذاته لا يمكن أن يكون موضوعاً إلا لما وراء الطبيعة، فكذلك إظهار قوة الحرية الإنسانية في المكان، وفي الزمان وفي تبعيتها للأسباب يشكل موضوع التاريخ؛ في حين أن الحرية ذاتها موضوع ما وراء الطبيعة.

نحن نسمي ما نعرفه، في العلوم التجريبية: قوانين الطبيعة؛ أما ما لا نعرفه فنسميّه: القوة الحيوية. والقوة الحيوية ما هي إلا التعبير عن البقية المجهولة مما نعرفه عن جوهر الحياة.

وكذلك فنحن نسمّي، في التاريخ، ما نعرفه: قوانين الضرورة؛ أما ما لا نعرفه فنسميّه الحريّة. والحرية، بالنسبة إلى التاريخ، ما هي إلا التعبير عن البقية المجهولة مما نعرفه عن قوانين الحياة الإنسانية.

***

الفصل الحادي عشر

إن التاريخ يدرس تجلّيات الحرية الإنسانية بالنسبة إلى العالم الخارجي، في الزمان وفي تبعيتها للأسباب، أي أن التاريخ يحدّد الحرية تبعاً لقوانين العقل؛ ولذلك فالتاريخ ليس علماً إلا بمقدار ما تُحدَّد الحرية بهذه القوانين.

إن الاعتراف بالحرية الإنسانية من حيث هي قوة يمكن أن تؤثّر في الأحداث التاريخية، أي غير خاضعة للقوانين، يعادل، بالنسبة إلى التاريخ، الاعتراف بالقوة الحرة لحركة الأجرام السماوية، بالنسبة إلى علم الفلك.

فهذا الاعتراف ينفي إمكان وجود القوانين، أي وجود المعرفة. ولو وُجد جرمٌ واحد يتحرك بحرية، لبطل وجود قوانين كبلر ونيوتن[1] وكذلك كل تصور لحركة الأجرام السماوية. ولو وُجد فعلٌ حرّ واحد من الإنسان، لما بقي أي قانون تاريخي وأي تصور للأحداث التاريخية.

هناك، بالنسبة إلى التاريخ، خطوطٌ لحركة الإرادات الإنسانية يغيبُ طرف منها في المجهول، بينما يتحرك عند الطرف الآخر شعور الناس بالحرية في الحاضر، يتحرّك في المكان وفي الزمان وفي التبعية للأسباب.

١- كبلر: (١٥٧١-١٦٣٠) عالم فلكي ألماني توصل إلى «قوانين كبلر" التي استخرج منها العالم الفلكي الإنكليزي نيوتن (١٦٢٤-١٧٢٧) قانون الجاذبية الشامل.

وكلما اتسع ميدان هذه الحركة أمام عيوننا تزايد وضوح قوانين هذه الحركة. إن إدراك هذه القوانين وتحديدها هي مهمة التاريخ.

إن تعريف هذه القوانين، من وجهة النظر التي ينظر منها العلمُ اليوم ليتأمل موضوعه، وفي الطريق التي يسلكها باحثاً عن أسباب الظواهر في حرية اختيار البشر، لشيءٌ مستحيل بالنسبة إلى العلم، لأن وجود القانون مستحيل ما دمنا نعتبر الحرية قوة لا تخضع للقوانين، مهما تكن القيود التي نقيّد بها تلك الحرية.

ولن نقنع بالاستحالة المطلقة للنفاذ إلى الأسباب إلا إذا حددنا هذه الحرية إلى ما لا نهاية، أي إلا إذا اعتبرناها كمية متناهية الصغر، وحينئذ ستكون مهمة التاريخ تحري القوانين بدلاً من البحث عن الأسباب. لقد بدأ تحري هذه القوانين منذ زمن بعيد، وأخذت مناهج التفكير التي ينبغي للتاريخ أن يتمثّلها تنضج مع التدمير الذاتي الذي يسير نحوه التاريخ القديم حين أمعن في تجزئة أسباب الحوادث.

هذه الطريق قد سلكتها جميعُ العلوم الإنسانية. إن الرياضيات، وهي أدق العلوم، بعد أن وصلت إلى اللامتناهي في صغره، أخذت تهجر طريقة التجزئة إلى الطريقة الجديدة، طريقة جمع المجاهيل اللامتناهية الصغر. والرياضيات، عندما تتخلى عن مفهوم السبب فإنما تبحث عن القانون، أي عن العناصر المشتركة بين جميع العناصر المجهولة اللامتناهية الصغر.

وقد سلكت العلومُ الأخرى الطريق نفسها، بشكل آخر، لكن بمنهج التفكير ذاته. فعندما صاغ نيوتن قانون الجاذبية، لم يقل إن الشمس أو الأرض يملكان خاصيّة الجذب؛ لكنه قال إن جميع الأجرام، من أكبرها إلى أصغرها، تملك خاصيّة التجاذب، أي أنه ترك جانباً مسألةَ

سبب حركة الأجسام وصاغ الخاصية المشتركة بين جميع الأجسام، من اللامتناهية الكبر إلى اللامتناهية الصغر. وهذا هو ما تفعله العلوم الطبيعية أيضاً: إنها تترك السبب جانباً وتبحث عن القوانين. ويسير التاريخُ في الطريق نفسها. وإذا كان موضوعه دراسة حركة الشعوب والإنسانية، لا وصف فصول من حياة بعض الناس، فينبغي له أن يُنحّي مفهومَ الأسباب ليبحث عن القوانين المشتركة بين جميع عناصر الحرية المتناهية الصغر، المتساوية، والمترابطة فيما بينها ترابطاً لا فكاك منه.

***

الفصل الثاني عشر

منذ أن اكتُشف نظامُ كوبرنيك وبرهن عليه، فإن مجرد الاعتراف بأن الأرض هي التي تدور لا الشمس قد دمّر كل وصف القدماء للكون. وكان من الممكن الاحتفاظ بالتصور القديم لحركة الأجرام، بعد دحض هذا النظام، أما الاستمرار في دراسة عوالم بطليموس بدون دحضه، فكان غير ممكن، على ما يبدو، ومع ذلك، فقد ظلت عوالم بطليموس تُدرس زمناً طويلاً، حتى بعد اكتشاف كوبرنيك[1].

ومنذ أن قيل -وبُرهن على ما قيل-: إن عدد الجرائم والولادات يخضع لقوانين رياضية، وإن شروطاً جغرافية وسياسية واقتصادية معيّنة تحدد هذا الشكل أو ذاك من أشكال الحكومة، وإن علاقات محدّدة بين السكان والأرض تُحدث حركات الشعوب، منذ ذلك الحين انهارت في جوهرها الأسسُ التي كان يقوم عليها التاريخ.

كان ممكناً الاحتفاظ بالمفهوم القديم للتاريخ، بعد دحض القوانين الجديدة، أما الاستمرار في دراسة الأحداث التاريخية على أنها نتيجة لحرية اختيار البشر، بدون دحض تلك القوانين، فكان غير ممكن، على

١- كوبرنيك وبطليموس: برهن الفلكي البولوني كوبرنيك (١٤٧٣-١٥٤٣) على حركة الكواكب حول الشمس، بعكس بطليموس الفلكي اليوناني المصري في القرن الرابع الذي كان يضع الأرض في مركز مجموعة الكواكب السيارة.

ما يبدو. ذلك أنه إذا قام شكل ما من أشكال الحكومة أو حدثت حركة ما من حركات الشعوب، تبعاً لشروط جغرافية وعرقية واقتصادية ما فلا يمكن بعد الآن اعتبار إرادة البشر التي تبدو لنا كأنها هي التي أقامت شكل الحكومة ذاك أو أثارت حركة الشعوب تلك، لا يمكن بعد الآن اعتبارها سبباً.

ومع ذلك فالتاريخ القديم مايزال يُدرس بموازاة علوم الإحصاء والجغرافيا والاقتصاد السياسي وفقه اللغة المقارن والجيولوجيا، وهي علوم تناقض مسلّماته مناقضة صريحة.

كان الصراع، بصدد فلسفة الطبيعة، طويلاً وضارياً بين المفهوم القديم والمفهوم الجديد - وكان اللاهوت يُحامي عن المفهوم القديم ويتهم المفهوم الجديد بتدمير الوحي. لكن عندما انتصرت الحقيقة عاد اللاهوت فرسّخ قدمه أيضاً في الموقع الجديد.

كذلك فالصراع، في أيامنا، طويل وضارٍ بين المفهوم القديم للتاريخ ومفهومه الجديد، وكذلك فاللاهوت يحامي عن طريقة النظر القديمة ويتّهم الجديدة بأنها تدمّر الوحي.

وفي كلتا الحالتين، يثير الصراع من الجانبين الأهواء ويخنق الحقيقة. فمن جهة يظهر الخوف والأسف على البناء الذي شُيِّد خلال قرون؛ ومن جهة أخرى يظهر الكلف بالتدمير.

والذين حاربوا الحقيقة الناشئة في فلسفة الطبيعة كانوا يعتقدون أنهم لو سلّموا بهذه الحقيقة لانهار الايمان بالله، وبخلق العالم، وبمعجزة يوشع بن نون[1]. أما المدافعون عن قوانين كوبرنيك ونيوتن، مثل فولتير

١- يوشع: تروي التوراة أن يوشع أمر الشمس بالوقوف ليستكمل نصره.

مثلاً، فكانوا يعتقدون بأن قوانين علم الفلك تدمّر الدين؛ وكان فولتير يستخدم قوانين الجاذبية سلاحاً ضد الدين.

والأمرُ كذلك اليوم، إذ يبدو أنه يكفي الاعتراف بقانون الضرورة لينهار مفهوم النفس، والخير والشر، وكل مؤسسات الدولة والكنيسة التي بُنيتْ على هذا المفهوم.

وكما فعل فولتير في زمانه، فكذلك بالضبط يستخدم اليومَ المدافعون عن قانون الضرورة هذا القانون سلاحاً ضد الدين؛ في حين أن قانون الضرورة في التاريخ، شأنه بالضبط شأن قانون كوبرنيك في علم الفلك، لا يدمّر مؤسسات الدولة والكنيسة، بل يدعّم الأرض التي بُنيت عليها هذه المؤسسات.

إن الفرق كله بين المفهومين، كما كانت في علم الفلك آنذاك، وكما هي بالنسبة إلى مشكلة التاريخ اليوم، يرتكز على الاعتراف أو عدم الاعتراف بوحدة مطلقة تصلح كمقياس عام في جميع الظواهر المرئية. كانت هذه الوحدة، في علم الفلك، ثبات الأرض؛ وهي في التاريخ استقلالُ الشخصية، هي الحرية.

وكما أن صعوبة التسليم بحركة الأرض، في علم الفلك، كانت تأتي من ضرورة التخلي عن الإحساس المباشر بثبات الأرض وعن الإحساس بحركة الكواكب السيّارة، فكذلك في التاريخ، تأتي صعوبةُ التسليم بخضوع الشخص لقوانين المكان والزمان والأسباب من ضرورة التخلي عن الإحساس المباشر باستقلال الشخصية. وكما أن المفهوم الجديد في علم الفلك كان يقول: «صحيح أننا لا نحسّ بحركة الأرض لكننا لو سلمنا بثباتها لوصلنا إلى منافاة العقل؛ بينما لو سلّمنا بحركتها التي لا نحسّ بها لتوصلنا إلى القوانين»؛ كذلك يقول المفهوم

الجديد في التاريخ: «صحيح أننا لا نحسّ بتبعيتنا، لكننا لو سلّمنا بحريتنا لوصلنا إلى منافاة العقل؛ بينما لو سلّمنا بتبعيتنا للعالم الخارجي وللزمن وللأسباب لتوصلنا إلى القوانين».

في الحالة الأولى، كان ينبغي أن نتخلى عن الإحساس بالثبات في المكان والتسليم بحركة لا نحسّ بها، وفي الحالة الراهنة، من الضروري أيضاً أن نتخلى عن الحرية التي نشعر بها وأن نعترف بتبعية لا نشعر بها.

***

خلاصة الفصول

الكتاب الرابع

الجزء الأول

الفصل الأول: بطرسبرج، صراع الأفرقة السياسية في دوائر المجتمع العليا. سهرة في منزل آنا بافلوفناشيرير، في ٢٦ آب، يوم معركة بورودينو. مرض هيلين، الأمير فاسيلي يتلو رسالة رئيس الأساقفة أفلاطون إلى الكسندر الأول....

الفصل الثاني: تقرير كوتوزوف عن معركة بورودينو يصل إلى بطرسبرج ويُؤوّل على أنه بشرى بالانتصار. الفرحة في المدينة. انعدام الأخبار الأخرى. الاستياء من كوتوزوف في أوساط البلاط. موت هيلين بيزوخوف المفاجئ، الناس يُعْلمون بالتخلّي عن موسكو، تقرير روستوبتشين عن التخلّي عن موسكو. أمرٌ عال من الكسندر الأول لكوتوزوف يُعرب له فيها عن استيائه...

الفصل الثالث: وصول العقيد ميشو إلى بطرسبرج مبعوثاً من قبل كوتوزوف ليحمل النبأ الرسمي، نبأ التخلي عن موسكو. حديث بين الكسندر الأول وميشو، وتصريحات الإمبراطور المصمم على قتال نابليون حتى النهاية...

الفصل الرابع: تأملات المؤلف في الفترات الحرجة من حياة بلدٍ ما؛

معظم الناس لا يعيرون مجرى الأحداث العام أي اهتمام لكنهم يحيون حياتهم الخاصة ولا ينقادون إلا لمصالحهم الشخصية الآنية. الحالة النفسية المناسبة لنيقولا روستوف الذي أرسل بمهمة إلى فورونيج نيقولا يشتري خيلاً لفوجه. سهرة في بيت الحاكم. نجاح روستوف في مجتمع المقاطعة....

الفصل الخامس: نيقولا يغازل الشقراء زوجة الموظف. يُقدَّم إلى السيدة مالفنتزيم، عمة الأميرة ماريا بولكونسكي. حديث بين نيقولا وزوجة الحاكم بصدد الأميرة ماريا، تقترح فيه زوجة الحاكم تدبير الزواج. موافقة نيقولا...

الفصل السادس: الأميرة ماريا تقيم مع ابن أخيها في منزل خالتها، في فورونيج حالة الأميرة ماريا النفسية. التقاؤها روستوف. اهتمامهما أحدهما بالآخر وبدء التقارب بينهما.

الفصل السابع: الأميرة ماريا ونيقولا بعد نبأ معركة بورودينو والتخلي عن موسكو وجرح الأمير آندريه. نيقولا يلتقي الأميرة ماريا أثناء القداس في الكنيسة. خواطر نيقولا بصدد الأميرة ماريا وصونيا. عذاباته الداخلية عند تذكّره العهد الذي قطعه لصونيا. إنه يسأل الله أن يمكّنه من فسخ الخطبة مع صونيا. يتلقّى على حين غرّة رسالتين من عائلته: رسالة من صونيا تحلّه من عهده، ورسالة من أمه تخبره فيها عن حريق موسكو وضياع أرزاقهم كما تخبره فيها عن صحة الأمير آندريه الذي يسافر معهم.

الفصل الثامن: الظروف التي حملت صونيا على كتابة رسالتها إلى نيقولا. الكونتيسة العجوز تطلب إلى صونيا وهي تبكي أن تقطع علاقتها بنيقولا. حياة صونيا لدى آل روستوف، شعور صونيا بالفرح:

إذا تزوجت ناتاشا الأمير آندريه فإن نيقولا لا يستطيع أن يتزوج الأميرة ماريا، صونيا ترى تحقّق نبوءة عيد الميلاد بشأن آندريه. رسالة صونيا...

الفصل التاسع: أيام بطرس الأولى في الأسر. استجوابه في اللجنة وضعه مع ثلاثة عشر متهماً آخر في مستودع كريمسكي برود، بانتظار قرار المارشال.

الفصل العاشر: بطرس يُساق هو والسجناء الآخرون إلى حقل العذارى مشهد حريق موسكو. بطرس يحس كأنه حبة رمل واقعة في أجهزة إحدى الآلات. استجواب بطرس على يد المارشال دافو. بطرس يُتّهم بأنه جاسوس. صلات إنسانية تنشأ لمدة لحظة بين بطرس ودافو. بطرس في شك من نتيجة استجواب دافو...

الفصل الحادي عشر: السجناء يُساقون إلى مكان التعذيب. مشهد الإعدام. ردود أفعال بطرس. لم يفهم على الفور أنه نجا من الموت...

الفصل الثاني عشر: بطرس يُقيم في خص أسرى الحرب. حالته النفسية بعد تنفيذ الإعدام. يلتقي أفلاطون كاراتايف. انطباعه الأول وحديثهما قصة كاراتايف...

الفصل الثالث عشر: شخصية أفلاطون كاراتايف...

الفصل الرابع عشر: سفر الأميرة ماريا إلى اياروسلافل، إلى قرب الأمير آندريه. حبها لنيقولا روستوف ويقينها بأنها سيبادلها حباً بحب. حزنها بصدد أخيها. وصولها إلى إياروسلافل واستقبال آل روستوف. تلتقي ناتاشا. تقارب فوري بينها وبين ناتاشا أثناء حديثهما عن الأمير آندريه...

الفصل الخامس عشر: لقاء الأميرة ماريا لأخيها. الأثر المؤلم الذي

تركه هذا اللقاء. الإحساس العام هو أن الأمير آندريه يولّي. لقاء نيقولا الصغير لأبيه وحالته النفسية بعد هذا اللقاء....

الفصل السادس عشر: الأمير آندريه يحس أنه يموت. شعوره بالابتعاد عن الحياة. حبه لناتاشا. حلم الأمير آندريه. تفاقم سوء حالته الصحية. الموت.

الجزء الثاني

الفصل الأول: تأملات المؤلف في أسباب الأحداث التاريخية. لمحة موجزة عن عمليات الجيش الروسي منذ التخلي عن موسكو حتى تاروتينو...

الفصل الثاني: مسيرة جناح الجيش الروسي الشهيرة. تأملات المؤلف بصدد هذه المسيرة ودور كوتوزوف. رسالة نابليون إلى كوتوزوف وإرسال لوريستون. جواب كوتوزوف. تغيّر نسبة القوى بين الجيشين الروسي والفرنسي....

الفصل الثالث: محاولات قيادة الجيش الروسي من بطرسبرج: خطة الحرب العامة، إرسال شخصيات جديدة، التنقلات في الأركان. التحرك المعقد الذي تمارسه مختلف الفئات في أركان الجيش العامة. رسالة الكسندر الأول إلى كوتوزوف تطلب إليه الهجوم.

الفصل الرابع: مذكرة بينيغسن حول ضرورة الهجوم. ترتيب معركة تاروتينو وتنفيذها. حفلة راقصة في منزل الجنرال كيكين يحضرها كبار جنرالات الجيش....

الفصل الخامس: كوتوزوف يذهب إلى ليتاشوفكا. إلى المكان المقرر

للمعركة ويلتقي الأرتال التي كان ينبغي أن تكون كامنة للعدو. غضب كوتوزوف أمام التحرك الفاشل....

الفصل السادس: تقدم القطعات الروسية في اليوم التالي. حركة الأرتال. مفرزة اورلوف دينيسوف وهجومه الناجح. فرصة أسر مورا تفوتهم. الفوضى في حركة أرتال المشاة التي وصلت إلى غير المكان المطلوب. مشادة بين تول وباغوفو...

الفصل السابع: حركة الأرتال بقيادة كوتوزوف. موقف القائد العام من الهجوم. المكافآت الممنوحة لمعركة تاروتينو. تأملات المؤلّف في نتائج هذه المعركة....

الفصل الثامن: تحليل نشاط نابليون منذ دخوله موسكو...

الفصل التاسع: التدابير التي اتخذها نابليون لإعادة النظام إلى الجيش وفي موسكو. إعلانه الموجه إلى أهالي موسكو.

الفصل العاشر: عقم تدابير نابليون: الخطة لمتابعة المعركة. المساعي الدبلوماسية، التدابير الإدارية، تنظيم التجارة، والمسارح، الخ.. تراخي الانضباط في الجيش الفرنسي. تقارير الرؤساء عن النهب والسلب. تفكك الجيش الفرنسي وانحلاله أثناء إقامته في موسكو. هربه من موسكو مع الأسلاب، بعد معركة تاروتينو....

الفصل الحادي عشر: بطرس في الأسر. استعدادات الفرنسيين والرحيل عن موسكو. حديث ودي بين عريف فرنسي وبطرس. كاراتايف يصنع قميصاً لجندي فرنسي....

الفصل الثاني عشر: وصف التغيّر الداخلي الذي طرأ على بطرس. أثناء أسره. إخلاده إلى السكينة ووفاقه مع نفسه بتأثير هول الموت،

وضروب الحرمان، والاحتكاك بكاراتايف، آراء الفرنسيين والسجناء ببطرس...

الفصل الثالث عشر: رحيل الفرنسيين عن موسكو. بطرس يحس مرة أخرى بتأثير القوة الخفيّة. قافلة السجناء. مشهد موسكو بعد الحريق....

الفصل الرابع عشر: قافلة السجناء تسير في شوارع موسكو. حركة الجند الفرنسيين المرتحلين. تدافع وفوضى واختلاط. المرحلة الأولى. أفكار بطرس...

الفصل الخامس عشر: نابليون يرسل مبعوثاً مفاوضاً آخر ليعرض الصلح على كوتوزوف. إرسال مفرزة دوكتوروف إلى فومنسكوي لمواجهة فرقة بروسييه. دوكتوروف يصطدم بمجموع الجيش الفرنسي الذاهب من موسكو، ويرسل تقريراً إلى القائد العام....

الفصل السادس عشر: وصول الضابط الذي أرسله دوكتوروف إلى مقر القيادة العامة. حديث بين بولوفيتينوف تشربينين وكونوفنتزين. شخصية كونوفنتزين....

الفصل السابع عشر: كوتوزوف في الليل أثناء سهاده. تفكّره في معرفة ما إذا كان الجرح الذي لحق بالفرنسيين في بورودينو قاتلاً أم لا. وصول تول وكونوفنترين وبولخوفيتنوف. انفعال كوتوزوف ودموعه عند علمه برحيل الجيش الفرنسي عن موسكو، وهو رحيل كان يعني منعطفاً حاسماً في الحرب....

الفصل الثامن عشر: نشاط كوتوزوف الرامي إلى منع الهجمات العقيمة على عدو استنفد قوته. أسباب تفكك جيش نابليون. نابليون

يوشك أن يقع في أيدي القوزاق قرب مالو إياروسلافتز. نابليون يأمر بالانسحاب عن طريق سمولنسك...

الفصل التاسع عشر: هرب الجيش الفرنسي بدون نظام نحو سمولنسك بالطريق التي خرّبها. تفكك الجيش الفرنسي يستمر. رغبة القادة العسكريين الروس بسد الطريق على الفرنسيين المنهزمين. كوتوزوف وخطته: عدم عرقلة فرار الجيش الفرنسي، فراره المشؤوم.

الجزء الثالث

الفصل الأول: تأملات المؤلف في الطابع الشعبي لحرب ١٨١٢...

الفصل الثاني: حرب الأنصار باعتبارها شكلاً من أشكال الحرب الشعبية. تأملات في قوة الجيش...

الفصل الثالث: حرب الأنصار في سنة ١٨١٢. مفارز دينيسوف ودولوخوف تستعد للهجوم على قافلة فرنسية كبيرة من تجهيزات الخيّالة والأسرى الروس...

الفصل الرابع: دينيسوف مع أنصاره. وصول بيتيا روستوف مبعوثاً من جنرال ألماني يقترح على دينيسوف أن ينضم إليه لمهاجمة القافلة الفرنسية. اللقاء البهيج بين بيتيا ودينيسوف. بيتيا يظل في المفرزة...

الفصل الخامس: دينيسوف وبيتيا ونقيب القوزاق يذهبون لاستطلاع الموقع الفزنسي، ولقاء دولوخوف. الكشاف تيخون تشير باتيل. الفرنسيون يطلقون النار عليه. شخصه.

الفصل السادس: محادثة بين دينيسوف وتيخون حول «اللسان». تيخون يحدّثه عن أسر الفرنسي...

الفصل السابع: بيتيا روستوف الضابط. إرساله إلى مفرزة دينيسوف عشاء في الكوخ، في قلب الغابة. حماسة بيتيا. اهتمامه بطبّال فرنسي أسير....

الفصل الثامن: وصول دولوخوف. حديث بين دينيسوف ودولوخوف حول الهجوم المنويّ والأسرى الفرنسيين. دولوخوف ينوي أن يذهب متنكراً إلى معسكر الفرنسيين بغية الاستطلاع. بيتيا يتبرع بمرافقته على الرغم من معارضة دينيسوف...

الفصل التاسع: دولوخوف وبيتيا في المعسكر الفرنسي. حديث دولوخوف مع الضباط الفرنسيين. انفعال بيتيا. إنهما ينصرفان بدون حوادث....

الفصل العاشر: عودة بيتيا روستوف إلى مفرزة دينيسوف الانفعال يحول بينه وبين النوم فيبدأ حديثاً مع قوزاقي يشحذ له سيفه. إغفاء بيتيا على صوت حجر الشحذ الذي يتوهمه موسيقا شجية مهيبة. الفجر...

الفصل الحادي عشر: انطلاق مفرزة دينيسوف. الهجوم على القافلة الفرنسية. بيتيا ينسى كل شيء ويندفع إلى الأمام. صلية من جانب الفرنسيين. موت بيتيا. أسر القافلة وتحرير الأسرى الروس، ومنهم بطرس بيزوخوف...

الفصل الثاني عشر: بطرس في قافلة الأسرى أثناء مسيرة الفرنسيين من موسكو إلى سمولنسك. أفلاطون كاراتايف يُصاب بالحمّى مرة أخرى. معاناة بطرس بيزوخوف وحالته النفسية.

الفصل الثالث عشر: بطرس يتذكر قصة رواها كاراتايف في المرحلة السابقة، قصة تاجر بريء نُفي إلى سيبيريا، ومات فيها. ثم تنكشف براءته.

الفصل الرابع عشر: مرور مارشال فرنسي أمام قافلة الأسرى. أفلاطون كاراتايف يتأخّر فيقتله الفرنسيون...

الفصل الخامس عشر: توقف القافلة قرب شامشيفو. حلم بطرس مختلطاً بالأشياء الواقعية: أفكاره عن الحياة، الكرة الأرضية المكونة من قطرات حية، متحركة. كاراتايف. تحرر بطرس من الأسر..

الفصل السادس عشر: تأملات المؤلف في النتائج المشؤومة لهرب الجيش الفرنسي. تقرير بيرتييه لنابليون عن حالة الجيش...

الفصل السابع عشر: تحليل عمليات الجيشين الروسي والفرنسي أثناء المرحلة الأخيرة من الحرب. هرب الجيش الفرنسي....

الفصل الثامن عشر: مجادلة المؤلف للمؤرخين الذين يرون في هرب الفرنسيين الخالي من النظام والتعقّل خططاً ومناورات بارعة لنابليون ومارشالاته....

الفصل التاسع عشر: تأملات المؤلف في الهدف الذي توخاه الروس أثناء الفترة الأخيرة من حملة ١٨١٢....

الجزء الرابع

الفصل الأول: حالة ناتاشا والأميرة ماريا النفسية بعد موت الأمير

آندريه. عزلة ناتاشا وابتعادها عن العالم والحياة. أفكارها بصدد الأمير آندريه.

الفصل الثاني: نبأ موت بيتيا - ألم الكونتيسة. ناتاشا تُعزي أمها...

الفصل الثالث: ناتاشا تعود إليها الحياة وهي تُعنى بأمها. صداقتها الوثيقة مع الأميرة ماريا. سفرها إلى موسكو بصحبتها لاستشارة الأطباء....

الفصل الرابع: تحرك القطعات الروسية في آثار الفرنسيين. نشاط كوتوزوف الرامي إلى تسهيل حركة قواته وتيسير فرار الفرنسيين، لا إيقافهم. الرغبات المضادة للجنرالات الروس الآخرين. معركة كراسنوي. كوتوزوف يُتهم بأنه حال دون الانتصار على نابليون.

الفصل الخامس: تقويم نشاط كوتوزوف وأهمية كوتوزوف التاريخية من حيث هو قائد للحرب الشعبية.

الفصل السادس: كوتوزوف في كراسنوي. خطبته في الجند مع نتيجته غير المنتظرة....

الفصل السابع: عسكرة مفرزة من القناصة المناوشين، في العراء، قرب كراسنوي. الجنود يأتون بحاجز لحماية النار.

الفصل الثامن: مشاهد بين الجنود، وأحاديث حول النار في السرية الثامنة...

الفصل التاسع: حول النار في السرية الخامسة. ظهور رامبال ومرافقه. استقبال الجنود الروس الودي. موريل يغني أغنية عن هنري الرابع. ضحكات الجنود الفرحة....

الفصل العاشر: عبور البيريزينا. فشل الخطة الموضوعة في بطرسبرج. اشتداد مكائد البلاط والأركان ضد كوتوزوف. الاستياء منه في البلاط وبين قادة الجيش. كوتوزوف يصرف بينيغسن من الجيش. وصول الدوق الأكبر قسطنطين بافلوفتش إلى الجيش يبرهن لكوتوزوف على أن دوره قد انتهى...

الفصل الحادي عشر: كوتوزوف في فيلنا - استياء القيصر من المارشال. كوتوزوف ينال وسام صليب القديس جورج من الدرجة الأولى...

الفصل الثاني عشر: العشاء والحفلة الراقصة عند المارشال. استياء القيصر من كوتوزوف وعلامات حسن الالتفات الخارجية إزاءه. ليس كوتوزوف في مستوى القضايا الجديدة التي تطرحها الحرب الأوروبية. إبعاده شيئاً فشيئاً عن قيادة الجيش. موت كوتوزوف.

الفصل الثالث عشر: بطرس بيزوخوف بعد تحرره من الأسر. مرضه الطويل في اوريل نقاهته. شعور الفرح بالحرية. الايمان بالله يحل محل مشكلة معنى الحياة...

الفصل الرابع عشر: بطرس يحس في نفسه بتغير داخلي عظيم. طريقته الجديدة في النظر إلى الحياة والناس. علاقته بالأميرة، والخدم، والضابط الإيطالي الأسير، والماسوني ويلارسكي. بطرس يصمم على الذهاب إلى موسكو ليرتب أموره...

الفصل الخامس عشر: وصف انبعاث موسكو بعد رحيل العدو وحريقها...

الفصل السادس عشر: وصول بطرس إلى موسكو. زيارته للأميرة

ماريا. التقاؤه المفاجئ لناتاشا التي لم يعرفها أول الأمر. استيقاظ حبه لناتاشا....

الفصل السابع عشر: الأميرة ماريا وبطرس وناتاشا يتحدثون عن الأمير آندريه. ناتاشا تروي قصة لقائها للأميرة آندريه الجريح وردود فعلها أثناء مرضه وموته...

الفصل الثامن عشر: العشاء. بطرس يروي قصة أسره. ألفة متزايدة بين بطرس وناتاشا. حديث بين الأميرة ماريا وناتاشا حول بطرس.

الفصل التاسع عشر: حالة بطرس النفسية بعد التقائه ناتاشا. حبه لها وتصميمه على الزواج بها. إنه يؤخر سفره إلى بطرسبرج ويذهب كل يوم إلى منزل الأميرة ماريا. بطرس يبوح للأميرة ماريا بعواطفه نحو ناتاشا ويطلب إليها أن تساعده...

الفصل العشرون: جذل بطرس بعد تفاهمه مع الأميرة ماريا وناتاشا.

الفصل الواحد والعشرون: التبدل الذي طرأ على ناتاشا بعد التقائها بطرس. استيقاظ القوة الحيوية والأمل بالسعادة فيها. التفاهم بين ناتاشا والأميرة ماريا حول نوايا بطرس.

خاتمة

- الجزء الأول

الفصل الأول: تأملات المؤلف في القوة الفعّالة في التاريخ المرتبطة بدور الكسندر الأول ونابليون...

الفصل الثاني: تأملات في المصادفة والعبقرية....

الفصل الثالث: تأملات في أسباب حركة شعوب أوروبا من الغرب إلى الشرق ومن الشرق إلى الغرب. في دور نابليون الطارئ في هذه الحركات.

الفصل الرابع: في توقف حركة شعوب الغرب في الشرق. نهاية دور نابليون الطارئ. الكسندر الأول ودوره في حركة جماهير الشرق إلى الغرب. خواطر عن دور الفرد في خدمة الأهداف العامة...

الفصل الخامس: زواج بطرس بناتاشا. موت الكونت العجوز روستوف. إفلاس آل روستوف. نيقولا يتولى منصباً مدنياً بعد استقالته ويقوم بحاجات أمه وصونيا في كثير من الجهد...

الفصل السادس: وصول الأميرة ماريا إلى موسكو. زيارتها لآل روستوف. تلتقي نيقولا. موقفه المتحفظ. اغتمام الأميرة ماريا. نيقولا يرد الزيارة. التكاشف بين الأميرة ماريا ونيقولا....

الفصل السابع: زواج نيقولا والأميرة ماريا وحياتهما في ليسييه خوري. نشاط نيقولا.

الفصل الثامن: حياة نيقولا العائلية. تفاهمه مع الأميرة ماريا بصدد نزقه والعقاب الذي أنزله بالقيم. وضع صونيا في البيت. حكم ناتاشا على صونيا...

الفصل التاسع: سهرة العيد الشتوي للقديس نيقولا عام ١٨٢٠، في ليسييه خوري. نيقولا والأميرة ماريا. الأولاد. سعادة الأميرة ماريا.

الفصل العاشر: ناتاشا المتزوجة. حياتها مع زوجها في منزل أخيها في الريف. تبدلها جسداً وطباعاً. علاقاتها ببطرس.

الفصل الحادي عشر: ناتاشا في انتظار رجوع بطرس من بطرسبرج. وصول بطرس. انتعاش ناتاشا. بطرس وناتاشا في غرفة الأولاد...

الفصل الثاني عشر: الهموم العائلية في ليسييه خوري. الهدايا. الكونتيسة العجوز روستوف....

الفصل الثالث عشر: بطرس مع زوجته في غرفة الاستقبال. حديثه مع الكونتيسة العجوز عن أنباء بطرسبرج. بطرس بين الأولاد.

الفصل الرابع عشر: الشاب نيقولا بولكونسكي. دينيسوف. حديث عن حالة الرأي العام في بطرسبرج ووضع روسيا. السخط على الردة وعلى نظام آراكتشيف. أفكار بطرس عن المجتمع. رأي نيقولا روستوف؛ يعبّر عنه لبطرس بعنف. تأثر بولكونسكي الشاب الذي حضر النقاش...

الفصل الخامس عشر: نيقولا والأميرة ماريا. يوميات الأميرة ماريا فيما يتصل بـالأولاد. إعجاب نيقولا بزوجته. يتحدثان عن النقاش الذي جرى في المكتب وعن نيقولا روستوف الشاب.

الفصل السادس عشر: ناتاشا وبطرس. حديثهما بشأن الأولاد، وبشأن النقاش مع نيقولا، وبشأن أفلاطون كاراتايف. العلاقات بين بطرس وناتاشا. حلم الشاب بولكونسكي. أفكاره المتعلقة ببطرس وأبيه.

- الجزء الثاني

الفصل الأول: تأملات المؤلف في دراسة المؤلفين لحياة الإنسانية.

الفصل الثاني: في القوة التي تحرك الشعوب وتحكمها. جدل مع المؤرخين الذين يفهمون هذه القوة على أنها قدرة خاصة بالأبطال.

الفصل الثالث: تأملات في القوة التي تخلق الأحداث التاريخية. جدل مع المؤرخين الذين يكتبون تاريخ الأفراد...

الفصل الرابع: تأملات في طبيعة السلطة. السلطة كمجموع إرادات الجماهير. تناقضات المؤرخين في مسألة السلطة.

الفصل الخامس: تأملات المؤلف في أن «حياة الشعوب لا تتضمنها حياة الأفراد» وأن سلطة الشخصيات التاريخية لا يمكن أن تُعتبر سبباً للأحداث التاريخية...

الفصل السادس: تأملات في العلاقة بين الأوامر والأحداث وفي تبعية بعضها لبعض. الجيش من حيث هو تجمّع لرجال اتحدوا من أجل عمل مشترك، والعلاقة بين الرؤساء والمرؤوسين...

الفصل السابع: في الرابط بين الشخصيات التاريخية والجماهير وتلاقي الحدث المكتمل مع رغبة فرد أو عدة أفراد. تعريف السلطة والقوة التي تحدث حركة الشعوب...

الفصل الثامن: في حرية الاختيار. تبعية إرادة الإنسان، وطبعه، والبواعث التي تؤثر فيه.

الفصل التاسع: موضوع التاريخ. قضية الحرية والضرورة.

الفصل العاشر: الحرية والضرورة....

الفصل الحادي عشر: تعريف التاريخ للحرية من خلال قوانين العقل. نقد المؤلف لهذا التعزيف. غرض التاريخ هو البحث عن قوانين حركة الشعوب.

الفصل الثاني عشر: في الصراع بين مفهوم التاريخ القديم ومفهومه الجديد. قانون الضرورة في التاريخ. التسليم بالتبعية الضرورية، تبعية الشخصيات التاريخية للعالم الخارجي، وللزمن وللأسباب كأساس لإعداد قوانين التاريخ.

***



يخبرنا تولستوي أنَّ الحرب والسَلم ليس برواية، ولا هو بقصيدة، انما هو سجل أدبي حافل بالاثارة وقصص الحب ودورس التاريخ وعبره".

هذه الرواية التي كتبها تولستوي العام ١٨٦٩، والتي تعدُّ قمة تطوره الأدبي، ويصفها البعض بإنها رواية تأمل التأريخ، يقدم لنا تولستوي من خلالها كيف يتعارض حب الحياة مع الحروب ومأسيها، تولستوي يخبرنا أنه كتب الحرب والسَلم ليؤكد أنَّ: حادثـاً احـترب فيه ملايين البشر، وقتل فيه نصف مليون من الرجال، لا يمكن أن تكون إرادة فرد واحد هي سببه، أنَّ رجلاً وحده لا يستطيع ان يجبر ٥٠٠ ألف شخص على ان يموتوا.

لم يكن ليف تولستوي "١٨٢٨ - ١٩١٠"، كاتباً فقط، بل كان مفكراً وفيلسوفاً وثورياً. كتب الرواية والقصة والمسرحية وتعمق في دراسة الفلسفة ، وجعل لنفسه مذهباً فكرياً، حاول من خلاله أنْ يجدَ إجابات للسؤال الذي أرقه دائماً هو: "لماذا نعيش؟" وكانت كل أعماله هي محاولة للإجابة عن هذا السؤال .

وضمن مشروعها في طبع الأعمال الكاملة لتولستوي تصدر المدى الترجمة الكاملة والامينة لتحفة تولستوي الخالدة "الحرب والسلام" والتي قام بها المترجم القدير سامي الدروبي، لكن القدر لم يمهله لكي يكملها بعد ان انجز الجزأين الأول والثاني، ليكمل عمله المترجم القدير صياح الجهيم الذي يعد واحداً من أبرز المترجمين العرب، من الذين قدّموا تولستوي الى العربية بلغة صافية وانيقة وبترجمة تطابق النص الأصلي.



لوحة الغلاف للفنان Chris Collingwood